مركز الدراسات والبحوث العثمانية
والموريسكية والتوثيق والمعلومات



مطبوعات
مكتبة الملك فهد الوطنية
السلسلة الثانية
(١٨)

بداية الطباعة العربية
في استانبول وبلاد الشام

تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦ - ١٧٨٧م)

د. وحيد قدورة

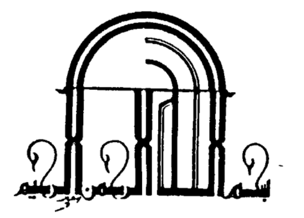
تقديم
د. عبدالجليل التميمي

الرياض - تونس
١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

اهداءات ١٩٩٩

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف

الشريف بالمدينة المنورة


بسم الله الرحمن الرحيم

مطبوعات
مكتبة الملك فهد الوطنية
السلسلة الثانية (١٨)

تهتم هذه السلسلة بنشر الدراسات والبحوث في
إطار علم المكتبات والمعلومات بشكل عام

يأتي نشر هذا الكتاب في إطار
اتفاقية النشر المشترك بين
مكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض
ومركز الدراسات والبحوث العثمانية
والموريسكية والتوثيق
والمعلومات في تونس

بداية الطباعة العربية
في استانبول وبلاد الشام

تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦- ١٧٨٧م)

د. وحيد قدورة

الأستاذ المساعد بالمعهد الأعلى للتوثيق

بجامعة تونس

تقديم

د. عبدالجليل التميمي

الأستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

بجامعة تونس

الرياض - تونس

١٤١٤ هـ/١٩٩٣م

ح مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٤هـ.

٠٢٥,٤ قدورة، وحيد
٢٤٥ ق بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام : تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦ - ١٧٨٧م) / وحيد قدورة؛ تقديم عبدالجليل التميمي .- الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية؛ زغوان، تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٤١ ص ؛ ٢٤ سم .- (السلسلة الثانية ؛ ١٨)

ردمك ٧ـ٨٠٠٠ـ٠٠ـ٩٩٦٠

١ . الطباعة - تركيا - تاريخ ٢. الطباعة - بلاد الشام - تاريخ
٢. أوائل المطبوعات العربية - ببليوجرافيات أ. العنوان
ب . السلسلة

رقم الإيداع : ١٤ ـ ٠٣٥٣
ردمك : ٧ـ٨٠٠٠ـ٠٠ـ٩٩٦٠

المملكة العربية السعودية الرياض : ١١٤٧٢ ص.ب : ٧٥٧٢ هاتف : ٤٦٢٤٨٨٨ ناسوخ : ٤٦٤٥٣٤١

قائمة المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الجزء الثاني : بداية الطباعة العربية بالمشرق

تقديم

ما من شك أن دور الطباعة مع بداية عصر النهضة الأوربية، يشكل أحد المنعرجات الحاسمة للتطور الحضاري والفكري للبشرية جمعاء . إذ بفضل الطباعة أمكن للإبداع المعرفي والفكري والحضاري أن تتعدد قنواته وأدواته لتصل كل المراكز والهيئات والأفراد الراغبين في اقتنائه ، بعد أن كان ذلك حكراً على فئة قليلة من المتعلمين بالأديرة والكنائس والجامعات بالنسبة للعالم اللاتيني ، والزوايا والمدارس والمساجد وقصور الأمراء بالنسبة للعالم الإسلامي.

وعلى الرغم من أن ساحة العالم العربي-الإسلامي عرفت سرعة سريان المعلومات عن طريق نسخ المخطوطات النادرة ، إلا أن تداولها يبقى هو الآخر محدوداً في الزمان والمكان، إذا أخذنا في الحسبان مدى ارتفاع نسبة المتعلمين والقارئين في العالم العربي الإسلامي الوسيط ؛ الذي يمثل أوج إشعاع المعرفة ، ثم مدى تلهف الرأي العام يومئذٍ على اقتناء الجديد فيها. إلا أنه استحال عليه ذلك، لندرتها وعدم تداولها بسرعة ويسر ، وهذا على الرغم من دور النساخ الذي يبقى هو الآخر ضئيلاً ومحدوداً ، امام ضخامة وأهمية وتنوع التراث الحضاري المكتوب لأمتنا عبر عصورها المختلفة .

وإذا اخذنا في الحسبان وجود حوالي ثلاثة ملايين عنوان مخطوط ، شملت مختلف الميادين الفكرية والحضارية ، فكيف السبيل إلى تعميم الاستفادة منها، اذا لم تتوافر يومئذٍ طريقة جديدة مثل الطباعة لتداول هذا الرصيد الحضاري وتعميم الفائدة منه . ولا شكّ أن الطباعة ، هذه المغامرة الثورية للإنسان ، استطاعت أن تمنح للفرد ، فضلاً عن المجموعات والهيئات، أحقية التمتع والتملك للإنتاج الفكري للإنسان من خلال الكتاب المطبوع .

وإذا كانت الدراسات العلمية الغربية قد درست بداية الطباعة الأوربية في العالم اللاتيني ، وظهرت - نتيجة لذلك - مئات الدراسات والبحوث الشيقة حول هذا الموضوع، فإنّ دراسة بداية الطباعة العربية على مستوى العالم العربي الإسلامي، لم تحظ بأية دراسة علمية مستفيضة حتى يومنا هذا، على الرغم من أهمية وحيوية هذا الموضوع الدقيق ومدى تفاعله المباشر مع حركة النهضة والإصلاح والتنظيمات .

وكم يسعدني اليوم أن أقدم في نطاق منشورات مركزنا بحث د. وحيد قدورة، الأستاذ المساعد بالمعهد الأعلى للتوثيق عن : **بداية الطباعة العربية بإستانبول وبلاد الشام ١٧٠٧ - ١٧٨٧م** ، في لغة الضاد، بعد أن ناقشه بجامعة باريس الأولى بوصفه رسالة دكتورا حلقة ثالثة .

ود. وحيد قدورة يُعدّ من الباحثين المختصين في مجال الدراسات المكتبية والإعلامية ، فالعديد من الدراسات والبحوث المكتبية التي توفق في نشرها حتى اليوم، في لغة الضاد أولاً ثمّ في الفرنسية ، جعلت منه أحد الباحثين المختصين المتميزين والواعدين بكل خير، من أجل إثراء مجال الدراسات الإعلامية والمكتبية ليس فقط على مستوى تونس والمغرب العربي بل أيضا على مستوى الوطن العربي. فقد أتيحت له في بادئ الأمر فرص التردد على أهم المكتبات الفرنسية غوصاً وبحثًا في أرصدتها من الكتب العربية ، وقام بحصر ذلك والتعرف عليه عن قرب . وقد مكنته تلك المعرفة أن يهتدي إلى دراسة بداية الطباعة العربية في المجتمع العثماني. ولا أكتم القارئ سرًا إن بُحتُ له بأن البحث الذي بين يديه الآن ، يعدُّ بحثاً أكاديمياً توفق فيه المؤلف لدراسة إشكاليات وخلفيات تحرك المجتمع العربي العثماني من أجل تبني الطباعة، محللاً العوائق التي جابهها الرواد الأوائل، ثم مساعيهم الجبارة والمتواصلة التي تبنوها لإقناع المسؤولين وخصوصاً شق العلماء المحافظين بجدوى وأهمية تبني الطباعة على أنها أسلوب لإدخال روح جديدة على الثقافة والعلوم وإثراء الحضارة العربية

والإسلامية ، ودخول عصر النهضة الفكرية الشاملة بعدّ الطباعة تمثل عنصراً مهماً في التحول الاجتماعي والسياسي والعقلي للأمة العربية – الإسلامية .

هذا وسوف يغوص القارئ في هذا البحث الشيق ذي المراجع العديدة المتنوعة في خصوصيات هذا الصّراع الديني المشرقي الذي كان وراء إدخال الطباعة . كما سيتعرف على أسباب اختيار عناوين الكتب العربية ومدى اهتمام العرب المسلمين عموماً بأهمية الطباعة ودورها الحاسم في نشر الوعي ، وكل هذا قبل حملة نابليون بونابرت. ويكفي دلالة على ذلك عشرات الكتب المطبوعة في كل من بلاد الشام وإستانبول خلال القرن الثاني عشر وبالتالي قبل وصول الحملة الفرنسية إلى الشرق .

ولا شك لديّ ـ أيضا ـ أن هذا الكتاب المرجعي ونشره بلغة الضاد، في نطاق منشورات مركزنا المهتم بتاريخ الولايات العربية في أثناء العهد العثماني ، سيسهم في إثراء مكتبتنا التاريخية العربية . فشكراً للباحث الدكتور وحيد قدورة على مجهوده الكبير وتفانيه وإخلاصه دوماً في خدمة المعرفة التاريخية والمكتبية، مؤملين أن تكون هذه الطبعة العلمية ، قد وفّرت نموذجاً متميزاً لما يجب أن تكون عليه المنشورات الأكاديمية العربية في المستقبل. كما أنتهز هذه الفرصة لأرفع تحية تقدير وشكر للهيئة المديرة لمكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض ، والتي لولا تشجيعها وموافقتها على النشر المشترك لما رأى النور هذا الكتاب اليوم . والله يوفقنا لخدمة المعرفة والعلم إنه سميع مجيب.

زغوان في٢٤ مايو١٩٩٢م

د. عبد الجليل التميمي

مدير مركز الدراسات والبحوث العثمانية

والموريسكية والتوثيق والمعلومات

المقدمة

يتناول هذا الكتاب بالدرس المشاكل التي طرحت عند ظهور المطبعة العربية في المشرق وتأثير هذا الحدث على الحياة الثقافية داخل الإمبراطورية العثمانية في القرن ١٢ هـ / ١٨ م . ففن الطباعة بالأحرف العربية لم يبرز في المشرق إلا بعد مرور قرنين ونصف على اكتشافه في أوربا وقد حافظ المخطوط العربي في هذه الأثناء على مكانته المتميزة لدى المتعلمين بعدِّه الوعاء الرئيسي لنقل المعلومات والمعارف . إلى أن ظهرت أول مطبعة عربية سنة ١١١٨ هـ / ١٧٠٦م بمدينة حلب عند مسيحيي الطائفة الأرثوذكسية الملكية. ثم أسست مطبعة ثانية لدى المسلمين بإستانبول سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢٦م ، وتبعتها بعد ذلك ورشتان للطباعة لدى المسيحيين بجبل لبنان أي بالشوير سنة ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م ، وبيروت سنة ١١٦٥ هـ / ١٧٥١ م .

وتعدّ ظاهرة تأسيس أربع مطابع عربية في ظرف نصف قرن علامة بارزة في عملية التحول التي أقدم عليها المجتمع العثماني في القرن ١٢ هـ / ١٨م . التي كان يتوق من خلالها إلى الانتقال إلى مرحلة جديدة من تاريخه وهي مرحلة الإصلاح والنهضة التي سيلعب فيها الكتاب المطبوع دوراً بارزًا. وحيث لا يمكن نقل الآراء الجديدة والمعارف العصرية في ذلك العهد بسرعة والتعريف بها على نطاق واسع إلا عبر الكتاب المطبوع . إن أفكار الإصلاحيين التي برزت في هذه الفترة تعبّر عن رغبة جديدة في تغيير المجتمع بداية من تطوير أدوات الثقافة ، وهذا ما يفسر إقدام المثقفين على إعطاء شكل جديد لوعاء المعلومات الرئيسي وهو شكل الكتاب المطبوع.

وعليه فإنه من الضروري البحث في البداية عن أسباب " التأخير " المسجل في إدخال المطبعة العربية إلى المشرق . ذلك لأن المسلمين ترددوا في استعمال

فن الطباعة على الرغم من أنهم كانوا على دراية تامة ومبكرة بظهور أحرف الطباعة المنفصلة بأوربا في القرن ٩ هـ / ١٥ م ، بل كانوا على علم " بفن الكتابة الجديد" الذي اكتشفه الصينيون في القرن ٥ هـ / ١١ م . ولا يختلف الأمر كذلك بالنسبة للمسيحيين العرب الذين كانوا مطلعين على ورشات الطباعة الموجودة عند الأقليات الدينية بالدولة العثمانية من يهود وأرمن ويونانيين منذ القرنين ٩ - ١٠ هـ / ١٥ - ١٦م . وهنا نتساءل ، ما هي أسباب التحفظ إزاء استعمال فن الطباعة؟ ، وما هي أسباب المخاوف التي أبديت إزاء تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع واستبدال الناسخ بالمطبعي ؟

كان من المهم عند دخول المطبعة العربية إلى إستانبول وبلاد الشام التعرف على تصور المتعلمين لمفهوم المطبعة ومزاياها وماذا ينتظرون منها ، وذلك بغرض التعرف عملياً على مدى استجابة الكتاب المطبوع هناك من خلال محتواه لهذه التصورات والآمال . إلا أنه يجب الإشارة منذ البداية إلى أن وظيفة الطباعة العربية في المشرق على المستويين الثقافي والاجتماعي ، لا يمكن أن تكون مشابهة لدور الطباعة في أوربا في المدة نفسها نظراً إلى أن هذه الأخيرة قد سبقت المشرق في استخدام هذا الفن بأكثر من قرنين ونصف.إن منافع فن الكتابة الجديد لم تكن أمراً بديهياً حتى لدى الأوربيين في البداية إذ كانوا ينظرون إليه عند ظهوره على أنه اكتشاف عجيب وأنه أجمل من الكتابة بخط اليد لا غير. إلا أنه ـ فيما بعد وعلى ضوء نتائج استعمال المطبعة ـ اتضحت للغرب مزايا وفوائد هذه الآلة[1].

---

(١) ذكر الرحالة الفرنسي فولني في أواخر القرن ١٢هـ/١٨م بعض الفوائد التي جنتها أوربا من الطباعة، فقال أنها مصدر الثورات التي أندلعت في المجتمع الأوربي على امتداد ثلاثة قرون باعتبار أن آلة الطباعة استطاعت بفضل نشرها للكتاب بين عامة الناس أن تبلغ جملة من المعارف بين مختلف الطبقات الاجتماعية.

Volney (C.F.C. De)., Voyage en Egypte et en Syrie; Paris, La Haye, Mouton, 1959 p.396 (lére édition, paris, 1787).

وبالمقابل لم تكن لأهل المشرق النظرة نفسها تجاه المطبعة نظراً لطبيعة مجتمعهم وطريقة حكمهم على الظواهر التي تحدث عندهم. وبالتالي فإن نظرتهم للمطبوعات كانت مصطبغة بتصورات ومفاهيم مختلفة عن الأوربيين ولنا أن نتساءل فيما إذا تم فعلاً تسخير الكتاب المطبوع في إستانبول وبلاد الشام لتبادل الآراء ونشر العلوم الحديثة وإثارة نقاشات فكرية ثرية ، أم أنه تم توظيفه لمهام أخرى ؟؛ وكذلك هل كانت النقاشات التي دارت بين المثقفين حول فوائد المطبعة ومستقبل الحضارة الإسلامية تمهيداً للتيارات الفكرية الكبرى التي نشطت حركة النهضة ، والتي ظهرت في القرن ١٣ هـ / ١٩ م ، خاصة أن الأداة الأساسية في نقل الآراء والمعلومات كانت الصحافة والكتاب المطبوع ؟ ؛ ذلك لأن الباحثين المعاصرين درجوا عند دراستهم لحركة النهضة على الاقتصار في تناولها على مدة وقوعها دون التأمل في بدايتها. وهنا يجدر بنا أن نتساءل ثانية ، هل يمكن تحديد بداية النهضة العربية مع دخول الطباعة العربية للبلاد العثمانية أي في مطلع القرن ١٢ هـ / ١٨ م ؟ ؛ لهذا كان لزاماً علينا عدم عزل اكتشاف المطبعة وعدم الاقتصار على عدِّها مجرد آلة صناعية ، بل إقحامها في الإطار الاجتماعي والتاريخي للمجتمع العثماني وتنزيلها في خضم التحولات الاجتماعية التي بدأت تغير العالم الإسلامي في الفترة التي كانت أوربا تعد فيها لثورتها الصناعية .

إن دراسة مدة التحول هذه أساسية للتعرف على بداية ظهور المجتمع العثماني الحديث وما القرن ١٢ هـ / ١٨ م إلا نقطة اتصال بين عهدين : عهد جمود العالم الاسلامي ويقظته . ان اختيار المدد الزمنية في مثل هذه الدراسات يمكن أن يكون غير دقيق، هذا على الرغم من أهمية التأريخ في البحث التاريخي. إن الحوار الذي أثير حول موضوع الطباعة قد بدأ قبل سنة ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م. تاريخ تأسيس أول مطبعة عربية ببلاد الشام كما تواصل في القرن ١٣ هـ/ ١٩ م . إلا أنه يمكن تحديد نهاية أول مرحلة من ظاهرة

التحديث في المجتمع العثماني في حدود سنة ١٢٠٢ هـ/ ١٧٨٧ م مع ارتقاء السلطان سليم الثالث العرش وإعلان برنامجه الإصلاحي " نظام جديد " .

إن اهتمامنا بمسألة الطباعة والكتاب العربي قد بدأ منذ أن كنّا ندرس علم المكتبات والمعلومات بالمدرسة الوطنية العليا للمكتبات بمدينة ليون الفرنسية حيث اخترنا مسألة المطبعة العربية بأوربا في القرنين ١٠ - ١١ هـ / ١٦ - ١٧ م لتكون موضوع رسالة ختم الدروس بتلك المدرسة عنها. ثم حرصنا على مواصلة البحث في موضوع المطبعة العربية، وكان اختيارنا لمدة لا تزال غامضة حول فن الطباعة وهي بدايته في المشرق العربي والتي لا توجد عنها سوى دراسات متفرقة فكان هذا موضوع رسالة الدكتوراة (حلقة ثالثة) التي قدمناها أمام جامعة السربون، باريس في السنة الرابعة ، سنة ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

وقد تمثل أول عمل لنا في ضبط ببليوغرافية للكتب العربية المطبوعة في القرن ١٢ هـ / ١٨ م وقد اعتمدنا في ذلك على ببليوغرافيات عربية وفهارس المكتبات الكبرى في العالم . وقد عثرنا على جلّ هذه الكتب في المكتبة الوطنية بباريس. وهي التي تعد من أثرى المكتبات في العالم فيما يتعلق بأوائل الكتب العربية المطبوعة. واستكملنا المجموعة بالعودة إلى بعض المكتبات السورية . كما أننا درسنا الوثائق الأصلية المتعلقة بنشاط المطابع باستانبول والشوير ، وكنا قد عثرنا عليها في بعض مراكز الأرشيف ، وكذلك وجدنا بعضاً منها منشوراً في كتب ومجلات علمية .

ثم بدأنا بدراسة وتحليل محتوى أوائل الكتب العربية المطبوعة والتي تمثل مصدراً أساسياً لهذا البحث ، إذ احتوت على معلومات ثمينة حول تأسيس المطابع والدوافع التي أدت إلى تأسيسها وقدمت تعريفًا بأصحابها ومشاريعهم والصعوبات التي اعترضتهم ووجهة هذه الكتب ، وبصفة عامة ذكرت عدة مظاهر من حياة ورشات الطباعة .كما اعتمدنا في عملنا على كتب الرحالة

الأوربيين الذين سافروا إلى المشرق في تلك الفترة نظرا لأهمية شهاداتهم ، على الرغم من أنها لا تخلو من انحياز في كل مرة يحللون فيها بعض مظاهر حياة المسلمين إذ لم يتخلص جلّهم من الأحكام المسبقة عن العثمانيين بسبب تأثرهم بجو الصراع الذي كان قائماً بين المسلمين والمسيحيين . كما أنهم كانوا يسردون ما يشاهدون من زاوية خارجية دون أن ينفذوا إلى داخل المجتمع الشرقي وتعدّ اللغة عائقًا بالنسبة لأغلبهم للاحتكاك بالسكان الأصليين . كما أنهم كانوا يجهلون نمط تفكيرهم ، لذلك اقتصر الرحالة الأوربيون على ذكر ملاحظات عامة ، غافلين بذلك عن الحوار الذي كان يدور بين القوى التقليدية والمجددة حول مشروع المجتمع الجديد .

نشير إلى أننا لا ننوي تقديم أجوبة نهائية عن الأسئلة التي طرحناها ولا ندعي بأننا سنقول كلمة الفصل في قضايا الطباعة العربية التي طرحناها، بل إننا سنسهم في تقديم بعض عناصر الجواب مع إثارة القضايا ووضعها ضمن الإطار التاريخي للقرن ١٢ هـ / ١٨ م . وينقسم هذا العمل إلى جزأين أساسيين : يتناول الجزء الأول بالدرس التمهيد لإدخال المطبعة العربية للشرق ، في حين أن الجزء الثاني يتعلق بظهور أربع مطابع عربية . خصص الجزء الأول للبحث في التحضيرات التي سبقت إنشاء المطابع العربية من خلال تحليل مواقف المسلمين والمسيحيين تجاه فن الكتابة الجديد، فكان أن تعرضنا للحوار الذي دار بين المسلمين حول منافع كلّ من المخطوط والكتاب المطبوع ، وكذلك تناولنا بالدرس الصراعات التي دارت بين المسيحيين حول المطبعة ومحتوى الكتب. كما تناولت هذه الدراسة بالتحليل مسألة المطبعة العربية بأوربا في القرنين ١٠ - ١١ هـ / ١٦ - ١٧ م، وذلك لمعرفة مدى تأثيرها وصداها بالمشرق . أمّا الجزء الثاني فقد بحث في عملية تأسيس المطابع العربية بإستانبول وبلاد الشام والظروف والملابسات التي أحاطت بهذا الحدث والصعوبات التقنية والمالية التي اعترضت أصحاب هذه الورشات. إلا أن

المسألة التي استأثرت بالاهتمام في هذا الجزء قد تعلقت بدراسة مدى إسهام المنشورات العربية في إثراء وتنشيط الحياة الثقافية والاجتماعية في البلاد العثمانية وذلك بالاعتماد على بعض المؤشرات نذكر منها : محتوى الكتب ووجهتها وتوزيعها وصداها لدى المتعلمين . كلّ ذلك لمعرفة الصورة التي يحملها هؤلاء عن الطباعة وما ينتظرون منها للإسهام في تغيير المجتمع العثماني . وأخيراً نشير إلى أننا أرفقنا هذه الدراسة ببيليوغرافية شاملة للكتب العربية المطبوعة في القرن ١٢ هـ / ١٨ م في المشرق .

***

وفي هذا الإطار ، فإننا نلفت انتباه القارئ أننا نقصد بالمطبعة العربية كل ورشة تستخدم الأحرف العربية لطباعة كتب عربية بالأحرف العربية ، والغرض من هذا التوضيح هو التمييز بين هذه المطابع والمطابع الأخرى التي تطبع كتبا فارسية وتركية بأحرف عربية .

إلا أننا مع ذلك تعرضنا لمطبعة قوزحية التي أسسها المارونيون بجبل لبنان، رغم أنها طبعت كتاباً واحداً فقط بالحرف الكرشوني والسرياني وسبب ذلك هو الأهمية البالغة لهذه الورشة التي تعكس أول مبادرة للمسيحيين العرب للتعامل مع فن الطباعة .

أما عن اهتمامنا بمطبعة إستانبول التي لم تطبع سوى بضعة كتب باللغة العربية والبقية بالفارسية والتركية، فيعزى إلى مكانة هذه المطبعة الأولى التي حظيت بموافقة السلطان العثماني والعلماء مما يبرز التحول الجذري في موقف المسلمين تجاه آلة الطباعة وبصفة عامة تجاه الاكتشافات الثقافية والعلمية القادمة من أوربا ؛ وكذلك نظراً لمكانة وصدى منشورات هذه المطبعة في أوساط المتعلمين .

نلفت انتباه القارئ الكريم أخيرًا إلى أن بعض الجوانب من تاريخ مطبعة بيروت، مازال غامضًا رغم المجهود الذي بذلناه ، ويعود سبب ذلك إلى فقدان الوثائق الأصلية لهذه الورشة عندما انهار المبنى الذي كان يأويها سنة ١١٧٩ هـ / ١٧٦٦ م . وللتغلب على هذا العائق، التجأنا إلى مصادر من القرن ١٣هـ/١٩ م حيث استقينا معلومات حول هذه المؤسسة .

الجزء الأول

التمهيد لإدخال المطبعة العربية
إلى المشرق
مواقف المسلمين والمسيحيين
من اكتشاف الطباعة

الفصل الأول

المسيحيون العرب والمطبعة: المنشورات العربية بأوربا وصداها لدى مسيحيي المشرق في القرنين ١٠-١١هـ/١٦-١٧م

من المفارقات أن نجد النشر العربي قد عرف بدايته في بلدان غريبة عن هذه اللغة، فكان الأوربيون هم السبّاقون لطبع الكتب العربية منذ القرن ١٠ هـ/ ١٦م. وبعد مرحلة المحاولات والتجارب أثناء ذلك القرن، ازدهرت المطبعة العربية عندهم في القرن ١١ هـ / ١٧ م. وقد اهتمت عدة مدن أوربية بطبع الكتب العربية وخاصة في إيطاليا وفرنسا وهولندا وألمانيا وانجلترا . إن هذه المعطيات جعلتنا نتساءل عن الأهداف والحوافز التي حدت بالأوربيين إلى نشر الكتب العربية في وقت مبكر . وقد حاولنا التعرف على الصعوبات التي لاقوها للحصول على الأحرف العربية ، ومراقبة عملية النشر والمواضيع التي عالجوها في المطبوعات الأولى . وعلى ضوء الإجابة سنتمكن من تحليل وضع الدراسات العربية بأوربا طيلة القرنين ١٠ - ١١ هـ/ ١٦ - ١٧ م ودور الكتاب العربي المطبوع في التعريف بالحضارة الإسلامية بأوربا.

إن المنشورات العربية بأوربا كانت موجهة جزئياً إلى المشرق ، وقد تم توزيع العديد من النسخ في بلاد الشام، فكانت ردود فعل المسلمين والمسيحيين تجاهها مختلفة وأيضا متناقضة ، وسنقتصر في هذا الفصل على تحليل

مواقف المسيحيين العرب أوّلا من مبدأ استعمال فن الطباعة ، وثانياً من استخدام النصوص المطبوعة بالمدن الأوربية. كيف كانوا ينظرون إلى هذا الاكتشاف ؟ ، وكيف تعاملوا معه ؟ ، وهل حاولوا إدخال هذا الفن إلى سوريا ؟

١ - المطبعة العربية بأوربا ٩٢٠ هـ/١٥١٤ م - ١١١٢هـ/ ١٧٠٠ م :

١.١ - الدراسات العربية بأوربا :

لقد شعر المسيحيون بأوربا بضرورة التعرف على الشرقيين وخاصة المسلمين منهم منذ فتح الأندلس عن طريق طارق بن زياد في القرن ٢ هـ / ٨ م. وحرص رجال الدين عندهم على معرفة عقلية هؤلاء الفاتحين الجدد، فعملوا على تعلم آدابهم وعلومهم بداية من القرن التاسع. وتحولوا لهذا الغرض إلى المراكز الجامعية بقرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها . ثم انكبوا منذ أواخر ذلك القرن على ترجمة المؤلفات الإسلامية الكبرى إلى اللغة اللاتينية . فمثلاً قام البابا سلفستروس الثاني (٣ هـ / ١٠ م) الذي درس بالأندلس بترجمة كتب في الفلسفة والرياضات والعلوم الطبيعية[١] .

وقد كرس عدد كبير من الرهبان حياتهم لدراسة اللغة العربية على الرغم من معارضة الكنيسة ، وترجموا العديد من المؤلفات الإسلامية الكبرى إلى اللغة اللاتينية، ومن أولئك الإيطالى جيرار دي كريمون (Crénone Gérard de) والألماني البرت الأكبر (Albert le Grand) والإيطالي توماس الإكويني (Thomas d'Aquin) . وشعرت عندها الكنيسة بالمكانة المهمة التي صارت إليها الثقافة العربية ، وأحست أيضاً بقوة المسلمين في جميع الميادين ، خاصة بعد الاحتكاك بهم أثناء الحروب الصليبية. فقررت تركيز اهتماماتها على معرفة منجزاتهم العلمية وتعلم لغاتهم . وقد كرّس المجمع الكنسي المجتمع بفيانا سنتى (١٣١١ -

١٣١٢م) هذا الاتجاه الجديد ، حيث أوصى بتخصيص دروس لتعليم اللغات الشرقية لطلاب الجامعات والأديرة ، وخاصة منها العربية والعبرانية والكلدانية[٢]. وذلك بهدف تكوين رهبان قادرين على دفع المسلمين واليهود لاعتناق المسيحية[٣] . وهكذا يقرر الغرب مواجهة العالم الإسلامي وذلك بشنّ " حملة صليبية فكرية "[٤] قبل العودة لمقارعته بالسلاح.

لقد درست اللغة العربية في الجامعات الأوربية كذلك بقصد تمكين العلماء من قراءة كتب ابن سيناء وابن رشد وغيرهما في لغتها الأصلية. وقد انتشرت هذه اللغة تدريجياً في المدن الإيطالية إلى درجة أن تجار البندقية وجنوة وبيزا كانوا يتكلمونها في تجارتهم مع موانئ المشرق . ولا بد من التوقف قليلاً عند حدثين مهمين في تاريخ الاستشراق في القرن ٩ هـ / ١٥م. أولهما: سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٥م تاريخ اكتشاف المطبعة بأوربا ، ثمّ سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م عندما فتح الأتراك العثمانيون بيزنطة . إن اكتشاف غوتنبرغ[٥] الذي جاء في فترة التحولات الفكرية التي عرفت باسم النهضة دفع بالأوربيين إلى طبع المؤلفات الإغريقية والرومانية القديمة ونشر الكتب العبرية والعربية. كما أنّ تقدم العثمانيين في أوربا الشرقية. أزعج كثيراً الملوك الأوربيين ، أما البابوات فقد حرصوا على إرسال مبعوثين لهم للشرق بقصد رصد كل المشاريع العسكرية للسلاطين الأتراك العثمانيين في البلاد المسيحية . إن كل هذه التحولات أعطت للدراسات العربية مكانة ذات بال بالقياس مع بقية اللغات الشرقية في جامعات روما وباريس وليدا والبندقية ولندن وبراسلو وغيرها. وفي هذه الظروف برز أول كتاب عربي مطبوع سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ، وذلك في فانو[٦] وهي مدينة إيطالية صغيرة تقع جنوب البندقية[٧] .

٢.١ - المطبوعات العربية الأولى :

كتاب الصلاة، فانو ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م :

يحتوي الكتاب على صلوات حسب الطقس الشرقي البيزنطي الملكي والعنوان الكامل هو :

« **كتاب صلاة السواعي** »[٨] كتب النص كاملاً باللغة العربية ، وطبع باللونين الأحمر والأسود . ولم تكن الحروف جيدة ، وكذلك الأمر بالنسبة للأشرطة الرابطة . أمّا الحركات فلم تكن كلّها في مواضعها والبعض منها كان ملطخاً بالحبر ، يضم الكتاب مئة وثماني عشرة ورقة من النوع الجيد ويوجد في الورقة الأخيرة ذكر لتاريخ الطبع: « وكان الفراغ من هذه السواعي المباركة نهار الثلاثاء ثاني عشر سبتمبر سنة ألف وخمسمائة وأربع عشرة من مولد سيدنا يسوع المسيح لذكره المجد الأمين ، وهي ختم المعلم غريغوريوس بيت غريغوريوس من مدينة البندقية ختمت في مدينة فانو تحت حكم قداسة البابا لهون ماسك كرسي القديس ماربطرس الرسول بمدينة روما ؛ من وجد فيه غلطة يصلحه يصلح الله شأنه بشفاعة السيد آمين» . أمّا عن تصفيف الحروف ومراقبة عملية النشر فإنه لا يستبعد كما يرى المستشرق كراك[٩] أن يكون قد أوكل أمر ذلك إلى علماء مسيحيين شرقيين كانوا قد جاءوا من المشرق لحضور أعمال المجمع الكنسي الخامس المنعقد بلطران (١٥١٢ - ١٥١٧م) ، الذي شهد تأدية الصلوات في مختلف اللغات بقصد تشجيع حركة اتحاد الكنائس الشرقية مع كنيسة روما .

إن أصل الحروف العربية التي استعملت في الطباعة بقي مجهولاً . فمدينة فانو [١٠] لم تترك لنا حسب علمنا كتباً عربية أخرى . ولكن يلاحظ أن كتاب الصلاة يمثل في حد ذاته تطوراً في عملية النشر العربي ، وهذا ما يجعلنا نتصور أنه وقعت من قبل محاولات لطبع نصوص عربية .

كتاب المزامير المتعدد اللغات، جنوة ٩٢١هـ/١٥١٦م :

نشر الكتاب العربي الثاني في جنوة سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٦ م وعنوانه :

« مزامير عبراني يوناني عربي قصداني بترجمة لاتيني وتفسيرهم » (١١)؛ وهو مكتوب بخمس لغات ومن عمل القس أغسطينوس (١٤٧٠ - ١٥٣٦)، وهو عالم أنسي قابل (humaniste et kabbaliste)(١٢) من مواليد جنوة ، متضلع في اللغات الشرقية، عهد إليه بمراجعة كل نصوص التوراة والإنجيل في اللغات الشرقية ولكنّه لم يتمكن إلا من نشر مجموعة المزامير. وقد استعمل في الطباعة الحروف المغربية وهي كوفية مبسطة ، كانت تستعمل آنذاك في المراسلات بين المغرب وجنوة (١٣) .

كتاب القرآن الكريم، البندقية ٩٤٤هـ/١٥٣٧-١٥٣٨م :

ذكرت العديد من المصادر أن القرآن الكريم طبع لأول مرة باللغة العربية في البندقية في مطلع القرن ١٦م ، من طرف باغانينو دي باغانينو(١٤) وابنه ألسندرو وهما مطبعيان أصيلان من مدينة براسيا Brescia. إلا أنه لم يعثر على أية نسخة من هذه الطبعة في المكتبات العالمية الكبرى إلى أن اكتشفت الباحثة الإيطالية أنجيلا نيوفو مؤخراً ، نسخة فريدة من هذا الكتاب في مكتبة الدير الفرنسيسكاني للقديس ميخائيل بالبندقية(١٥)، وقد قدمت هذه الباحثة معلومات ثمينة حول أول طبعة لكتاب القرآن الكريم . أما الأسباب التي دفعت عائلة باغانيني إلى طبع هذا الكتاب، فتتمثل في أنها أرادت أن تبيع كتباً شرقية في السوق العربية والتركية, خاصة أن هذه العائلة كانت لها علاقات تجارية مع الشرق من خلال صنع وترويج الورق . إلا أنّ إقدامها في بداية مشروعها على طبع القرآن الكريم يعد مجازفة نظرًا للجو المشحون بالصراعات بين المسلمين والمسيحيين ، وهذا الأمر قد يكون وراء ظهور رواية إتلاف هذه الطبعة كما سيتبين فيما بعد .

كذلك استفادت مطبعة باغانيني من وجود جالية عربية إسلامية بالبندقية[١٦]، ساعدتها في عملية الطباعة بالحرف العربي خاصة في مرحلتي التنضيد والمراجعة .

أمّا عن تاريخ صدور هذه الطبعة فقد تضاربت الآراء حوله إذ ذكرت العديد من الدراسات تواريخ مختلفة تراوحت من ٩٠٤هـ/ ١٤٩٩م إلى ٩٤٤هـ/ ١٥٣٨م ، ومما زاد الأمر تعقيداً عدم ذكر تاريخ الطبعة في النسخة التي اكتشفت حديثًا، إلا أن الباحثة أنجيلا نيوفو قدمت اعتماداً على مراسلات بين المستشرقين البونيزي و بوستال تاريخاً دقيقاً : فيما بين ٩ أغسطس ١٥٣٧ و٩ أغسطس ١٥٣٨م[١٧].

إن الغموض لا يزال محيطًا بهذه الطبعة للقرآن الكريم. فمثلاً ما هو صداها في أوربا المسيحية وفي العالم الإسلامي ؟ ؛ وأيضا ما هو مصيرها ؟ ؛ إذ ذكرت العديد من الروايات أن هذه الطبعة قد أتلفت بأمر من البابا، إلا أن بعض الباحثين شككوا في صحة هذه الرواية ، بل إن أنجيلا نيوفو تدحض هذه الرواية للأسباب التالية :[١٨].

- إن أول من روّج الرواية هم البروتستانت وذلك في نطاق صراعهم مع الكاثوليك وإن كان هؤلاء الأخيرون قد روجوا فيما بعد الرواية نفسها.
- تأشيرة كاهن محكمة التفتيش في كريمون لطبع القرآن الكريم والمثبتة في الكتاب ، وهذا يعني أن الكنيسة موافقة على نشر هذا الكتاب .
- إن البابا لم يعارض طبع ترجمة القرآن الكريم إلى الإيطالية سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٧م من طرف A. Arrivabena على الرغم من أن النص يفهمه المسيحيون في أوربا وقد يحدث اضطرابا في بعض الأوساط .
- إن الكتاب طبع بالعربية وهو موجه للمسلمين وليس للأوربيين ، ولهذا افتقدت هذه النسخ من السوق الأوربية .

إنه من المهم معرفة ما إذا كانت نسخ الكتاب قد وزعت في العالم الإسلامي أم لا ، وفي صورة ترويجه ما هو صداه لدى المسلمين ؟ ؛ وتبقى هذه التساؤلات وغيرها مطروحة في انتظار اكتشاف وثائق ومصادر أخرى . ومهما يكن من أمر فإن المطبوعات العربية الأولى (القرآن الكريم ، صلاة السواعي ، المزامير) لم تكن سوى نوادر في ميدان الطباعة وهي تكشف عن المحاولات الأولى في النشر العربي بأوربا وتترجم عن اهتمام الغربيين بالدراسات العربية بأوربا .

٣.١ - المطابع العربية في المدن الإيطالية :

اهتمت روما منذ القرن ١٠ هـ / ١٦ م بالنشر في مختلف اللغات الشرقية وخاصة منها العربية ، وقد أسست الكنيسة عدة مطابع لتعمل تحت إشرافها . كان البابوات يعمدون - وهم المعادون للمسلمين - إلى تشجيع حركة اتحاد الكنائس الشرقية المستقلة مع روما ، التي بدأت بانعقاد المجمع الكنسي بفلورنسا (١٤٣٩ - ١٤٤٥) . ولم يكتف البابوات بإرسال المبعوثين والمبشرين إلى البطاركة بالمشرق ، بل أسسوا في روما معاهد دينية ومطابع للغات الشرقية في القرنين ١٠ - ١١هـ/ ١٦ - ١٧م (١٨مكرر) كانت اهتماماتها موجهة بالخصوص نحو النشر العربي .

روما - مطبعة اليسوعيين ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م :

حرص البابا (PieIV) منذ سنة ١٥٦٤م على توفير الحروف الشرقية لمطبعة معهد روما (Tipographia del Collegio Romano) قصد نشر نتائج أعمال التجمع الكنسي بترانت (Concile de Trente) (١٥٥٤-١٥٦٣) في الشرق[١٩] وكلف الأب اليسوعي يوحنا باتيستا اليانو (Eliano) (١٥٣٠-١٥٨٩) باقتناء حروف عربية خاصة أن هذا المبشر يحذق اللغة العربية ، وقد بعث عدة مرات من طرف البابا إلى الشرق بقصد تعزيز العلاقات بين روما والكنائس المستقلة[٢٠] ، وقد أعد

الحروف العربية بمعونة المطبعي لوتشا (Lutcha) والحفار ڤرانيى (Granier)[٢١] ، ولكن الحروف لم تكن جيدة وسرعان ما أتلفت مما حدا بالمطبعيين إلى تجديدها[٢٢] ، ورغم ذلك فإن هذه المطبعة سرعان ما اختفت ولكن تم بمطبعة الفاتيكان[٢٣] ، ثم حلت محلها مطبعة الميدتشى ومطبعة مجمع نشر الإيمان المسيحى .

محتوى طبعات اليسوعيين :

وصلتنا ثلاثة كتب من هذه المطبعة وهي دينية ، اثنان لتعليم المسيحية وواحد للدفاع عن المسيحية. كان الكتاب الأول من تأليف البابا(PieIV) وهو مطبوع بالعربية واللاتينية سنة ٩٧٣ هـ/ ١٥٦٦م وعنوانه العربي : «اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية كنيسة رومية » ، وقد ترجمه عن اللاتينية الأب إليانو الذي فعل الأمر نفسه للكتاب الثاني للأب برينو المطبوع سنة ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠م وعنوانه : «التعليم المسيحي » وقد عدد مؤلفه المبادئ الأساسية للعقيدة الكاثوليكية في شكل أسئلة وأجوبة وهي موجهة للمسيحيين الجدد . أما الكتاب الثالث الذي يفند تعاليم الإسلام، فقد نشره الأب إليانو سنة ٩٧٣ هـ/ ١٥٦٦ م وعنوانه : «هذا مصاحبة روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان واسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة». إن هذه المطبوعات تستجيب لأهداف الرهبانية اليسوعية التى ترمي إلى توفير الكتب الضرورية للمبشرين العاملين بالمشرق كي تكون عوناً لهم في مهمتهم التبشيرية لدى المسيحيين المنشقين عن روما والمسلمين .

روما ـ مطبعة الميدتشي - ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م :

كان الكاردينال فرديناند دي ميدتشي (Ferdinand De Medicis) مولعاً بالفنون والعلوم ، وكان أيضاً راعياً للفنانين والعلماء ، وقد اقتنى من الشرق مخطوطات عربية وسريانية وفارسية، ولمّا عهد إليه البابا غريغوريوس الثالث عشر برعاية

بطريركيات أنطاكية والإسكندرية ، قرر تأسيس مطبعة للغات الشرقية بروما . وفي الحقيقة كانت عائلة الميدتشي مهتمة ـ من قبل ـ بنشر الكتب الشرقية . من ذلك ما قام به البابا ليون العاشر (Leon X) وهو من أفراد هذه العائلة من نشر لكتاب صلاة السواعي بمدينة فانو.

لذلك حرص الكاردينال فرديناند على جعل مطبعته في مستوى عالٍ من حيث جودة وجمال المنشورات الشرقية ، وأوكل إدارتها إلى المستشرق ريموندي (Raimondi) (١٥٤٠-١٦١٤م) كما استدعى أحد النقاشين الفرنسيين المشهورين وهو روبرت ڤرانجون (Robert Granjon) (١٥١٣-١٥٨٩م) الذي لعب دوراً أساسياً في تاريخ الطباعة الشرقية وبخاصة العربية منها بأوربا . فقد كانت الحروف العربية التي نقشها على غاية من الجمال ونالت إعجاب علماء عصره ، ولم تضاهها أية حروف أخرى في ذلك الزمان . وقد حفر ڤرانجون خمسة أحجام من الحروف العربية التي تحمل أسماء معينة : الأحرف العربية ذات السطرين ، والقانون الصغير وأحرف كتاب البستان والعربي الكبير والعربي الصغير[٢٤].

وقد خصص الكاردينال مرتباً شهريًا مهمًا لڤرانجون بمقدار عشرة ريالات ذهبية ، وأسند له كذلك ريالاً ذهبياً على كل حرف من الهجائية العربية . أما البابا غريغوريوس الثالث عشر فقد كافأه أيضاً بمبلغ ثلاث مئة ريال بالنسبة لكل هجائية[٢٥]، ونظرا لجهله باللغة العربية فإن ڤرانجون استعان بعلماء مستعربين وبتلاميذ المعهد المارونى. إن الأحرف العربية التي صنعها ڤرانجون قد سببت مشاكل مستعصية إذ أسهمت في الصّراع الديني القائم بين الكاثوليك والبروتستانت فقد حرصت كنيسة روما على أن تكون الكنائس الشرقية حكراً لها، وبذلت كل ما في وسعها لسد الطريق أمام تسرب البروتستانت للشرق . فمنع البابا خروج أحرف ڤرانجون من روما خوفاً من أن تستعمل في طبع كتب بروتستانتية ، علماً بأن ڤرانجون قد تلقى عروضاً للعمل مع مستشرقين بروتستانت ألمان وهولنديين حتى قبل تحوله لروما[٢٦]. أغلقت

المطبعة أبوابها بعد موت مديرها ريموندى سنة ١٦١٤م ، وبعد تحول أبرز تلاميذه إيتيان بولينوس (Etienne Paulinus)[٢٧] للعمل بمطبعة عربية أخرى وهي سافاريانا بروما ثم باريس[٢٨].

محتوى طبعات الميدتشي :

نشرت مطبعة الميدتشي تسعة كتب فيما بين سنتي ١٥٩٠ و١٦١٠م . وكانت المواضيع متنوعة فهناك كتابان مسيحيان : **الإنجيل المقدس** ، وأربعة كتب نحوية منها « الأجرومية » لابن أجروم ، و« **كتاب التصريف** » للشيخ الإمام ، و« **الكافية** » لابن الحاجب وأيضا كتاب في الطب لابن سينا عنوانه « **كتاب القانون الثاني في الطب** » ، وكتاب في الجغرافيا للإدريسي وهو «**نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والآفاق** » ، وكتاب في الهندسة : « **كتاب تحرير أصول الأوقليدس** » ترجمة نصر الدين الطوسى .

يعدّ « **كتاب القانون الثاني في الطب** » لابن سينا ، من أبرز معالم الطباعة العربية في أوربا، من حيث إخراجه وتقديمه وهو مطبوع بأحرف ڤرانجون. ويحتوى الكتاب على قانون الطب، وأيضاً ثلاث رسائل في علم المنطق وعلم الطبيعة وعلم الكلام . وهذا دليل على الاهتمام الذي يوليه الأوربيون لهذا العالم والفيلسوف المسلم ، حيث نشروا كتابه بالعربية مبكراً في طبعة جيدة ، وذلك بعد أن كانوا قد أصدروا ترجمته اللاتينية منذ سنة ١٤٦٢م. أما كتاب النحو الذي ألفه الكاتب المغربي ابن أجروم (١٢٦٢-١٣٢٣م) ، فقد طبع بالعربية سنة ١٥٩٢م . وقد حقق صيتاً واسعاً في الشرق والغرب ، وأعيد طبعه عدة مرات في القرن السابع عشر مع ترجمته اللاتينية، وذلك في مطابع باريس وليدا وبراسلو . ونذكر أخيراً كتاباً مهماً وهو « الأوقليدس » الذي طبع سنة ١٥٩٤م، بحجمين من أحرف ڤرانجون مع عدة أشكال هندسية.

إن كل منشورات مطبعة الميدتشى صدرت باللغة العربية فقط ، ما عدا كتاب الإنجيل الذي كان ثنائي اللغات (عربي - لاتيني) . وكان إخراجها على غاية من الإبداع الفني ، هذا إلى جانب أنها من حيث المحتوى لا تتضمن نصوصاً للتعليم أو الدفاع عن الدين المسيحي ماعدا الإنجيل ، وهو أمر مغاير لرغبة البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي يرى في الطباعة العربية بروما وسيلة لنشر المذهب الكاثوليكي وإثارة الجدال ضد المسلمين . وهكذا كانت مطبعة الميدتشي هي الوحيدة التي طبعت كتباً عربية علمية في روما ، وذلك طيلة قرنين من الزمان .

مطبعة سافاري في روما ١٠٢٢ هـ / ١٦١٣م :

تنسب المطبعة لمؤسسها سافاري دي براف (Savary De Bréves) ، وهو رجل سياسة فرنسي[٢٩] أنشأ مطبعة للغات الشرقية سنة ١٠٢٢ هـ-١٦١٣ م ، لمّا كان سفيراً لبلاده بروما، ثمّ نقلها إلى باريس بعد مضي ثلاث سنوات على ذلك. وقد أوكل مهمة تسييرها إلى إيتيان بولينوس الذي كان يعمل عند الميدتشى، وهذا دليل على الارتباط المتين بين مطبعة الميدتشى ومطبعة سافاري ، وهو ما يفسر تعويض الأولى بالثانية سنة ١٦١٣م ؛ ولأن بعض عمال ريموندي قد التحقوا بالمطبعة الجديدة . وهذا ما حدا بالباحث ديفردي إلى القول إن مطبعة سافاريانا متصلة فنياً وربّما روحياً بمطبعة الميدتشي (٣٠) . أصدرت هذه المطبعة أربعة كتب عربية فيما بين سنتي ١٦١٣ و١٦١٩م ، وتتمثل في كتاب إنجيل وكتابين للمزامير وآخر لتعليم الدين المسيحي . وهذا الأخير هو من تآليف بالارمان (Bellarmin) . وقد تحول المطبعي إيتيان بولينوس بعدها إلى ورشة باريس لمواصلة العمل في المطبعة الشرقية هناك بإشراف سافاري .

مطبعة المعهد الماروني، روما ١٠٣٠ هـ/ ١٦٢٠ م :

أسس هذه المطبعة تلاميذ مارونيون بإعانة البابا بمقر معهدهم في روما . وقد شعرت الكنيسة بالفراغ الحاصل في النشر العربي بعد توقف مطابع الميدتشي والفاتيكان والسافاريانا . وقد أشرف على هذه الورشة المطبعي إيتيان بولينوس الذي عاد من باريس وطبع على آلات المعهد فيما بين سنة ١٠٣٠هـ/ ١٦٢٠م أو ١٠٣٤هـ / ١٦٢٥م ، خمسة كتب ثنائية اللغة عربية لاتينية ، وهي مخصصة لاستعمال التلاميذ المارونيين ، حيث تتضمن أربعة كتب نحوية وكتاباً في الفلسفة . ومن أهم المطبوعات كتاب من تأليف الماروني نصرالله شالاق وعنوانه «مبادئ اللغة العربية » ، وآخرللمؤلف نفسه فيه تقديم للحروف الهجائية العربية ، ثم كتاب ثالث من عمل تلميذ ماروني هو بطرس المطوشي (Institutiones linguae Arabicae). أما كتاب الفلسفة فعنوانه «إيساغوجي أو مدخل لعلم المنطق » . لم تواصل مطبعة المعهد الماروني حركة النشر العربي، حيث توقفت عند ظهورمطبعة شرقية أخرى ضخمة بداية من سنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م.

مطبعة مجمع نشر الإيمان ، روما ١٠٣٥ هـ/ ١٦٢٦ م :

تأسس مجمع نشر الإيمان سنة ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢م ، ويتمثل هدفه الأساسي في بث المذهب الكاثوليكي في الطوائف المنشقة أو الطوائف غير المسيحية ، وتشجيع وتوجيه البعثات التبشيرية البعيدة[٣١]. ولتحقيق هذه الأغراض اعتمد المجمع على معهد وعلى مؤسسة لمراجعة الكتب الدينية الشرقية وعلى المطبعة. وقد أسست ورشة الطباعة سنة ١٠٣٥هـ / ١٦٢٦م[٣٢] ، بعدما حصلت على هبة من الإمبراطور فرديناند الثاني لها بسبورغ (١٥٧٨-١٦٣٧) ، الذي كان يرغب في طبع كتب مسيحية بعدة لغات سواء كانت تتعلق بالطقوس أو النصوص المقدسة أو المذهب الكاثوليكي . وقد استعارت المطبعة في البداية الحروف العربية من مطبعة الفاتيكان ، وأيضاً من إيتيان بولينوس.

مساهمة مجمع نشر الإيمان في النشر العربي بأوربا :

نشرت المطبعة اثنين وعشرين كتاباً من بينها ستة عشر تتعلق بالديانة والبقية تعالج مبادئ اللغة والآداب العربية . تتوزع الكتب الدينية بين النصوص المقدسة والتعليم المسيحي والدفاع عن المسيحية وكتب الصلوات والجدال .

إن كلّ هذه الكتب تدخل في إطار سياسة كنيسة روما الدائبة على نشر المذهب الكاثوليكى في أوساط المسيحيين الشرقيين الذين اتحدوا مع البابوية ، حيث احتوت هذه المؤلفات على دروس عقائدية وعلى الطقوس والصلوات إلى جانب كيفية مواجهة الشعوب غير المسيحية. وقد اهتمت مطبعة نشر الإيمان بتعليم المبشرين اللغة العربية قبل إرسالهم إلى المشرق، فوفرت لهم كتباً دراسية في النحو العربي مثل الآجرومية التي طبعت سنة ١٠٤١ هـ /١٦٣١م مع تعليق باللاتينية، أو كتاب إبراهيم الحاقلاني «**خلاصة اللغة العربية**» الصادر سنة ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٨م، وأيضاً المعجم اللغوي من تأليف سيلازيا «**بناء اللغة العربية** » الصادر سنة ١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م ، ثمّ أعيد طبعه ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م.
وهناك مدن ايطالية اخرى اهتمت بالنشر العربين ذكرمنها:

ميلانو ، المطبعة الأمبروزية ١٠٤٢هـ/١٦٣٢م

(Imprimerie ambrosienne)

أنشأ الكاردينال فريدريك بروميو (Frederic Borrome) المكتبة الأمبروزية التي كانت أول مكتبة عمومية ، وقد أضيفت إليها مطبعة كبيرة اشتهرت خاصة بحروفها الشرقية[٣٣] التي استقدم بعضها من مطبعة الميدتشي ، ولا نعرف عنها سوى كتاب عربي واحد صدر في القرن ١١هـ / ١٧م وهو السابع عشر عنوانه : « **كنز اللغة العربية** » للفيروز آبادي مع ترجمة لاتينية من عمل جيجاى (Antonio Giggeo) طبع سنة ١٠٤٢هـ / ١٦٣٢م ، في أربعة مجلدات ضخمة .

ويعدّ هذا الكتاب أول معجم لغوي عربي لاتيني ، حيث عد أداة عمل أساسية في دفع الدراسات العربية بأوربا والتقدم بها أشواطًا .

بادوا ، مطبعة السيمنار ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٧م

(Padoue, l'imprimerie du Séminaire)

أسس الكاردينال غريغوريوس بارباريغو أسقف مدينة بادوا ، مطبعة شرقية سنة ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٤م[٣٤] ، وكان راعياً للدراسات الشرقية بإيطاليا . وقد أصدرت هذه المطبعة أربعة كتب عربية في نهاية القرن ١١ هـ / ١٧ م، منها كتاب لتعليم المسيحية وآخر للنحو العربي وثالث للشعر العربي وكذلك كتاب القرآن الكريم . أمّا عن الكتاب الأول فهو من تأليف طيمطاوس كرنوك (Timotheo Karnuk) أسقف ماردين بالعراق وعنوانه « كتاب الاختصار المختصر في الكمال المسيحي » ، وقد طبع سنة ١٠٩٩هـ / ١٦٨٨م وصدر للمؤلف نفسه بعد ثلاث سنوات « ديوان مناجاة الحبيب ونصائح القريب لضعفى الدياربكرى»[٣٥] أمّا كتاب القرآن الكريم[٣٦] الذي طبعه الراهب مراشي (Ludovico Marracci) سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨م ، فقد كان الغرض من وراء نشره، الجدل الديني حيث خصص الجزء الثاني منه لدحض الإسلام .

٤.١ - المطبعة العربية بفرنسا :

إن المطبعة الوحيدة التي اهتمت بالنشر العربي في فرنسا هي مطبعة سافاري (Savary De Breves) التي تأسست سنة ١٠٢٤ هـ / ١٦١٦م بباريس. وهذا على الرغم من وجود محاولة لطبع الكتب العربية كان قد قام بها المستشرق الفرنسي بوستال (Postel).

باريس، الحروف العربية الخشبية لبوستال ٩٤٤هـ/١٥٣٨م :

عمل ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي يعدّ أبًا للحركة الأدبية وباعثها

بفرنسا، على جلب القس أوغسطينوس جيستنيانوس ناشر كتاب المزامير بجنوة، وذلك لدى رجوعه من إيطاليا سنة ١٥١٦م ، بقصد تدريس اللغة العبرانية . وفي سنة ١٥٣٠م أسس معهد فرنسا (College de France) ، وعين أساتذة لتدريس اللغتين اليونانية والعبرانية ، ولم يتقرر تدريس العربية بالمعهد، إلا في عهد الملك هنري الثالث سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧ م، حيث نُصِّب للتدريس عدد من الأطباء الذين كانوا قد اقتنعوا بأهميتها في تقدّم مهنتهم[٣٧] . ولم تعرف الطباعة العربية طريق النجاح في فرنسا إلا في عهد لويس الثالث عشر بفضل مجهودات سافاري دي براف وريشليو (Richelieu) والمطبعي أنطوان فيتراي (Antoine Vitré†) ، هذا على الرغم من وجود محاولة لطباعة الكتب العربية بباريس منذ القرن ١٠هـ /١٦م بمبادرة من بوستال حيث تمكن هذا المستشرق القابل (Kabbaliste) من طبع أول كتاب له سنة ١٥٣٨م بعنوان Alphabetum linguarum characteribus differetium alphabetum وهو كتاب يهتم بقواعد النحو لعدة لغات شرقية ، وقد طبع بأحرف من خشب . أما كتابه الثاني فقد طبع بباريس سنة ١٥٤٣م تحت عنوان : (Grammatica arabica)[٣٨].

باريس، مطبعة سافاري ١٠٢٤هـ/١٦١٦م :

شغل فرانسوا سافاري دي براف منصب سفير فرنسا في إستانبول (١٥٩١- ١٦٠٦م)، ثم في روما (١٦٠٨ - ١٦١٤) . وقد أقام قبل ذلك في الشرق مدة اثنتين وعشرين سنة ، تمكن خلالها من تعلم اللغة التركية. واستطاع أثناء سفارته لدى الباب العالي ، من توقيع معاهدة سنة ١٠١٢هـ / ١٦٠٤م بين ملك فرنسا هنري الأكبر والسلطان العثماني أحمد الأول . وتؤكد هذه المعاهدة على الامتيازات التي كانت قد تحصلت عليها فرنسا منذ عهد سليمان القانوني ، وتضيف إليها امتيازات تجارية جديدة. رغم ذلك، لم يكن سافاري يخفي حذره وعداءه تجاه العثمانيين. ولم يكن يرى في كل المعاهدات

الموقعة معهم سوى تحالف تكتيكي موجه ضد أعداء فرنسا وبالخصوص ضد الأسبان[٣٩]. وهو تحالف وقتي في انتظار تنفيذ المشاريع الصليبية الرامية لتحطيم الدولة العثمانية[٤٠] .

وقد ألف السفير كتيبًا عرض فيه مشاريعه ، ومنها إمكانية استغلال قوة المسيحيين بالشرق لإزعاج الدولة العثمانية[٤١]. ولذلك حرص على القضاء على كل الخلافات بين مسيحيي الشرق والبابوية بروما، وأسهم في تدعيم مجهودات الفاتيكان لتحقيق الوحدة معهم . وعلى غرار ما قام به اليسوعيون ، فإنه قرر أن يؤسس مطبعة شرقية لنشر الكتب المسيحية بقصد توزيعها بالشرق.

وقد عمل على حفر الحروف الشرقية منذ إقامته بإستانبول[٤٢] وتحسينها في روما موكلاً المهمة هناك إلى الناقش لوبى (Le Be)[٤٣]. ولكن ديفردي يشك في إمكانية وجود حفارين بالشرق؛ لأنه حسب رأيه لا توجد هناك أدوات العمل اللازمة في ذلك العصر ، ويرى أن القوالب قدسبكت في روما[٤٤] . ولكن يبدو لنا أنه ليس من المستحيل وجود صائغين ماهرين في إستانبول قادرين على حفر القوالب والحروف العربية . وإذا علمنا أن حفارين أوربيين يجهلون اللغة على غرار ڤرانجون قد نجحوا في نقش حروف عربية جميلة لأدركنا سهولة هذا العمل لحفارين عرب ، بما أن لغتهم الأم هي العربية . ومن الممكن أن يعمد سافاري للحصول على الحروف العربية إلى الأقليات الدينية بإستانبول . التي أنشأت مطابعها في هذه المدينة منذ أواخر القرن ٩ هـ /١٥م [٤٥] . وأخيراً نذكر شهادة لأحد المطبعيين الفرنسيين المعاصرين للأحداث والتي يؤكد أيضاً فيها أن الحروف الشرقية قد جاءت من الشرق[٤٦].

تنقسم الحروف العربية التي جلبها سافاري إلى ثلاثة أحجام : العربي الصغير ، والعربي المتوسط ، والعربي الكبير ، وهي لا تقل جودة وجمالاً عن أحرف ڤرانجون . وعند عودته من باريس سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٥م قادما من روما ، اصطحب سافاري معه أستاذين مارونيين ، هما جبرائيل الصهيوني

ويوحنا الحصروني وأيضاً المطبعي بولينوس للعمل بفرنسا . وقد أحضر معه من مطبعته التي أسسها في روما القوالب والحروف بقصد تأسيس مطبعة جديدة بباريس ، أوكل فيما بعد مهمة تسييرها إلى بولينوس ، وحرص هذا الأخير على تكوين عمال بقصد تعويضه فيما بعد . وبالفعل ، فقد عاد إلى روما مصطحباً آلات لصب الحروف استعملها - كما رأينا- لطبع كتب عربية .

المطبعي أنطوان (Antoine Vitre) :

لم تنشر مطبعة سافاري بباريس في عهد مؤسسها سوى كتاب واحد تحت عنوان : « كتاب في صناعة النحو » يشتمل على خمسة أجزاء ، وهو من تأليف جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني ولم يكن يشتمل إلا على جزء واحد من الأجزاء التي أعلن عنها في العنوان وهو ثنائي اللغات أي بالعربية واللاتينية . وبعد وفاة سافاري دي براف سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م ، تواصل النشر العربي بفضل نشاط وحماس أنطوان فيتراي وهو المطبعي الذي عينه الملك للتخصص في اللغات الشرقية حيث حصل على هذا الامتياز سنة ١٦٣٠م ، وقام بشراء الأحرف الشرقية من ورثة سافاري . وكان ريشليو قد كلفه خفية بشرائها لحساب الملك بعدما أظهر بعض المطبعيين البروتستانت من أنجليز وهولنديين الرغبة في شرائها[٤٧]. ويمكن أن يكون الملك قد تخوف من أن " أشياء جميلة وفريدة من نوعها يمكن أن تباع إلى أشخاص لتتحول خارج مملكته . وقد تسيئ إذ ذاك كثيراً إلى الديانة [٤٨] وهكذا يبرز للعيان أن حروف سافاري قد أقحمت على غرار حروف ڤرانجون في الصراع الذي تدور رحاه بين الكاثوليك والبروتستانت ، بقصد التغلغل في أوساط مسيحيي الشرق ، ونظرا لأن الملك لم يسدد ثمن الحروف كاملاً إلى فيتراي، فإن هذا الأخير تعرض إلى عدة محاكمات بعد ما رفع ورثة سافاري القضية للعدالة . وقد حرص فيتراي على تجديد الأحرف وأوكل المهمة إلى متخصصين ماهرين أمثال جبرائيل الصهيوني

وجاك دي صولاك الذين أعدوا الأحرف العربية لطباعة الكتاب المقدس المتعدد اللغات سنة ١٠٥٤ هـ / ١٦٤٥ م .

محتوى النشر العربي بباريس:

لم تنشر المطبعة الشرقية بباريس سوى أربعة عشر كتاباً عربياً في القرن ١١هـ/ ١٧م ، وهي موزعة كالآتي : أربعة كتب مسيحية مقدسة ، كتابان للتعريف بالمسيحية . أربعة كتب في النحو العربي ، ثلاثة كتب في التاريخ ، وكتاب واحد في الفلسفة .

ومن بين الكتب المسيحية المقدسة يوجد " كتاب المزامير " الذي نشر سنة ١٦٧٩م تحت عنوان « سبعة مزامير التوبة » ، وهو إعادة لطبعة روما سنة ١٦١٤م، والذي كان قد ترجمه جبرائيل الصهيوني ونصر الله شالاق . وكذلك توجد " رسالة يوحنا " مطبوعة بالعربية واللاتينية سنة ١٦٣٠م ثمّ ١٦٧٢م . أمّا عن أهم كتاب صادر عن المطبعة فهو الكتاب المقدس المتعدد اللغات الذي أصدره لوجاي (Lejay) سنة ١٦٤٥م ، في سبع لغات هي العربية والسمارية (Samaritain) والكلدانية واليونانية والسريانية واللاتينية والعبرية . ويحتوي على عشرة مجلدات ، ويعدّ تحفة المطبعة الشرقية بفرنسا، وفي مرتبة الطبعات نفسها التي كان قد أصدرها كلّ من الكالا (Alcala) وكسيمنس (Ximenès) للكتاب المقدس المتعدد اللغات . ومن الملاحظ أن مشاريع هذا الصنف من الطبعات لم تكن جديدة ، بل إن المنافسات بين مختلف البلدان الكاثوليكية والبروتستانتية كانت على أشدها وترمي كلها إلى إصدار الكتاب المقدس في لغات متعددة.

ويعود مشروع إصدار الكتاب المقدس بباريس إلى سنة ١٦١٥م . وقد أعده كل من الكاردينال دي برون (Du Perron) وجاك دي تو (Jacques de Thou) وسافاري دي براف ولكنهم فشلوا في تحقيقه . فأخذ المحامي لوجاي (Lejay) ذلك على عاتقه بأن موّل المشروع واتصل بعدد من العلماء . وقد أوكل مهمة تحضير

النص العربي إلى ثلاثة علماء مارونيين ، هم : جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلاني ويوحنا الحصروني[٤٩] .

وقد تم إهداء الكتاب المقدس الذي طبعه فيتراي إلى مازاران ؛ ويبدأ النص العربي الذي طبع بأحرف سافاري من الجزء الخامس ، وبه كلّ الحركات ولكنّه يحتوى على أغلاط كثيرة . إن الكتاب المقدس لم يكن معداً للدراسة بقدر ما هو معد للافتخار ، وذلك بسبب حجمه الكبير الذي لا يسهل بالمرة مهمة القارئ . ومن جملة الكتب الدينية الأخرى التي أصدرتها مطبعة باريس سنة ١٦٣٥م ، يوجد كتاب " **التعليم المسيحي** " لبالارمان الذي كان قد طبع في روما سنة ١٦١٣م ، وأيضاً كتاب لريشليو بالعنوان نفسه صادر سنة ١٦٤٠م من ترجمة جيست دي بوفي (Juste de Beauvais) ، وهو رئيس الكبوشيين في بغداد .

نشرت مطبعة سافاريانا أيضاً كتيباً صغيرا بعنوان « **العهد والشروط التي شرطها محمد رسول الله لأهل الملة النصرانية** » باللغتين العربية واللاتينية ، ويتضمن العهود التي التزم بها الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الذمة عند تأسيس الدولة الإسلامية[٥٠] . ويبدو أن الهدف الذي ترمي إليه فرنسا من نشر مثل هذه العهود هو التقرب إلى مسيحيي الشرق لحمايتهم بفضل وضعها الممتاز في الإمبراطورية العثمانية . وقد يكون الهدف من نشر الكتاب هو بعث الطمأنينة لدى تجار مرسيليا الذين انضموا تحت راية ملك فرنسا في بداية القرن السابع عشر ، وذلك بإبراز عقلية التسامح الديني الموجودة لدى المسلمين وحتى يقدم هؤلاء على الاتجار في موانئ الشرق. وقد يكون الغرض نفسه هو الذي حدا بمدن تجارية لطبع الكتيب مثل ليدا سنة ١٦٥٥م وهامبورغ سنة ١٦٩٠م .

كما اهتمت المطبعة الشرقية بباريس أيضا بكتب اللغة العربية وحتى كتب الفلسفة . فأصدرت سنة ١٦٣٢م المعجم العربي لديفال (Dictionnaire arabe de Duval) ، وأيضاً كتاب « النحو » لاربنيوس سنة ١٦٣٨م ، وأخيرًا كتاباً موجزاً في الفلسفة بعنوان « **مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب** » صدر سنة ١٦٤٢

باللغتين العربية واللاتينية . وقد قام بالترجمة إبراهيم الحاقلاني وهذا الكتاب يمثل جزءا من كتاب في الفلسفة بالفارسية عنوانه « جام كيتى نما » (مرآة العالم) ، ويحتوى على رسائل فلسفية .

إنه من الغريب أن تقدم فرنسا هذا الإنتاج الضئيل من الكتب العربية رغم أن كلّ الإجراءات التي اتخذت من طرف سافاري وريشليو وفيتراي تنبئ بحصيلة مرتفعة . فقد ظهرت اللامبالاة تجاه المطبعة العربية إذ انصرف العلماء المستعربون إلى ترجمة المؤلفات العربية الكبرى للفرنسية أو اللاتينية .

وقد أكد ذلك الكاتب دي غويني (De Guignes) حين قال : « كان العلماء الفرنسيون يحبذون الكتب المترجمة للتعريف بالشرق » [٥١] ، وحتى السلطات لم تواصل عمل ريشليو فأهملت المطبعة ، وفضلت إرسال الشبان لتعلم اللغات في الشرق (Les jeunes de langues)[٥٢]. ونتج عن ذلك ركود الدراسات العربية بفرنسا نظرًا للنقص في الكتب النحوية والمعاجم اللغوية وهذا الأمر كان قد تفاداه العلماء الهولنديون منذ فترة في بلدهم .

٥.١ – المطبعة العربية في هولندا :

أنشئت ثلاث مطابع للغات الشرقية بهولندا أي في مدن التراخت وأمستردام وفي ليدا . وكانت تعمل بإشراف جامعات تلك المدن . ونظرًا لوجود عقلية التسامح الديني في هذه المدن البروتستانتية ، فإن هذه الجامعات قد انصرفت للدراسات العلمية إلى جانب دورها في تكوين الرعاة البروتستانتيين ، فاستقبلت كثيراً من الأجانب أمثال الفيلسوف الفرنسي دي كارت ، وقد تميزت المطابع العربية بهولندا عن مثيلاتها بفرنسا وإيطاليا بمحتوى النشر العربي المتنوع . فالمستشرقون الهولنديون ، خدموا فعلاً الإصلاح الديني ولكن مع ذلك اعتنوا كثيراً بالمؤلفات العلمية للمسلمين .

وسوف نتوقف عند نشاط أهم مطبعة عربية وهي موجودة بمدينة ليدا ، والتي نشرت ثمانية وثلاثين كتاباً في القرنين السادس عشر والسابع عشر في حين لم تنشر مدينتا أمستردام والترخت مجتمعتين سوى ستة كتب .

ليدا ، مطبعة بلانتان – رافلانج ١٠٠٢ هـ/ ١٥٩٥ م

Plantin - Rapheleng

منذ تأسيس جامعة ليدا سنة ٩٨٢ هـ/ ١٥٧٥م ، تم تعيين تسعة أساتذة في مختلف مجالات المعرفة علاوة على علماء الدين. وخصصت كرسياً لتدريس العبرانية وآخر للعربية ، وقد قررت الجامعة منذ تأسيسها تعيين أحد علمائها من ذوي الخبرة في ميدان الطباعة والنشر ليشغل منصب مطبعي عام[٥٣]. ومن أبرز العلماء الذين عينوا في هذا المنصب فرانسوا رافلانج (١٥٣٩ – ١٥٩٧م) أستاذ اللغات الشرقية الذي دعي لتعويض صهره المطبعي الفرنسي فرانسوا بلانتان ، وكان رافلانج يدرس العبرانية ويحذق اللاتينية واليونانية والسريانية والعربية والفارسية ، واشتغل بإصلاح الأخطاء المطبعية في مؤسسة صهره[٥٤] . ثم قام بحفر الحروف العربية بتشجيع من العالم الفرنسي سكاليجار (Scaliger) وذلك في سنة ١٥٩٣م حيث أحضر القوالب والطوابع لأحرف العربية حسب مثال ڤرانجون[٥٥] لطبع الكتب . وبعد وفاته واصل ابنه هذا العمل .

ونشرت أول مطبعة عربية بهولندا ثمانية كتب ثنائية اللغة أي بالعربية واللاتينية، ومن بينها ثلاثة تهتم بالكتب المقدسة. أمّا البقية فتعالج مواضيع نحوية وأدبية عربية. ويعدّ معجم رافلانج (Lexicon arabicum) أول معجم نشر بالعربية في أوربا، وذلك منذ سنة ١٦١٢م، أمّا كتاب النحو (Grammatica arabica)[٥٦] الصادر أيضاً في السنة نفسها ، فقد كان ثمرة عمل جدي للعالم الهولندي أربنيوس ويتكون من خمسة أجزاء : الرسم والصرف والأعلام والنحو

والأدوات . وهذا الكتاب الذي تهافت عليه الطلاب ، كان السبب في شهرة مؤلفه. وتمت إعادة طبعه في ليدا سنتي ١٦٣٦ و١٦٥٦م مع بعض الإضافات. كما نشرت مطبعة بلانتان ـ رافلانج أيضاً كتاب الأمثال سنة ١٦١٤م الذي يحتوي على مئتي مثل عربي مع ترجمة لاتينية . وهو يبرز متانة علاقة التعاون بين المستشرقين الفرنسيين والهولنديين الذين قاموا بترجمته في باريس وهم كازبون وسكاليجار واربنيوس .

ليدا ، مطبعة أربنيوس ١٠٢٢ هـ/ ١٦١٣م :

يعدّ توماس فان أرب المعروف باسم أربنيوس (١٥٨٤ -١٦٢٤م) من أشهر المستشرقين الهولنديين. وقد تعلم العربية بليدا واشتغل بتدريس اللغات الشرقية بجامعة المدينة منذ سنة ١٦١٣م . وحرص على مواصلة عمل رافلانج ، وأسس مطبعة في بيته الخاص[٥٧] ، كان يشرف عليها بنفسه حتى مماته . وقد كلف أحد الأخصائيين بحفر الحروف العربية حسب نموذج سلفه ، ولكن ثمنها كان باهظًا[٥٨]. وقد حصل على أحرف جميلة لا تفوقها من حيث الإبداع إلا أحرف ڤرانجون. وقد طبع أربنيوس ثلاثة عشر كتاباً لها محتويات متنوعة : أربعة كتب مقدسة، سبعة كتب نحوية وأدبية، وكتابان في التاريخ .

أما النص البروتستانتي للعهد الجديد، فقد صدر بالعربية سنة ١٦١٦م[٥٩]، كما تم طبع نص سورة يوسف من القرآن الكريم سنة ١٦١٧م[٦٠] مع ترجمة لاتينية ، ونشر أيضاً نصين أدبيين من محاضرات أربنيوس، كان قد ألقاها عند بداية دروسه سنتي ١٦١٣ و ١٦٢٠م[٦١] ، وقد مدح فيها ثراء اللغة العربية وعراقتها وذكر منافعها. كما أصدر أربنيوس أيضاً كتاب « **أمثال لقمان الحكيم**» سنة ١٦١٥م، وكان هذا الصنف من الأدب ملائماً كثيراً لذوق ذلك العصر بهولندا[٦٢]. أمّا عن أول كتاب تاريخ نشر بليدا فهو « **تاريخ المسلمين** »[٦٣]

لجرجس المكين بن العميد(٦٤) ؛ وهو منتخبات تاريخية تبتدئ من ظهور الإسلام حتى الدولة الأيوبية .

ليدا ، مطبعة الزفير ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٨ م (Ezevier) :

حرصت جامعة ليدا بعد موت أربنيوس على المحافظة على الأحرف العربية وعملت على منع تسريبها إلى الأجانب حتى تبقى دوما على ذمتها، فتقدم إسحاق الزفير (Isaac Elzevier) ، وهو مطبعي الجامعة ، لشرائها سنة ١٦٢٠م من عند أرملة أربنيوس. وقد حيّا مجلس الجامعة هذا العمل وعدّه « وطنياً »(٦٥) باعتبار أن الأحرف العربية لم تغادر المدينة ، رغم محاولات الكاثوليك لشرائها. وهكذا ومرة أخرى ، وقع إقحام هذه الأحرف في خضم الصراع الديني الذي تدور رحاه بين الكاثوليك والبروتستانت .

وقد واصل المطبعيون من عائلة الزفير عملية نشر الكتب العربية طيلة القرن السابع عشر برعاية أساتذة جامعيين ، ومن أبرزهم يعقوب غوليوس (Golius) (١٥٩٦-١)(٦٦) وكذلك فابريسيس (Fabricius) ونسال (Nissel) وبتراي (Petrai). أصدرت مطبعة الزفير سبعة عشر كتاباً من بينها سبعة كتب مقدسة إسلامية ومسيحية وستة كتب أدبية عربية وكتابان في التاريخ وواحد في الفلك وآخر في الفلسفة .

وقد نشر غوليوس سنة ١٦٢٩م منتخبات أدبية بعنوان « شذرة الأدب من كلام العرب » ، ويحتوي على أمثال للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ولامية الطغرائي وبعض القطع الشعرية العربية ورسالة الفلسفة لابن سينا .

كما أصدر غوليوس معجماً عربياً - لاتينياً ضخماً بعنوان (Lexicon arabico-latinum)(٦٧) ، وقد استعان في إنجازه بمعجم الصحاح للجوهري ، ويعد عمله أفضل من معجم جيجاي الذي صدر بميلانو. وكان من جملة أسباب تقدم

الدراسات العربية في أوربا ، ويعدّ أضخم إنجاز لمطبعة ليدا حيث دامت عملية طبعه عدة سنوات[٦٨] بإعانة عالم من أرمينيا وشماس من حلب وعالم من بلاد فارس [٦٩] .

ومن جملة كتب التاريخ نذكر « **عجائب المقدور في أخبار ابن تيمور** » لأحمد ابن عربشاه الذي نشر سنة ١٦٣٦م أما كتاب الفلك فعنوانه « **كتاب في الحركات السماوية** » للفرغاني سنة ١٦٦٩م . من الملاحظ أن العلماء المستعربين في ليدا لم يوجهوا النشر العربي نحو الجدل الديني ضد المسلمين أو الكاثوليك إلا قليلاً ، إذ انصرفت عنايتهم لتوفير كتب النحو العربي والمعاجم ، وهي أدوات أساسية لتطوير الدراسات العربية لدى البروتستانت . ومن أبرز هذه الأدوات يوجد كتاب النحو العربي لأربنيوس ومعجم غوليوس ، وهي إذن من إنجاز علماء متبحرين في اللغة العربية كانوا محل تقدير وإعجاب من طرف كل علماء أوربا . ان النزعة العلمية في الاستشراق العربي في القرن السابع عشر كانت أكثر وضوحاً في هولندا .

٦.١ – المطابع العربية في المدن الألمانية :

بعد بداية متواضعة في أواخر القرن السادس عشر، عرف النشر العربي تطوراً كبيراً في المدن الألمانية ، إذ بلغت حصيلة الإنتاج تسعة وأربعين كتاباً موزعة على سبعة عشر مركزاً طبيعيّاً هي التالية : أوغسبورغ، برام، سيزا، فرانكفورت، غريفسوالد ، هامبورغ ، هيدلبارغ ، اينا ، لايبزغ ، روستوك ، شلاشفيق ، تيبنجن ، ويتنبرغ ، براسلو (حالياً وراكلو في بولونيا) ، التدورف وزوريخ (في سويسرا) وايبسالا (في السويد) .

اهتمت الجامعات الألمانية كثيرًا بدراسة اللغات الشرقية، إذ منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأ تدريس اللغة العبرانية. بعد ذلك جاء دور العربية

لتشد إليها انتباه العلماء الألمان، حيث خصصت الجامعات كراسي لها منذ منتصف القرن السادس عشر، وذلك قبل أن تهتم بنشر كتب عربية بداية من سنة ١٥٨٣م . وقد ظهر أول كتاب عربي مطبوع في ذلك التاريخ بمدينة هايدلبارغ بعنوان « **رسالة بولس الرسول** » . وقد قام بنشرها العالم الألماني سباي (Spey) ، وقدم الترجمة العربية مع النص اللاتيني وكانت الحروف العربية حينئذٍ محفورة على خشب ، وهذا ما يفسر الصعوبات التي لاقاها الألمان في الحصول على قوالب وطوابع للأحرف العربية، بعد أن ضرب البابا وملك فرنسا الحصار على أحرف ڤرانجون وسافاري . وهذا ما حدا ببعض المستشرقين الألمان لنشر كتبهم لدى الهولنديين[٧٠] . ومن هنا كان التعاون وثيقاً بين المستعربين في المدن البروتستانتية . فمثلاً التقى العالم (Hottinger) (١٦٢٠ - ١٦٦٧م) بغوليوس الذي مدّه بنصائح ثمينة للتقدم في دراسة العربية[٧١] .

تمكن في نهاية الأمر عدد من الأساتذة من حفر الأحرف العربية على حسابهم الخاص، حتى أنهم كانوا ينتقلون بها من جامعة لأخرى [٧٢] . ولذلك كانت معروفة باسم الأستاذ الذي أعدها أكثر من اسم المطبعة. وهكذا كانت أحرف هوتنجار في هايدلبارغ وزوريخ ، وأحرف فابرسيس في روستوك ، وأحرف كرستن في براسلو . وقد نجح هذا الأخير على سبيل المثال في حفر أحرف عربية جميلة منذ سنة ١٦٠٨م ، وهو الطبيب والمستشرق الذي كان يقضي وقته بين ممارسة مهنة الطب ودراسة الأدب العربي ؛ لأنه « كان مبهوراً بهذه اللغة ويريد أن يكون داعية لتدريسها ويعدّها ضرورية لفهم الطب واللاهوت والفلسفة والقضاء »[٧٣] ، وحين كلف بتدريس العربية بجامعة براسلو قرر أن ينشر كتباً في هذه اللغة على حسابه الخاص ، طلب من أحد الحفارين - واسمه بيتر فان سلو - أن ينقش له حروفاً عربية حسب نموذج ڤرانجون[٧٤] وتوصل إلى طبع عشرة كتب ثنائية اللغة أي عربية لاتينية ، وذلك فيما بين سنتي ١٦٠٨م.

و١٦١١م[٧٥] ، وسوف نكتفي نظراً لضخامة الإنتاج المطبعي بدراسة بعض المنشورات العربية المهمة.

المنشورات العربية بالمدن الألمانية :

تعالج أغلب الكتب العربية المطبوعة مواضيع لغوية وأدبية ودينية . ومن أبرز المنشورات نذكر كتاب القرآن الكريم الذي طبع لأول مرة[٧٦] بأكمله في هامبورغ سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م بإشراف المستشرق البروتستانتي إبراهام هنكلمان (١٦٥٢ - ١٦٩٥م) (Abraham Hinckelman) وحتى ذلك التاريخ، كان المستعربون الألمان يكتفون بنشر بعض السور القرآنية مع إيضاحات عن مبادئ الإسلام[٧٧]. وقد نشر هنكلمان القرآن الكريم بأكمله دون ترجمة لاتينية ؛ لأنه « لم يجد أي شخص قادر على القيام بهذه المهمة أو على الأقل يريد تحملها »[٧٨] . ومع ذلك فقد بدأ الكتاب بمقدمة جدلية في ثمانين صفحة باللاتينية، ذكر فيها أنه لا ينوي نشر الدين الإسلامي في أوساط البروتستانتيين بل إن هدفه الوحيد هو معرفة العربية والإسلام[٧٩] ، ويوضح " بأنه من المفيد معرفة العربية ولكي نتقن هذه اللغة وجب معرفة القرآن" [٨٠] . ويحتوي الكتاب على جدول التصويبات ، وبالرغم من ذلك فإنه مملوء أخطاء في الرسم علاوة على نقص في بعض الآيات .

اهتم المستعمرون الألمان كثيرًا بنشر كتب النحو العربي ومن ضمن الخمسة عشر كتاباً في النحو التي طبعت يوجد كتاب النحو العربي لمادار (Madar) الذي نشره في أوغسبورغ سنة ١٦١٧م[٨١] وفيه يشرح المستشرق الألماني قواعد هذه اللغة ويمدحها ويبين منافعها. كما صدر كتاب عن مستشرقين قابلين (Kabbalistes) هما شيكارد وجرهارد بمدينة إينا (Iena) سنة ١٦١٧م ، يبين فيه الكاتبان طريقة تدريس اللغات الشرقية خاصة منها العبرانية والكلدانية

والسريانية والعربية والأثيوبية وخصصا فقرة لدراسة التناسق في التصريف مرفوقة بجدول بياني عن مطابقة الأشكال اللغوية ومرسوم على هيئة دائرة لزيادة توضيح ذلك البحث[٨٢] ونشر العالم سنارت (Sennert) في ويتنبارغ كتاباً في النحو سنة ١٦٥٨م مرفوقًا برسالة قصيرة فيها مقارنة لمختلف لغات الإنجيل[٨٣] « إنها أيضًا من أعمال علماء لاهوت بروتستانت متبحرين يدرسون الكتب المقدسة في لغاتها الأصلية مع مقارنة بين اللغات السامية وخاصة منها العربية والعبرانية ، ويطمح البعض منهم إلى رسم صورة عن تناسق الخلق من خلال التعمق في دراسة هذه اللغات»[٨٤] .

٧.١ – المطابع العربية بإنجلترا :

تأخرت المطبعة العربية بإنجلترا في الظهور، إذ لم تبتدئ إلا سنة ١٦٣٧م. وقد نشطت في مركزين تابعين لجامعتي أكسفورد ولندن ، وذلك طيلة القرن ١١هـ / ١٧م. وبالرغم من تقدم الإنجليز في ميدان النشر باللغات الأوربية، إلا أنهم وجدوا صعوبات لتطوير الطباعة العربية على عكس ماتوصل إليه الألمان والهولنديون .أما عن أسباب هذا «التأخير» فتبقى مجهولة على حد علمنا. ولكن من المؤكد أن الأسباب الفنية أسهمت في عرقلة انطلاقة المطبعة. ويبدو أن غياب حفارين قادرين على صب القوالب والطوابع للأحرف العربية ، قد دفع بأساتذة العربية إلى طبع كتبهم بالأحرف العبرانية[٨٥] .

مطابع أكسفورد ١٠٤٩ هـ/ ١٦٣٩ م ولندن ١٠٦١ هـ/ ١٦٥٠ م :

تأسست مطبعة أكسفورد بإيعاز من المستشرق والعالم الديني إدوارد بوكوك الذي نشر بمفرده عشرة كتب عربية . ولد بوكوك بأكسفورد سنة ١٦٠٤[٨٦]، وقد درس اللغات الشرقية قبل أن يدخل النظام الأنجليكاني ، ليعين

كاهنًا للوكالة التجارية بحلب . هناك قضى ست سنوات مكنته من حذق اللغة العربية. وفي سنة ١٦٣٦م عين أستاذًا للعبرانية والعربية بجامعة أكسفورد. وقد طلب آنذاك من الجامعة الترخيص له بطبع كتب عربية. فأرسلت هذه المؤسسة سنة ١٦٣٧م المطبعي صمويل براون إلى ليدا، لشراء قوالب وطوابع للأحرف الشرقية بما فيها اليونانية والعبرانية والعربية[٨٧] ، وهذا دليل على أن الانجليز لم يجدوا حتى ذلك التاريخ، أخصائيين ماهرين لحفر الأحرف الشرقية. وقد حدث المشكل نفسه لجامعة لندن التي استعارت أحرف أكسفورد لطبع كتب عربية ، وقد اتخذها المستشرق جون ڤريفس (١٦٠٢ - ١٦٥٢م) سنة ١٦٤٨ كنموذج لصب أحرف لجامعة لندن، ثم أرجعها بعد سنة واحدة. وبعد ذلك تم حفر أحرف عربية بلندن استعملت لأول مرة في طبع الكتاب المقدس المتعدد اللغات سنة ١٦٥٧م. وتختلف هذه الأحرف عن مثيلاتها بأكسفورد من حيث كبر الحجم إلى جانب جودتها وتضمنها للحركات والعلامات. وقد تم إعدادها بطلب من توماس رويكريف وهو مطبعي الملك المتخصص في اللغات الشرقية وبريان والتون ناشر الكتاب المقدس المتعدد اللغات، اللذان استدعيا مجموعة من العلماء المستعربين بقصد ترجمة وطبع النص العربي للتوراة وهؤلاء هم توماس ڤريفس وصمويل كلارك وألكسندر همش وتوماس هيد وتوماس بيرس وهنري هموندا .

وبالنسبة لمحتوى الكتب العربية بإنجلترا، فهو متنوع إذ من جملة واحد وعشرين كتاباً هناك ستة في الجغرافيا والتاريخ ، وخمسة في اللغة العربية ، وستة في الديانة واثنان في الفلسفة ، وواحد في الهندسة وآخر في علم الفلك . ومن خصائص النشر العربي بإنجلترا احتواؤه على عدد مهم نسبياً من كتب التاريخ والجغرافيا ، وهكذا أصدر بوكوك وسلدن منذ سنة ١٦٥٩ في مدينة أكسفورد « **كتاب نظم الجوهر** » أي حوليات سعيد بن البطريق (٨٧٦ - ٩٣١هـ) ، وهو طبيب ومؤرخ مسيحي من مصر. كما نشر بوكوك أيضًا سنة ١٦٦٣م

"تاريخ مختصر الدول" لابن العبرى أو غريغوريس أبو الفرج، وهو مؤرخ عربي وفي الوقت نفسه بطريق يعقوبي بالإسكندرية (١٢٢٥ - ١٢٨٦م). كما صدر للمؤلف نفسه سنة ١٦٥٠م « لمع من أخبار العرب » . من جملة كتب الجغرافيا نذكر كتاب أبي الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١م) « تقويم البلدان » [٨٨] وهو منتخبات من مؤلفات ابن حوقل والبيروني وغيرهما .

لقد نشر الانجليز منتخبات تاريخية وجغرافية متأخرة تعود إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حيث فضل العلماء المستعربون استعمال منتخبات لكتاب من العرب والمسيحيين لتعويض المجلدات العربية القديمة الضخمة والتي من النادر وجودها في أوربا. « إن هذه الكتب قد عوضت في الشرق المصادر الأولية ولهذا السبب، فإنها وصلت قبل غيرها »[٨٩] أمّا بالنسبة للكتب الدينية فهي تحتوي على نصوص من التوراة ومن كتاب في التعليم المسيحي والطقوس، ويعد كتاب التوراة المتعدد اللغات أهم كتاب ديني صدر في لندن وذلك في سنة ١٦٥٧[٩٠] .

ومن جملة كتب الآداب العربية نجد معجماً كبيراً في سبع لغات شرقية بعنوان (Lexicon heptaglotton) من نشر المستشرق أدموند كستال (Edmond Castel) سنة ١٦٦٩م، «هو عمل علمي رائع صمّم لإكمال التوراة المتعددة اللغات»[٩١]. بقى أن نذكر كتاب الفلسفة العربي حي بن يقظان لابن طفيل الذي نشره بوكوك في أكسفورد سنة ١٦٧١م ، ثمّ أعاد ابنه طبعه سنة ١٧٠١م.

٨.١ - ملاحظات عامة عن النشر العربي في أوربا :

لا توجد مطابع متخصصة فقط في النشر العربي؛ ولكن هناك مطابع مهتمة بعدة لغات شرقية وأهمها العبرانية واليونانية والعربية والسريانية والتركية. وبما أن الأحرف العربية كانت نادرة فإنها اقترنت في عدة حالات باسم الناقش

والأستاذ ، أو راعي الآداب الذي أشرف على إعدادها أكثر من اقترانها باسم المطبعة. وقد استعملت هذه الأحرف أحياناً في أكثر من مطبعة ، نظراً لتنقل صاحبها من مدينة إلى أخرى ، وهذا ما فعله سافاري دي براف وهوتينجر وغيرهما . على أن أغلب المطابع الشرقية كانت مرتبطة بمعاهد أو جامعات ويقوم فيها الأساتذة وعلماء الدين بدور الناشر العلمي للكتب العربية ، وهذا لم يمنع أصحاب النفوذ الديني والدنيوي من التدخل المباشر في شؤونها خاصة بروما وباريس ، وذلك بهدف إملاء التوجهات الرئيسة للنشر واختيار النصوص ومراقبتها عند الطبع ، وهذا ما قام به بالفعل البابا غريغوريوس الثالث عشر بروما ، وأيضاً الكاردينال ريشليو بباريس .

إن انطلاقة المطبعة العربية في أوربا كانت صعبة بسبب غياب الناقشين القادرين على إعداد قوالب للأحرف العربية هذا فضلاً عن المشاكل الفنية الخاصة بالأبجدية العربية. ورغم ذلك فقد وفق إلى ذلك كل من قرانجون ولوباي وكرستنو والتون واربنيوس في حفر هجائية عربية سليمة حتى أن الأحرف البديعة لڤرانجون التي بقيت لمدة قرنين دون مضاهاة أحرف أخرى لها، اعتبرت مركز استقطاب النشر العربي في أوربا ، فقد نقل عنها ناقشون ألمان وهولنديون. ان نجاح الناقشين الأوربيين رغم جهلهم باللغة العربية ، يمكن أن يكون نموذجاً لأبناء المشرق لدفعهم لطبع كتب عربية ببلادهم . لقد أقحمت أحرف ڤرانجون إلى جانب أحرف سافاري وأربنيوس في الصراع الديني الدائر بين الكاثوليك والبروتستانت، حيث إن كليهما يريد نشر مذهبه بالشرق بواسطة الكتاب العربي المطبوع.

إنتاج الكتاب العربي في القرنين ١٠-١١هـ/١٦-١٧م :

نشرت المطابع العربية في أوربا في هذه المدة مئة وواحداً وتسعين كتاباً من

بينهم أربعة وعشرون كتاباً صادرة في القرن ١٠ هـ / ١٦ م . إن توزيع هذا الإنتاج بين مختلف مراكز النشر غير متزن ، فهناك مركزان في المقدمة تجاوزا في نشرهما الخمسة والثلاثين كتاباً وهما روما وليدا ، واثنان آخران متوسطا الإنتاج أي في حدود الخمسة عشر كتاباً وهما باريس وأكسفورد . وهناك مدن أخرى طبعت أكثر من أربعة كتب وهي أمستردام ولندن وبراسلو ، وأمّا بقية المطابع فلم تتوصل إلى نشر أكثر من كتاب أو اثنين ومن بينهم نذكر البندقية وميلانو وشلاشفيق ولايبزغ...الخ.

إن المدن الإيطالية كان لها قصب السبق في نشر أول الكتب العربية ، وأيضاً كان لها النصيب الأكبر في الإنتاج بفضل السبعين كتاباً التي أصدرتها في ظرف قرنين من الزمن . وفي المرتبة الثانية تأتي المدن الهولندية التي أنتجت خمسة وأربعين كتابا ، ثم تأتي المدن الألمانية حيث أنتجت أربعين كتاباً ، تليها المدن الإنجليزية التي أنتجت واحداً وعشرين كتاباً ، وأخيراً المدن الفرنسية وكان إنتاجها خمسة عشر كتاباً .

وإذا شهد القرن ١٠ هـ / ١٦ م نشأة النشر العربي في أروبا، فإن القرن ١١هـ /١٧ م، عرف ازدهار المطبعة العربية هناك إذ ازداد عدد المطابع التي نشرت في الجملة مئة وسبعة وستين كتاباً. ويصل معدل الإنتاج في كل عقد ستة عشر كتاباً ، ولكن في بعض العقود وصل الإنتاج إلى خمسة وعشرين كتاباً ، وذلك فيما بين السنوات ١٦١١-١٦٢٠م و ١٦٣١-١٦٤٠م و١٦٥١ - ١٦٦٠م .

وقد بلغ النشر العربي ذروة نشاطه في النصف الأول من القرن السابع عشر، حيث تم طبع مئة وأربعة عشر كتاباً، إذ وصلت أغلب المطابع إلى قمة إنتاجها خاصة بفضل نشاط مراكز ليدا وأكسفورد وباريس وروما . ثمّ أخذ الإنتاج في التضاؤل بداية من سنة ١٦٦١م ، وهذا بسبب توقف مطبعة سافاري بباريس وتقلص نشاط الزفيربليدا دون أن يتمكن الألمان من سد هذا الفراغ .

إن أغلب الكتب كانت ثنائية اللغة أي بالعربية واللاتينية . أما عن الكتب الأحادية اللغة أي بالعربية فقط، فهي في أغلبها من نشر الإيطاليين إذ أن نصف منشورات روما هي من هذا الصنف[٩٢] .

١ . ٩ - التوجهات الرئيسة للدراسات العربية في أوربا :

سنحاول من خلال دراسة محتوى الكتب المطبوعة، رسم مشاغل وأهداف العلماء المستعربين وتحليل أهم التوجهات المتوخاة في الدراسات العربية في أوربا في ذلك العصر .

وإنه من الصعب تقديم أرقام مدققة حول تصنيف الكتب حسب المواضيع ؛ لأن هناك كتباً تعالج أكثر من موضوع في الوقت نفسه . ولكن يمكن أن نلاحظ أن أكثر من ثلث الإنتاج المطبعي يتعلق بكتب النحو وتعليم اللغة العربية ، وكذلك ثلث آخر يعالج الديانة وخاصة المسيحية منها بما فيها النصوص المقدسة ونصوص في التعليم والدفاع عن المسيحية وكتب الطقوس والصلوات . أما البقية فهي موزعة بين العلوم الأساسية ، مثل الطب والفلك والرياضيات والعلوم الإنسانية مثل التاريخ والجغرافيا والفلسفة .

إن نسبة توزيع المحاور لا تنطبق بالدرجة نفسها على كل المطابع . فالكتب الصادرة عن المدن الإيطالية والفرنسية تعالج في الغالب مواضيع دينية على غرار مجمع نشر الإيمان الذي نشر بمفرده ثمانية عشر كتابًا دينيّاً، مقابل أحد عشر كتابًا في اللغة والآداب العربية . إن هذا المجمع قد سخر كل طاقاته مثل بقية المطابع الكاثوليكية لخدمة كنيسة روما ، فالبابا غريغوريوس الثالث عشر وخلفاؤه كانوا عاقدي العزم على تطبيق مقررات المجمع الكنسي بفيانا وفلورنس ولاتران الخامس وترانتا بخصوص الشرق ، وتتمثل في توفير كلّ الإمكانات اللازمة للتصالح مع الكنائس المستقلة بالشرق ومجابهة المسلمين ،

ومنع التسرب البروتستانتي إلى تلك الأصقاع. ولذلك فإن عملية طبع الكتب المسيحية العربية حسب رواية كنيسة روما تعدّ أنجع وسيلة لمعاضدة عمل المبشرين بسوريا .

وهكذا نشرت المطابع الست الموجودة بروما ثلاثة وثلاثين كتابًا كاثوليكياً موزعة كما يلي: سبعة كتب مقدسة بها النصوص الكاملة أو أجزاء منها مثل المزامير والأناجيل ، اثنا عشر كتابًا لتعليم المسيحية وأهمها كتاب بلارمان ، ثمانية كتب في الدفاع عن الدين المسيحي وفي الجدال ضد الإسلام وأبرزها كتاب كوادانولوس للرد على فقيه فارسي. وأخيراً ست كتب عن الطقوس المسيحية.

إن سياسة فرنسا شبيهة بسياسة روما نظرًا إلى أن سافاري دي براف وريشليو ولويس الثالث عشر كانوا يرون المطبعة من زاوية دينية ؛ وهكذا كرس النشر العربي في المدن الإيطالية والفرنسية انتصار الاستشراق الكاثوليكي[٩٣].

أما المطابع البروتستانتية فقد اهتمت بالكتب العلمية العربية أكثر من الكتب الدينية وهذا يعود إلى أن جلها تأسس في رحاب الجامعات، مثل ليدا وأكسفورد وهامبورغ ولندن وروستوك وإبسلا وغيرها . إذ نشر المستعربون الهولنديون والإنجليز والألمان انطلاقاً من عقلية بعيدة نوعًا ما عن الجدل الديني، أدوات العمل الأكثر طلبًا في الدراسات العربية في أوربا من معاجم وكتب نحو ومنتخبات شعرية وأدبية عربية . لقد حرص هؤلاء العلماء على نشر كتب التعليم والآداب العربية ؛ لأنهم يرون أنهم إذا أجادوا اللغة فإنهم سيتمكنون من قراءة المؤلفات العربية في لغتها الأصلية والتعمق في معرفة الحضارة الإسلامية .

إن المطابع الشرقية بليدا أنتجت كتبًا في اللغة والآداب العربية أكثر من كتب الدين؛ فمثلاً نشرت مطبعة أربنيوس سبعة كتب في اللغة مقابل أربعة في الدين واثنين في التاريخ . أما مركز أكسفورد فقد كرس جهده لكتب العلوم

الإنسانية، ستة كتب في التاريخ والجغرافيا واثنان في الفلسفة وثلاثة في اللغة وأربعة في الدين وواحد في الفلك .

وقد توصل العلماء البروتستانت إلى طبع معاجم عربية مهمة ، وذلك خلال القرن ١١ هـ/ ١٧م مثل المعجم اللاتيني ليعقوب غوليوس بليدا سنة ١٦٥٣م ، والمعجم المتعدد اللغات لكستال بلندن سنة ١٦٦٩ والمعجم العربي لرافلانج بليدا سنة ١٦١٣م . وقد شعر العلماء المستعربون بضرورة نشر مثل هذه المعاجم بقصد التعمق في فهم اللغة العربية[٩٤] ، وقد غابت مثل هذه الأداة عن اهتمامات المشرفين على مطبعة فرنسا[٩٥].

وإلى جانب المعاجم توجد كتب النحو العربي التي هي جد مطلوبة من طرف الطلاب في أوربا، ومن أهم هذه الكتب المدرسية نذكر الآجرومية التي أعيد طبعها تسع مرات في عدة مدن أوربية وكذلك كتاب النحو العربي لأربنيوس الذي كان محل تقدير معاصريه، لوضوح وجدية عمله، وقد تمت إعادة طبع الكتاب خمس مرات طيلة القرن ١١هـ / ١٧م .

وتضاف إلى هذه الأدوات المنتخبات الأدبية والشعرية العربية التي استعملت بوصفها أمثلة لدراسة اللغة. وأن النصوص المختارة كانت مشوقة ومعبرة عن ذوق العلماء : شعر ونثر وأمثلة عربية . وهذا الصنف الأخير مطلوب بكثرة مثل أمثال لقمان المطبوعة في ليدا سنتي ١٦١٥ و١٦٣٦م وأيضاً ثلاثة كتب عن أمثال العرب منشورة في ليداو ويتنبرغ . إن هذه الأمثال التي كانت قصيرة وسهلة الحفظ قد مكنت الأوربيين من الاطلاع على حكم العرب ونمط تفكيرهم .

ونشير أيضًا إلى طبع المنتخبات التاريخية والجغرافية لمؤلفين عرب متأخرين، يعودون إلى القرنين ٧ - ٨ هـ / ١٣ - ١٤ م، ذلك أن المستشرقين الذين لم يكن بحوزتهم مخطوطات كتاب العرب الأوائل اقتصروا على نشر منتخبات لسعيد بن البطريق وابن العبرى وأبي الفداء وغيرهم .

لقد بنى العلماء المستعربون في القرن ١١ هـ / ١٧ م الركائز الأساسية للدراسات العربية في أوربا، وذلك باستعمال أحرف المطبعة العربية وبنشرهم لكتب النحو والمنتخبات والمعاجم العربية وكانت تحدوهم أحيانًا النزاهة العلمية التي ظهرت بالخصوص في ليدا وأكسفورد وبراسلوا . وبخصوص النزعة الدينية والجدلية، فإنها طغت على المنشورات الإيطالية والفرنسية وبدرجة أقل على الكتب الألمانية والهولندية والإنجليزية. وهكذا بفضل أدوات العمل العلمي التي نشرت بالعربية في القرن السابع عشر، فإن الأمور كلّها رتبت لتمكين المستشرقين في القرن الموالي لاكتشاف واستقصاء المؤلفات الأدبية والعلمية للكتاب المسلمين .

بقي أن نتساءل الآن ، هل المنشورات العربية في أوربا كانت موجهة للعلماء المستعربين والطلبة الأوربيين فقط أم للمشرقيين كذلك ؟ ؛ وهل تم توزيعها فعلاً في الشرق وفي حالة الإيجاب كيف كان موقف المسيحيين العرب منها ؟

٢ - صدى النشر العربي الأوربي في المشرق :

١.٢ - وجهة الكتب :

وانطلاقًا من دراسة اللغات التي طبعت بها الكتب إلى جانب العربية فإنه ليس من السهل معرفة لمن هي موجهة ؟ ؛ إلا أن دراسة اللغة مؤشر أولي للإجابة عن السؤال . إن جل الكتب كانت ثنائية اللغة عربية ولاتينية في حين أن عدد الكتب أحادية اللغة والمقتصرة على العربية كان قليلاً. فالكتب من النوع الأول كانت موجهة بالدرجة الأولى للأوربيين من علماء مستعربين وطلاب الدراسات العربية والتجار والمبشرين لدراسة العربية ، وذلك بالاستعانة بالترجمة اللاتينية لفهم النص العربي ويستبعد إذن أن تكون هذه الكتب الثنائية اللغة، قد وجهت لأهل المشرق الذين يجهلون اللاتينية . أما الكتب أحادية اللغة

أي بالعربية فحسب فقد كانت موجهة في الغالب إلى بلاد الشام. وهناك شهادات تؤيد ذلك مثلما ذكره مؤسس مطبعة روما وباريس سافاري دي براف، من أنه قد أرسل خمس مئة او ست مئة نسخة من كتاب " **التعليم المسيحي** " لبلارمان إلى مسيحيي الشرق سنة ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٣م ، وأنه لا توجد بالكتاب ترجمة لاتينية ، لأنها غير ضرورية في هذه البلاد[٩٦] ، والجدير بالذكر أن بعض المطابع الكاثوليكية بروما وباريس ، كانت تصدر الكتاب نفسه في طبعتين واحدة باللغة العربية وأخرى باللاتينية بحسب وجهتها أي إما لمسيحيي المشرق أو للأوربيين، ونذكر مثالاً آخر لهذا النوع من الكتب وهو كتاب « الإنجيل » الذي نشرته مطبعة الميدتشي سنتي ٩٩٩ - ١٠٠٠ هـ / ١٥٩٠ - ١٥٩١ م في طبعتين .

ان الكتب الأحادية اللغة أي المقتصرة على العربية كانت أيضاً موجهة للعلماء المستعمرين الذين كانوا يحرصون على شراء كلّ ما يصدر عن المطابع العربية مثل العالم سكاليجار[٩٧] .أما الطلاب فقد كانوا يطلعون أيضًا على هذه المنشورات التي تعدّ بالنسبة لهم بمثابة الكتب المدرسية[٩٨] ، إن أصحاب المطابع الشرقية بإيطاليا وفرنسا كانوا ينوون توزيع منشوراتهم بالمشرق ، وهناك وثائق تؤكد هذا التوجه. من ذلك أن مطبعة مجمع نشر الإيمان بروما التي أصدرت قرارًا سنة ١٠٣٨هـ / ١٦٢٩م، يقضي بتوزيع الكتب مجانًا بالشرق، رغم أنها سمحت فيما بعد ببيع بعض النسخ[٩٩] ، وبالفعل ظهرت إشارات في مقدمة الكتب التي طبعها المجمع تؤكد هذا التوجه ، من ذلك ما ذكر حول إهداء كتاب جدلي صدر بروما سنة ١١٠٦ هـ / ١٦٩٤ م، بعنوان «مضمون المجمع الخلقيدوني المقدس الأرثوذكسي ... المهدى إلى أنبايوحنا المعظم المفخم خليفة الإنجيلي مارمرقس أول وأشرف بطاركة الكنيسة الإسكندرية وإلى جميع أصحاب الكهنوت المصريين والحبشيين ... وإلى ملك

الحبش العالي ... وكافة طوايف القبط والحبش المباركين القاطنين في الديار المصرية والأقاليم الحبشية» (١٠٠) .

وقد توخت فرنسا السياسة نفسها حين منح الملك لويس الثالث عشر في ١٠٤٠ هـ/ ١٦٣٠م « حق امتياز الطبع » باللغات الشرقية، مشترطاً على أصحاب المطابع « إصدار العهد الجديد وكتب التعليم المسيحي وكتب النحو باللغات الشرقية، وتسليم عدد من النسخ منها مجانا للمبشرين العاملين بالشرق وهؤلاء يتولون توزيعها لكلّ من يريد معرفة الدين المسيحي »(١٠١) ، وهذا ما حرص على تطبيقه أنطوان فيتراي الناشر الفرنسي المتخصص في اللغة العربية حيث ذكر على سبيل المثال على صفحة أحد كتبه : « هذ الكتاب يوزع مجانا » (١٠٢) .

وهكذا تتضح جليًا سياسة المطابع الكاثوليكية بأوربا في طبع وترويج الكتب المسيحية العربية لدى الطوائف المسيحية بالمشرق وهذه السياسة لم تكن واضحة لدى المطابع البروتستانتية ، إذ لا توجد وثائق تبين ذلك باستثناء الحادثة التي وقعت بإستانبول بسبب توزيع كتاب بروتستانتي والتي سنتعرض إليها في الفصل الثاني. بقي الآن التعرف على الأسلوب الذي اتبعه الأوربيون لتوزيع الكتب المسيحية والجدلية في المشرق ، في عصر لا يزال الصراع بين الإسلام والمسيحية قائماً على أشده .

٢.٢ ـ توزيع الكتب :

تولى توزيع هذه الكتب الدبلوماسيون والتجار وبالخصوص المبشرون (١٠٣) ، فمنذ سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ، تولى الأب اليسوعي أليانو القيام بمهمة بتكليف من البابا غريغوريوس الثالث عشر لدى المارونيين وقد حمل معه نسخاً عديدة من كتابه (١٠٤)، تولى توزيعها على القسيسين والرهبان وبعض أبناء

الطائف[١٠٥] في مجمع قنوبين [١٠٦]، وكذلك في أثناء تنقلاته في القرى المارونية. وعمل على إرسال بعض النسخ قبل إهدائها للكنيسة المارونية[١٠٧] .

وقد قام بالعمل نفسه الأب اليسوعي دانديني مبعوث البابا إلى جبل لبنان سنة ١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٥م ، إذ تولى توزيع مئتي نسخة من كتاب القداس الذي طبع فيما بين سنتي ١٠٠١ - ١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٢ - ١٥٩٤م.

كما أسهم الديبلوماسيون في عملية التوزيع، ومن هؤلاء قنصل فرنسا بمصر الذي قام في سنة ١٠٢٦هـ / ١٦١٨م، بتكليف من سافاري دي براف بتوزيع عدد من نسخ كتاب بالارمان " التعليم المسيحي " بين أقباط الإسكندرية[١٠٨]. وتواصل إرسال الكتب إلى المشرق بصفة منتظمة طيلة القرن ١١هـ / ١٧م، بواسطة المبشرين الكاثوليك والفرنسيسكان واليسوعيين والكبوشيين . وقد ساهم إلى جانب هؤلاء التلاميذ المارونيون بمعهد روما في عملية توزيع كتب مطبعة مجمع نشر الإيمان وذلك عند عودتهم إلى بلادهم . إلا أن هذه العملية، كانت محدودة نظرا لصعوبة النقل ومضايقات السلطات العثمانية .

ولا يمكن معرفة حجم هذه الكتب نظرًا لافتقاد الوثائق حول الموضوع. إلا أنه بالإمكان الإحاطة بمحتوى هذه الكتب بصفة عامة إذ كانت جلها دينية : كتب الصلاة والإنجيل والمذهب الكاثوليكي، وهي تكرس أهداف البابا ومقررات مجمع ترانت .

إن كتاب الأب برينو " التعليم المسيحي" [١٠٩] كان مخصصًا لتفنيد المذاهب المسيحية بالمشرق والتعريف بالمذهب الكاثوليكي كما تراه كنيسة روما، وكان الأب إليانو قد وزعه في جبل لبنان[١١٠] ولم يكن الكتاب الوحيد في هذا الصدد إذ أن كتاب " التعليم المسيحي " لريشيليو الذي أرسل إلى المشرق كان يرمي كذلك حسب تعبير سافاري[١١١] إلى " تخليص المسيحيين من أخطائهم

وعيويهم" وإن هذا الصنف من الكتب قد جعل للتبشير ولنشر الكاثوليكية في أوساط المسيحيين العرب ولم يكن موجهًا للمسلمين[١١٢]. وقد اهتم البابا والمبشرون كثيرًا بالكتاب المقدس " حيث كانوا يريدون نصًا عربيًا موحدًا لجميع المسيحيين العرب . وقد قام المطبعيون بنشر بعض الأجزاء منه بالعربية[١١٣] لكن بصعوبة كبيرة . ان فكرة نشر النصوص الكاملة للتوراة والإنجيل قد خامرت ذهن البابا غوريغوريوس الثالث عشر. لكن المشروع كان ضخمًا وصعبًا ليس فقط بسبب الترجمة بل كذلك بسبب صعوبة اختيار "أفضل رواية "، فكان أن قرر البابا طبع النص الرسمي للكتاب المقدس كما حدده المجمع الكنيسي بترانت إلا أن الفرنسيين فضلوا الرجوع إلى المخطوطات العربية الموجودة " للكتاب المقدس" . فنتج عن هذا الاختلاف ظهور طبعتين مختلفتين الأولى بباريس سنة ١٠٥٤هـ / ١٦٤٥م، وهي للكتاب المقدس المتعدد اللغات والثانية للكتاب المقدس الثنائي اللغة (عربي لاتيني) الذي صدر بروما سنة ١٠٨١ هـ / ١٦٧١ م . وإذا كان الغرض من الطبعة الأولى هو الأبهة والافتخار كما رأينا في الفقرة السابقة؛ فإن الطبعة الثانية قد أرسلت إلى المشرق حيث جوبهت بالرفض لدى المسيحيين[١١٤].

وإلى جانب هذين النوعين من الكتب ظهرت بالشرق عناوين أخرى أقل أهمية مثل التقاويم : "ذكر حساب السنة وأعيادها" الذي أصدرته مطبعة مجمع نشر الإيمان بروما سنة١١٠٤ هـ /١٦٩٢م ويتعلق بذكر الصلوات عند الشرقيين" [١١٥]، كما ظهر كتاب جدلي في القرن ١١ هـ / ١٧ م وعنوانه : " **مضمون المجمع الخلقيدوني في علة هرطقة أوطاخي المنافق** " وهو موجه للطوائف المسيحية الشرقية كما ذكر في المقدمة من " طائفة القبط المكرمين وطوائف الحبش الموقرين وغيهم (كذا) من طوايف الشرقيين المغرورين بحيلة حزب أوطاخي وديوسقروس السالفين يبلغوا معرفة أصول اجتماع هذا المجمع العام

القاثوليقي وينكشف عندهم غش الأوطاخين السالفين ويتفقوا بودة حقيقية (كذا) مع الكنيسة الرسولية الرومانية»[116]. إن هذه الكنيسة كانت تخطط لتحقيق الاتحاد مع كنائس الشرق وكانت تسعى من خلال هذه المنشورات إلى "رومنة" الطوائف الشرقية[117] .

إلا أن هذا المجهود المبذول من طرف البابوية كانت تشوبه أحيانًا بعض المشاكل بسبب مزاحمة البروتستانتيين لها، إذ عمل هؤلاء بدورهم على توزيع كتبهم بالمشرق فكان أن أدى هذا الصراع الديني إلى وقوع حادثة سياسية تدخل فيها الباب العالي وسفراء الدول الأوربية لديه للوقوف أمام تسرب المذهب الكالفيني في المشرق [118]. إن هذه الحادثة شغلت كثيراً بال البابا وملك فرنسا، ذلك لأن كنيسة روما كانت ترى في تسرب الكتب البروتستانتية خطراً يهدد سلطتها الروحية التي بدأت تتدعم في المشرق وينذر بفشل كل المجهودات التي بذلتها في هذه البلاد التي كانت بعيدة عن الإصلاح البروتستانتي.

٢.٢ – مواقف المسيحيين العرب إزاء الكتب المطبوعة في أوربا :

تبين مما سبق أن الكتب العربية المطبوعة بأوربا كانت موجهة جزئيًا للمشرق العربي، وأنه قد تم توزيعها في أوساط المسيحيين خاصة فكيف كان رد فعل هؤلاء تجاه ما وصلتهم من منشورات تجاه فن الطباعة بالذات ؟، وماذا كانوا ينتظرون من الكتب المطبوعة ؟

سيتم التركيز على دراسة مواقف أبرز الطوائف المسيحية العربية التي تفاعلت مع هذه المنشورات، وهما اثنتان : الطائفة المارونية والطائفة الأرثوذكسية، وكلاهما كانت لها علاقة معيّنة مع كنيسة روما .

١.٢.٢ – مواقف المارونيين :

الحالة الدينية والثقافية لدى المارونيين:

توطدت العلاقات بين الطائفة المارونية والبابوية نتيجة مجهودات المبشرين

الفرنسيسكان الذين دفعوا بالبطريرك الماروني موسى العكاري (٩٣١ - ٩٧٤هـ/ ١٥٢٤ - ١٥٦٧ م) إلى " تجديد " الاتفاقية حول اتحاد طائفته مع كنيسة روما سنة ٩٥٩ / ١٥٥٣ [١١٩]. إلا أن الاتصالات بين الطرفين كانت صعبة ، نظراً لبعد المسافة واختلاف اللغات مما أدى إلى صعوبة إقامة حوار بينهما[١٢٠]. أضف إلى ذلك الوضع المتردي للحياة الثقافية عند المارونيين . من ذلك حالة الجهل المنتشرة بين أبناء الطائفة وندرة المدارس والمتعلمين وحتى الكهان عندهم كانوا يكتبون ويقرأون بصعوبة [١٢١]، ولم تكن توجد لديهم مكتبات إلا في الأديرة .أما المخطوطات فقد كانت نادرة وباهظة الثمن وكانوا يجهلون فن الطباعة[١٢٢] .

وقد أرسل إليهم البابا غريغوريوس الثالث عشر مبعوثًا سنتي ٩٨٥ - ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨- ١٥٧٩م ليطلع على حالة معتقداتهم وهو الأب يوحنا إليانو الذي رفع تقريراً للبابا يقترح فيه إدخال إصلاحات على الكنيسة المارونية، وتعليم شبان من هذه الطائفة بمدارس روما وإنشاء مطبعة لإصدار كتب دينية بالعربية والسريانية لتحل محل المخطوطات « المليئة بالأخطاء » [١٢٣]. وقد عمل البابا على تنفيذ بعض ما جاء بالتقرير من اقتراحات فأنشأ في سنة ٩٨٩هـ / ١٥٨٢م مأوى لاستقبال الشبان المارونيين الذين بدأوا يتوافدون على روما، والذين بلغ عددهم في ظرف سنتين العشرين . ثم أسس في ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤م المعهد الماروني وكلف الآباء اليسوعيين بالإشراف عليه [١٢٤]. وقد عبر رجال الدين المارونيون والتلاميذ الجدد القادمون من جبل لبنان عن موقفهم إزاء فن الطباعة وإزاء الكتب العربية والسريانية التي صدرت في تلك المدة بروما .

استحسان فن الطباعة :

لم يخف البطريرك الماروني ميخائيل الرزي ورهبانه إعجابهم بفن الطباعة

منذ أن تسلموا نسخًا من الكتب الأولى المطبوعة بروما عن طريق مبعوثي البابا سنة ٩٨٧هـ/١٥٨٠م. وهما الأبوان إليانو وبرينو، بل إنهم طلبوا المزيد من النسخ[١٢٥]. أما الأب يوحنا بن أيوب الحصروني الذي قدم إلى روما سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م، بطلب من الكاردينال كارافا حامي المارونيين المساهمة في نشر الكتب الدينية، وقد كان مبهوراً ايضًا بآلة الطباعة فكتب سنة ٩٩٣هـ/١٥٨٥م، إلى الأب إليانو «متحدثًا عن البابا: وعمل لنا اسطنبا (أي مطبعة) بالحرف السرياني الكبير الرب يجازيه في ملكوته السماوي». [١٢٦]

ويتأكد من خلال الوثائق، أن المارونيين قد قبلوا مبدأ الطباعة منذ الوهلة الأولى؛ بل إنهم عدّوا المطبعة اكتشافًا ثمينًا فهي «توفر لهم نسخًا كثيرة من الكتب الضرورية لديانتهم. وقد كتب جبرائيل الباني، أول تلميذ يدرس بالمعهد الماروني للأب إليانو سنة ٩٩٣هـ/١٥٨٥م، معترفًا بجميله: إننا معتازين (محتاجين) هؤلاء الكتب الذين أساميهم مكتوبين بورقة الأب يوحنا فمن كل بد (كذا)، وسبب ياأبونا نريد أنك ترسلهم».[١٢٧] بل إن حرص بعض الرهبان على الحصول على كتب من اليسوعيين بروما دفعهم إلى معاتبة الأب إليانو لعدم إرساله نسخًا كافية من الكتب، ففي رسالة محررة من طرف ثلاثة كهنة مارونيين من طرابلس إلى الأب إليانو بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٥٨٦م، ورد ما يلي: «وباين رجع إلينا وهو يقول انه جاء من رومية ميت من الجوع بلا زواده وجاب معه بعض أوراق كتب نويسات وإشبينات إيش نريدهم كان لنا خاطر أن تنطبع كتب الكنيسة على يدك كما يريد الله وكما تعرف أنت..»[١٢٨] .

إن تهافت المارونيين على طلب منشورات روما يدل على استحسانهم منذ البداية لآلة الطباعة، وقبولهم تعويض مخطوطاتهم بهذه الكتب المطبوعة، ويكفي أن هذا الفن الجديد تستعمله كنيسة روما التي تربطهم بها علاقة روحية، حتى يطمئنوا إلى هذا الاكتشاف. هذا وإن كانت كنيسة روما ذاتها قد ترددت في

استخدام آلة الطباعة عند ظهورها قبل أن تعتمدها وتسخرها لنشر المذهب الكاثوليكي[١٢٩] .

إذن تعرّف المارونيون على فن الطباعة عند اتصالهم بالبابوية، وقبلوا المنشورات العربية والسريانية من روما، بل إنهم أكثر من ذلك طلبوا من البابا طبع مخطوطاتهم الدينية وقد استجاب البابا لهذا الطلب وطبع لهم كتاب لمزاميرسنة ١٠٢٣ هـ/ ١٦١٤ م، وفق مخطوط قنوبين [١٣٠] الذي أرسله إليهم لبطريرك الماروني [١٣١] . كما طلب يوحنا مخلوف (١٠١٨- ١٠٤٣هـ/ ١٦٠٩-١٦٣٣م) من البابا عن طريق المطران الرزي، طبع كتب دينية [١٣٢] ، وكذلك الحال بالنسبة للبطريرك : يوسف حليب الذي رجا من البابا اينوصان العاشر إصدار "الشحيمة" وهو كتاب صلاة السواعي عند المارونيين، وإعادة كتاب النحو بالسريانية الذي ألفه جرجيس عميرة[١٣٣]. كما أرسل البطريرك إسطفان الدويهي (١٠٤٠- ١١١٦ هـ/ ١٦٣٠- ١٧٠٤م) إلى مجمع نشر الإيمان بروما في سنة ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م مخطوطًا دينيًا بعد مراجعته بغرض طبعه [١٣٤] ، هذه الأمثلة تبرز عزم المارونيين وعلى رأسهم البطاركة على طبع كتبهم الدينية . وكانو يرون في هذه المنشورات حلاً ناجعًا لتوحيد نصوصهم الدينية ومراجعتها بعدما تعددت الروايات واختلفت في المخطوطات المتوافرة في الأديرة اللبنانية والسورية. بل إنهم أكثر من ذلك كانوا يعتقدون بأن الكتاب المطبوع سيعمل على جمع شتات المارونيين حول بطريرك الطائفة، ويترجم كذلك عن رغبتهم في تدعيم الروابط مع روما .

لقد بدأت المطبعة في تحويل أنظار المارونيين من الشرق إلى الغرب وتشجعهم على التخلص من ضغط الطوائف المسيحية الأخرى وكذلك المسلمين إلا أن المارونيين شعروا بأن أية محاولة لتدعيم الطائفة داخليًا لا بدّ أن تصحبه عملية سياسية. فكان أن اتحدوا مع الأمير فخر الدين المعنى الثاني في القرن ١١هـ/١٧م، قائد حركة استقلال جبل لبنان عن الباب العالي، فانضموا بأعداد

غفيرة إلى صفوف جيش هذا الأمير الدرزي(١٣٥). في حين أصبح التلاميذ المارونيون القدامى بروما، سفراءه لدى الأمراء الأوربيين(١٣٦). وهكذا يتّضح أن الملامح الجنينية لاستقلال الطائفة المارونية بجبل لبنان قد بدأت تتضح منذ تلك المدة. وعلى الرغم من فشل محاولة فخر الدين الثاني، فقد واصل المارونيون تدعيم علاقاتهم مع روما وباريس وطلب منشورات مطابعهما؛ على الرغم من اختلافهم معها حول محتوى الكتب الدينية .

معارضة محتوى المنشورات:

لم تحظ كل المطبوعات العربية التي حملها التلاميذ المارونيون والمبشرون إلى جبل لبنان بالقبول، والسبب هو أن المراقبين بمطابع روما المكلفين بمراجعة المخطوطات الدينية الشرقية قبل طبعها، سعوا الى تغيير محتواها بغرض " رومنتها "، غير مراعين في ذلك خصوصيات الطقوس المارونية .. ومن هنا نشبت " أزمة ثقة " لدى الطرفين. فكنيسة روما ترى بعض " المبالغة " في طقوس مسيحيي المشرق والطائفة المارونية ترى أن نصوصها الدينية، قد "حُرِّفت" أثناء الطبع ورفضت بذلك استخدام بعض الكتب المطبوعة بالعربية والسريانية .

ولقد برزت هذه الخلافات منذ أن قام الأب إليانو بمهمته الأولى بجبل لبنان سنة ٩٨٧ هـ/ ١٥٧٩م، حيث تحدث عن الأخطاء التي تضمنتها المخطوطات المارونية ذاكراً في تقريره الموجه للبابا غريغوريوس الثالث عشر : " على أنه بتمادي الزمان وبسبب اختلاطهم مع الأمم والطوائف المخالفة لدينهم، قد تسربت إلى كتبهم بعض الأضاليل ودخل في طقوسهم ورتبهم بعض الشوائب التي سببها قلة المعلمين الذين يعنون بإرشادهم وليس نقصاً في استعدادهم لقبول تعاليم الكنيسة الرومانية. وقد دوّنا هذه النصوص المضادة للحقائق

الكاثوليكية في كتاب منفرد ليطلع عليه قداسة الحبر الأعظم، بيد أن هذه الأضاليل وغيرها أيضاً التي وجدناها في كتبهم، لاتدل على معتقدهم الصحيح وإنما كان كتبتهم ينقلونها دون أن يعيروها بالاً. وإذا سألتهم عن إيمانهم أجابوا أن إيمانهم إيمان رومية " (١٣٧) .

وقد حرص الأب اليسوعي أثناء وجوده بجبل لبنان على تفحص المخطوطات الدينية وإبراز "الأخطاء" الموجودة بها وتوضيحها للبطريرك ميخائيل الرزي. ونصحه بضرورة " إصلاحها " أو إتلافها. وبالفعل فقد اشترى عدداً من المخطوطات تولى فيما بعد حرقها ووعد الرّهبان بإرسال كتب مطبوعة من روما(١٣٨). بعد عملية "تطهير" وإتلاف المخطوطات، حرص الأب إليانو على تعويضها فقدم للمارونيين في مهمته الثانية سنتي٩٨٧-٩٨٩هـ/١٥٨٠-١٥٨٢م، نسخاً من كتابه « اعتقاد الأمانة الأرثوذكسية كنيسة رومية » الذي طبعه بروما(١٣٩) وعند عودته حمل معه جملة من المخطوطات الشرقية لطبعها بعد مراجعتها(١٤٠).

إن المنشورات العربية بروما قد وجهت للمشرق المسيحي ليس بغرض سد الفراغ الحاصل في نقص الكتب، ولكن لتعويض النصوص الدينية المارونية الأصلية بنصوص دينية جديدة حتى تتم "رومنة " طقوس هذه الطائفة المسيحية. ولهذا لم يتوقف البابا عن إرسال الكتب المطبوعة إلى جبل لبنان مع مراقبة ما يحدث عندهم من تطورات والتعرف على درجة تطبيقهم لتعليماته بخصوص المسائل الدينية، وفي هذا الإطار أرسل البابا مبعوثاً إلى الطائفة المارونية في سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦م، وهو الأب دانديني لمواصلة مهمة سلفه الأب إليانو، يقول دانديني : لقد ذُكر المارونيون بالسوء منذ مدة واتّهموا بارتكابهم عدة أخطاء وبمروقهم عن الدين. وقد حاول المارونيون الموجودون بروما تكذيب هذه الأقاويل (١٤١) .

إلا أن هذه " الشائعات " تأكدت لدى المبعوث البابوي عند معاينته لما يحدث بجبل لبنان حيث يقول : "مازالت عندهم ممارسات مبالغ فيها ... وكان بإمكان المجمع الكنسي بترانت،أن يقدم حلاً ناجعًا لو أنهم قبلوه » (١٤٢)؛ لذلك واصل الأب دانديني العمل نفسه الذي بدأه إليانو، فكان يتفحص المخطوطات العربية والسريانية، ولكنه كان أكثر اعتدالاً في تعامله مع المخطوطات "المريبة"، فكان يحفظها في أرشيف البطريركية بدل إلقائها في النار . وكان دانديني قد حمل معه مئتي نسخة من كتاب القداس المطبوع باللغة الكلدانية(١٤٣)، وقد تضمن فقرات بالعربية لكن مطبوعة بالحرف الكرشوني . وقد كانت لهذا الكتاب قصة منذ أن تقرر طبعه ، حيث تأخر كثيراً عن الصدور بسبب ما تضمنه من إشكاليات دينية، فبعد أن انطلقت مطبعة الميدتشي في طبعه وفق المخطوط الماروني برزت مشاكل تتعلق بمدى مطابقته للنص اللاتيني. فكان أن تدخل دي بارون Du Perron حامي المارونيين للحسم لفائدة النص الأصلي ذاكراً نبذة عن حياة القديس مارون في مقدمة الكتاب وموضحاً أن النص لا تشوبه أية شائبة(١٤٤). إلا أنه عند توزيعه لدى الطائفة المارونية حامت الشكوك حول مدى مطابقته لمذهبهم(١٤٥)، فكان أن رفض البطريرك اعتماده لمدة قبل ان يقنعه دانديني بقبوله . وقد بقيت قضية مراجعة النصوص الدينية المارونية نقطة سوداء في علاقات الطائفة بكنيسة روما، فالمارونيون يريدون الارتباط بالبابوية مع التمسك بخصوصيات مذهبهم .. وكانوا يرون في الكتاب المطبوع، وسيلة ناجعة لتكريس هويتهم إزاء الطوائف المسيحية وبصفة عامة للحفاظ على شخصيتهم واستقلالهم عن المسلمين .

وقد تواصلت سياسة " المقاومة الثقافية " للكتاب الروماني طيلة القرن ١١هـ/ ١٧ م، فكان أن رفض المارونيون " الكتاب المقدس " المطبوع سنة ١٠٨٧ هـ/ ١٦٧١م، الذي هو عبارة عن ترجمة للنص اللاتيني الرسمي. وكذلك الأمربالنسبة لكتاب الصلاة الذي نشر سنة ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤م، بالحرف

الكرشوني والذي رفضه حتى التلاميذ المارونيون القدامى الموجودون بروما(١٤٦).

٢.٣.٢- موقف الأرثوذكس الملكيين :

هذا بالنسبة للمارونيين أما عن الأرثوذكس الملكيين، فموقفهم من مبدأ الطباعة مشابه للطائفة المارونية، منذ أن تمت الاتصالات الأولى بينهم وبين روما في نهاية القرن ١٠ هـ / ١٦م؛ حيث أرسل البابا ، غريغوريوس الثالث عشر إليهم مبعوثًا سنة ٩٩١ هـ/ ١٥٨٣م وهو ليونارد ابل (Leonard Abel) قسيس صيدا، لدفعهم لإعلان اتحادهم مع روما وتبني إصلاحات غريغوريوس الثالث عشر (١٤٧) إلا أن البطريرك يواكيم بن ضو، لم يستجب لطلبه ذاكرًا بأنه لا يمكنه اتخاذ أي قرار دون الحصول على موافقة بطريركي إستانبول والإسكندرية(١٤٨). ثم أخذت هذه النداءات تتكرر وبدأت تجد شيئًا فشيئًا آذانًا صاغية حتى أصبح لأنصار هذه الدعوة حزب كاثوليكي في سوريا في مطلع القرن ١٢ هـ/١٨م ، وقد أسهم الكتاب المطبوع في تدعيم هذا المذهب .

الثناء على المطبعة :

عبر أصحاب المذهب الكاثوليكي من الملكيين عن ارتياحهم في البداية عند تسلمهم للكتب المطبوعة بروما، حيث أعجبوا بفن الكتابة الجديد الذي ينسخ الكتب بسرعة وبأعداد وافرة. فقد كتب البطريرك مكار زعيم سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦٢م في كتاب الصلوات: "طبع هذا الكتاب بمدينة روما في عهد مكار بطريرك أنطاكية من جودة وإحسان سيدنا البابا إسكندر السابع ذي الفضائل الكلية ثبت الله وجود احسانه ونعمه للأنام"(١٤٩). ورحب الملكيون بفن الطباعة

ووقفوا على مزاياه ورأوا أنه أنجع أداة لتدعيم مبادئ مذهبهم ونشرها بين أبناء الطائفة .

معارضة محتوى المنشورات :

سار الملكيون على منهاج جيرانهم المارونيين فأرسلوا بمخطوطاتهم إلى روما بغرض طبعها، بعد أن تمت مراجعتها حسب الأصل اليوناني. ولم تكن لديهم الإمكانيات المادية ولا الكفاءات البشرية لإقامة مطبعة عندهم، فكان أن توجهوا إلى روما لهذا الغرض. ولكن مطبعة مجمع نشر الإيمان، لم تكن لتستجيب لمطالبهم بهذه السهولة، بل كانت لها شروط تتفق مع سياسة كنيسة روما . ومن أبرز هذه الشروط هو أن يعلن بطريرك أنطاكية عن اعتناقه للمذهب الكاثوليكي، وكذلك أن تتولى البابوية مراجعة النصوص الدينية الملكية قبل طبعها . وتعدّ المطبعة بالنسبة لروما وسيلة لتحقيق "الاتحاد" مع الكنائس الشرقية، ولذلك لم تكن تسمح البتة بأن تدعم هذه الكنائس استقلالها. وانطلاقًا من هذا المبدأ، شرع مجمع نشر الإيمان المقدس في اتصالاته منذ نشأته في سنة ١٠٣٢ هـ / ١٦٢٢م، مع رئيس الأساقفة عبد الكريم كرمي الذي عين فيما بعد بطريركًا لأنطاكية (١٠٤٣- ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤- ١٦٣٥م)، ثم مع خلفائه.

عبد الكريم كرمي وخلافاته مع مجمع نشر الإيمان :

قام عبد الكريم كرمي [١٥٠] باتصالات مع روما للحصول على كتب مطبوعة، وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأنه يميل الى " الاتحاد " أو حتى أنه اعتنق المذهب الكاثوليكي [١٥١]. وقد لعب دورًا في غاية من الأهمية في الحياة الأدبية للكنيسة الملكية بأنطاكية، إذ قام بمراجعة الكتب الدينية اليونانية وأكمل ترجمة هذه النصوص إلى العربية بعد أن كانت متفرقة[١٥٢]، وكان ينوي

طبعها بروما ثم توزيعها بين رهبان الطائفة وأبنائها لتعويض المخطوطات "المشوهة والمليئة بالأخطاء" (١٥٣). فكتب إلى الكاردينال بورجيا في ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م : "قمنا بترجمة كتاب الصلوات من اليونانية إلى العربية ... وكذلك كتاب السواعي، وكذلك كتابين أو ثلاثة آخرين مما تحتاج إليها كثيرا كنيستنا، ونريد منكم أن تتولوا طبعها "(١٥٤). إلا أن مجمع نشر الإيمان لم يسارع بالاستجابة لهذا الطلب، إذ انصرف إلى ترجمة هذه الكتب إلى اللاتينية وتفحص محتواها ثم اشترط على عبد الكريم كرمي في سنة ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥م، الإعلان عن اعتناقه للكاثوليكية (١٥٥). لقد تمسكت روما بسياستها المتمثلة في تسخير المطبعة لتحقيق مشروع " الاتحاد" مع الكنائس الشرقية المستقلة، فحرصت على التأكد أولاً من ملاءمة النصوص الدينية الملكية لمذهبها ، لذلك كلف مجمع نشر الإيمان المارونيين إسحاق الشدراوي وإبراهيم الحاقلاني بترجمة كتاب الصلوات من العربية إلى اللاتينية ثم أوكل المهمة إلى ماثيونيروني لإتمام العمل سنة ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٤م(١٥٦) .

لقد تعطلت عملية نشر الكتب الملكية كثيراً وطال انتظار كرمي وخلفائه من بعده؛ لان كل طرف أصرّ على موقفه في هذه المسألة فبطاركة أنطاكية رفضوا تحوير نصوصهم الدينية ورفضوا الارتباط بكنيسة روما ايضًا في حين رفضت مطبعة نشر الإيمان سنة ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٨م إصدار كتبهم مثل كتاب الصلوات حسب الرواية اليونانية رغم نداءات خليفة كرمي البطريرك مكار زعيم (١٠٤٤- ١٠٨٢ هـ / ١٦٣٥-١٦٧٢م) .

وعلى الرغم من فشل كل محاولات الطائفة الملكية لطبع كتبها الدينية بروما فقد كانت مقتنعة بفوائد المطبعة . ولم تدخر جهداً في البحث عن سبيل لتحقيق هذا الهدف حتى كانت بداية القرن ١٢ هـ / ١٨م، لما وجدت في أحد أمراء

بوخاريست وهو قسطنطين برانكوفان بسارابا، الاستعداد والتحمس لتمويل مطبعة عربية في حلب كما سنرى فيما بعد.

٣ - إسهام المسيحيين العرب في طبع الكتب العربية بروما وباريس :

لم يكتف المسيحيون بالتعبير عن إعجابهم بفن الطباعة وتشجيعهم للأوربيين لطبع الكتب العربية بل أسهموا فعلياً في عملية النشر إلى حد أن هذا التعاون أصبح لاغنى عنه. وقد كان لإسهام المارونيين في مجال الطباعة أشكال مختلفة، من ترجمة الكتب إلى حفر الحروف العربية إلى مراقبة عملية النشر وصولاً إلى تسيير ورشات الطباعة.. وأغلب هؤلاء المارونيين هم من التلاميذ القدامى بمعهد روما الذين لم يعودوا إلى جبل لبنان، وقد طلبت منهم السلطات الدينية والسياسية بروما وباريس البقاء في هاتين المدينتين ، بعدما وقفت على كفاءة بعضهم وتبحرهم في العلوم؛ فكلفتهم بتدريس العربية والسريانية بالجامعات وبترجمة الكتب الشرقية إلى اللاتينية وبالخصوص نشر الكتب العربية .

أما الملكيون فقد أسهموا بتواضع في هذا المجهود، وذلك بالمقارنة مع المارونيين . ومرد ذلك خلافاتهم المذهبية مع كنيسة روما. أما الحزب الكاثوليكي عندهم فلم يشتد عوده بعد، ولم يتعلم أبناء الطائفة بمعهد روما إلا بداية من ١٠٧١ هـ/ ١٦٦١م ولم يعملوا في المطابع الأوربية إلا في القرن ١٢ هـ/ ١٨م .

١.٣ - المطبعيون المارونيون بروما :

١.١.٣ - يعقوب بن هلال ، (١٠٠٤هـ/١٥٩٥م) :

اشتغل يعقوب بن هلال الذي يدعى أيضاً قمر [١٥٧] في مطبعة الميدتشي، وتخصص في طبع الكتب العربية والسريانية قبل ان يسهم في إنشاء مطبعة

بروما سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٥م اسمها : Tipographia Linguarum externarum

ولد يعقوب بن هلال سنة ٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨ م، وكان من أوائل التلاميذ المارونيين الذين تخرجوا من معهد روما وعمل إلى جانب مدير مطبعة الميدتشي رايموندي فيما بين ٩٩٨ - ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٠ - ١٥٩٤م، حيث أسهم في إصدار سبعة كتب من جملة تسعة . إن المعلومات تعوزنا حول ورشة الطباعة من حيث ظروف تأسيسها وطريقة تسييرها. إلا أن الأكيد هو أن يعقوب بن هلال قد أصدر خمسة كتب دينية بالسريانية . وقد اشتغل أحد أقاربه كذلك في الطباعة وهو يوسف بن هلال، وهو الذي نشر سنة ١٠٥٢ هـ/ ١٦٤٢ م، على سبيل المثال كتاب فيليب كوادانولوس : Arabicae Linguae institutiones

٢.١.٣- مطبعة المعهد الماروني، ١٠٣٠ هـ/ ١٦٢٠ م:

أنشئت مطبعة شرقية كما رأينا سابقًا في مبنى المعهد الماروني بروما سنة ١٠٣٠ هـ / ١٦٢٠ م ، وقد تم تجهيزها بآلات الطباعة والقوالب وطوابع الحروف العربية والكلدانية والسريانية بأمر من البابا [١٥٨]. وكان إسهام التلاميذ المارونيين في تأسيسها وتسييرها كبيراً، فعملوا إلى جانب مدير المطبعة إيتيان بولينوس على طبع جملة من الكتب الدراسية الدينية المفيدة للطائفة المارونية، وهي خمس كتب ثنائية اللغة (عربية - لاتينية) وثلاث كتب سريانية وكلدانية [١٥٩] .

٣.١.٢- مطبعة ميخائيل المطوشي، ١١٠٨هـ/١٦٩٦م :

درس ميخائيل المطوشي بروما الفلسفة والعلوم الدينية ثم عاد إلى جبل لبنان حيث عين قسيسا في كفريه [١٦٠]، ثم أرسله البطريرك الدويهي إلى روما سنة ١١٠٨ هـ / ١٦٩٦م، في رفقة قسيسين آخرين هما إلياس بن جرجيس الهدناني وابراهيم الجزيري [١٦١]. تولى ميخائيل المطوشي تأسيس مطبعة في

جبل فيسكون Viscon سماها " مطبعة ميخائيل المطوشي " وقام مع رفيقيه بحفر حروف عربية وكلدانية وطبعوا ثلاثة كتب دينية : المزامير وشببيه ودياكونيكون.

٢.٣ - العلماء المارونيون :

أسهم العلماء المارونيون في نشاط المطابع العربية بروما وباريس وعملوا على دفع الدراسات العربية بروما. من أهم هؤلاء نذكر : جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلاني وجرجيس عميرة وسركيس الرزي ويوحنا الحصروني.

١.٢.٣-جبرائيل الصهيوني (٩٨٤-١٠٥٧هـ/١٥٧٧-١٦٤٨م):

ولد في اهدن بشمال جبل لبنان. درس بالمعهد الماروني بروما قبل أن يشتغل أستاذاً في بعض الجامعات الإيطالية والفرنسية، ترجم كتاب المزامير من العربية إلى اللاتينية وفق مخطوط قنوبين، كما ترجم من اللاتينية إلى العربية كتاب بالارمان: "**التعليم المسيحي**" وألف المعجم العربي اللاتيني الذي نشر بباريس سنة ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٢م، وهذه الأعمال تمت بالتعاون مع الماروني شالاق. أما كتاب "**في صناعة النحوية**" المطبوع في ١٠٢٤ هـ/ ١٦١٦م، فقد ألفه بالتعاون مع يوحنا الحصروني. وترجم من العربية إلى اللاتينية كتاب " العهد والشروط " الذي نشر بباريس في ١٠٤٠ هـ /١٦٣٠م. كما أسهم في نشر " الكتاب المقدس " بباريس في ١٠٥٤ هـ/ ١٦٤٥ م، وذلك رغم المشاكل التي حدثت له مع صاحب هذا المشروع المحامي لوجاي [١٦٢]. وقام بحفر حروف عربية وسريانية لفائدة مطبعة فيتراي بباريس [١٦٣] . وقد جلب هذا العمل الدائب لصاحبه الاحترام والتقدير من طرف كثير من العلماء الأوربيين [١٦٤] .

٢.٢.٣ - إبراهيم الحاقلاني :

ولد في قرية حقل بجبل لبنان وتوفي سنة ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م . حصل على الدكتوراه في الفلسفة والعلوم الدينية بمعهد روما [١٦٥]، ثم درس اللغات الشرقية بالجامعات الأوربية . وعمل مترجمًا بمطبعة مجمع نشر الإيمان وأسهم في نشر " الكتاب المقدس" بها . تحول إلى باريس حيث اشتغل مترجمًا للملك وأستاذًا بالمعهد الملكي . ترجم كتبًا عربية إلى اللاتينية [١٦٦] ونشر كتاب : "مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب " بباريس سنة ١٠٥١ هـ/ ١٦٤١[١٦٧]، وألف كتاب "خلاصة اللغة العربية " الذي صدر بروما سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٨م.

٣ . ٢ . ٣ - جرجيس عميرة :

تحول إلى روما في ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤ م، لتدريس اللغة السريانية وفي الوقت نفسه لدراسة الفلسفة والعلوم الدينية . تولى تأليف كتاب النحو السرياني الذي نشره المطبعي يعقوب بن هلال سنة ١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م . وأسهم في مراجعة كتاب القداس الذي أصدرته مطبعة الميدتشي في ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٤م[١٦٨] . انتخب بطريركًا للطائفة المارونية في ١٠٤٢ هـ / ١٦٣٣ م .

٣. ٢. ٤ - سركيس الرزي :

ولد في بكفاية سنة ٩٧٩ هـ / ١٥٧٢ م، درس بروما . اهتم بالنشر العربي والسرياني، وأسهم في إصدار ثلاثة كتب. وقد كلفته مطبعة مجمع نشر الإيمان المقدس بمراجعة العديد من المخطوطات العربية " للكتاب المقدس " ومقارنتها بالنص اللاتيني الرسمي .

٣. ٢. ٥ - يوحنا الحصروني :

درس بالمعهد الماروني بروما بداية من ١٠١١ هـ/ ١٦٠٣ م، ثم تحول إلى باريس حيث اشتغل مترجماً للملك . قام بترجمة كتب عربية وسريانية وتركية إلى اللاتينية من ذلك كتاب " التعليم المسيحي " لبلارمان الذي طبع عدّة مرات، وألف بالاشتراك مع جبرائيل الصهيوني كتاب " النحو العربي " .

وقد قام العلماء المارونيون بمجهود كبير في مجال الطبع العربي، وذلك نتيجة اقتناعهم بفوائد المطبعة ونتيجة المناخ الديني الملائم بين كنيستي روما والطائفة المارونية الذي شجع على إقامة علاقات دينية وثقافية قوية، وهذا المعطى لم يتوافر للطائفة الأرثوذكسية الملكية مما يفسر إسهامها المتواضع في عملية النشر العربي في أوربا .

٣. ٢ - إسهام متواضع للأرثوذكس الملكيين :

إن الخلاف الديني الذي حصل بين البابا وبطريرك أنطاكية أثر بصفة سلبية على النشاط الثقافي لدى الأرثوذكس، إلا أن هؤلاء شاركوا على الرغم من ذلك بصفة غير مباشرة في دفع الطباعة العربية بأوربا . من ذلك الرسالة التي بعثها عبد الكريم كرمي إلى الكاردينال بورجيا في ١٠٣٩ هـ/ ١٦٢٩ م، ويقدم فيها جملة من النصائح حول طريقة طبع " الكتاب المقدس " (١٦٩). وفي رسالة ثانية موجهة إلى البابا والكاردينالات في ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م بعنوان: " بيان طبع الكتب كيف يكون " (١٧٠)، أبدى عبد الكريم رأيه في طريقة استخدام فن الطباعة لطبع كتابي: السواعي والصلوات، وتحدث كذلك عن اختيار الورق والحبر وحجم الحروف وغيرذلك . وهذه الرسائل تدل على رغبة هذا البطريرك في الإسهام ولو عن بعد في النشر العربي بروما . إلا أن معرفته لهذه الفنون لا

تعدو أن تكون سطحية ويستشف ذلك من النصائح العامة الذي ذكرها، وربما يكون قد سمع الكثير عن طرق استعمال آلات الطباعة أو أنه قد زار مطبعة اليهود بدمشق . ويقول نصر الله بأن كرمي يرى أن الطباعة عملية يسيرة إلى حد أنه طلب من روما طبع كتابيه وإرسال نسخ منها بسرعة(١٧١).

وباستثناء هذه المشاركة المتواضعة من لدن الملكيين في عملية النشر بأوربا، لا توجد على حد علمنا إسهامات مهمة في القرن ١١ هـ / ١٧ م . إن مناخ الريبة والشك الذي ساد العلاقات بين كنيستي روما وأنطاكية ، حال دون تطور التبادل الثقافي والتعاون العلمي والفني بينهما(١٧٢) .

٤ - محاولات لإنشاء مطابع عربية في بلاد الشام في القرن ١١ هـ/١٧م :

اقتنع المسيحيون العرب منذ البداية بفوائد المطبعة، وهذا ما دفعهم في البداية إلى طلب المنشورات الدينية العربية من أوربا. إلا أنهم اكتشفوا أن هذه الكتب لا تتفق في مضمونها مع النصوص المعتمدة في كنائسهم ، إذ طغت عليها النصوص الكاثوليكية التي تنوي كنيسة روما نشرها في تلك الربوع. ولهذا تصدوا جميعا لمحاولات "رومنة" طوائفهم ولم يتخلف المارونيون رغم ارتباطهم بكنيسة روما عن اتخاذ الموقف نفسه(١٧٣)، بل تجاوزوه للقيام بمحاولات لتأسيس مطابع ببلادهم . إن المحاولة الوحيدة الناجحة نسبيًا هي تلك التي أفضت إلى ظهور مطبعة قوزحية سنة ١٠١٨ هـ / ١٦١٠م . أما بقية المحاولات فلم تتجاوز حد المشاريع دون أن تعرف طريقها للإنجاز.

١.٤ - المطبعة المارونية بقوزحية ١٠١٨هـ / ١٦١٠م :

اكتسب العلماء المارونيون تجربة كبيرة في مجال النشر بروما وباريس، بعد أن عملوا طويلاً بمطابع الفاتيكان والميدتشي ويعقوب بن هلال وغيرها .

وفكر أحدهم وهو سركيس الرزي لدى عودته إلى جبل لبنان في تأسيس مطبعة لفائدة أبناء الطائفة . إن المصادر لا تفيدنا كثيراً في موضوع هذه المطبعة، فهي لا تشير إلى ظروف تأسيسها وأسباب توقفها المبكر عن النشاط.فالمصدر الأساسي لدراسة هذه المؤسسة هو الكتاب الوحيد الذي طبع بها سنة ١٠١٨هـ/ ١٦١٠م في قرية قوزحية وهو " سفر المزامير" .

١.١.٤ – اختيار قوزحية :

إن أول سؤال يطرح هو لماذا تم اختيار هذه القرية لإيواء أول ورشة مسيحية للطباعة في بلاد الشام ؟؛ إن هذا المنسك القريب من طرابلس، يعدّ مكانًا مقدسًا للمسيحيين[١٧٤]، إذ يوجد به دير القديس أنطوان الذي يقصده المسيحيون بأعداد غفيرة [١٧٥]، ويشرف على هذا الدير أفراد من عائلة الرزي منذ القرن ٩ هـ/ ١٥م، وهذا ما يفسر اختيار أحد أبناء هذه الأسرة لهذا المكان لتنفيذ مشروعه .أضف الى ذلك الهدوء والأمن الذي تتميز به هذه القرية الجبلية البعيدة عن أنظار الأتراك العثمانيين .

٢.١.٤ – مؤسسو المطبعة :

ورد ذكر أسماء مؤسسي وعمال المطبعة في ذيل سفر المزامير الذي طبع بها وأولهم سركيس الرزي قسيس دمشق، الذي قام بتمويل المشروع وتنفيذه وقد وضع أختامه في الصفحة الأولى من الكتاب ليبين أنه أبرز عنصر في المشروع . أما عن مصدر آلات الطباعة فيرجح بعض المؤرخين أن يكون قد جاء بها سركيس الرزي من روما، أثناء أسفاره إليها مع ثلاثة من المارونيين وردت أسماؤهم في ذيل سفر المزامير بعدِّهم من معاونيه في عملية الطبع وهم : الشماس يوسف بن عميمة ، والكاهن إلياس بن الحاج حنا ويوسف بن يونان[١٧٦] . وهناك رواية أخرى تقول إن الأب إليانوقد يكون أهداهم تجهيزات

المطبعة اليسوعية بروما بعد توقفها عن العمل[١٧٧] إلا أن بعض الأدلة، تجعلنا نستبعد هذا الرأي . من ذلك أنه من الصعب أن يستغني اليسوعيون عن تجهيزات مطبعتهم وخاصة حروفها الشرقية لفائدة المارونيين في الوقت الذي تعاني منه روما من نقص فادح في حروف الطباعة الشرقية . ولذلك نرجح ان يكون قد تسلمها صاحب مطبعة الفاتيكان دومينيك بازا . أضف إلى ذلك، أن شكل الحروف السريانية التي نقشها اليسوعي إليانو تختلف عن الحروف السريانية لمطبعة قوزحية[١٧٨]. ولا يمكن كذلك أن تكون حروف مطبعة اليسوعيين قد أهديت إلى جبل لبنان، لأنه لو تم ذلك لما تحمل سركيس الرزي مصاريف باهظة لتأسيس مطبعة، فقد استقدم أحد المختصين الإيطاليين الماهرين لحفر الحروف السريانية وهو باسكال الي (Pasquale Eli) من مدينة كميرينو، وقد عاضده سركيس الرزي ومعاونوه المارونيون المذكورين في عملية التنضيد والطبع .

٣.١.٤ – سفر المزامير بالسريانية:

يتضمن مئتين وتسعين صفحة وكل صفحة موزعة على عمودين، واحد مكتوب بالحرف السرياني والآخر بالحرف الكرشوني . أي الأول لنص المزامير باللغة السريانية والثاني للنص العربي. إلا أنه كتب بالحرف الكرشوني . ولكن لماذا وقع اختيار هذا الحرف عوضاً عن الحرف العربي؟ . يبدو أن السبب ثقافي بالدرجة الأولى[١٧٩]. إن اللغة السريانية هي لغة الدين عند المارونيين إلا أنهم يتخاطبون في حياتهم اليومية باللغة العربية العامية . ولكن الرهبان كانوا يرفضون كتابتها بالحرف العربي مفضلين استخدام الحرف السرياني والكرشوني لتدوينها حفاظاً على قداسة السريانية التي لا تزال تقاوم في تلك الفترة العربية كلغة الثقافة . ويمكن إضافة سبب آخر لذلك وهو أن المسيحيين

العرب قد اختاروا هذه الهجائية لإخفاء كتبهم الدينية المطبوعة عن أنظار جيرانهم المسلمين.

٤ . ١ . ٤ – توقف مطبعة قوزحية :

صدر سفر المزامير عن مطبعة قوزحية سنة ١٠١٨هـ/ ١٦١٠م، في فترة توقفت فيها المطابع العربية بروما عن العمل وشعر المارونيون فيها بالحاجة إلى الكتاب المطبوع. إلا أن هذه المطبعة سرعان ما توقفت وأهملت تجهيزاتها. ولا تتحدث المصادر عن أسباب هذا التوقف المبكر، إلا أن المؤرخين يقدمون بعض الاحتمالات لتفسير ذلك . فنصر الله يرى أن السبب يكمن في رحيل مؤسسها سركيس الرزي الى روما، وتشتت المجموعة التي كانت تعمل معه (١٨٠) .أما جميل فيعتقد أن الوضعية المالية الصعبة هي السبب في توقف المطبعة، فالمشروع كان باهظ الثمن وصاحبه أغرق في الديون ، ونحن نتساء ل، إذا كان السبب كذلك ، كيف يمكن ترك الورشة بهذه السهولة بعد كل المجهودات التي بذلت ؟؛ لذا يبدو أن كنيسة روما كان لها دور في القضية فما هو موقفها من هذه المطبعة ؟؛ وبصفة عامة ما هو رأيها في أية مبادرة مماثلة ؟؛ يمكن فهم هذا الموقف من أقوال الأب دانديني، مبعوث البابا إلى جبل لبنان ، إذ ذكر في كتابه أنه من حسن الحظ أن المسيحيين في المشرق ، لا يملكون مطبعة لسببين: الأول يتمثل في غياب علماء متخصصين في الميدان. والثاني وهو الأهم يتعلق بالخوف من نشر كتب دينية "محرفة" (١٨١). إن هذا الرأي يعكس الحذر الذي كان يشوب العلاقات بين كنيسة روما والطوائف المسيحية الشرقية وخاصة المارونية التي إرتبطت روحيًا بالبابوية والخوف من أن تطبع هذه الأخيرة في جبل لبنان كتبًا غير كاثوليكية. فعدم تحمس البابوية لمثل هذه المشاريع وربما وقوفها ضدها يفسر توقف مطبعة قوزحية .

٢.٤ - مشاريع أخرى لإنشاء مطابع :

بعد توقف مطبعة سركيس الرزي [١٨٢] ، عاد المارونيون من جديد إلى جلب الكتب المطبوعة في أوربا. وفي الأثناء ظهر مشروعان لتأسيس مطبعتين في جبل لبنان : الأول بمبادرة من أحد المبشرين الكبوشيين الفرنسيين العاملين بسوريا وهو الأب جوزيف (Joseph De Tremblay) والثاني لأحد العلماء المارونيين وهو ميخائيل المطوشي.

١.٢.٤ - مشروع الأب جوزيف ١٠٣٥ هـ / ١٦٢٦م :

في سنة ١٠٣٤ هـ / ١٦٢٥ م أرسل مجمع نشر الإيمان الأب جوزيف دي ترومبلاي على رأس بعثة من المبشرين الكبوشيين الفرنسيين للعمل ببلاد الشام. وقد عاين هذا الأخير الحالة الدينية والثقافية المتدهورة التي يوجد عليها المسيحيون العرب، وكذلك الجهل السائد بين أبناء الطائفة من نقص المدارس وندرة الكتب الدينية . وقد شعر " بالخطر" الذي يهددهم نتيجة نشاط البروتستانت المتنامي والذين سعوا إلى توزيع كتب بروتستانتية مطبوعة بهولندا.

وأمام هذا الوضع، فكر الأب جوزيف في تأسيس مطبعة للغات الشرقية بجبل لبنان[١٨٣] لتوفير الكتاب الكاثوليكي والتصدي لتسرب الآراء الكلفينية، وما اختيار جبل لبنان إلا دلالة واضحة على رغبة الكبوشيين في نقل المطبعة إلى قلب الإمبراطورية العثمانية [١٨٤]. وهؤلاء يرون أن عهد إرسال الكتب المطبوعة من أوربا قد ولى، بعد أن انتقل البروتستانت إلى العمل على أرض الميدان . وأن عاصمة الخلافة العثمانية لا يمكن أن تكون المكان المثالي لمثل مشروعهم، لأنه سيخضع لمراقبة مباشرة من السلطات العثمانية في حين يتميز

جبل لبنان جغرافياً بعزلته وبخضوعه لسيطرة الأمير فخر الدين، صديق المارونيين والأوربيين والذي سيتسامح لا محالة مع مشروعهم . ويعتقد الكبوشيون كذلك أن جبل لبنان يمكن أن يكون نقطة انطلاق ممتازة للإشعاع والتأثير بواسطة الكتاب على المشرق وحتى بلاد فارس. ولا يستبعد أن يكون الأب جوزيف قد طلب المعونة الفنية من العلماء المارونيين لتسيير مطبعته .

لم يجد المشروع التشجيع الكافي من طرف ريشيليو ومجمع نشر الإيمان فلم يحصل الأب جوزيف على الحروف العربية والسريانية من سافاري دي براف ولا الحروف اليونانية من جامعة باريس (١٨٥). ثم صدر القرار الحاسم الذي تبخرت معه كل آمال الكبوشيين وهو قرار مجمع نشر الإيمان المقدس بتاريخ ٤ فبراير ١٦٢٨م، والقاضي بمنع الأب جوزيف من إنشاء مطبعة شرقية بجبل لبنان(١٨٦). وهذا الرفض يفسر رغبة كنيسة روما في الحفاظ على " امتياز" النشر باللغات الشرقية . فكان أن أسست مطبعة شرقية بمجمع نشر الإيمان قبل سنتين من إصدار هذا القرار.

٢.٢.٤ – مشروع ميخائيل المطوشي ١١١٢ هـ/ ١٧٠٠م :

أسس هذا العالم الماروني كما سبق أن رأينا مطبعة بروما تحمل اسمه وقد تولى نقل تجهيزات هذه المطبعة إلى مالطة في مرحلة أولى قبل تحويلها إلى جبل لبنان (١٨٧). وكان ينوي طبع كتب دينية في بلده وتسخير خبرته في مجال النشر لخدمة الكنيسة المارونية. ولم يكن الوحيد من أبناء الطائفة ، كما رأينا، الذي اكتسب خبرة في هذا الميدان. وكان يوجد إلى جانبه عند عودته إلى الجبل سنة ١١١٢ هـ/ ١٧٠٠ م الجزيري الذي عمل معه في مطبعته بروما .

وقوبل مشروع ميخائيل المطوشي بالترحيب من طرف البطريرك اسطفان الدويهي (١٨٨) وهو من التلاميذ القدامى بالمعهد الماروني بروما وممن أسهموا في

عملية مراجعة المخطوطات قبل نشرها بروما . فكان ان حرص على مساعدة المطوشي في تنفيذ مشروعه . فأرسل جبرائيل حوا مطران قبرص الماروني(١٨٩) لاستقدام آلات الطباعة والحروف والقوالب من جزيرة مالطة . إلا أنه فشل في مهمته وبقيت المطبعة بالجزيرة حيث استغلها اثنان من الآباء اليسوعيين: البادرى الياس والشدياق يوسف (١٩٠) . وهذا الأخير أصر على الاحتفاظ بها، رغم تكرار النداءات من البطريرك يعقوب عواد سنة ١١٢١ هـ/١٧٠٨م ذاكراً بأنّ المطبعة من ملكه الخاص . وفشل بذلك هذا المشروع ولا نعرف حسب علمنا الأسباب الحقيقة لرفض الأب اليسوعي إرسال تجهيزات المطبعة إلى جبل لبنان نظراً لغياب الوثائق. ولا يستبعد أن تكون روما قد أوعزت إلى اليسوعيين بإبقاء آلات الطباعة بمالطة، متمسكة بذلك بموقفها الذي أبدته تجاه مطبعة قوزحية ومشروع الأب جوزيف .

٥ - خاتمة الفصل الأول :

إذا كان الكتاب العربي المطبوع بأوربا قد أسهم في التعريف ببعض المؤلفات العلمية والأدبية للمسلمين في الأوساط الجامعية الغربية، فإنه قد أسهم أكثر في تغذية الصراع والجدال الديني على ثلاثة مستويات. الصراع بين الإسلام والمسيحية ، والصراع بين الكاثوليك والبروتستانت والصراع بين الكاثوليك والمذاهب المسيحية الأخرى بالمشرق . وقد استأثر هذا المستوى الأخير بأكبر قسط من محتوى الكتب إذ سخرت له كنيسة روما إمكانات ضخمة في نطاق خطتها المتمثلة في تحقيق "الاتحاد" مع الكنائس الشرقية المستقلة والتصدي " للتحريف" الموجود في مذاهبهم حسب رأيها .

ان الكتاب العربي المطبوع بأوربا ، قد صبغ الاستشراق العربي في القرنين ١٠ و ١١ هـ / ١٦ و ١٧م صبغة دينية إذ طغت المواضيع الدينية على محتواه بصفة عامة : فصدرت العديد من كتب التعليم المسيحي ، وأسفار من "الكتاب المقدس" وكتب الجدال الديني والدفاع عن المسيحية .

وقد رحب المسيحيون العرب بفن الطباعة لما وقفوا على منافعه من خلال ما وصلهم من كتب مطبوعة بأوربا، ورأوا أنه إلى جانب فوائدها الثقافية تعدّ وسيلة ناجعة للحفاظ على هويتهم في خضم العالم الإسلامي الشاسع وتدعيم الروابط بين ابناء طوائفهم، إذ ستسهم في توحيد استعمال النصوص وجمع شتات الطائفة حول كنيستهم . إلا أن ثناء هم على آلة الطباعة لم يمنعهم من رفض محتوى الكتب المطبوعة التي أرسلت بها روما وباريس، لأنها غير مطابقة لمخطوطاتهم الدينية بل تضمنت أكثر من ذلك، نصوصاً للتعريف بالمذهب الكاثوليكي وكانت كنيسة روما تسعى الى "رومنة" المذاهب المسيحية بالمشرق لتقريبها إلى طقوسها ونصوصها الكاثوليكية حتى تحقق " الاتحاد" مع هذه الكنائس .

لم يكتف المارونيون بالترحيب بفن الكتابة الجديد بل أسهموا في عملية النشر العربي بايطاليا وفرنسا، وذلك بترجمة ومراجعة النصوص والعمل بالمطابع . وتحملوا كذلك مسؤولية تسيير بعض ورشات الطباعة بروما، بعد أن اكتسبوا خبرة كبيرة في هذا المجال، وهذا ما دفعهم إلى محاولة تأسيس مطابع بجبل لبنان. إلا أنهم لم ينجحوا إلا في إقامة مطبعة واحدة بقوزحية سنة ١٠١٨ هـ / ١٦١٠م، وهذه الورشة لم توّفق إلا في طبع كتاب واحد قبل أن تتوقف عن العمل. أما المشاريع الأخرى المماثلة للمارونيين والمبشرين فقد فشلت.

أما الطائفة الأرثوذكسية الملكية، فكانت إسهاماتها في مجهود النشر العربي بأوربا متقلصة بسبب خلافاتها العقائدية مع كنيسة روما، ولم توفق في إقامة أول مطبعة لها بسوريا الا في فترة متأخرة أي في القرن ١٢ هـ/ ١٨ م، حيث كانت الظروف ملائمة للاستفادة من هذا الاكتشاف الثقافي.



القرآن الكريم المطبوع بمدينة هامبورغ سنة ١٦٩٤م



كِتَابُ ٱلجَرُومِيَّةِ

وَمِائَةُ ٱلعَامِلِ

GRAMMATICA
ARABICA
DICTA
GJARVMIA,
& Libellus
CENTVM REGENTIVM
Cum versione Latina
& Commentarijs
THOMAE ERPENII.

LEIDAE,
Ex Typographia ERPENIANA Linguarum
Orientalium.
1617.

كتاب النحو العربي المطبوع بمدينة ليدا (هولندا) سنة ١٦١٧م

الهوامش

(١) أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠ ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) Guignes, Joseph De, "Essai historique sur la typographie orientale et grecque de l'imprimerié royale" in, **Notices et extraits,** T1, 1887 pp.XI -XII.

(٣) سمايلوفتش، فلسفة. المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٤) Raphael, Pierre' Le rôle du Collège maronite romain dans l'orientalisme aux XVIé et XVIIIé siécles, Beyrouth, Université ST. Joseph, 1950 p.24.

(٥) اكتشف العالم الصيني بي شينغ في سنة ١٠٤١م الطباعة بالأحرف المنفصلة وبعد أربعة قرون توصل الألماني غوتنبرغ إلى الاكتشاف نفسه بأوروبا، بعد أن أضاف إليه المعصر وبعض الأدوات الأخرى. فهل كان اكتشاف غوتنبرج معزولاً عن اكتشاف الصينيين كما يراه عديد من المؤرخين؟ انظر

Dahl, Svend, Histoire du Livre Paris, Poinat, 1967 p. 24.

(٦) لعبت مدينة فانو دوراً هامًا في تاريخ الطباعة الشرقية وخاصة العبرية بفضل المطبعي جرشون صنصينو (Gershon Soncino).

(٧) لقد طبعت الهجائية العربية لأول مرة بلوحات خشبية في كتابين لاتينيين، نشر الأول منهما سنة ١٤٨٦هـ وهو من تأليف الرحالة Bernard de Breydenbach, Opusculum Sanctarum Peregrination ad spenlcumchristi, Mayence, 1536.

وهو كتاب يتحدث عن رحلته إلى البقاع المقدسة بفلسطين، وقد ظهرت حروف الهجاء العربية في ورقة ٨١ مع نقحرة بالحروف اللاتينية. أما الكتاب الثاني فقد طبع في غرناطة سنة ١٥٠٥ وهو من تأليف الأسباني Pedro de Alcalam Vocabulista aravigo en letra castellana وهو عبارة عن دروس في النحو العربي موجهة إلى المبشرين الإسبان المكلفين بدفع الموريسكيين لاعتناق المسيحية. أنظر كميل أبو صوان : "بيت الكلمة " :

de l'mprimerie "à Grenade et à Gênes; au XVle siécle, les premiers pas in le livre et le Liban, Pairs Unesco, Agecoop, 1982 p 119.

(٨) تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة من هذا الكتاب تحت رقم Res B 3597, انظر:

- SCHNURRER C.F, Bibliotheca arabica, Haloe. ad-Salam 1811, réedité à Amsterdam, Orientale Press, 1966. n-235.

- Bibliotheqe de Sylvestre De Sacy par Daunou, 1843 - 1847, T1, 1351.

- ZENKER, J,Y, Bibliotheca Orientalis Leipzig, 1846 n-1566.

- BLAGNA, Josée, L'Imprimerie Arabe en Occident XVIé, XVIIé et XVIII siècles Paris, Maisonneuve et Larose, 1984, pp. 18-20.

- "Le fonds des imprimés arabes à la Bibliothéque Nationale les XVIé, XVIIé et XVIIIé siecles" In Bulletin de la Bibliothéque Nationale, n-2, Juin, 1979 p.66.

(٩) in,Juiller, KREK, Miroslov, "The enigma of the first arabic book printed from movable types" **Jornal of Near Eastern Studies**, 1970, vol 38. pp.. 206-207.

(١٠) يرى كـراك أن فـانو لم تنشـر البـتـة هذا الكتـاب وكل مـا في الأمـر هو أن المطبـعي غريغوريوس قد استعار عنوان هذه المدينة عوضاً عن المدينة الحقيقية التي نشرت الكتاب وهي البندقيـة، والسبب في ذلك يعود إلى وجود حق امـتـيـاز لطبع الكتب الشرقيـة في البندقيـة كانت قـد تحصلت علية عـائلة أخرى وهي (ديموقـرايطو طرا سينا). أنظر مقالته المصدر السابق، ص ٢١٠ - ٢١٢.

(١١) تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بنسخة منه تحت رقم ٤٩٠ Rés

(١٢) SECRET, FranÇois, Les Kabbalistes chrétiens de la Renqissance, Paris, 1963; p100.

(١٣) 5 sé- BONOLA, BEY "Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe. "in Bulletin de l'Institut Egyptien, rie, T3, ler Fasc, déc. 1909, pp. 75-76.

(١٤) من بين المصادر نذكر :

ROSSI, J.B De, De Corano Venetinus; Paganini types: impressio, Parma, 1805; SACY, Bibliothéque... op: cit, T:l, p. 414.

(١٥) نيـوفـو آنجـيـلا، ظهـور النسـخـة العـربيـة للقـرآن الكريم ١٥٣٧ - ١٥٣٨،، تقـديم د.عبدالجليل التميمي، ترجمة المنجي الردادي في المجلة التاريخية المغربية، عدد ٥٣ - ٥٤. يوليو ١٩٨٩ ص ١٧٩ - ٢٠٤، النص الإنجليزي لهذا المقال في العدد نفسه من المجلة ص ١٢٣ - ١٤٠.

(١٦) ان المعلومات المتعلقة بحضور جالية عربية إسلامية بالبندقية ستثير بدون شك اهتمام الباحثين لدراسة الدور الذي كانت تلعبه البندقية في العلاقات بين أوربا والعالم الإسلامي تجارياً وثقافياً. أنظر: د. عبدالجليل التميمي، تقديم لمقال ظهور النسخة العربية، المصدر نفسه ص ١٧٩ - ١٨٠.

(١٧) نيوفو، ظهور ... المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(١٨) المصدر السابق، ص ١٨٥ - ١٩٠.

(١٨مكرر) NASRALLAH, J,L'Imprimerie au Liban, Beyrouth, Harissa, 1949 pp. 5-12, Voir pp. également RAPHAEL, P. Le rôle... op. cit, 97-97.

(١٩) أولغا بنتو، الدراسات العربية وفن الطباعة في إيطاليا :

PINTO, Olga, Studi arabistici e Arte tipografia araba in Italia dal XV al XX Secolo, In, Levante n 1-2, 1964, p.2.

(٢٠) لقد أرسل البابا الأب إليانو إلى مصر سنة ١٥٦١م بقصد تكريس التقارب بين الكنيسة القبطية والكنيسة الرومية، ثم رحل في مهمة ثانية إلى جبل لبنان للاتصال بالمارونيين سنتي ١٥٧٨ - ١٥٧٩ ثم مرّة أخرى في سنتي ١٥٨٠ و١٥٨٢ انظر لويس شيخو «الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية في القرنين السادس عشر والسابع عشر» في: المشرق، عدد ١٧، ١٩١٤ص ٤٤٥ - ٤٤٧: انظر أيضاً:

ROSA, M. Eliano in-Dictonnaire d'histoire et de géographie eccl-lesias ques (DHGE) Paris Letouzey, 1963, T5, col 161-162.

(٢١) NASRALLAH, L'imprimerie... op. cit, P.XVIII.

(٢٢) VERVILIET, H.D.L, Granjon à Rome 1578-1589: Notes préliminaires de la ty-pographie romaine à la fin du XVI siécle, Amsterdam, Hertzberger, 1967, p. 42.

(٢٣) لم تنشر مطبعة الفاتيكان التي كانت تحت إدارة دومينيك بازا (Dominique Basa) حسب معلوماتنا إلا كتاباً عربيًا واحداً بواسطة الحروف التي حفرها فرانجون وهو كتاب جغرافيا صدر سنة ١٥٨٥م من تأليف سلامش بن غدي الصالحي وعنوانه **"كتاب البستان في عجائب الأرض والبلدان"** انظر : BONOLA BEY "Note...op. cit" pp.74-75.

(٢٤) VERVLIET, Granjon... op. cit; pp 42-47. Voir également Biographie universelle ancieenne et moderne, Dir. Michaud, Paris, 1801, T17, p. 355 article Granjon Robert.

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦) "أصبح ڤرانجون بيدقا في الصراع السياسي والديني الذي تخوضه الكاثوليكية والبروتستانتية من أجل الغزو الروحي للشرق الأوسط" VERVLIET, Granjon... op. cit., p39.

(٢٧) أولغا بنتو، "الدراسات ... نفس المصدر" ص ٣ - ٤.

(٢٨) عرفت حروف ڤرانجون رحلة كبيرة بعد توقف مطبعة الميدتشي، فقد انتقلت أولاً إلى

مطبعة مجمع نشر الإيمان بروما ثم إلى فلورنسا. وفي سنة ١٨١١م وبأمر من نابليون تحولت الحروف إلى المطبعة الإمبراطورية بباريس وعادت بعدها إلى فلورنسا سنة ١٨١٨م، حيث حفظت في مكتبة (Medico Laurenziana) أنظر بنتو : «والدراسات... المصدر نفسه» ص ٧.

(٢٩) انظر الفقرة المتعلقة بالمطبعة العربية بفرنسا.

(٣٠) DUVERDIER, G. "Les caractéres de Savary" InL'Art du livre à l'imprimérie nation-ale, Paris, Impimerie Nationalc, 1973, p. 75.

(٣١) Dictionnaire de théologie chréticnne, T3, Col. 113 article Propagande.

(٣٢) FUMAGALLI, Lexicon... op. cit, p. 354.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

(٣٥) Schnurrer n-263, Zenker n-1605.

(٣٦) كتاب في جزأين من الحجم الكبير. انظر Zenker n-1 Schnurre n-377. Sacy, 1,1463.

هناك مدينة إيطالية أخرى كان دورها غيرهم في النشر العربي بأوربا وهي نابولي التي لا نعرف عن مطبوعاتها سوى كتيب صغير في ٣٢ صفحة عنوانه (Alphabetum arabicum) أصدره هرميش سنة ١٥٨٢م

انظر Zenker n-Schnurrcr n-39 Ellis 451

(٣٧) GUIGUES, De, Op. Cit., p. XV.

(٣٨) SECRET, F " Guillaume Postel et les études arabes à la Renaissance " In Arabica, T9 1963, p. 31.

(٣٩) DUVERDIER, G, "Les caractères de Savary De Brèves " In l'mprimerie Nationqle, Paris, Imp. nat, 1973 p. 72.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(٤١) BREVES, Savary De, Discours abrégé, assurer lcs moyens d'anéantir et ruiner la monarchie des princes ottomans, In Cologne, Recuell hiqtorique contenant diverses piéces curieuses de ce temps, Van Dyck, 1666.

(٤٢) "عملت منذ إقامتي بهذه المدينة (القسطنطينية) على إعداد أحرف عربية وفارسية وكلدانية بعناية كبيرة وذلك بهدف الطبع بثلاث لغات".

(٤٣) Le Livre et Le Liban Paris, Unesco, 1982, p: 222.

(٤٤) DUVERDIER, on. cit., P. 75.

(٤٥) أسس اليهود الذين طردوا من إسبانيا مطبعة عبرانية سنة ١٤٩٤م تحت رعاية السلطان بايزيد الثاني انظر:

LEWIS, Bemard, The Emergency of Modern Turkey, Oxford University Press, 1961, p.42.

(٤٦) بين ذلك أنطوان فيتراى مدير المطبعة الشرقية بباريس منذ ١٦٣٠م في كتابه التالي :

VITRE, ANTOINE, Nistoire du procés qu'on renouvelle de temps en temps à A. Vitre à cause de l'achat que le roi l'a oblige de faire des poinçons, des matrices et des matrices et des manucrits turcs, arabes et persans que feu M.De Breves avait (apporte du Levant, Paris, A. (1656) PP.1- 4 (Bibliotheque Nationale de Paris, Mss, Latins, Latins 1717 pp. 28 - 36).

(٤٧) إن الحروف والمخطوطات التي جلبها سفاري، كادت أن تحمل من طرف بروتستانيين أجانب كانوا ينوون إعداد كتب مقدسة وأخرى متعلقة بالدين (المسيحي) بقصد نشر مذهب كلفان إلى جانب المسيحية في هذه البلدان (الشرقية) .VITRE, A, op. cit. P4

(٤٨) المصدر نفسه، ص ١.

(٤٩) Voir RAPHAEL, p. Le Rôle... op, cit, pp.78 - 84.

(٥٠) لم تقع الإشارة إلى هذا النص إلا في القرن ٣هـ/٩م وذلك عن طريق النساطرة في حين لم يذكره أي مؤرخ مسلم وهذا من شأنه أن يشكك في صحة هذا النص... انظر:

Encyclopédie de L'Islam, Nouvelle édition, T2, p. 234 article DHIMMA.

(٥١) "Essai historique" op. cit... p. XXI.

(٥٢) حافظ فيتراي على الأحرف العربية حتى وفاته ١٦٧٤م. وبعد ذلك اختفت لمدة قرن من الزمن واتهم فيتراي خطأ بأنه أعدمها ولكن دي غويني يكتشف سنة ١٧٧٨ هذه الأحرف في أحد مخازن المطبعة الملكية. وتوجد هته الأحرف حاليًا في قسم الطوابع بالمطبعة الوطنية بباريس، .Imprimcrie Nationale de Paris

(٥٣) WILLEMS, Les Elzevier, Nieuwkoop, Graaf 1962 p. X.

(٥٤) **Biographie de Michaud**, article Rapheleng, T3 p. 192.

(٥٥) ذكر رافلانج في مقدمة أول كتاب نشره سنة ١٥٩٥م تحت عنوان: -Specimen character um arabicum أنه أعد الأحرف العربية حسب نموذج أحرف الميدتشي.

(٥٦) إن الغرض من نشر هذا الكتاب هو مرافقة معجم رافلانج.

(٥٧) WILLEMS, les Elzever op. cit, P. XLII.

(٥٨) Ibit. P. XLII.

(٥٩) Voir SCHNURRER n-326, ZENKER n-1539, BALAGNA, J "Le fonds... op. cit., p. 74.

(٦٠) SCHNURRER N-368, ZENKER N-1380.

(٦١) Oratio de linguae arabica, Leyde, 1613.

(٦٢) BALAGNA, Josee, "Le founds... op. cit." p. 74.

(٦٣) SCHNURRER N-155, ZENKER N-740.

(٦٤) مؤرخ مسيحي مصري (١٢٠٥ - ١٢٧٣) اعتمد على كتب الطبري وابن البطريق.

(٦٥) WILLEMS op. cit. p. 723.

(٦٦) **Nouvelle biographie générale,** Paris, Didot, 1857, T. 21, p. 119.

(٦٧) Voir Bibliothéque orientale, d'Herbelot, Paris, 1697, préface d'Herbelot, Paris, 1697, préface d'Antoine Gallant F. 14.

(٦٨) WILLEMS op. cit. p. 723.

(٦٩) ZUMTHOR, P., La vie quotidienne en Hollande au temps de Rembrandt, Paris, Hachette, 1959, P. 139.

(٧٠) نذكر على سبيل المثال جون الشمان الذي طبع كتاب فلسفة في ليدا سنة ١٦٤٠م وعنوانه "لغر قابس صاحب أفلاطون".

(٧١) **Nouvelle biographie,** 1858, T. 25, p 36 article: **Hottinger.**

(٧٢) كلف هوتينجار أحد الأخصائين بحفر حروف عربية على حسابه الخاص في زوريخ ثم حملها معه إلى هايدلبارغ.

(٧٣) BALGNA, Josée... op. cit., p. 62.

(٧٤) VERVLIET, Granjon... op. cit., P. 41.

(٧٥) نشر كرستن كتاب الأجرومية سنة ١٦١٠م وثلاثة منتخبات أدبية وكتاب "القانون في الطب" لابن سينا سنة ١٦٠٩م. لم يتم استغلال أحرف كرستن بعد سنة ١٦١١ فقد انتقلت إلى السويد حيث استعملت بعد قرن من الزمن لطبع فهرس الكتب والمخطوطات الشرقية سنة ١٧٠٦ في ايبسالا. انظر :

Biographie de Michaud. T. 21, PP 649 - 650.

(٧٦) إذا استثنينا القرآن المطبوع بالبندقية سنة ١٥١٨ والذي لم يعثر له على أثر في المكتبات العالمية الكبرى فإن كتاب القرآن في هامبورغ يعتبر أول مطبوع حاليًا إلى اليوم

SCHNURRER n-367. ZENKER n-1362.

(٧٧) تم طبع السورة الأولى والثانية للقرآن الكريم في بادوا سنة ١٦٩٨م.

(٧٨) BALAGNA, Jose, op. cit., P 64.

(٧٩) AUCAGNE, Jean "La préface d'Abreham Hinckelmann ou la naissance d'un nouveau monde" in, Le Livre et le Liban.. op. cit., PP. 138-143.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٨١) SCHNURRER n-6, ZENKER n-183.

(٨٢) 'BALGNA, OP. Cit., P. 63.

(٨٣) عنوان الكتاب : Arabiamus h.e. proecepta arabicoe linguoe in harmonia abroe, eadem universalia..., Wittenberg, typis Fincelianis, 166 p. in 4.

(٨٤) BALAGNA, op. cit., p. 60.

(٨٥) مثال ذلك كتاب ابن ميمون الذي تضمن فقرات عربية مطبوعة بأحرف عبرانية :

Ibn MAIMUN, Moss, Porta mosis, Oxford University, 1655.

(٨٦) Nouvelle biographie de Didot, article pococke, T. 40 p. 530.

(٨٧) CARTER, H. A. History of the Oxford University Press, Oxford Clearendon 1975, vol. p., 13.

(٨٨) فيه وصف للمقاطعات ٢٠، ٢٥ الموجودتان في تركستان.

(٨٩) BARTHOLD, V.V, La découverte de l'Asie: Histoire de l'orientalisme en Eussie ssie, traduit du russe par B Nikitine, Pa ris, Payot, 1947, p. 130.

(٩٠) في ستة مجلدات من الحجم الكبير.

(٩١) BALAGNA, Josée, Le Fonds... op, cit., P. 116.

(٩٢) نشير إلى أن بعض الكتب نشرت بثلاث لغات وأكثر من عربية ولاتينية وعبرية وسريانية وغيرها... مثل معجم سيليزيا المطبوع في روما سنة ١٦٣٩ (عربي لاتيني إيطالي)، ورسالة فلسفة قابس بليدا ١٦٤٠ (عربي لاتيني يوناني) وسفر المزامير المتعدد اللغات بجنوه ١٥١٦م، والتوراة المتعددة اللغات بباريس ١٦٤٥م وبلندن ١٦٥٧م ومعجم كاستيل المتعدد اللغات بلندن ١٦٦٩م.

(٩٣) DUVERDIER, G, "lOrientalisme chrétien" In: Le Livre et le Liban, P. 238.

(٩٤) إن علماء اللاهوت الإيطاليين قد نشروا من جهتهم "كنز اللغة العربية" لانطوان جيجاي في ميلانو سنة ١٦٣٢م وأيضًا معجمًا لسيلازيا في روما سنة ١٦٣٩م بعنوان "بناء اللغة العربية" Fabrica linguae arabica.

(٩٥) إن المستشرق الفرنسي أنطوان ڤالان لاحظ هذا النقص حين قال في أواخر القرن السابع عشر: كيف يمكنهم الانتفاع بذلك في الوقت الذي لا يوجد فيه لا كتاب نحو ولا معجم في هذه اللغة والذي يمكن أن يستغل بكل نجاعة"

Bibliothéque Orientale d'herbelot, Paris, 1697. Préface de Galland.

(٩٦) رسالة بتاريخ ٣ أوت ١٦١٣ محفوظة بدار الكتب الوطنية بباريس (BN. mss. Coll. Du-puy, 812) سلك سافاري الخطة نفسها بالنسبة لكتاب مزامير داوود عليه السلام الذي طبع بروما في سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٤م وذلك، كما ورد في مقدمة الكتاب بنية توزيعه في بيت المقدس "لتشتهر في تلك الأماكن المباركة للطالب والراغب".

(٩٧) لقد وصلنا إلى هذه المدينة (روما) ومعنا الكتب التي اشتريناها وهي (الأوقليدس) وكتاب (القانون الثاني) لابن سينا التي لا تباع منفصلة عن بعضها وكتاب (القداس العربي) الذي طلبته في شهر أغسطس الماضي والذي تم طبعه منذ خمسة عشر يومًا "رسالة من شستانيي إلى سكاليجار ١٢ أكتوبر ١٥٩٥م.

Epistres Françaises des personnages illustres à M.Joseph Juste de la Scala; Haderwyeq, H. Laurens, 1624, p 376.

(٩٨) مثل كتاب شذرة الأدب من كلام العرب الذي طبع بليدا في ١٦٢٩م، وأمثال لقمان الحكيم الذي طبع في ١٦١٥م وكذلك الكتب العربية للميدتشي التي نشرت دون نص لاتيني مثل الأجرومية والكافية وكتاب التصريف.

(٩٩) Fumagalli Lexicon... op. cit., p. 354.

(١٠٠) Schnurrer; n-265 ورد أيضًا في كتاب أخر أصدره المجمع في ١١٠٤هـ/١٦٩٢م بعنوان "ذكر حساب السنة وأعيادها" إنه قد "طبعه لأجل منفعة الأخوة المسيحيين القسوس والشمامسة والشعب الأرثوذكسيين" Schnurrer; n-246.

(١٠١) وردت هذه الجملة في نص "امتياز الطبع" لكتاب مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب الذي نشره إبراهيم الحاقلاني بباريس ١٠٥١هـ/١٦٤١م ورقة ٢ - ٣.

(١٠٢) هو كتاب "التعليم المسيحي" لريشليو ترجمة جيست دي بوفي باريس ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م.

(١٠٣) وصلت الكتب إلى المشرق أيضًا في شكل هدايا بين الأمراء المسلمين والمسيحيين، من ذلك أن الأمير فخر الدين الثاني أرسل أقمشة من حرير إلى الكردينال ميدتشي ردًا على هديته المتمثلة في كتب مطبوعة.

Chebli, M, Fakhreddine II Maan, Beryrouth, 1946. P 136.

(١٠٤) اليانو، يوحنا، إعتقاد الأمانة الأرثوذكسية كنيسة رومية، روما، المطبعة اليسوعية، ١٥٦٦.

(١٠٥) Nasrallah, L'imprimerie... op. cit., P.XVIII.

(١٠٦) شيخو، لويس، الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية في المشرق، عدد ١٨، ١٩٢٠، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(١٠٨) DUVERDIER, "Les impressions orientales..." op. cit., p. 172 Note 14.

(١٠٩) برينو، التعليم المسيحي، ترجمة الأب أليانو، روما، المطبعة اليسوعية، ١٥٨٠م.

(١١٠) Dandini, Jéeôme, Voyage du Mont Liman., Trad. R. Simon, Paris, L BILLaine, 167, 1675P. 342 (Commentaire de Simon).

(١١١) "رسالة سافاري دي براف" في Le Livre et le Liban... op. cit., P. 163.

(١١٢) Duverdier, "Les impressions..." op. cit., p. 161.

(١١٣) مثل سفر المزامير الذي طبع في جنوة عام ٩٢١هـ/١٥١٦م وكتاب الإنجيل الذي طبعه الميدتشي في ٩٩٨هـ/١٥٩٠م، وسفر المزامير الذي أعيد طبعه في روما مرتين في ١٠٢١هـ و١٠٢٧هـ/١٦١٣م و١٦١٩م.

(١١٤) انظر الفقرة القادمة المتعلقة بموقف المسيحيين العرب من الكتب المطبوعة بأوربا.

(١١٥) نذكر أيضًا كتاب بارونيوس 'كتاب التواريخ البيعية' الذي نشر بروما في ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م.

(١١٦) Schnurrer, n-265.

(١١٧) يمكن إضافة عناوين أخرى مثل كتاب يشتمل على أجوبة أهل الكنيسة المقدسة الكاثوليكية لاعتراضات الهراطقة ضد الكاثوليكين' من تأليف ميخائيل لوفبير طبع بروما في ١٠٩١هـ/١٦٨١م وكذلك كتاب في الدفاع عن الإيمان المسيحي من تأليف جرمانوس دي سيليزيا نشر بروما في ١٠٤٧هـ/١٦٣٨م.

(١١٨) انظر الفصل الثاني من الكتاب: ص ٨٨-٨٩.

(١١٩) Raphaël, P. rôle... op. cit., P.

(١٢٠) تلقى البطريرك ميخائيل الرزي رسالة من البابا غريغوريوس الثالث عشر في مارس ١٥٧٧م إلا أنه لم يستطع الاطلاع عليها نظرًا لعدم وجود مترجمين قادرين على ترجمة النص اللاتيني إلى أن وصل الأب اليانو في ١٥٧٩م، شيخو، لويس، "الطائفة" المصدر نفسه في المشرق عدد ١٧، ١٩١٤ ص ٤١٥.

(١٢١) Dandini, Voyage... op. cit; P. 49 يقول أيضًا الأب كارلفسكي أن الكهان المارونيين كانوا جاهلين ويمتهنون حرفة النسخ في حين أن المبشرين الكبوشيين واليسوعيين يقومون

بالطقوس في كنائسهم بالتناوب -Karalevsky, C " Dictionnaire d'histoice et de géogra
phie ecclésiatiques (Dhge), Paris, Letouzey, 1914, T.2, ent 108.

(١٢٢) Dandini, Voyage... op. cit., PP. 94 - 95.

(١٢٣) شيخو، الطائفة... المصدر نفسه، عدد ١٧، ١٩١٤، ص ٧٦٢

Raphaël, Le rôle... cit., P. 56.

(١٢٤) Ibid, P. 58.

(١٢٥) شيخو، الطائفة... المصدر نفسه ، المشرق، عدد ١٨، ١٩٢٠، ص ٣٠٣.

(١٢٦) شيخو، لويس الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٢٣، ص ٨٢.

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ٨١.

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٨٤.

(١٢٩) رفضت البابوية استخدام فن الطباعة لمدة عشرين سنة بعد اكتشاف غوتنبرغ.

(١٣٠) يقع دير قنوبين شرقي طرابلس (لبنان) وهو مقر بطريرك الطائفة المارونية.

(١٣١) طبع النص العربي لأنه لا يتعارض البتة مع النص الرسمي أو النص العبراني أو الاغريقي رسالة من سافاري بتاريخ ٢٤ أغسطس ١٦١٢ وردت في كتاب

Le Livre et le Liban... op. cit., PP. 199 - 200.

(١٣٢) Nasrallah L'imprimerie... op., cit., p. 10. وقد طبع بالفعل أحد الكتب التي طلبها
وهو Officium simplex semptem dierum hebdomadac, Rome 1624, Voir : Ge-
mayel N... Les imprimeries libanaiscs de Rome" in: Le Livre et le Liban... op.
cit., p 192.

(١٣٣) Nasrallah, L'imprimerie... op. cit., pp. 199 - 200.

(١٣٤) Ibid., p. 12.

(١٣٥) ضو، بطرس، تاريخ الموارنة الديني والحضاري، بيروت، ١٩٧٠، جـ٣، ص ٢١٦.

(١٣٦) كان العالم الماروني إبراهيم الحاقلاني مبعوثًا له لدى الدوق الأكبر بفلورنسا وكان فخر الدين قد كلفه بانتداب فنيين ومدنيين وعسكريين والقيام بعمليات تجارية وغير ذلك من المهام انظر : Raphaël, Le rôle... op. cit., p. 87.

(١٣٧) ذكر لويس شيخو هذا التقرير في مقاله عن الطائفة الصادر في المشرق، عدد ١٧، ١٩١٤م ص ٧٥٩.

(١٣٨) المصدر السابق، ص ٤٥٤، يذكر شيخو أنه عثر على مخطوط سرياني بالمكتبة الوطنية بباريس يعود إلى سنة ١٤٦٧م وقد ذكر اليانو بخط يده بأن هذا الكتاب يتضمن العديد من الانحرافات، وأنه من الواجب حرقه المشرق، عدد ١٨، ١٩٢٠م، ص ٦٧٨ - ٦٧٩.

(١٣٩) طبع بالعربية في سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٦م من طرف مطبعة اليسوعيين بروما.

(١٤٠) مثل مخطوط العهد القديم الذي يعود إلى القرن ١٢م والإنجيل، وتعليم المسيحية ليوحنا دمشق وغيرها، انظر شيخو، لويس، الطائفة.. في المشرق عند ١٧، ١٩١٤م، ص ٦٧٩.

(١٤١) Dandini, Voyage... op. cit., p.4.

(١٤٢) .المصدر السابق، ص ١٢١.

(١٤٣) Missale chaldaicum Rome; typographie; Medicis, 1594 in 4.

(١٤٤) Duverdier, "Les impressions..." op cit., pp. 167-168.

(١٤٥) لم يكن أساقفة روما راضين من جهتهم على هذا الكتاب إذ لاحظوا أن مراقب الطبعة قد غفل عن كثير من الأخطاء، المصدر السابق ص ١٩٤.

(١٤٦) لاحظ ريتشارد سيمون حول هذا الموضوع في سنة ١٠٨٦/١٦٧٥م "اعتقد أن هذه الصلوات المستعملة عندنا لم يقبلها المارونيون بجبل لبنان إلا منذ وقت قصير، Simon R, Le Voyage de Dandini op. cit., pp. 301-302.

(١٤٧) Karalevsky, "Antioche" D.H.G.E. TIII, Col 639.

(١٤٨) المصدر السابق.

(١٤٩) إن كتاب الصلوات الذي يتحدث عنه البطريرك لم يطبع بروما فعلاً إلا في القرن ١٩م ذلك لأن مجمع نشر الإيمان تباطأ في نشره لأن النص اليوناني لا يتطابق تماماً مع النص اللاتيني ويرى الأب نصرالله أن البطريك إنما كتب هذه المذكرة في مقدمة المخطوط فذلك يقيناً منه بأن المجمع سيسرع في طبع الكتاب Nasrallah, J, Notes et doucments Pour servir a l'histoire du patriarcat melchite d'Antioche; Jerusalem 1965 T1, 132-133.

(١٥٠) ولد عبدالكريم كرمي في حماة سنة ١٥٧٢م ودخل حياة الرهبنة منذ صغره ثم عين رئيساً لأساقفة حلب سنة ١٦٢١م تحت اسم ميلوس ثم انتخب بطريركاً على انطاكية سنة ١٦٣٤م تحت اسم إنتيموس.

NASRALLAH. J, Histoire du mouvement littéraire dans l'Eglise Melchite Paris, chiz l'auteur, 1979, vol IV. p. 70, ChARON {Karalcvsky) "Antioche" IN D.H.G.E TIII, col 640-642.

(١٥١) يعتقد نصر الله وشارون أن عبدالكريم كرمي كان قد استعد لإعلان اعتناقه رسمياً

المذهب الكاثوليكي لولا أن باغتته المنية سنة ١٠٤٤هـ/١٦٣٥م، ويرى نصر الله أن عدم حصول هذا الإجراء لا يغير في الأمر شيئًا وأن كرمي كان فعلاً كاثوليكيًا (المصدران السابقان).

(١٥٢) Charon (Karalevsky), Histoire des patriarcats melkites; Rome-Paris 1959-1911, T3 pp 45-57.

(١٥٣) المصدر السابق، ص ٤٩.

(١٥٤) Nasrallah, Notes... op. cit, T1 p. 131.

(١٥٥) المصدر السابق، ص ١٣١.

(١٥٦) المصدر السابق، ص ١٣٢.

(١٥٧) GEMAYEL (Nasser); "Les imprimeries de Le Livre et le Liban, p. 190 Rome" in.

(١٥٨) Gemayel, N, "Les imprimeries... op. cit.,". p. 191.

(١٥٩) عناوين هذه الكتب كالآتي هي :

١ – شالاق، نصر الله مبادئ اللغة العربية : Introduction and grammatica

روما، إيتان بولينوس، ١٦٦٢، ٢٦ صفحة.

2 - Martelotto, Francesso, Institutiones lingac arabicac tribus distributae, Rome, s, Pau linus, 1620, 483 p.

3 - Shalak, N, Totum Arabicum alphabetum; Romes: s, Paulinus, 1624.

4 - Mtushi, Butrus, Institutiones linguac arabicac, Rome, s. Paulinus, 1624, 256p.

٥ – علم المنطق إيساغوجي، روما، بولينوس ١٦٢٥، ٤٤ص.

(١٦٠) الدويهي، إسطفان، تاريخ المدرسة المارونية في روما " في : شيخو، الطائفة، المصدر نفسه، ص ١٣١.

(١٦١) كان الجزيري تلميذاً بروما حتى سنة ١٠٥٧هـ/١٦٤٨م ثم أصبح كاهنًا في رشمية بلبنان ثم عاد إلى روما سنة ١٠٩٨هـ/١٦٨٦م حيث استقر هناك، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(١٦٢) وقع هذا الخلاف بين الصهيوني ولوجاي وتسبب في تأخر صدور "الكتاب المقدس" طيلة ١٧ سنة ويتمثل الخلاف في أن لوجاي وعد الصهيوني بأن يدفع له مبلغ ٣٠٠٠٠ ليرة مقابل مساهمته في إصدار الكتاب، إلا أن المحامي الفرنسي لم يف بتعهداته بل إنه أكثر من ذلك توصل إلى إقناع الملك بسجن الصهيوني سنة ١٦٤٠، لمدة سنتين قبل أن يحكم البرلمان لفائدته ويجبر لوجاي على دفع مبلغ ٢٠٠٠٠ ليرة لجبرائيل الصهيوني.

Raphaël, Le roôe... op. cit ; pp. 78-84.

(١٦٣) المصدر السابق، ص ٧٩ - ٨٠. Vitré, A, L'histoire... op. cit.,

(١٦٤) نشير إلى أن جبرائيل الصهيوني ألف عدة كتب باللاتينية والسريانية والعربية دون أن تعرف طريقها إلى النشر وتوجد قائمة كتبه في : Raphaël, Le rôle... op. cit.

pp. 84-85 **Le Livre et le Liban**, pp. 225-258.

(١٦٥) RAPHAEL, Le rôle... op. cit.,p. 87.

(١٦٦) Gemayel, N, "Essai de Bibliographie des Premiers orientalistes libanais en France" in: **Le Livre et le Liban**, pp. 225 - 258.

(١٦٧) هذا الكتاب مقتبس من كتاب فارسي آخر عنوانه جام كيتي نما (مرآة العالم) والذي هو عبارة عن استنتاج من كتاب فلسفي عنوانه تحفة السلطان. " طبع كتاب مختصر حكمة فلاسفة العرب» باللغتين العربية واللاتينية في ٨٣ صفحة وأعيد طبعه في إينا سنة ٠٨٢ ١٦٧٢/١م.

(١٦٨) شيخو، لويس، الطائفة... المصدرنفسه، ص ٨٧.

(١٦٩) Nassrallah, Histoire... op. cit., T IV p. 71.

(١٧٠) المصدر السابق. ص ٧١.

(١٧١) المصدر السابق، ص ٧١.

(١٧٢) تتشير إحدى الوثائق الأصلية في القرن ١١هـ/١٧م إلى مساهمة الطائفة الكلدانية بالمشرق في حركة الطباعة العربية بأوربا إلى جانب الطائفتين المارونية والأرثوذكسية الملكية من خلال ذكر أسماء اثنين من الكلدانيين توليا تمويل وطباعة كتاب "ذكر حساب السنة وأعيادها" بروما سنة ١١٠٤هـ/١٦٩٢م دون تقديم تفاصيل أكثر عن موقف طائفتهما من فن الكتابة الجديد وعن حجم مشاركتها في مجهود الطباعة فقد ورد في مقدمة الكتاب المذكور أعلاه ما يلي "قد طبعه من ماله ورزقه القسيس إيلياس باسم خوري البغدادي ابن قسيس حنا الموصلي من نسل البطاركة المشرفين من طائفة الكلدانيين من عيله بيت عمون... وقد وقف على طبع هذا الكتاب لمبارك أحقر عبيدالله أندراوس من مدينة حلب باسم كوالير ابن مقدسي عبدالله الكلداني الموصلي"-Schnur-.٢.rer,

(١٧٣) أثار البطريرك يوسف الرزي (١٥٨١ - ١٥٩٧) سخط عدد كبير من المارونيين لما تبنّى العديد من الممارسات من كنيسة روما، لهذا حرص البابا بولس الخامس على تهدئة الخواطر فطلب من البطريرك الجديد في ١٠ مارس ١٦١٠م الرجوع إلى الممارسات القديمة انظر : Dib; "Les Maronites" in Dictionnaire de Théologie Catholique (D.T.C) : T,X, col 64.

(١٧٤) Aggoula, Basile, "Le Livre libanais de 1585 à 1900" in: le livre et le Livre et le Liban p 297.

(١٧٥) Nasrallah, l'imprimerie... op. cit., p. 1.

(١٧٦) الرجي ميخائيل، سفر المزامير بالسريانية في: المشرق، ١٩٣٤م، ص ٣٥٠، انظر أيضًا: Nasrallah, l'imprimerie... op. cit., p. 1.

(١٧٧) حسب رأي الأب نصر الله وميخائيل الرجي.

(١٧٨) - شيخو، لويس، الطائفة في المشرق، ٣، ١٩٠٠. ص ٢٥٤، قام سركيس الرزي بإعداد حروف سريانية جميلة خاصة للنص الكرشوني.

(١٧٩) Aggoula, B, " le livre libanais "... op. cit., p. 279.

(١٨٠) Nasrallah. L'imprimerie... op. cot., p. 8.

(١٨١) Dandini, Voyage... op. cit., pp 95 - 96.

(١٨٢) عرفت قوزحية مطبعة جديدة أخرى في أوائل القرن ١٩م أسسها سيرافيم حوقا البيروتي انظر: شيخو، قزحيا، في المشرق، ١٩٠٠، ص ٢٥١ - ٢٥٧.

(١٨٣) Fagniez, G, " le Joseph et Richelieu, Paris, 1894 Vol 1, pp 335 - 336.

(١٨٤) Duverdier, " les imprimeries "... op. cit., " p. 269.

(١٨٥) Vaumas, G, L'éveil missionnaire de la France, Lyon; impr. express, 1942, P. 142.

(١٨٦) Ibid., p. 142.

(١٨٧) Nasrallah, l'imprimerie... op. cit., p 12.

(١٨٨) Dhge, T 10. article Marouite, col. 70 - 71.

(١٨٩) Nasrallah, L'imprimerie... op. cit., pp. 12 - 13.

(١٩٠) Ibid., p. 13.

الفصـل الثـانـي

المسلمون والمطبعة

الحوار حول هذا الاكتشاف

١ - معطيات الحوار حول مسألة المطبعة :

١.١ - غياب المطبعة العربية في البلاد الإسلامية قبل بداية القرن ١٢هـ / ١٨م :

إذا استحسن المسيحيون العرب طبع كتبهم الدينية منذ بداية القرن ١٧م، فإن المسلمين رفضوا استخدام فن الطباعة حتى بداية القرن ١٢هـ/ ١٨م. ولم تظهر إذن مطابع عربيةعندهم قبل سنة ١١٤٠هـ/ ١٧٢٨م[١]. إن أغلب المصادر تؤكد هذه الظاهرة، من ذلك كتب الرحالة والمبشرين الأوربيين، الذين زاروا الشرق قبل تلك الفترة مثل الأب الكبوشي لوفيير الذي استقر ببلاد الشام في النصف الثاني من القرن ١٧م. والذي ذكر أنه «لا توجد البتة مطابع للكتب فهي تنسخ جميعها بخط اليد»[٢]. أما الإيطالي مارسيغلي الذي زار إستانبول في نهاية القرن ١١هـ/١٧م ، فقد لاحظ أن الأتراك لا يطبعون البتة كتبهم البتة[٣]، وكذلك الأمر بالنسبة للرحالة شاردين الذي أكد في سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١م أن فن الطباعة لا يوجد عند الفرس ولا عند بقية الشعوب الشرقية [٤]. ويبدو أن هذا الأخير لم يكن على علم إلى حد ذلك التاريخ، بوجود مطابع عند الأقليات غير الإسلامية. ومن المصادر الإسلامية التي تؤكد غياب المطبعة

العربية عند المسلمين وثيقة تعود إلى مطلع القرن ١٢هـ/١٨م، وهي "الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" التي حررها إبراهيم متفرقة أول مدير لمطبعة إستانبول الذي لاحظ في مقدمتها النقص الفادح للكتب بسبب غياب المطبعة عند المسلمين مما جعل هذه الأمة تعاني من ظلمات الجهل[٥]. ولئن أجمعت هذه الشهادات على ذكر الظاهرة نفسها، فإن ذلك لم يمنع من ظهور بعض المحاولات لدى المسلمين لإدخال مطابع إلى بلادهم مثل بلاد فارس وربما المغرب.

١.١.١ – **بلاد فارس:** كان المسلمون[٦]. في أصفهان ينوون طبع كتبهم بالحرف العربي منذ القرن ١١ هـ/١٧م. جاء ذلك في رواية الرحالة الفرنسي جان شاردين [٧]. الذي ذكر أن العلماء المسلمين بادروا بتقديم اقتراح لإدخال المطبعة بأصفهان إلى الشاه عباس الثاني ١٠٥٢هـ/١٦٤٢ – ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م، الذي استحسن الفكرة وبدأ في تنفيذها. إلا أن المشروع سرعان ما توقف بعد وفاته وانتقال السلطة إلى ابنه صافي سليمان، الذي أهمل المشروع ولم يعره أي اهتمام. أضف إلى ذلك عدم استعداد المثقفين الأغنياء لدفع الأموال اللازمة لإقامة المطبعة حسبما ورد عن شاردين.

إن الشاه عباس الثاني سعى فعلاً إلى تأسيس ورشة للطباعة بالحرف العربي، إذ كلف أحد الأرمنيين ويدعى جاك جان (Jacques Jean) من نور جولا (Nor Jula) [٨].، بشراء القوالب والطوابع للأحرف العربية من أوربا إلا أن هذه القوالب لم تستعمل ألبتة، بل إنها ضاعت نتيجة الإهمال[٩]. وقد فشل المشروع بسبب عدم تحمس خليفة الشاه عباس الثاني، حسب رأي الرحالة شاردين. إلا أننا نتساءل لماذا تقاعس المثقفون عن تمويل المشروع ؟، فهل كانوا جميعًا موافقين على استخدام فن الطباعة أم أن الشق المحافظ منهم، قد تصدى للمبادرة؛ ومهما يكن من أمر فإن المطبعة لم تر النور في بلاد فارس إلا سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م.

٢.١.١ - **المغرب : هل وجدت حقًا مطبعة عربية بالمغرب الأقصى في القرن ١٧م ؟**، هناك شهادة واحدة للسفير الفرنسي لدى ملك المغرب تدفعنا لدراسة هذا الموضوع، ويبدو أن دي سان اولون الذي تعرض في تقريره عن مهمته إلى الحالة الثقافية بالبلاد ذاكرًا « أن الكتب نادرة وغريبة خاصة وأنه لم تعد بالبلاد تقريبًا أية مطبعة » (١٠)..

إن الدبلوماسي الفرنسي يلمح إلى وجود مطابع بالمغرب قبل نهاية القرن ١٧م إلا أنه لا يقدم أي توضيح حول مؤسسيها واللغات المستخدمة والكتب المطبوعة أو حتى أسباب توقفها. وهذا خلافًا لما دأب عليه في تقريره من حرصه على ألا يهمل أية شاردة ولا واردة عن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالمغرب. فكيف به يلوذ بالصمت عندما تعلق الأمر بمؤسسة كبيرة وعجيبة في ذلك العهد ألا وهي المطبعة إن وجدت حقًا في الدولة السعدية ؟.

إلا أنه لا يستبعد أن يتعلق الأمر بمطابع إسبانية أو برتغالية موجودة على السواحل المغربية حسب رأي أحد المعاصرين للسفير(١١). وهذا الاحتمال وارد إذا علمنا أن سان اولون لم يوضح "جنسية" المطبعة ولا اللغات المستخدمة بها. فقد كان الأسبان والبرتغاليون يحتلون السواحل المغربية ومن الممكن أن يقيموا مطابع بالحرف اللاتيني لإصدار كتب وأوراق رسمية لفائدة جالياتهم هناك. وقد يقصد السفير في إشارته الأندلسيين المهاجرين الذين استقروا بشمال أفريقيا. وهؤلاء، شهدوا ظهور المطبعة وربما عملوا بها بإسبانيا قبل هجرتهم. إلا أنه من الصعب على ضوء معلوماتنا الحالية التأكيد إن كان الأندلسيون قد أقاموا مطبعة بالمغرب وهم المعروفون بحذقهم لعديد من الفنون والأساليب الصناعية(١٢).

كما أن الكتب "النادرة والغريبة " التي تحدث عنها السفير قد يعني بها الكتب العربية المطبوعة في أوربا والتي وصلت المغرب، وهذا أمر وارد إذا علمنا على

سبيل المثال أن المستشرق الهولندي يعقوب غوليوس، قد أهدى لملك السعديين مطبوعات عربية عند زيارته للمغرب سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م[١٣].

إن الموقع الجغرافي للمغرب القريب من أوربا والعلاقات التي تربطه بعديد من البلدان الغربية، تجعل إمكانية توزيع منشورات أوربا محتملة جداً.

إلا أنه من الصعب في غياب مصادر عن الموضوع التأكد من أن فن الطباعة بالحرف العربي قد وجد بالمغرب قبل منتصف القرن ١٩م[١٤]. وكذلك الحال بالنسبة لجل الشعوب الإسلامية باستثناء الأتراك الذين كانوا أول من بادر من المسلمين لتأسيس مطبعة في ١١٣٩هـ/١٧٢٦م[١٥].

٢.١ - غياب المطبعة العربية داخل الإمبراطورية العثمانية قبل القرن ١٢هـ/١٨م :

تؤكد مصادر إسلامية أنه لا وجود لمطابع عربية لدى المسلمين قبل ١١٣٩هـ/١٧٢٦م. من ذلك شهادة أحد العلماء المسلمين إسحاق زاده أفندي قاضي إستانبول سابقاً، الذي يتحدث عن أول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية وقد أكد فيها أن فن الطباعة جديد لدى أمته، ويتوجه بالشكر للسلطان: "نعمت الصنعة المطبوعة غير مرئية في ديارنا ومسموعة فوائدها مجزومة مقطوعة فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، شكر الله سعي صانعها ، ووفق فيما بعد بأمثالها كان الزمان بخل بها وأحباها في حجلة الإخفاء وكشف عن وجهها حجاب الاستغناء بميامن سلطاننا السلطان الأعظم أحمد خان" [١٦]. كما أن أحد المصادر الفرنسية بتاريخ ١١٢٣هـ/١٧٢١م، يذكر أن المسلمين" ينتفعون من الكتب التي يكتبونها بخط اليد؛ لأنه لا توجد أية مطبعة لا بالقسطنطينية ولا ببقية البلاد التركية[١٧]. إذن لا يوجد أي أثر لمطابع عربية لدى مسلمي البلاد العثمانية، حسب المصادر والوثائق المتوافرة حاليًا، قبل سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، التي صدر فيها قرار السلطان أحمد الثالث بالترخيص في إقامة مطبعة باللغات

التركية والعربية والفارسية. إلا أن هذا الوضع لم يمنع الأقليات الدينية بالإمبراطورية من الاستفادة من فن الكتابة الجديد.

مطابع الأقليات بإستانبول :

لم تكن إستانبول غريبة عن هذا الفن، فقد شهدت جملة من المطابع أقامتها الأقليات غير الإسلامية بها قبل القرن ١٢هـ/١٨م ، وكانت المبادرة للجالية اليهودية التي أسست مطبعة عبرانية منذ نهاية القرن ١٥م، وقد استفادت من جو التسامح الديني السائد داخل الإمبراطورية للقيام بعدة أنشطة دينية وثقافية وسياسية برعاية الباب العالي، حتى عُرِف القرنان ٩ و ١٠هـ/ ١٥ و ١٦م بالعصرالذهبي لهذه الجالية. وكان السلطان بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) قد سمح لليهود المطرودين من إسبانيا بالاستقرار ببلاده، ووفر لهم كل الإمكانات الضرورية للعمل الثقافي والعلمي لفائدة جاليتهم[١٨] ؛ من ذلك أنه رخص لهم إقامة مطبعة سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤[١٩] ، على ألا يصدروا كتبًا بالحروف العربية والاقتصار على الحروف العبرانية واللاتينية [٢٠]. كما أسس اليهود على إثر هذا القرار مطبعتين بكل من إستانبول وسالونيك في نهاية القرن ٩هـ/١٥م، أي قبل قرنين كاملين من ظهور أول مطبعة عربية بالعاصمة العثمانية[٢١].

أما الأرمن فقد نسجوا على منوال اليهود، حيث أقاموا أول مطبعة لهم بالحروف الأرمينية في سنة ٩٧٤هـ/١٥٦٧م بمدينة سيفا (Sivas) بإشراف أبكار(Apkar)[٢٢]. أما اليونانيون فكانوا على موعد مع هذا الفن بإستانبول في سنة ١٠٣٦هـ/١٦٢٧م بمبادرة نيكو دميس ماتكساس (Nicodemus Metaxas)[٢٣].

وقد أقيمت المطابع العبرانية داخل الإمبراطورية العثمانية في المدة نفسها التي أدخل فيها الفن المطبعي إلى فرنسا وإنجلترا وبقية البلدان الأوربية[٢٤]. وهذا يدل على أن الباب العالي كان على دراية مبكرة بهذا الاكتشاف، ولكنه لم يسمح باستعماله إلا للأقليات غير الإسلامية، وبشرط عدم استخدام الحرف العربي.

والغريب في الأمر أن هذا الموقف هو امتداد لموقف مشابه اتخذه المسلمون منذ أن علموا بظهور فن الطباعة بالأحرف المتنقلة "البدائي" عند الصينيين.

٣.١ - أساليب الطباعة المعروفة لدى المسلمين قبل غوتنبرغ :

اطلع المسلمون على اكتشاف الصينيين للمطبعة في القرن ٥ هـ/١١م(٢٥). وسهلت لهم علاقاتهم التجارية مع الشرق الأقصى مهمة التعرف بالتفصيل على هذا الفن الجديد. ويتحدث الوزير رشيد الدين(٢٦). في كتاب جامع التواريخ سنة ٧١١هـ/١٣١٠م، عن المطبعة الصينية، ولم يخف إعجابه بجمال حروف الكاتاي Khatai (٢٧) ، التي حفرت من طرف ناقشين ماهرين على لوحات، وانبهر كذلك بدقة النص الذي قام بمراجعته أكبر العلماء، وذكر أن اللوحات المكتوبة تحفظ في علب مغلقة وتخزن في المكتبات تحت حراسة مشددة ويقع استخراجها عند كل طلب لطبع نسخ جديدة من الكتاب وذلك بمقابل مالي(٢٨).

وبالرغم من إعجاب الوزير رشيد الدين بفن الطباعة الصيني فإنه لم يسمح باستعماله في بلاده رغم النفوذ الذي يتمتع به في الدولة المغولية، ولم يفكر في طبع كتابه بل ذهب إلى أكثر من ذلك إذ "أنه أوصى قبل وفاته بكتابة نسختين كاملتين من كل مؤلفاته بخط اليد، واحدة بالعربية وأخرى بالفارسية، وأوقف الأموال الكافية حتى تتوافر نسخة منها في جامع كل مدينة كبيرة من مدن العالم الإسلامي" (٢٩).

إن هذه الشهادة تؤكد أن المسلمين كانوا مطلعين على فن الطباعة الصيني. إلا أنهم لم يهتموا به، ولم يستفيدوا منه لتنشيط الحياة العلمية والثقافية عندهم، ولا يوجد أي أثر على حد علمنا لكتب مطبوعة بالأحرف المنفصلة ولم تتحمس السلطات الإسلامية لإدخال أسلوب الطباعة الصينية إلى بلادها رغم علمها بها، فهي لم تبادر على غرار الوزير رشيد الدين باستخدامه ولم تشجع العلماء والمثقفين على ذلك أيضاً، وهذا الموقف يتكرر تقريباً عند ظهور الطباعة بأوربا إذ

لم تظهر أية مبادرة عثمانية طيلة أكثر من قرنين من اكتشافه، باستثناء ما قامت به الأقليات الدينية في حين واصل المسلمون توريق كتبهم عن طريق الناسخين. والغريب في الأمر أن أسلافهم كانوا قد أخذوا في عهد الدولة العباسية من الصينيين ذاتهم فنًا آخر هو الطباعة بحروف خشبية (xylographie) التي اكتشفوها منذ القرن الثاني الميلادي، واستعارها منهم المسلمون في القرن ٢هـ/٨م [٣٠] ، واستفادوا منها في طباعة القماش والأوراق وتفننوا فيها إلى حد جعل المؤرخين يتساءلون هل توصل المسلمون إلى فن الطباعة بالأحرف المنفصلة قبل الأوربيين؟.

فن الطباعة بالأندلس :

هناك مصدران عربيان يعودان إلى القرن ٨ هـ/١٤م يشيران إلى هذه القضية وهما لابن الخطيب[٣١] وابن الأثير[٣٢] اللذان أشارا بصفة غامضة إلى أساليب الطباعة التي تستعمل في دواوين الملوك والأمراء المسلمين ويرى المستشرق قراينغو أن الأمر يتعلق بفن الطباعة إلا أنه يتساءل هل أنه يقتصر في استخدامه على القماش أم أيضًا على الورق والكتب[٣٣] ؛ أما المستشرق قايس فيعترض على هذا الرأي ويرى أن كلمة طبع ليست لها المدلول نفسه المعروف اليوم[٣٤]. ويعتقد فيليب حتى أنه توجد بالفعل مطبعة بدائية إلا أن أسلوبها بقي مجهولاً [٣٥]،. ويعتقد أبو الفتوح رضوان أن هذين المصدرين لا يكفيان للتأريخ لفن الطباعة، وإنما يصحان للتأريخ لفن الحفر على الطين والخشب[٣٦].

إن محتوى الوثيقتين غامض فعلاً ولا يمكننا على ضوئهما الجزم بوجود مطابع بالأحرف المنفصلة عند الأندلسيين، ولا يمكن أن يغفل هذان المؤلفان عن الحديث بإطناب عن الفن الجديد الذي إن وجد يعدّ أعجوبة في ذلك الزمن، وأن يستخدمه المسلمون في طبع أهم مؤلفاتهم أو ينقلوه إلى أوربا المسيحية المجاورة

للأندلس. وهذا أمر لم يحدث ألبتة فلا أثر لكتب عربية مطبوعة بالأندلس ولا أثر في المصادر الأوربية عن استعارة الغربيين لمبدأ الأحرف المنفصلة من العرب. لذا يمكن أن نقتصر على القول في ضوء المعلومات المتوافرة حاليًا، أن الأمر يتعلق بأسلوب متطور للطباعة بالألواح الخشبية، وهذا ليس بالغريب على الأندلسيين الذين عرفوا بمهارتهم في جل الصناعات ومن بينها النقش على الخشب والمعدن. ☀

٤.١ - موقف غريب :

من خلال كل المعطيات التي ذكرت، يتبين أن المسلمين كانوا على علم بوجود فن الطباعة بالأحرف المتنقلة بالشرق الأقصى أولاً، ثم بأوربا ثانيًا. ولم يستعمل الاكتشاف الصيني إلا الأتراك الويغور (Uygurs) الذين طبعوا بالحرف الصغدي (Sogdian)[٣٧]. أما بقية الشعوب الإسلامية فلم يستعملوه ولم يتحمسوا له. إن هذا الموقف غريب إذا علمنا أن المسلمين قد عرفوا بتفتحهم على الاكتشافات والأساليب التقنية الموجودة بالشرق الأقصى. من ذلك استعارتهم من الصينيين وعاء الكتابة وهو الورق في سنة ١٣٣ هـ/٧٥١م، والذي طوروه كثيرًا [٣٨]. كما عرف عن بلاد الإسلام أنها الوسيط القادر بين الشرق الأقصى والغرب، إذ تولى مهمة تبادل البضائع بينهما ونقل عدة فنون وصناعات إلى أوربا المسيحية[٣٩]. فهل شكلت البلاد الإسلامية "حاجزًا أكثر منها جسرًا" لنقل آلة الطباعة إلى أوربا؟[٤٠].

أما عن الغرابة في موقف المسلمين تجاه اكتشاف غوتنبرغ في أوربا فتكمن في أن هذه الأمة قد استفادت من عدة اختراعات أوربية، وخاصة العسكرية منها نظرًا لحاجاتها لمواصلة الجهاد دون أن تعير اهتمامًا " للاكتشاف الثقافي"؛ فمثلاً أخذ العثمانيون عن الغرب منذ القرن ٩ هـ/١٥م الأسلحة النارية والمدفعية المتطورة كما اتبعوا الأساليب الهندسية نفسها المتبعة في بناء

دور الأسلحة والمنشآت البحرية، كما كان السلطان محمد الثاني الفاتح قد استدعى مجموعات من العلماء والمهندسين الفنانين الأوربين للاستفادة من خبرتهم في بناء دولته؛ كما أن العلماء الأتراك كانوا يتابعون النشاط العلمي والفني في أوربا، من ذلك أن أمير البحر بيري رايس قد رسم على خريطة كريستوفركولمبس معتمداً على كتب جغرافية أوربية[٤١]. ويؤكد أحد الأوربيين ظاهرة تفتح العثمانيين على العلوم الحديثة في أوربا وهو بيسباك سفير الإمبراطور الألماني فرديناند الأول لدى السلطان سليمان القانوني إذ لاحظ في تقريره سنة ٩٦٨هـ/١٥٦٠م" أنه لا توجد أية أمة في العالم تضاهي الأتراك في استخدامها للاكتشافات الأجنبية المفيدة"[٤٢].

كيف يمكن تفسير موقف المسلمين من آلة الطباعة وهم المعروفون بتبحرهم في العلوم والآداب وإسهاماتهم الحضارية الضخمة في تقدم الإنسان؟ إن تصرفهم يبقى غير مفهوم إذا علمنا سرعة انتشار فن الطباعة بأوربا والفوائد التي حصلت لهم منه، كذلك استعارة هذا الفن من طرف الأقليات الدينية داخل الإمبراطورية.

إن الوثائق والمصادر تبين أن الأمر لا يتعلق بعدم مبالاة المسلمين، بل إن هناك رفضاً واعياً لهذا الفن الجديد لدى شق من المتعلمين. وبالمقابل تحمس لاستخدامه لدى شق آخر من المتعلمين المسلمين، وأن كل فريق يقدم حججاً وبراهين لتدعيم رأيه وهذا يدل على أن هؤلاء قد أعاروا المسألة ما تستحق من اهتمام وأبدوا مواقفهم منها، وهذا سيكون محور الاهتمام الرئيسي في هذا الفصل؛ ولكن قبل ذلك سنقدم المصادر التي تتعلق بالموضوع.

٥.١ - المصادر والدراسات :

تمثلت في مصادر أوربية وهي كتب الرحالة، ومصادر إسلامية لبعض علماء القرن ١٢هـ/١٨م قد تعرضت كتب الرحالة الأوربيين إلى هذه المسألة ولاحظت

غياب المطبعة لدى المسلمين وقدمت حججاً مختلفة لتفسير هذه الظاهرة ، إلا أن هؤلاء الرحالة وجدوا صعوبة في فهم موقف المسلمين: فالمستشرق بلفوراست يثير في كتابه هذه القضية سنة ٩٨٣هـ/١٥٧٥م، ويقول: " لا يوجد فن الطباعة البتة في تركيا، ويقول العلماء الأتراك إنه لا يجوز طبع الكتب ومن يفعل ذلك يرتكب إثماً كبيراً، وإذا سألتهم عن سبب ذلك أجابوك بأن هذا الفن ممنوع وأنه يكفي أن تنسخ بخط اليد" (٤٣). إن رفض المحافظين ليس مدعماً دائماً بالقرائن، وكانوا أحياناً يقدمون جواباً غامضاً، وهذا لم يساعد الرحالة الأوربيين على فهم الظاهرة أضف إلى ذلك الحاجز اللغوي الذي يمنعهم من إثارة حوار ثري مع العلماء المسلمين للتعرف على مواقفهم، ولهذا فإن جل الرحالة اكتفوا بالدوران حول هذه الظاهرة من الخارج، وهذا مما نتج عنه "إسقاط" مفاهيم غربية في وسط شرقي دون معرفة الإطار التاريخي الذي يعيش فيه المجتمع، فكان أن قدموا أحكاماً مسبقة على المسلمين مثل التعصب والتحجر والعداء للمعرفة (٤٤).

وفي الوقت نفسه حاول بعض الرحالة التخلص من هذه الأحكام المسبقة، وسعوا إلى تقديم أسباب موضوعية حول امتناع المسلمين عن استعمال المطبعة ونقلوا بعض الآراء المتداولة بين المثقفين المسلمين بتجرد أكثر وبدون إصدار أحكام قاسية عليها، ومن بين هؤلاء يوجد بيسباك ومارسيغلي وستوكوف وغيرهم. أما عن المصادر الإسلامية، فلعل أبرزها رسالة وسيلة الطباعة التي كتبها إبراهيم متفرقة أول مدير لمطبعة إستانبول، ليبين فيها للسلطان العثماني والعلماء منافع هذا الاكتشاف(٤٥)، وهي مصدر أساسي في هذه الدراسة نظراً، لثراء محتواها فهي تصور بدقة جملة الآراء التي يحملها أنصار المطبعة في مطلع القرن ١٨، وخلفية الخلافات الموجودة حول هذه المسألة. كما اعتمدنا في بحثنا على دراسات بعض المؤلفين المعاصرين، ومنهم من أصدر أحكاماً قاسية على موقف المسلمين من الطباعة دون تحمل عناء تقديم القرائن التي تدعم رأيه أو المراجع التي استقى منها حكمه، فإبراهيم عبدو(٤٦) يتحدث عن

تعصب علماء إستانبول في محاولة لتفسير أسباب رفضهم المطبعة دون أن يحلل هذا الحكم ومبرراته، وهناك بعض المؤرخين وعلماء الاجتماع ممن تناولوا المسألة بحيادٍ أكثر وموضوعية إلا أنهم تطرقوا إليها بسرعة دون تقديم معلومات كافية ونذكر منهم هوب(٤٧) وشواب(٤٨) وصابات(٤٩) ورضوان(٥٠). وهذا الأخير ذكر على سبيل المثال: "اتجهت رغبة بعض الرجال إلى إنشاء مطبعة قبل ذلك التاريخ (القرن ١٢هـ/١٨م)، ولكن رجال الدين لم يوافقوا على ذلك بدعوى أنها مخالفة للدين، ولم يجرؤ أحد على إنشاء مطبعة بعد هذه الفتوى» (٥١).

ورد لأول مرة ذكر فتوى أصدرها العلماء إلا أن أبا الفتوح رضوان لا يعطي أية تفاصيل عن هذه الفتوى، ولا عن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومة ، ولا يوضح الطريقة التي توخاها الفقهاء لتأويل النصوص الشرعية لاستصدار هذه الفتوى.

أما عن شواب فقد قدم ثلاثة أسباب عن تأخر المطبعة في بلاد الإسلام وهي "امتناع" الشرقيين عن تداول أي كتاب لا يكتب بخط اليد، وسبب تقني يتمثل في صعوبة حفر الحروف العربية وربطها فيما بينها، وأخيراً حالة الجمود والركود التي يعيشها العرب في تلك الفترة(٥٢)، إن هذه الحجج رغم جديتها تبقى عامة وغير كافية، إذا ما لم يرفقها الباحث بتحليل ولم يدعمها بمصادر وأمثلة.

هناك باحثون آخرون انكبوا على دراسة الموضوع بعمق أكثر، وكانوا حذرين في اصدار أحكامهم مثل وايل (٥٣) . وديمارسمان (٥٤) . اللذين قدما دراسات معمقة حول المسألة. وديمارسمان مثلاً الذي استفاد من مقال الباحث الأول، يرى في الجدال حول المطبعة مرحلة حاسمة في الثقافة والنفسية الاجتماعية للمسلمين (٥٥).

ولفهم أسباب التأخير في إقامة مطابع عربية عند المسلمين نرى من الضروري وضع القضية في إطار بروز وعي تاريخي وديني لدى المثقفين المسلمين لإعطاء دفع جديد لحضارتهم، وعليه فإن النقاش حول مسألة المطبعة قد تجاوز النظر في مجرد استعمال آلة ليشمل المستقبل الحضاري لمجتمعهم. فالطباعة ستغير عدة معطيات ثقافية وستسهم في نقل وتبادل الآراء وإدخال حركية في الحياة الثقافية والاجتماعية، وهذا ما جعل النقاش يحتد بين معارضي وأنصار المطبعة ويأخذ وقتًا طويلاً قبل أن تتحرك عملية التطور.

إن دراسة أطوار هذا النقاش وملابساته تمكننا من النظر في مسألة المطبعة من الداخل، ومعرفة خلفية كل طرف في هذا الصراع الفكري من خلال الأدلة والبراهين التي يقدمها لتأييد موقفه من استخدام المطبعة في بلاد الإسلام[٥٦]. وإننا نقترح في الفقرات التالية، تقديم بعض الإشارات التي تسهم في تفسير أسباب هذه الظاهرة.

٢ - حوار حول المطبعة :

١.٢ - الحوار الطويل :

استمر هذا الحوار الذي جمع مناصري ومناهضي المطبعة مدة طويلة، وقد بدأ قبل القرن ١٢هـ/ ١٨م إذا اعتمدنا على ما قاله إبراهيم متفرقة في "رسالة وسيلة الطباعة" حيث قال : "كان هذا الموضوع (فن الطباعة) محل جدال وقد انعقدت عدة اجتماعات لمناقشة جدواه وانتهت بالاعتراف بفوائده وإقرار الحاجة الأكيدة إليه، وقد أيّد العديد من الشخصيات ذات الصيت العلمي الكبير هذا المشروع وأوكلوا مهمة دراسته وتنفيذه إلى أشخاص متعلمين وماهرين، وبعد طول تفكير أقر هؤلاء الفوائد التي تنجم عن إقامة مطبعة، ولكن المشروع توقف إما بسبب المصاريف التي تطلبها أو بسبب صعوبة إيجاد التجهيزات اللازمة لهذه المؤسسة، فكان أن أهمل المشروع إلى اليوم الذي أعطى فيه الله العلي القدير دفعًا جديدًا للعلم لتجاوز كل العراقيل باختياره السلطان أبو الفتوحات

والمغازي أحمد خان، الذي وفق في إنجاز ما لم يقدر عليه سابقوه، فأعطى دفعًا قويًا لفن الطباعة العجيب ووفر كل الإمكانات لتأسيس المطبعة"(٥٧).

تؤكد هذه الوثيقة مرة أخرى أن المسلمين كانوا واعين بأهمية فن الطباعة، ولم يهملوه البتة والأهم من كل ذلك هو أن المثقفين والعلماء ناقشوا فعلاً هذه المسألة في اجتماعات ولقاءات عديدة ، جمعت معارضي ومؤيدي مشروع إدخال المطبعة، أي بين المحافظين والمجددين وانتهت بالاعتراف بمزايا فن الكتابة الجديد، أي انتصار الشق الذي ينادي بإدخال آلة الطباعة من الغرب ؛ إلا أنه رغم هذا التأييد فإن المشروع توقف وأهمل، وأسباب ذلك حسب قول متفرقة فنية ومالية ؛ إلا أننا نتساءل هل تمثل هذه الأسباب عوائق حقيقية تحول دون مواصلة المشروع، فالأوربيون مثلاً لم تمنعهم الصعوبات الفنية من طبع الكتب العربية، حيث نجح حفارون أوربيون غريبون عن اللغة العربية منذ القرن ١٠هـ/ ١٦م. في حفر قوالب وطوابع لحروف هذه اللغة، وإذا كان الأمر كذلك في أوربا فكيف سيكون بالنسبة للمسلمين أبناء تلك اللغة والمعروفين بمهارتهم في النقش على المعدن(٥٨)، هذا من حيث الحروف. أما من حيث الآلات فليس من الصعب كذلك صنعها في المشرق، وفي أقصى الحالات يمكن استيرادها من أوربا. فالصعوبات الفنية والمالية لا يمكن بأي حال أن تعيق لوحدها إقامة المطبعة في بلاد الإسلام، ولا بد من أن تكون هناك معوقات أكبر من هذه لم يتعرض إليها متفرقة، أضف إلى ذلك أن هذا العالم قد أطنب في رسالته عن ذكر فوائد المطبعة بالنسبة للمسلمين، ولم يكن في حاجة إلى كتابة مثل هذه الرسالة، لو أن النفوس كانت مهيأة لقبولها. وهذا يدل على أنه إلى حد بداية القرن ١٢هـ/ ١٨م، لم يتوقّف الحوار ولم يقتنع كل العلماء القريبين من الباب العالي بجدوى المشروع.

إنه من الواضح أن الشق المعارض من العلماء والمثقفين كان له من النفوذ ما جعله يمنع تأسيس مطبعة عربية، وأنه لا محالة وجد دعمًا غير مشروط في الأوساط الشعبية خاصة الأمية منها التي ترفض الجديد، وقد تكون المواجهة بين المعارضين والمؤيدين غير متوازنة في البداية؛ لأن عدد الأخيرين كان ضعيفًا، وهذا ما تطلب وقتًا طويلاً لتغيير العقول وإقناعها بأهمية "الاكتشاف الثقافي".

لقد دارت الاجتماعات قبل عهد السلطان أحمد الثالث حسب رسالة إبراهيم متفرقة، وهذا ما يجعلنا نطرح السؤال التالي : متى بدأ الحوار؟.

٢.٢ - بداية الحوار :

هناك وثيقة أصلية يمكن أن تجيب عن هذا السؤال، وهي نص فرمان أصدره السلطان العثماني مراد الثالث سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٨٨م، يقضي بالسماح للتجار الأوربيين ببيع الكتب المطبوعة بالحرف العربي داخل إمبراطوريته.

إن هذا القرار له أهمية بالغة إذ أنه يشير إلى أن ملامح التحول في موقف المسلمين تجاه فن الطباعة، قد بدأت تبرز منذ نهاية القرن ١٠هـ/١٦م. فالباب العالي لم يسمح بعد بإقامة مطبعة ببلاده إلا أنه رخص في إدخال كتب عربية مطبوعة في أوربا إلى دولته. إن قرار ٩٩٦هـ/١٥٨٨م فتح الباب لكي يطلع العلماء على عيّنة من إنتاج المطابع الأوربية ليقفوا على مدى فائدتها للمتعلمين بالمشرق.

إن فرمان السلطان مراد الثالث، قد يكون سبقه حوار بين أنصار ومعارضي آلة الطباعة، ولا يستبعد أن يكون هذا القرار حصيلة اتفاق بينهم، يقضي كما رأينا بالقيام بتجربة تجعلهم يتأكدون ويطمئنون أن يكون هذا القرار حصيلة اتفاق بينهم، يقضي كما رأينا بالقيام بتجربة تجعلهم يتأكدون ويطمئنون إلى جدوى هذا الاكتشاف، وهذا من شأنه أن يدفع الحوار إلى الأمام. إلا أن الأمر توقف عند هذا الحد، فالمحافظون كما تدل بعض الوثائق أصروا على معارضة استخدام فن الكتابة الجديد، وأن شهادة أحد العلماء المسلمين بمصر

سنة١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، مهمة في هذا الصدد، وقد أوردها الرحالة ستوكوف الذي تحدث مع هذا العالم بالقاهرة، وذكر له جملة من فوائد الطباعة إلا أن هذا الأخير أصرّ على معارضته لهذا الاكتشاف وأبرز له عكس ذلك، وقدم له عدة حجج تبيّن ليس فقط أنها غير ضرورية بل إنها ضارة (٥٩).

بدأ الحوار إذن تقريبًا مع نهاية القرن ١٠هـ/١٦م، وتواصل إلى ما بعد القرن ١٢هـ/ ١٨م. ويمكن دراسة بداية الطباعة عند المسلمين عبر ثلاث فترات، تبدأ الفترة الأولى من ظهور اكتشاف غوتنبرغ إلى نهاية القرن ١٠هـ/ ١٦م، وقد سيطر عليها التيار المحافظ المعارض لأي تجديد في الأدوات الثقافية، أما الفترة الثانية فتبدأ من ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م وتنتهي إلى سنة ١١٤٠هـ ١٧٢٦م، وهي التي شهدت حوارًا عميقًا انتهى بإصدار قرار إنشاء أول مطبعة بعاصمة الإمبراطورية. أما المدة الثالثة فتبدأ مع صدور أول كتاب بالحرف العربي بإستانبول إلى نهاية القرن ١٢هـ/ ١٨م، وتعكس صدى المنشورات الأولى للمطبعة والصعوبات التي لاقتها المؤسسة.

٣ - الأسباب السياسية - السلطة العثمانية والمطبعة :

١.٣ - تحجير الطباعة :

هناك إرادة سياسية منعت استخدام المطبعة، وهذا ما ذكره الرحالة اندري تيفي(٦٠)، الذي أورد في سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٤م أن السرايا أعلنت أنها ستسلط عقوبة القتل على كل من يستعمل كتبًا مطبوعة، وأوضح تيفي أن السلطان بايزيد الثاني هو الذي أصدر هذا القرار في سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، ثم أكده من بعده سليم الأول سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٥م(٦١).

يقدم تيفي هذه المعلومة دون إعطاء توضيحات أو تفاصيل أكثر، وخاصة الأسباب التي دفعت بالباب العالي إلى إصدار مثل هذا القرار القاسي، ولا تتعرض المصادر الإسلامية إلى مثل هذا الإجراء(٦٢). ممّا لا يساعد على إزالة الغموض حول هذه المسألة. وقد تعرض الرحالة تيفي إلى هذه المسألة بعد أن

لاحظ ظاهرة غياب المطبعة عند الشعوب الشرقية بما فيها الصينيين، ويقول :"إن هناك من ذكر بأن الصين والكاتاي هم أول من اخترعوا المطبعة وهذا خطأ"(٦٣).
إن هذه المعلومات غير المؤكدة والتي انفرد بها تيفي تدفعنا إلى دراسة روايته بحذر فهو يؤكد أن السلطانين بايزيد الثاني وسليم الأول هما اللذان أصدرا هذا القانون القاسي، إلا أن المعلومة تبقى غير دقيقة لأنها لا تستثني الأقليات الدينّية مثلاً إلا أنه يتبيّن كما رأينا أن السلطان الأول هو الذي رخص لليهود إقامة مطابع عبرانية وبالتالي استعمال كتب مطبوعة، وكان ذلك بعد أحد عشرة سنة من تاريخ إصدار " القرار " الذي تحدث عنه تيفي أي سنة ٨٩٩هـ/١٤٩٤م.

إن قرار منع استخدام كتب مطبوعة صدر في مدة مبكرة أعقبت اكتشاف غوتنبرغ بأربعة عقود من الزمن فقط، ولم تكن كافية لمعرفة نتائج تأثير المطبعة في المجتمعات الأوربية، فهي لازالت في طور التجربة ، ولم تبرز سلبياتها بدرجة تدعو العثمانيين إلى التصدي لها بعنف. وهذا ما يجعل رواية تيفي ضعيفة. وإذا أضيف إلى كّل هذا ما عرف عن السلطانين العثمانيين المعنيين من تفتح على الآداب والعلوم وتشجيعهم للعلماء يصبح مثل هذا القرار متناقضاً مع طبيعة الحاكمين، فبايزيد الثاني تلقى معارف واسعة في كل فروع الآداب وكان يحيط نفسه برجال الأدب (٦٤). ويبني العديد من المدارس والمكتبات إلى حدّ أنه عرف بلقب " أمير العلوم " (٦٥). أما سليم الأول فلم يكن أقل تفتحاً على عالم المعرفة من أبيه بايزيد الثاني فهو متبحر في العلوم ، ويحذق ثلاث لغات هي التركية والفارسية والعربية(٦٦). وأمام هذه المعطيات تفقد رواية الرحالة تيفي كل مصداقية، ولا يعدو أن يكون قد اقتصر على نقل بعض الشائعات المنتشرة في أوربا حول غياب الطباعة بالبلاد العثمانية، وهي شائعات يفندها الرحالة الإيطالي مارسيغلي الذي زار المشرق في نهاية القرن ١٧م، "ولاحظ أن الأتراك لا يطبعون فعلاً كتبهم، ولكن ليس كما هو شائع عندنا بسبب أن المطبعة ممنوعة أو أن كتبهم لا تستحق الطبع ..." (٦٧).

إن رواية تيفي ضعيفة ولا تستند إلى أية دعامة منطقية أو تاريخية، وهذه ليست الفقرة الوحيدة الغامضة التي نوردها من كتابه، بل هناك الكثير منها ، حتى عرف عنه أن كثيراً من مشاهداته خيالية(٦٨) ؛ لهذا فإنه من الأجدى ألا نعتمد على هذه الرواية في تحليلنا.

إن مسألة المطبعة قد شدت - رغم هذا - انتباه السلطات السياسية بإستانبول فقد تدخل السلاطين شخصياً للنظر في إمكانية استعمال فن الطباعة مثل أحمد الثالث الذي أصدر قراره المعروف في سنة ١١٤٠هـ/١٧٢٦م، وكان قد استعان في ذلك بمستشاريه، وهم الصدر الأعظم وموظفان من الباب العالي. وهناك سلاطين اتخذوا أيضاً قرارات في الموضوع نفسه مثل مراد الثالث(٦٩) وعبدالحميد الأول(٧٠).

إن السلطان العثماني مثله كمثل كل الحكام الذين حكموا بلاد الإسلام، يتمتع بنفوذ كبير، خاصة وأن الإسلام لا يفصل الدين عن السياسة. وقد احتفظ منذ سليم الأول بلقب خليفة الذي استلمه بصفة رمزية من آخر أمير عباسي، وله بالتالي النفوذ الكامل في البت في كل المسائل المتعلقة بالإسلام والثقافة. ولهذا لا يمكن أن تغيب قضية المطبعة عن اهتماماته دون أن يقرر بنفسه الترخيص بإقامتها في دولته، وهذا طبعاً بعد أخذ رأي العلماء وشيخ الإسلام. وقد كانت المسألة من الحساسية بمكان إلى حد جعلت الباب العالي يتصرف بحذر شديد، فقرار بايزيد الثاني الذي يسمح لليهود بالاستفادة من فن الطباعة بشرط عدم استخدام الحرف العربي، يدل على حيطة كبيرة ورغبة في عدم إحداث اضطراب أو صدمة لدى المتعلمين المسلمين، وقد يكون فيه مؤشر إيجابي لدعوة هؤلاء إلى التفكير في الاستفادة أيضاً من هذا الاكتشاف.

٢.٣ - قرار مراد الثالث سنة ٩٩٦هـ/ ١٥٨٨م :

صدر هذا القرار بعد أن تقدم تاجران أوربيان بشكوى ضد أشخاص اعتدوا

عليهما في إحدى أسواق إستانبول، وقاموا بإتلاف بضاعتهما وحجز كتبهما العربية والفارسية والتركية التي أحضراها من أوربا، تعبيرًا عن غضبهم لوجود هذه الكتب بحوزتهما، وقد أدان السلطان هذا الاعتداء الذي سلط على أجانب هم في حماية الدولة ويتعاطون التجارة في حدود الشريعة الإسلامية، فأصدر أمرًا إلى الولاة والقضاة والقواد لتطبيق القانون ضد كل من يهدد أمن التجار الأوربيين الذين يبيعون كتبًا علمية ومطبوعة بالحرف العربي في أوربا[٧١]. وهذا ما تم تطبيقه فعلاً خاصة بالنسبة لمنشورات الميدتشي بروما، فهي كتب علمية باللغة العربية، وقد أرفق في أحد كتبها[٧٢] نص فرمان مراد الثالث لكي يبرز رغبة أصحاب مطبعة الميدتشي في بيع كتبهم بإستانبول ولتبرير هذه العملية حتى يتخلصوا من كل أشكال الرقابة العثمانية.

إن مساندة السلطات العثمانية لاستعمال الكتب المطبوعة، يؤكد أن الباب العالي تدخل في عدة مناسبات في قضية المطبعة، وأن له ضلعًا في التوفيق بين أنصار ومعارضي هذا الفن كما رأينا بالقيام بتجربة تداول الكتب المطبوعة في أوربا. فالدولة العثمانية كانت تتابع عن قرب كل التطورات التي تهم المطبعة، وهذا ليس فقط للمسلمين ؛ بل وكذلك للأقليات الدينية، كما رأينا، حتى وإن تطلب الأمر التدخل بشدة مثلما هو الشأن في حادثة الاعتداء على تجار الكتب الأوربيين، وكذلك في حادثة توزيع كتب بروتستانية مطبوعة في أوربا في أوساط المسيحيين بالمشرق.

٣.٣- تدخل الباب العالي لإيقاف عملية توزيع الكتب البروتستانتية:

إن هذه الحادثة رغم أنها لا تهم مباشرة المسلمين، فإن أهميتها تكمن في معرفة موقف الباب العالي من فن الطباعة بصفة عامة وفن الطباعة لدى الأقليات بصفة خاصة.

بدأت القضية سنة ١٠٣٠هـ/١٦٢٠م، لما قام البروتستانت بطبع أجزاء من الإنجيل بالعربية واليونانية بهولندا [٧٣]. حسب المذهب البروتستانتي، وتولوا إرسال نسخ كثيرة منها عن طريق سفير هولندا إلى بطريرك إستانبول كيريل لوكار (Cyrille Lucar) الذي اعتنق مذهب لوثر. وقد تولى لوكار توزيعها مجانًا بين المسيحيين مما أحدث اضطرابًا في صفوفهم[٧٤]. ولم يكتف البروتستانت بذلك بل سعوا إلى تأسيس مطبعة بالحرف اليوناني بإستانبول، وأوكلوا مهمة تسييرها إلى أحد المطبعيين اليونانيين وهو ميتاكساس (Metaxas) ولم يبق سفراء الدول الكاثوليكية مكتوفي الأيدي، بل تدخلوا لمنع تسرب الكتب البروتستانتية بالمشرق وأبلغ السفير الفرنسي[٧٥] تخوفاته إلى الباب العالي الذي لم يتردد في إقالة البطريرك لوكار وإيقاف توزيع الكتب[٧٦] كما أمر بحجز آلات الطباعة والكتب من منزل ميتاكساس[٧٧]. فكان أن ردّ سفراء هولندا وإنجلترا الفعل بدورهم وكشفوا للسلطات العثمانية نشاط المبشرين اليسوعيين، وخاصة فيما يتعلق بتوزيع كتاب جدلي ضد الإسلام وتدخل الباب العالي مرة أخرى ، فحجز أيضًا هذا الكتاب وكل محتويات مكتبة اليسوعيين قبل أن يعيدها مرة أخرى لهم بعد تدخل السفير الفرنسي[٧٨].

إن تحفظات الباب العالي تجاه المطبعة، لم تكن إلا لتتأكد بعد هذه الحادثة التي أعطت للاكتشاف الثقافي بعدًا سياسيًا مهمًا. إن الإكثار من الكتب بواسطة أساليب الطبع بيّن للسلطات العثمانية الخطر الذي ينتج عن نشر وتوزيع الكتب التي تحمل آراء جديدة بسرعة مثلما هو الحال للكتب البروتستانتية التي أضحت تهدد التنظيم الداخلي للأقليات. فالمطبعة تنذر بضرب روح التعايش والتسامح الديني السائدة بين المسلمين والأقليات الدينية من جهة، وكذلك بين الطوائف المسيحية من جهة أخرى، ولكن هل يقتصر الخطر بالنسبة للباب العالي على هذا الجانب فقط أم أن هناك جوانب أخرى ؟.

٤.٣ - مخاوف الباب العالي :

إن السلطان لا يريد تغيير الهياكل السياسية والإدارية والاجتماعية داخل الإمبراطورية بعدما أثبتت نجاعتها منذ تأسيس الدولة. فالمؤسسات القائمة مكنت الدولة من الحفاظ على سيطرتها على كامل ممتلكات الدولة ومراقبة كل الرعايا. ولهذا فإن المكتشفات الحديثة القادمة من أوربا تهدد بتغيير هذا الوضع المتميز. من ذلك أن المطبعة كما يرى المجري دي سوسير سنة ١١٤٤هـ/ ١٧٣٢م تنسخ الكتب بسرعة وبكثرة مما يتسبب في الإضرار "بالأمن العام" وبالديانة الإسلامية(٧٩). وفي السياق نفسه يذهب الباحث المعاصر خليل صابات الذي يرى "أن المطبعة يمكنها أن تخفض أثمان الكتب فتجعلها في متناول أكبر عدد ممكن من الناس، فيحل العلم محل الجهل على أنه غير خافٍ على أحد أن الأمة المتعلمة تأبى الضيم ويصعب حكمها حكمًا استبداديًا(٨٠).

إن هذه الآراء تتفق على أن خطر المطبعة يكمن في أنها ستدخل الاضطراب على هياكل الدولة العثمانية التي تخنق كل الحريات. ذلك أن الكتاب المطبوع سيسهم في تعليم الشعوب ونشر آراء تدعو إلى الحرية وتشكك في شرعية سلطة الباب العالي، وهذا الأمر يخيف السلطان ويجعله لا يقدم على استخدام هذا الفن، ويحمل هؤلاء المؤلفين مسؤولية تأخر المطبعة على الباب العالي لوحده. إلا أن هذا الرأي وإن كان فيه نصيب من الصحة، لا يمكننا من أن نقر بأن السلطة العثمانية هي المسؤولة الوحيدة عن عدم استعمال المطبعة. فظاهرة رفض الاكتشافات العلمية الحديثة ورفض التجديد بصفة عامة، توجد أيضًا في أوساط أخرى داخل الإمبراطورية خاصة منها المتعلمة كما سنراه فيما بعد. وكذلك الجيش الإنكشاري الذي تصدى بعنف إلى كل مظاهر التجديد في القوات المسلحة مثلما حدث إزاء محاولة الإصلاح العسكري التي أقدم عليها السلطان عثمان الثاني التي رفضها الجيش العثماني، وانتهى الأمر إلى قتل السلطان.

ولهذا فإن الباب العالي لم يسارع في اتخاذ موقف مناصر للمطبعة مراعاة لمصلحته ومراعاة كذلك للمناخ الثقافي السائد في المجتمع الذي لا يقبل بسهولة التغيير، وفضل انتظار بروز حاجة لدى المتعلمين إلى مثل هذا الاكتشاف الثقافي قبل أن يتخذ إجراء في هذا الشأن. إن صدور قوانين في مسائل علمية ثقافية دون أن تستعد لها العقول، يؤدي إلى عزلها وبالتالي إلى عدم التأثير في المجتمع؛ وهذا ما يفسر، إلى حد ما، تأخر الباب العالي في اتخاذ قرار لفائدة إدخال المطبعة العربية إلى الإمبراطورية إلى حد القرن ١٢هـ/ ١٨م.

٥.٣ - قرار أحمد الثالث في ١١٤٠هـ/ ١٧٢٦م :

كانت المطبعة في بدايتها في أرض الإسلام مشروعًا سياسيًا قرره وأعد له وتعهد به أصحاب السلطة بمعية رجال علم موالين للباب العالي. كان ذلك في سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، حين سمح السلطان أحمد الثالث ووزيره بتأسيس ورشة للطباعة تستخدم الحرف العربي في إستانبول. وكان الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد قد بذل جهدًا كبيرًا لتذليل كل الصعوبات وإقناع من تبقى من العلماء القريبين من الباب العالي والمعارضين لهذا المشروع بأهميته وفوائده، كما أنه تدخل لحماية المطبعيين الأوائل.

وقبل هذا التاريخ لم يكن المتعلمون يقدمون على اتخاذ مبادرة بإعداد مشروع أو الحديث عن إصلاحات. أما إذا تجرأ أحدهم وتقدم باقتراحات ووجدت اهتمامًا وآذانًا صاغية من طرف رجال السلطة، وتمكن من إقناعهم وخاصة منهم الصدر الأعظم والمفتي فإن المشروع يعرف طريقه إلى الإنجاز والحال أنه كان يتراءى في البداية مستحيلاً[٨١].

وفي بداية القرن ١٢هـ/ ١٨م، بادر أحد الموظفين لدى الباب العالي، وهو في الوقت نفسه رجل علم وأدب ويدعى إبراهيم متفرقة بتحرير كتيب حول منافع

المطبعة بعنوان "رسالة وسيلة الطباعة" وعرضه على الصدر الأعظم وشيخ الإسلام فوجد قبولاً حسناً من طرفهما، وحتى من طرف السلطان الذي أصدر قراراً يسمح للمسلمين داخل الإمبراطورية بإقامة مطبعة بالحرف العربي، وقد تبنى في القرار الآراء نفسها التي أوردها متفرقة، وبالخصوص ما يلي :

" عند وصول هذا الأمر الشريف ستعلمون بأنه من الضروري لكي نضمن دوام قوانين الدين، وندعم نظام الملك ونحفظ التواريخ والأخبار ونوسع دائرة المعارف البشرية اللجوء إلى الكتابة، وهي الوسيلة الوحيدة لسرد كل ما وقع عبر مختلف العصور ونسخ الكتب بأعداد وافرة حتى تصل إلى الأجيال القادمة"(٨٢).

إن هذا القرار يضع علامة تحول بارزة في موقف السلطة العثمانية تجاه المطبعة فقد وردت فوائد هذه الآلة والخدمات التي ستقدمها للدين الإسلامي وللدولة وللعلوم والآداب (٨٣).

٤ - الأسباب الثقافية :

تناول المحافظون والإصلاحيون طيلة حوارهم نقطة مهمة تتعلق بتجديد أدوات العمل الفكري، أي الانتقال من المخطوط إلى الكتاب المطبوع ومن الكتابة العربية بخط اليد إلى حروف الطباعة المنفصلة، ومن مهنة الناسخ إلى مهنة المطبعي. وقد استعرضوا مدى تأثير هذه الأدوات الثقافية في تطور الحضارة الإسلامية عبر العصور. إنه من المهم معرفة آرائهم ، وطريقة تقييمهم لدور المخطوط ومفهومهم للكتاب المطبوع ولآلة الطباعة؛ وكيف يحكمون على الخط العربي وعلى حروف المطبعة وكيف ينظرون إلى مهنتي الناسخ والمطبعي؟

٤.١- المخطوط والناسخ :

حين دخل الكتاب المطبوع إلى جمهورية الآداب " للإطاحة " بالمخطوط، وجد معارضة شديدة من لدن العلماء ولقد كان وعاء المعلومات التقليدي يحافظ إلى حد ذلك العهد على امتياز نقل العلوم وذلك منذ بروز المؤلفات الإسلامية

الأولى وخاصة الكتاب العربي الأول وهو القرآن الكريم[٨٤]، الذي احتاج المسلمون إلى تدوينه وتوزيعه في مختلف الأصقاع، وكذلك الحال بالنسبة لكل أنواع الكتب الأخرى فظهر الخطاطون والناسخون في كل المدن والمراكز الثقافية، وتولوا نسخ هذه الكتب وقد عمل الناسخون أو الوراقون بكل جد لتوفير نسخ من الكتب لكل من يطلبها من الجمهور، وكذلك لقراء المكتبات وطلاب المدارس. وقد كانت مهنة الوراقة طيلة القرون الأربعة الأولى للهجرة من المهن النبيلة الرفيعة، ولا يسمح بتعاطيها إلا لمن يشهد له بالكفاءة [٨٥]. فكان أن احترفها بعض كبار العلماء المسلمين من أمثال الجاحظ والتوحيدي، وكان الناسخ يعمل بشغف في نسخ الكتب[٨٦]، خاصة وأنها ترفع من مكانة طلاب العلم في عالم المعرفة، فكما نسخ مخطوطات أكثر حظي بالتقدير.

كما تفنن الناسخون في كتابة الحرف العربي[٨٧]. من أمثال: ابن مقلة (٢٧٨هـ - ٣٣٨هـ/٨٩١م - ٩٤٩م). الذي عمل ببلاط سيف الدولة الحمداني بحلب وابن البواب (توفي في سنة ٤٢٣هـ/١٠٣١م) الذي عمل بمكتبة البويهيين بشيراز[٨٨].

لم يقتصر اهتمام الوراقين في القرون الأولى للهجرة على التفنن في الخط فحسب، بل تجاوزه إلى الاعتناء أو الحرص على نسخ النص بكل أمانة. وكان المكتبيون يستعينون بالعلماء للتحقق من مطابقة النسخة الجديدة للنص الأصلي، وكانوا أحيانًا يوكلون مهمة النسخ إلى الشخص الذي يعرف جيدًا أو الذي يمتلك نسخة جيدة، وكانوا يلتجئون إلى الناسخ الذي يلازم المؤلفين المشهورين للحصول على النسخة الأصلية[٨٩].

وبالرغم من الركود الذي أصاب الحياة الثقافية والعلمية بعد القرن ٥ هـ/ ١٢م، واصل الناسخون عملهم متعلقين دائمًا بالخط العربي البديع حتى في ظل الدولة العثمانية، حيث ذكرت بعض المراجع عددًا كبيرًا من الخطاطين في تلك الفترة[٩٠]. وهؤلاء اهتموا أساسًا بخطي الثلث والنسخ، وتركوا لنا تحفًا فنية

رائعة. وقد شغف بالمهنة حتى رجال السياسة مثل الأمير كركوب (توفي في سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م) وهو ابن بايزيد الثاني[٩١] ، وبلغ شغف هواة الخط العربي في عهد العثمانيين إلى حد أنهم كانوا يتهافتون على شراء أحسن إنتاج للناسخين بأثمان مرتفعة، وكانوا مولعين بالكتابة بخط اليد بشكل يفوق كل تقدير، ولم يكونوا ليتحمسوا البتة للكتب المطبوعة، بل إنهم دافعوا عن المخطوط بعض الأحيان وقاوموا عملية توزيع الكتب المطبوعة. ونذكر هنا بحادثة الاعتداء على تاجرين إيطاليين لكتب عربية مطبوعة في سنة ٩٩٦هـ/١٥٨٨م، وما نتج عنها من قرار مراد الثالث، ولكن رغم صدور هذا الفرمان، فإن موقف المتعلمين لم يتغير كثيراً إذ بقوا يتداولون المخطوط الذي حافظ على مكانته المتميزة في كل الأوساط. وهنا نورد شهادة *المستشرق الفرنسي قالان الذي زار المشرق*، ولاحظ أن *العرب والفرس والأتراك لا "يستسيغون الطباعة ولا يرون جدوى منها* وأنهم يفضلون قراءة الكتب المكتوبة بخط اليد، وإن كانت الكتابة رديئة على قراءة كتب مطبوعة بأجمل الحروف العربية[٩٢].

إن هذه الظاهرة تتأكد من خلال هذه الرواية الأصلية، وإنه من الصعب تغيير العادات القرائية لدى شعب له ماضٍ عريق مع المخطوط، وهذا من العوامل التي تسببت في بطء عملية تعويضه بالكتاب المطبوع. وهنا يقدم المستشرق نفسه شهادة ثانية توضح تصرف المسلمين تجاه كل من المخطوط والمطبوع، فقد وجد في وراقة بإستانبول كتاب لابن سيناء وهو "القانون في الطب" الذي طبع بروما من طرف الميدتشي سنة ١٠٠٢هـ/١٥٩٣م، وعلم أن الوراق لم يتمكن من بيعه رغم عرضه بثمن أقل مما يباع في الغرب، في الوقت الذي كان يبيع فيه الكتاب نفسه مخطوطاً بثمن باهظ جداً [٩٣].

لقد مرّ على صدور الكتاب الذي يتحدث عنه قالان أكثر من قرن، ورغم ذلك فلم يجد من يشتريه في المشرق رغم أنه طبع بحروف ڤرانجون وهي جميلة وتضاهي أجمل الخطوط العربية. إن المتعلم المسلم لا يتردد في شراء مخطوط

ابن سيناء، ولو كان بثمن مرتفع ويعرض في الوقت نفسه عن شراء الكتاب مطبوعًا[٩٤]. وهذا يدل على أن المسلمين يفضلون الخط العربي المكتوب باليد، على خط الطباعة، ولم يفكروا في استبدال المخطوط بأي وعاء آخر. فبقي المخطوط بذلك سيد الموقف بعد قرن من ظهور المطبعة. ولم يعترض المسلمون فقط على طبع الكتب، بل وكذلك على استعمال الكتب المطبوعة رغم ترخيص السلطان مراد الثالث بذلك. ولم تكن القوانين كافية لتغييرسلوك وعادات القارئ المسلم، إذ لا بد من أن يسبقها تمهيد للميدان وإعداد للعقول لقبول التغيير، بل إن بعض العقول كانت تشك وترتاب في الكتاب المطبوع؛ لأنه قادم من بلاد المسيحيين[٩٥]. وليس من السهل قبول هذا " الاكتشاف الثقافي " الذي جاء لتحدي المخطوط والقضاء عليه في جو كان يسوده صراع عنيف بين بلاد الإسلام وبلاد المسيحية.

إن المخطوط أداة ثقافية لعبت دورًا بارزًا في تقدم ونمو الحضارة الإسلامية منذ ظهور المؤلفات العربية الأولى. كما أنه حافظ ولا يزال على التراث الفكري للأمة وهو همزة وصل بين الماضي والحاضر ويؤمّن التواصل بالنسبة للثقافة العربية الإسلامية، كما يعد أحد ركائزه هذه الحضارة المكتوبة، ولذلك فإن المحافظين يعتقدون أن في إهماله والانصراف عنه إلى المطبوع، تعبير عن عدم اعتراف بمجهود الأجداد وقطيعة مع الماضي الزاهر؛ وليس المخطوط مجرد وعاء معلومات بالنسبة للمسلمين، بل هو أداة حضارية لعبت دورًا خطيرًا في تقدم الثقافة العربية، لذلك فإن الحوار حوله كان مناسبة للتفكير في مستقبل الحضارة الإسلامية[٩٦] وفي استعارة بعض الأساليب الفنية من عالم معاد لهم وإعطائه في نهاية الأمر شكلاً جديداً للثقافة، وهو شكل الكتاب المطبوع ، إن تواصل العمل بالمخطوط يعني تواصل الشكل القديم للحضارة ولهذا كان موضوع هذا الوعاء من أهم محاور الحوار[٩٧].

إن مهمة أنصار المطبعة في الردّ على هذه الاعتبارات والحجج ليست سهلة وكان عليهم إبراز دور الكتاب المطبوع في تحديث الحضارة الإسلامية؛ فبدأوا بتوجيه نقد لاذع للمخطوط الذي لم يعد قادراً على تأمين التواصل بين ماضي وحاضر ومستقبل هذه الحضارة.

إن عدد المخطوطات، حسب قول أحد المجددين العثمانيين وهو إبراهيم متفرقة، بدأ في التناقص بسبب أحداث تاريخية مؤسفة، إلى درجة أن خطر اختفاء جل المؤلفات الإسلامية بدأ يحدق بجدية على تراث الأمة، فقد عرفت أكبر المكتبات الإسلامية مصيراً قاتماً عند غزو التتار للمشرق الإسلامي، أولئك الذين أحرقوا الكتب وألقوا الكثير منها في الأنهار. وعرفت مكتبات الأندلس المصير المظلم نفسه، كما أن الحروب الداخلية التي دارت بين الأمراء المسلمين تسببت في إتلاف أمهات الكتب والعديد من المؤلفات الثمينة كما ضاعت نسبة أخرى من المخطوطات بين رفوف المكتبات المهملة (٩٨).

وقد أراد متفرقة أن يقول إن الناسخين في عصره غير قادرين على تعريض هذا النقص الفادح من الكتب الذي أضر كثيراً بالعلوم والآداب، فهم عاجزون عن نسخ ومضاعفة عدد الكتب في كل المواضيع التي أصبحت نادرة وباهظة الثمن، وكذلك على إنقاذ التراث الفكري المكتوب من التلف. أضف إلى ذلك كله الاستجابة للطلب اليومي للقراء وهذا في عصر – كما يقول متفرقة – كان فيه الناسخون غير واعين بخطورة الأمر وغير نشيطين في عملهم(٩٩).

ولم يقتصر تهجم أنصار المطبعة على المخطوط فقط، بل تجاوزوه إلى الناسخين الذين لا يقدرون أهمية دورهم في نقل المعرفة والحفاظ على التراث، فهم لا يتحمسون لنسخ المجلدات الضخمة القديمة التي ندر وجودها، وحتى عند نسخهم للكتب الأخرى، فإنهم يرتكبون أخطاء لا تحصى في الرسم ويغفلون عن كتابة كلمات وفقرات من المخطوط. وهذا ما أشار إليه أحمد الثالث في نص الفرمان الذي أصدره في ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، عند حديثه عن الناسخين: "إنهم

يتباطأون في عملهم ولا يعيرونه الانتباه اللازم، ويصل جهلهم أحيانًا إلى حد كتابة نسخ مليئة بالأخطاء وبالكلمات المنقوصة" [١٠٠]. كما علل إبراهيم متفرقة هذا التصرف بإهمال الناسخين وعدم معرفتهم لقواعد رسم اللغة [١٠١]. ويبين متفرقة نتائج هذا العمل الرديء وهي ظهور نصوص غير مطابقة للأصل مما ينعكس سلبًا على سير الدروس العلمية إذ يضطر المدرس والطلاب إلى التوقف عن الدرس والانكباب على التحقق من مطابقة النسخ لبعضها وإصلاح الأخطاء؛ وهذا الأمر يتسبب في ضياع وقت ثمين لم يكن ليحدث لو اعتمد المثقفون على الكتاب المطبوع. ذلك لأنه قبل إعطاء الإذن بسحب الكتاب على آلة الطبع، يقع التثبت وإصلاح كل الأخطاء من طرف علماء مقتدرين[١٠٢]. وقد ركز أنصار المطبعة ردودهم على نقد عمل الوراقين العثمانيين وخاصة على تهاونهم وإهمالهم وتباطئهم في العمل، ولم يكفهم أن كان المخطوط نادرًا في ذلك العصر، بل إن الناسخين أساءوا إلى المثقفين بنسخ كتب مليئة بالأخطاء، نتيجة جهلهم وعدم درايتهم بقواعد اللغة والرسم، وهذا على عكس ما كان عليه أسلافهم في الماضي من تفانٍ ودراية عالية في التوريق. ونتيجة لهذا الوضع فإن أنجع حلٍّ حسب رأي أنصار المطبعة، يكمن في تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع.

٢.٤ – الكتابة العربية :

ما هي ردود فعل المسلمين تجاه التحولات التي ستلحق بالخط العربي في صورة تعويض قلم الناسخ بحروف المطبعي؟؛ وما هي مكانة الخط العربي في المجتمع الإسلامي؟.

وللإجابة عن هذا السؤال سنتناول بالدرس الجوانب الاجتماعية والفنية للخط العربي.

١.٢.٤ – الجانب الفني للخط العربي :

تعوّد المثقفون على قراءة مخطوطات جميلة مكتوبة بخط عربي بديع، ولم يكن

من السهل تحويل الأذواق من قراءة نصوص مكتوبة بخط اليد إلى حروف الطباعة [١٠٣]. إن الكتابة العربية تمثل إلى جانب وظيفتها العلمية نشاطًا فنيًا من الدرجة الأولى، فكيف حدث هذا التطور في تاريخ الخط العربي، وما هي أبعاد هذا الجانب الفني في الحوار الجاري بين معارضي وأنصار المطبعة.

انتشر الحرف العربي في فجر الإسلام بسرعة كبيرة، وساعد على ذلك الفتوحات الإسلامية خارج شبه الجزيرة العربية، وكان مرتبطًا بتوسع استعمال العربية التي هي لغة القرآن الكريم والثقافة التي تخاطبت بها عدة شعوب غير عربية دخلت الإسلام وتعلمتها لتلقي تعاليم الإسلام والاندماج مع العرب الأصليين والتعامل مع إدارة الدولة التي عربت في عهد الخليفة الأموي عبدالملك. ووصل الأمر إلى حد أن العربية عوّضت بعض اللغات المحلية كما أن الحرف العربي استخدم لرسم لغات غير عربية لبعض الشعوب الإسلامية. إن هذا الحرف له مكانة خاصة لدى المسلمين لأنه استعمل لرسم الآيات القرآنية.

إن الخط العربي يعني بالنسبة لهذه الشعوب بالانتماء إلى دين وثقافة وتاريخ مشترك وبالتالي إلى الحضارة الإسلامية[١٠٤]. وقد بذلت كل هذه الشعوب جهدًا كبيرًا وسخرت كل تجاربها لتحسين الخط العربي وإعطائه رونقًا خاصًا، وبما أن جلّ الأئمة والفقهاء أفتوا بتحريم التصوير في بداية الإسلام[١٠٥]. فقد سخر الفنانون كل مواهبهم للإبداع في رسم الحرف العربي وأصبحت هواية كل الفنانين ، وكذلك العلماء الذين حرصوا على التفاني في كتابة كلام الله بخط جميل ليكون في مستوى قدسيته.

ويخصص ابن خلدون فصلاً في المقدمة للحديث عن هذا الموضوع، فأثنى على الكتابة العربية وعدّها في مرتبة عليا بين العلوم النبيلة، وأنها من عمل أهل الحضر[١٠٦]. وللوصول إلى هذا المستوى الرفيع من الإتقان عمل الفنانون على تطوير جملة من فنيات وأدوات الناسخ مثل القلم أو القصبة وطريقة مسكه،

والحبر وكيفية إعداده، واختيار الورق واستنباط الخطوط الجديدة وانعكس كذلك على أدبيات بعض الوراقين [١٠٧].

وقد شغف المسلمون بفن الخط العربي وتسابق المتعلمون في اقتناء المخطوطات المكتوبة بأجود الخطوط العربية، ولم يكن من السهل تغيير مثل هذه التقاليد الفنية والأذواق وتحويلها نحو حروف الطباعة العربية. وقد عبّر أحد العلماء المسلمين عن تعلقه بالكتابة المخطوطة وهو أستاذ طب بالقاهرة الذي ذكر في ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م "أنه من السهل فهم الكتابة بخط اليد أكثر من الكتابة المطبوعة» [١٠٨]. إن هذه المقارنة البسيطة بين كلا الشكلين في الكتابة، تبين أن هذا العالم لا يعتقد بأن أحرف الطباعة يمكن أن تكون واضحة مثل خط الناسخ، ويعبر الأستاذ عن تشاؤمه حول مصير الخط العربي إذا ما أصبح يكتب بأحرف الطباعة إذ أنها ستشوه الكتابة العربية الجميلة.

إن اطلاع المسلمين على عينات من نصوص مطبوعة جعلهم لا يطمئنون إلى فن الطباعة ويرون فيه تشويهاً للخط العربي الجميل، ذلك لأن الكتب العربية المطبوعة في أوربا التي وصلت إلى المسلمين قد أعطت فكرة سيئة عن " أحرف الطباعة " وقد عبّر عن هذه الإشكالية بتفصيل أكثر إبراهيم متفرقة الذي أكد أن المنشورات العربية في أوربا قد تعرف عليها المسلمون إلا أنه اعترف بأنها لم تجد إقبالاً من لدنهم، لا لشيئ سوى أنها طبعت بأحرف عربية رديئة ومليئة بالأخطاء، والسبب في ذلك حسب قول متفرقة هو افتقاد أوربا لأشخاص قادرين على حفر حروف عربية جميلة [١٠٩].

إن هذا التعليل ينطبق فعلاً على الكتب الأولى فقط، حيث طبعت بأحرف غير متناسقة وبدت الكتابة غير واضحة الأمر الذي لا يقبله أبناء الشرق[١١٠]. وفي الحقيقة هناك مشكلة فنية اعترضت الأوربيين عند بداية تعاطيهم الطباعة بالأحرف العربية، وتتمثل في صعوبة رسم الخط العربي بأحرف مطبعية. إن

مبدأ الأحرف المنفصلة الذي اكتشفه غوتنبرغ ينطبق على الهجائية اللاتينية التي تقبل بمبدأ فصل الحروف وهذا لا يتماشى مع طبيعة الكتابة العربية التي تُبقى على ترابط الأحرف في الكلمة الواحدة وبدون ذلك يكون النص متقطعًا. وهذه المشكلة الفنية لم تشجع المسلمين وخاصة المحافظين منهم على طبع كتبهم وعدّوا المطبعة خطرًا يهدد الخط العربي ويهدم أحد أروع الفنون التي شهدتها الأمة الإسلامية. ويلاحظ ديمرسمان في هذا الصدد أن قبول أحرف الطباعة يمثل قطعًا فائدة عملية، ولكنه يعني في الوقت نفسه قبول التشويه (١١١).

أمام هذا الموقف المتصلب من طرف أنصار المخطوط والكتابة العربية بخط اليد، كيف كان رد فعل أنصار المطبوع؟؛ وما هي الحجج التي قدموها لتأييد مواقفهم في هذه المسألة؟. لقد سبق أن رأينا أن إبراهيم متفرقة قد نقد عمل المطبعيين الأوربيين الذين أصدروا كتبًا عربية، واعترف بوجود مشكلة فنية، إلا أنه كان متفائلاً بخصوص مستقبل النشر العربي. إذ ليس من الصعب على الأوربيين تجاوز هذه العقبة، ويكفي أن توكل المهنة إلى حفارين ماهرين قادرين على سبك القوالب وطوابع الأحرف العربية حتى تكون شبيهة بالكتابة بخط اليد(١١٢). من خلال هذا الرأي يمكن أن نستشف أن متفرقة يقصد أنه إذا كان بإمكان الأوربيين تجاوز هذا العائق، فالأمر يكون أيسر بكثير بالنسبة للشرقيين الذين يحذقون اللغة العربية ويقدرون على سبك أحرف جيدة لها تضاهي كتابة المخطوط. نشير هنا إلى أن متفرقة لم يطلع على التطور الفني الذي عرفته الطباعة العربية بأوربا منذ القرن ١١هـ/١٧م، وإلا لما ذكر تلك التخمينات والآمال حول إمكانية تحسين عملهم فقد توصل الأوربيون فعلاً إلى حل المشكل الفني حيث قاموا بإعداد الأشرطة الرابطة بين الأحرف ونقشوا قوالب لأحرف جميلة شبيهة بكتابة المخطوطات وتمكنوا بذلك من طبع نصوص عربية بخط بديع(١١٣).

وقد حرص أنصار المطبعة على القيام بتجارب عملية بأنفسهم حتى يقنعوا المعارضين وخاصة السلطات بأنه لا خطر على الكتابة العربية من المطبعة، فتولى أحدهم وهو إبراهيم متفرقة إعداد عينة من قوالب وأحرف عربية وقدمها مع رسالته إلى العلماء ورجال الباب العالي[١١٤]. بل إنه ذهب أكثر من ذلك لطمأنتهم على مصير الخط العربي، فذكر بعض الفوائد للحبر الذي يستخدم في المطبعة من بينها أنه لا تؤثر فيه الرطوبة ولا يقع كشطه بسرعة كما هو الحال بالنسبة للمخطوط[١١٥]. إنه من البديهي أن يستخدم المطبعيون هذه المادة ويمكن أن يستخدمها كذلك الناسخون ولم تكن هذه الحجة متينة مثل بقية الحجج.

٢.٢.٤ - مكانة الخط العربي عند العلماء المسلمين :

وإلى جانب ولعهم بفن الكتابة العربية، كان المسلمون يولون الحرف العربي الاحترام الكامل بعدّه الرسم الذي دونت به الآيات القرآنية. فالكتابة العربية كانت الأداة المادية لنقل رسالة الإسلام والحفاظ على نص القرآن ونص الحديث النبوي الشريف. ولذلك كانت محل عناية فائقة من طرف العلماء الذين اهتموا منذ فجر الإسلام بنسخ كتاب القرآن الكريم، وتسابقوا في إخراج أكبر عدد ممكن من النسخ [١١٦]. ولهذا لم يكن من السهل تعويض هذا العمل اليدوي بآلة قادمة من بلاد المسيحيين. إن في طبع الكتب بأحرف عربية كما يراه بعض العلماء اعتداء "على مكانة هذه الهجائية وفي الاعتداء على هذه الكتابة اعتداء على القرآن الكريم نفسه [١١٧]. إن هذا الكتاب سيفقد في نظر هؤلاء " قيمته الروحية" إذا كتب " بأحرف من معدن " كذلك إن استعمال فن الطباعة يعني في نظر بعض المؤمنين " خيانة " لأصالة الرسالة المحمدية. إنهم يخشون من قيام أناس انتهازيين منافقين بطبع كتب إسلامية محرفة ومشوهة [١١٨]. ويكون المسلمون قد خانوا الأمانة التي نقلها لهم أسلافهم الأوائل وبالخصوص القرآن الكريم وكتب الأحاديث التي دونت بأمانة وبدقة متناهية ، وبعد تحريات كبيرة.

إن هذا الحذر الشديد قد يكون مأتاه ما ورد في القرآن الكريم من إشارات إلى حفظ القرآن وصيانته، وتأكيد على قيمة الكتابة وأوعية وأدوات الكتابة. لقد

أشارت عدة آيات إلى أن الله تعهد بحفظ القرآن من كل تشويه يمكن أن يلحقه مثلما حدث للكتب السماوية السابقة.

فقد وردت آيات قرآنية تطمئن المؤمن على مصير القرآن الكريم فالله عز وجل تكفل بحفظه (**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**) (الحجر ٩)؛ فقد قرر الله تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر وهو القرآن الكريم وهو الحافظ له من التغيير والتبديل [١١٩] . وأكد أن هذا القرآن العظيم هو محفوظ في الملأ الأعلى وهو يسهر على حفظه من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل [١٢٠].(**بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ**) (البروج ، ٢١ – ٢٢) ؛ وعن طريقة تبليغه إلى الناس كافة يأمر الله تعالى رسوله الكريم (صلى الله عليه وسلم) أنه إذا جاء ه ملك بالوحي أن يستمع له ويتكفل الله بجمعه في صدره وتيسيره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه[١٢١]. (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) (القيامة ١٦ – ١٧). أما عن الطريقة التي توخاها الرسول، صلى الله عليه وسلم، في نقله إلى الصحابة فكان لها وجهان: نقل شفهي[١٢٢]. ونقل كتابي، وكلا الوجهين يتكاملان لحفظ القرآن وتروي كتب السيرة أنه في كل مرة ينزل الوحي، كان الرسول يدعو كتبة القرآن لتدوين الآيات المنزلة في إبانها[١٢٣]. وهذه العملية بالذات كانت جوهرية للحفاظ على نص القرآن من كل تحريف؛ لأن الإسلام يعطي للكتابة مكانة متميزة لحفظ تعاليم الإسلام ونقلها عبر العصور إلى كافة البشر وكذلك لتنظيم العلاقات بين المؤمنين من ذلك كتابة العهود والديون والعقود والحسابات، وخاصة لتعليم المسلم ولبث المعرفة والعلوم[١٢٤].

لقد أعطى القرآن أهمية بالغة أيضاً لأدوات وأوعية الكتابة. من ذلك أنه استعمل بعضها للقسم للدلالة على مكانة العلم والقراءة والكتابة في حياة المسلم مثل القلم : (**ن والقلم وما يسطرون**) (القلم ١) وكذلك الرق وهو جلد الحيوان يرقق ليكتب عليه (**والطور وكتاب مسطور في رقّ منشور**) (الطور ١ – ٣).

لم يفرض الإسلام على المؤمنين استعمال أداة من أدوات الكتابة دون غيرها أو وعاء دون وعاء. فالمهم هو أن يتعلم المسلم ليفهم دينه ويتدبر آيات الله وعظمته ويفيد غيره من إخوانه بعلمه، لذلك سرعان ما عوض المسلمون أوعية المعلومات القديمة بوعاء جديد لا يزال يستعمل إلى اليوم، وهو الورق الذي عوض بمرور الزمن الرق والبردى وغيره. وحدث تطور كبير في طريقة واستخدام ماء الذهب في بعض الأحيان لنسخ القرآن الكريم، وهذا التنوع في الشكل لم يمس النص الأصلي للقرآن بسوء. وكان ذلك في عهد ازدهار حضارة المسلمين إلا أنه مع تدهور حالهم وجمود حياتهم الثقافية، لم تعد لديهم الرغبة ولا الاستعداد لتبديل أي شئ فيما يتعلق بأمور شكلية. إن تحفظ المسلمين حول تغيير الكتابة المخطوطة بكتابة مطبعية كان مأتاه الريبة والخشية من تغيير نص القرآن الكريم والحديث ، وهذا الحذر عبّر عنه بصفة غير مباشرة شيخ الإسلام في عهد السلطان أحمد الثالث، حيث طلب منه الإفتاء في قضية الطباعة، وإن الالتجاء ذاته إلى الإفتاء يدل على أهمية الموضوع الذي لا يتجرأ السلطان نفسه على الحسم فيه قبل استشارة العلماء والفقهاء، رغم أنه يتمتع بالسلطة الدينية والدنيوية، فكيف تم عرض المسألة على شيخ الإسلام للبت فيها: " إذا أراد شخص سبك أحرف من معدن لطبع كتب التراث والعلوم مثل المعاجم وكتب الفلسفة والمنطق والفلك وغيرها، هل ترخص له الشريعة باقتناء مثل هذه الكتب لطبعها؟(١٢٥).

إن صاحب هذا السؤال هو من أنصار المطبعة، وإن لم يذكر اسمه ، ولا يستبعد أن يكون الصدر الأعظم نفسه إبراهيم داماد أو إبراهيم متفرقة أو رفيقه في المشروع سعيد شلبي (١٢٦). واتسم طلبه بالحذر إذ حدد مواضيع الكتب التي يريد طبعها. ويبدو أنه يعلم يقينًا أن العلماء لن يسمحوا له بطبع كتب الفقه والعلوم الدينية فالعقول غير مستعدة للدخول في " مغامرة " منذ الوهلة الأولى

بطبع مثل هذه الكتب، ورغم هذا الطلب " المعتدل "، فقد أظهر المفتي بعض التردد إلى درجة أن الوزير الأكبر هدد بعزله من منصبه في حالة الرفض(١٢٧). إن شيخ الإسلام لم يكن مستعداً لتحمل مسؤولية اتخاذ قرار خطير مثل هذا، ويمكن أن يكون غير متحمس للمشروع إلا أن ضغط الباب العالي جعله يذعن ويوافق على إقامة المطبعة. وقد جاء في نص الفتوى :

" إذا تمكن أحدهم من طبع الكتب المذكورة أعلاه بأحرف معدنية بدون أخطاء، فإنه سيسهل العمل ويوفر نسخًا كثيرة من الكتب بثمن زهيد وييّسر اقتناء الكتب. إني أقر أن لهذا الفن فوائد عظيمة ويستحق التشجيع ولا ينبغي ألبتة تأجيل استخدامه بشرط أن يتم اختيار أناس ماهرين لإصلاح الأغلاط قبل الطبع والتثبت من مدى مطابقة النسخ للمخطوطات الأصلية " (١٢٨).

لقد تم الترخيص من المفتي لإقامة مطبعة إسلامية بالبلاد العثمانية، مع بعض الشروط، أولها: عدم طبع كتب عن الشريعة الإسلامية بما أن الفتوى اقتصرت على المؤلفات المذكورة أعلاه؛ أي في نص طلب الفتوى وهي كتب الآداب والعلوم الأساسية أما الشرط الثاني فهو إخراج كتب سليمة من الأخطاء ومطابقة للأصل. وقد انتهى الحوار حول مسألة الطباعة إلى اتفاق بين الشق المعارض والمؤيد لها وهو الموافقة على استخدام فن الطباعة دون مس كتب الشريعة الإسلامية (١٢٩). إن التيار المحافظ انتصر في هذه النقطة واضطر التيار الإصلاحي إلى الرضوخ أمام تصلب العلماء إلى القرن ١٩م (١٣٠). فقد أكد السلطان عبدالحميد الأول سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م رفضه لطبع كتب الشريعة (١٣١). لقد بقي في نفوس المتعلمين بعض الشك حول مدى قدرة آلة الطباعة على نسخ كتاب القرآن وبقية كتب الشريعة بدون أخطاء. أضف إلى ذلك عدم استعدادهم لكتابة آيات الله بأحرف معدنية. كذلك هناك عامل آخر شجع على اتخاذ القرار، وهو أن كتاب القرآن وكتب السنة النبوية بالذات غير معرضة للاندثار، إنها غير نادرة فهي مطلوبة بكثرة من طرف المؤمنين ، وكان

الناسخون يستجيبون للطلبات، عكس المؤلفات العلمية والأدبية التي هي في تناقص في ذلك العصر.

إن المطبعة بالأحرف المتنقلة، هي اكتشاف أوربي، إلا أنها اصطبغت عند إدخالها إلى بلاد المسلمين بخصوصيات المشرق لتصبح " شرقية " (١٣٢).

٣.٤ - العلماء المسلمون والمطبعة :

من الضروري معرفة المناخ الفكري الذي عاش فيه العلماء المسلمون في عهد العثمانيين فكيف كانوا يرون المطبعة؟؛ كيف كان تفكيرهم؟؛ وما هي آراؤهم وبراهينهم لقبول أو رفض المطبعة؟.

١.٣.٤ - حالة الآداب والعلوم في إستانبول :

عاش المجتمع العثماني " عصره الذهبي " على المستوى الثقافي والعلمي من فتح بيزنطة إلى وفاة سليمان القانوني (١٣٣). وقد عرف هذا العصر نشأة عدة مؤسسات علمية مثل مدارس محمد الثاني وبايزيد الثاني وسليمان القانوني وغيرها. وحظي فيه العلماء والأدباء بالعناية والرعاية من طرف الباب العالي، وظهرت فيه مؤلفات علمية قيمة وخضع التعليم فيه إلى نظام صارم في مدارس داخلية وخارجية، كان فيها الأساتذة على مستوى عالٍ من التكوين (١٣٤). ومع تراجع القوة العسكرية للعثمانيين بعد موت سليمان القانوني، خفت نور العلم والثقافة وتزامن ذلك مع فراغ خزينة الدولة التي تأثرت بتوقف الحروب والفتوحات التي كانت قد وفرت في السابق للدولة أموالاً طائلة.

لقد ضعفت الحركة الثقافية والعلمية إذن بعد " العصر الذهبي " ولم يبدع العلماء العثمانيون كثيراً في مجال الفكر والأدب (١٣٥) ، ولم يواكبوا ما يحدث بأوربا من تحولات فكرية مهمة، ولم يطلعوا على الاكتشافات التقنية هناك، حتى أن إبراهيم متفرقة تهجم عليهم لإهمالهم آلة الطباعة (١٣٦). بل حدث تراجع عما كان عليه الحال من قبل، إذ تم إقصاء العلوم الأساسية والفلسفية من المدارس

في القرن ١٧م. وتحدث عن هذا الوضع حاجي خليفة المعروف بكاتب شلبي (١٠١٨هـ/١٦٠٩م - ١٠٦٨هـ/١٦٥٧م)، وهو أكبر عالم عثماني في القرن ١١هـ/١٧م [١٣٧] فتحدث في كتابه ميزان الحق عن الركود العلمي ونقد نقداً لاذعاً العلماء الذين لا يعيرون اهتماماً للعلوم الأساسية [١٣٨].

بدأت فترة الجمود بتحطيم المرصد الفلكي بغلاطيا (Galata) في ٩٨٨هـ/١٥٨٠م، وهو المرصد الوحيد من نوعه في البلاد العثمانية، أسسه مراد الثالث سنة ٩٨٥هـ/١٥٧٧م لدراسة جداول أولغ باغ (Ulugh-Beg) [١٣٩]. إلا أن شيخ الإسلام كان يرى في ذلك شكلاً من أشكال السحر وطلب من الباب العالي هدم المرصد[١٤٠]. إن حالة الركود التي عرفها العهد العثماني ليست من شأنها أن تفسر غياب المطبعة العربية. فإذا لم تقع إقامة مطابع عربية قبل ١١٣٩هـ/١٧٢٦م فليس ذلك بسبب عدم الحاجة إلى الكتب. وكذلك فإن عملية تأسيس مطبعة في تلك السنة لم يملها طلب متزايد للكتاب، وهنا لا ينبغي الخلط بين أسباب ونتائج إقامة المطبعة ، وما توقفنا عند الحالة الفكرية للعثمانيين إلا فذلك لأن هذا المناخ الثقافي يساعدنا على فهم ما حدث من حوار بين المحافظين والمجددين.

٢.٣.٤ - موقف المحافظين من المطبعة :

هناك شهادة ثمينة تعود إلى القرن ١١هـ/١٧م؛ وتصور موقف أحد العلماء المعارضين لفن الطباعة وقد جاء ت في شكل حوار دار في سنة ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م، بين أساتذة الطب بالقاهرة والرحالة ستوكوف حول فوائد ومضار المطبعة.

يبدأ الرحالة هذا الحوار بالتعبير عن استغرابه من رفض المسلمين لفن الكتابة الجديد الذي يفيد كثيراً في نسخ كتب العلم بأعداد كبيرة. إلا أن العالم المصري أبدى رأياً معاكساً لذلك، وبين أن لا جدوى منها "بل إنها ضارة فهي

توفر عدداً لا يحصى من الكتب التي تتسبب في إدخال الاضطرابات على العقول ، عوض أن تجعل منا حكماء وإن ظاهرة قلة الكتب عندنا لا تعني أن الحكمة تنقصنا، ويكفي أن يحصل كل منا على كتب تتماشى مع مهنته ونمط معيشته لا غير، وينبغي الاعتدال في طلب الكتب ولا مجال إلى الجشع حتى لا نقع في متاهات. إن النبي سليمان عليه السلام، الذي يعدّه الأتراك والمسيحيون من أكبر الحكماء، قد قرأ وكتب كثيراً، ولم يكن يؤيد هذا الشغف بالكتب. كذلك نظراً لسهولة عملية الطبع فسوف يصدر عدد كبير من الكتب الرديئة، الأمر الذي لا يمكن حدوثه إذا كان النسخ بخط اليد؛ لأن هذه المهنة لا يعمل بها إلا أشخاص مؤهلون ذوو عقول نيّرة فلا يضيعون جهدهم وأموالهم في كتابة ونسخ كثير من الكتب السيئة التي تثلب الجمهور الخاص والعام" [١٤١]. وهذا يطمئنه الرحالة ستوكوف بأن هناك مراقبين يتولون تفحص الكتب قبل إعطاء الإذن بطبعها، ولا يسمحون بطبع " الكتب الرديئة " فكان رده " إن من طبيعة البشر الرغبة في ارتكاب الممنوعات وبقدر ما يكون الكتاب ممنوعاً ، يكون التهافت عليه كبيراً "[١٤٢].

لم يقتنع العالم المصري بكلام الرحالة الأوربي، وبدأ في رده جد مقتنع بالبراهين التي قدمها لتدعيم رفضه لآلة الطباعة وهي تعبّر عن المفهوم الذي يحمله عدد من العلماء عن أداة الكتابة الجديدة فهو يرى أنه لا فائدة من الإكثار من الكتب ويكفي أن تقتصر مطالعة كل عالم ومتعلم على الكتب التي تدخل في اختصاصه واهتماماته دون غيرها. إن نظرته للثقافة ضيقة، فرغم ندرة المخطوطات، فإنه يعتقد أنها كافية، ويقدم هذا الاقتراح المبتور حتى تنقطع الطريق أمام الكتاب المطبوع وهذا ليس بالغريب، فالعصر هو عصر جمود فكري وعدد المتعلمين ضعيف ورغبتهم في المطالعة أضعف.

ان أهم ما يشغل بال الأستاذ المصري هو خطر نشر عدد ضخم من " الكتب الرديئة " أو " الكتب الممنوعة " الأمر الذي قد يتسبب في إدخال الفوضى في أوساط المثقفين. ولكن ماذا يعني " بالكتب الرديئة أو الممنوعة "؟. يمكن أن تقدم ثلاثة احتمالات أمام غموض الوثيقة فقد يقصد بالكتب الرديئة تلك المؤلفات التي تتناول الفلسفة والصراعات المذهبية بين المسلمين والمسيحيين التي طبعت بالعربية في أوربا. وقد تكون كتبًا جدلية بين المسلمين والمسيحيين. فأما عن الاحتمال الأول فهو وارد إذا علمنا أن الفلسفة وبعض العلوم الأخرى قد أقصيت من المدارس، وأن الصراع المذهبي في ذلك العصر كان قائمًا بين أهل السنة والشيعة والذي تبنته الدول القائمة آنذاك وبالذات الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية بإيران الشيعية، وتجاوز الصراع فيها المستوى الفقهي بين العلماء ليتحول إلى مواجهة عسكرية بين الطرفين. ولم يكن الباب العالي ليتسامح مع دعاة الشيعة داخل دولته، فقد واجه مثلاً بعنف حركة الأمير الدرزي فخر الدين الثاني وقضى عليها ليس فقط لأنها تطالب باستقلال جبل لبنان بل وكذلك لانها شيعية (١٤٣).

أما عن الاحتمال الثاني فهو يتعلق بالكتب المسيحية المطبوعة بالعربية في أوربا، التي وزعت بالمشرق ولا يستبعد أن يكون صداها قد بلغ إلى مسامع هذا الأستاذ، وخاصة تلك الحادثة التي هزت الباب العالي وتتمثل كما رأينا في توزيع كتب بروتستانتية، والتي حدثت قبل بضع سنين من إجراء هذا الحوار بين الرحالة الأوربي ستوكوف والعالم المسلم.

أما الاحتمال الثالث فهو كتب الجدل بين المسلمين والمسيحيين؛ فالصراع الديني كان على أشده بين الطرفين واستخدمت المطبعة فعلاً لتغذية هذا الجدال. فقد أصدرت مثلاً مطبعة اليسوعيين بروما كتابًا جدليًا ضد الإسلام عنوانه " هذا مصاحبة روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان واسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة " كتبه أحد الأقباط المجهولين ونشره الأب إليانو في ٩٧٤هـ/١٥٦٦م، ليفنّد تعاليم الإسلام وكان في شكل

حوار تخيله المؤلف بين شيخين مسلمين إثر عودتهما من مكة المكرمة أظهرا فيه اقتناعهما بالمسيحية حسب مذهب كنيسة روما.

إن قلق وتحفظ الأستاذ المصري، كان له ما يبرّره. فقد ظهرت عدة كتب مطبوعة في أوربا في القرن ١١هـ/١٧م تتناول مواضيع جدلية ضد الإسلام ، ولو تم توزيعها فعلاً في أوساط المسلمين لحدثت ضجة كبيرة إلا أن الوثائق لا تشير إلى أنها وصلت إلى أيدي المسلمين، بل إن توزيعها اقتصر فقط على المسيحيين العرب. فمثلاً أصدر مجمع نشر الإيمان بروما كتاباً للأب الفابوري موجهاً إلى الكاثوليكيين العرب كما يقول مؤلفه " اعلم أيها المؤمن بالمسيح أنه قد يوجد للأمانة الأرثوذكسية في بلاد الشرق ثلاثة أعداء متضادين أي المسلمين واليهود والأراتقة وأنت ملزوم بقتالهم ونقض بنيانهم على الدوام" (١٤٤).

أما كتاب الجدل للقسيس كوادانولوس فكان للرد على أحد العلماء المسلمين، وهو الذي كان قد دحض فيه المسيحية في رسالته " صاقل المرآة " وقدم كوادانولوس لذلك حججاً لإثبات صحة الإنجيل و" التثليث " (١٤٥).. أما عن طبعات القرآن الكريم في هامبورغ وبادوا في القرن ١١هـ/١٧م، فقد خصصت مقدمة كلتا الطبعتين للتهجم على الدين الإسلامي.

إن هذه العينة من منشورات أوربا، رغم أنها ظهرت متأخرة عن شهادة الأستاذ المصري، تمكن من إدراك مدى تخوف العلماء المسلمين من طبع كتب تتناول مسائل الصراعات الدينية والمذهبية أو مواضيع فلسفية ونشرها على نطاق واسع، وما ينجم عنها من آثار سلبية. ولهذا فإن الأستاذ المصري يفضل الاقتصار على استخدام المخطوط، فهو مخصص لفئة صغيرة من المجتمع ولا يسئ إلى الدين ولا إلى العقول. إذ أن مهمة نسخ الكتب موكولة إلى أناس من ذوي الكفاءات العلمية والمستنيرة التي " تترفع " عن إحداث الفتن. ويعتقد أستاذ القاهرة أنه مادامت الثقافة في مستوى النخبة، فلن يحدث الاضطراب. ويؤكد هذا الرأي شهادة أخرى للأستاذ نفسه الذي دعى الرحالة الأوربي إلى التحاور

معه حول مسائل إسلامية وتشريعية، مبينًا له أن هذا النوع من المسائل يمكن تناوله مع الجمهور الخاص، إلا أنه من التهور إثارته مع جمهور العامة. ويبدو من هذا الموقف أن هناك شبه " احتكار " للمعرفة من طرف أقلية من الناس ترى في نشر المعرفة على مدى واسع تهديداً للنظام الاجتماعي القائم. هذا إذن موقف أحد المحافظين المعترضين على استخدام المطبعة ونظرته الضيقة للثقافة ودفاعه عن المخطوط الذي لا يقرأه إلا الجمهور الخاص في المجتمع العثماني، وتهجمه على الكتاب المطبوع الذي يمكن أن يصل إلى فئات عريضة من المجتمع. فكيف كان رد فعل أنصار المطبعة إزاء هذا الموقف؟.

٢.٣.٤ - موقف المجددين من المطبعة :

إن أهم وثيقة عن موقفهم هي " رسالة وسيلة الطباعة " لمتفرقة الذي يقدم فيها عدة حجج ليبرهن فيها على مزايا فن الطباعة قبل تأسيس أول مطبعة بإستانبول. وسنكتفي في هذه الفقرة بتحليل عام للرسالة بعد أن تعرفنا ولا نزال، على بعض آراء متفرقة وردوده على آراء المحافظين في هذا الموضوع.

تنقسم الرسالة إلى ثلاثة أجزاء : تعرض الجزء الأول إلى لمحة تاريخية عن اختراع الكتابة وكيفية استخدامها من طرف الدولة في القديم لتدوين القوانين على مختلف الأوعية. ثم مع ظهور الإسلام استعملها المسلمون في تأليف كتبهم وفي نسخ المؤلفات العلمية المختلفة. وفي الجزء الثاني أكد متفرقة أن اليهود والنصارى، فقدوا كتب دينهم الأصلية لأنهم لم يكتبوها في حينها، ولذلك عمدوا إلى تأليف كتب أخرى غير مطابقة لرسالتي موسى وعيسى عليهما السلام. إلا أن المسلمين تفادوا هذا المشكل لأنهم كتبوا القرآن الكريم عند نزول الوحي، وأكثروا من النسخ المطابقة للأصل وحفظوا السور القرآنية عن ظهر قلب وقد ألفوا طيلة تاريخهم عدداً ضخماً من الكتب في مختلف فروع المعرفة. إلا أن عدداً مهمًا منها اختفى بسبب الحروب وغزو المغول والتتار وفقدان بلاد الأندلس. وذكر أن عصره يعاني من الركود الثقافي بسبب نقص الكتب وانعدام الجدية

لدى العلماء والناسخين. أما الجزء الثالث فقد بدأه إبراهيم متفرقة بتعريف المطبعة ثم ذكر منافعها من ذلك " أنها تضاعف إلى ما لا نهاية له من عدد النسخ لنفس الكتاب مع مراعاة الدقة الكاملة في النص، الشئ الذي تعجز عن تحقيقه الكتابة بخط اليد " (١٤٦). ويركز إبراهيم متفرقة على اثنين من فوائد المطبعة لا يستطيع المخطوط محاكاتها فيهما، الأولى: الإكثار من الكتب بفضل آلة الطباعة التي تستطيع سحب مئات من النسخ بل الآلاف ، والثانية : دقة النص المطبوع وخلّوه من الأخطاء إذ تتم مراجعة النص وإصلاحه بورشة المطبعة قبل إعطا ء الإذن بالسحب. وللتأكد من عدم نقصان النص ولمساعدة القارئ في قراء ة الكتاب يقترح متفرقة في رسالته إدراج فهرس الموضوعات وكشاف بكل كتاب مطبوع. ثم يعدد متفرقة فوائد أخرى للمطبعة منها: إحياء المؤلفات الإسلامية التي كادت تنقرض وقدرتها على مضاهاة حروف الكتابة بخط اليد من حيث الجمال والروعة وانخفاض أسعار الكتب المطبوعة، وهذا يسهل على كل المسلمين اقتناء نسخ منها مما يسهم في تثقيف الرعية والقضاء على الجهل وأن الأمة المتعلمة تقدر كما يقول على البقاء قوية عسكريًا " ويتضاعف عدد الكتب كما أشرنا سابقًا بفضل المطبعة إلى درجة أن مختلف المؤلفات العلمية تصل إلى الولايات العثمانية البعيدة وتؤسس في كل المدن المكتبات العمومية التي يستفيد منها القراء المواظبون، وبذلك تنتشر المعارف في كل الأماكن التي لم تصل إليها من قبل " (١٤٧) كما أعرب متفرقة عن تخوفاته إن لم يسارع المسلمون بإقامة مطابع عندهم، من أن تغرق أوربا سوق المشرق بالكتب العربية المطبوعة عندها، بعد أن توفق في تخطي المشاكل التقنية، فتخرج كتبًا دقيقة وبخط جميل. هذا وقد أثار متفرقة هذه النقاط للرد على الحجج التي قدمها المحافظون، بل كان في كل مرة يتهجم إما على المخطوط والناسخ أو العلماء ويحملهم مسؤولية الركود الفكري، ثم يذكرهم بأن الحل يكمن في تبني المطبعة. فهو يرى أنها أحسن وسيلة لإنقاذ التراث الفكري، ولتمكين كل

المسلمين من التعلم ولمواكبة العلوم الحديثة.، وهو يريد أن يؤدي هذا الاكتشاف الثقافي إلى النتائج نفسها التي توصلت إليها أوربا أي فتح الطريق نحو التقدم والمعرفة.

ويدافع متفرقة بذلك عن كل الأميين في بلاد الإسلام المحرومين من وسائل التعليم، وموجهًا نداء إلى " ديمقراطية " المعرفة والثقافة بواسطة هذه " الأداة الثورية " أي الكتاب المطبوع. إن مفهوم المطبعة بالنسبة للمجددين في القرن ١٢هـ/١٨م وبالخصوص لإبراهيم متفرقة، لا يختلف عن مفهوم الأوربيين لها في المدة نفسها، أي أنها وسيلة لمضاعفة عدد الكتب مع مطابقتها للأصل وأنجع طريقة لنشر العلم في كل البلدان، ولدى كل الفئات الاجتماعية وإذا حصل ذلك فإن البشر سيصبحون أحرارًا ومتعلمين.

٥ - الأسباب الاجتماعية :

أبدى المحافظون قلقهم على مصير الناسخين في صورة إقامة المطابع، فهي ستقضي على مهنتهم بسبب مزاحمة الطباعة لها. ولم يعد الأمر يتعلق بتقديم تنازلات من طرف المعارضين لفن الطباعة وذلك بالتضحية بأدوات العمل الفكري، بل إن القضية تتمثل الآن في التنكر للناسخين الذين قدموا عبر قرون عديدة خدمات جليلة للعلم والثقافة، وذلك بإهمال إنتاجهم والانصراف عن المخطوط إلى المطبوع، بل إن الأخطر من ذلك هو حرمانهم من مورد رزقهم وإحالة عدد ضخم منهم على البطالة. لذلك عارض المحافظون إدخال آلة الطباعة نظرًا للأضرار الاجتماعية التي ستلحق بالناسخين [١٤٨]. ولكن هل يعدّ ذلك عائقًا أمام استعمال اكتشاف جديد، خاصة ونحن نعلم أن أي تطور تقني أو صناعة جديدة تضر حتمًا بأهل الحرفة التقليدية.

إن الأمر مرتبط بعدد الناسخين ومكانتهم الاجتماعية وقدرتهم على التصدي لآلة الطباعة. ويبدو أن عددهم مهم وله وزن في المجتمع العثماني، إلا أنه لا يصل إلى العدد الذي قدمه الرحالة الإيطالي مارسيغلي عنهم وهو تسعون ألفًا في مدينة إستانبول وحدها[١٤٩]. إن هذا العدد مهول جداً ويدفعنا إلى التثبت من مدى صحته بالتعرف أولاً على عدد السكان بالعاصمة العثمانية، الذي يقدره روبار منتران في القرن ١١هـ/١٧م بحوالي سبع مئة أو ثمان مئة ألف ساكن[١٥٠]. وإذا قمنا بمقارنة مع العدد الذي قدمه مارسيغلي، فإن نسبة الناسخين يساوي عشر سكان المدينة، وهذه النسبة هي جد مبالغ فيها. على أنه من المؤكد أن عدد الوراقين مرتفع وقد يبلغ بضعة آلاف إذا اعتمدنا كلام دي سوسير[١٥١]. إلا أنه أبعد ما يكون عن الرقم الخيالي الذي ذكره الإيطالي مارسيغلي حتى وإن اعتبرنا كل مهن الكتاب من تسفير ووراقة، وصناعة الحبر وغير ذلك [١٥٢] فعدد بائعي الكتب في إستانبول على سبيل المثال يقدر بحوالي خمس مئة لا غير[١٥٣].

إن عدد الناسخين مهم، ولا يمكنهم جميعًا التحول إلى مهنة مطبعي. فورشات الطباعة لا تتطلب يداً عاملة كثيرة، هذا بالإضافة إلى أن فن الطباعة يتطلب خبرة فنية لا تنطبق بالضرورة مع مؤهلات الناسخ، وحتى إن توفر هذا الشرط فإن الناسخين يعارضون المطبعة ويريدون الإبقاء على امتيازاتهم الاجتماعية، خاصة وأنهم منظمون وقادرون على التصدي إلي "خطر الطباعة". ففي العهد العثماني كان صنفهم منظمًا بإحكام مثل بقية الأصناف الأخرى: فهو يجمع رؤساء (الأسطى) والصناع (القلفه) والمساعدين (شيراك) [١٥٤]. وكان الأعراف ينتخبون الهيئة المديرة للصنف والتي تدافع عن مصالح الصنف لدى الإدارة، وتتركب الهيئة من الشيخ والنقيب والدوعاجي والشاوش ويجيت باشي والكاهية [١٥٥]، وهذا الأخير له سلطات واسعة ومكلف بتمثيل الصنف لدى الحكومة[١٥٦].

إن هذا التنظيم الداخلي يؤهل الناسخين للتصدي إلى كل تدخلات الدولة في شؤون مهنتهم: إن كل صنف يتمسك بتقاليد المهنة، ويحافظ بكل شدة على امتيازاته الاجتماعية، وهذا ما يعيق أي محاولة للإصلاح والتقدم، فهو مكبل بهذه الهياكل التنظيمية التي تمنعه من التكيف مع الوضع الجديد[١٥٧]. إن تنظيم صنف الناسخين يمثل حاجزاً منيعاً لكل محاولة لإدخال المطبعة، وكان بإمكانهم أيضاً، أن يعولوا على كل العلماء المناهضين لفن الكتابة الجديد. ولكن ما هو موقف أنصار المطبعة وكيف يمكنهم حل هذا المشكل دون إثارة توتر اجتماعي.

لم يتردد المجددون كما رأينا سابقاً في مهاجمة الناسخين متهمين إياهم، بأنهم مسؤولون عن حالة الجهل السائدة في الدولة العثمانية. فالمخطوطات نادرة وخاصة المجلدات الضخمة وهي مليئة بالأخطاء نظراً لإهمال الناسخين وعدم وعيهم بأهمية مهنتهم. إلا أنهم وجدوا حلاً مناسباً لذلك وهو أن يقع تقاسم العمل بين الناسخ والمطبعي. فالأول لنسخ القرآن الكريم وكتب الشريعة والثاني لكتب الآداب والعلوم. وهذا الحل من جهة أخرى يرضي أيضاً الفقهاء الذين يرفضون طبع الكتب الدينية. وبذلك يتوفر مجال واسع لعمل الناسخين، وفي الوقت نفسه يتوجه مجهود المطبعة في بلاد الإسلام لطبع كتب الآداب والعلوم الأساسية وبهذا تم تطويق المشكل الاجتماعي.

٦ - الأسباب الاقتصادية :

يرى المحافظون أن مشروع إقامة مطبعة باهظ الثمن[١٥٨]، فهي تتطلب تجهيزات وآلات متطورة قد تستورد من أوربا، وتتطلب كذلك إعداد أشخاص متخصصين في فن الطباعة. لذلك يفضل هؤلاء ترك المشروع والاكتفاء بما هو موجود أي الإبقاء على حوانيت الناسخين المتواضعة وعلى أدوات عملهم الأساسية وهي متوافرة محلياً وثمنها زهيد..

إنه من الضروري معرفة حقيقة تكاليف المطبعة ، وقدرة البنية الاقتصادية في الدولة العثمانية على التكيف مع التطور الصناعي، وخاصة مع الاكتشافات التقنية القادمة من أوربا. وإذا انتشرت المطبعة بسرعة داخل أوربا، فذلك يعود إلى مجهود البورجوازية التي وجدت فيها صفقة رابحة. ففي ذلك العصر لا تقدر أية فئة اجتماعية اقتصادية غير البورجوازية على استغلال هذا الاكتشاف وتصنيعه. فعملية النشر تتطلب أموالاً كبيرة لتمويل المشروع وبعد ذلك الانتظار بضع سنوات لبيع كل النسخ من الكتاب لتغطية المصاريف وجني الأرباح. ولهذا نشأت المطبعة في أوساط صانعي المعادن وأصحاب البنوك (١٥٩)، وعدّها أحد الباحثين "بنتا للرأسمالية الناشئة" (١٦٠). فالعصر الحديث شهد صعود فئة البورجوازية بأوربا وسيطرتها على الاقتصاد..

أما عن الوضع في المشرق، فهو لا يماثل النظام الاقتصادي الأوربي الجديد الذي يرتكز على الرأسمالية. فالهياكل الاقتصادية العثمانية كانت تقليدية بطيئة التحول، فلم تستوعب الصناعات الجديدة التي ظهرت في أوربا. ولم يكن بإمكانها بالتالي تبني صناعة الطباعة، ولم تقبل إلا بعض البضائع الأوربية المصنعة وحتى الكتاب المطبوع رفضته (١٦١). يقول قالان : " بذلت مصاريف كبيرة بهدف الاتجار بهذه الكتب في المشرق إلا أن المشروع فشل لأن المسلمين رفضوا قبول النسخ التي أرسلت إليهم" (١٦٢).

حاول الأوربيون توزيع كتبهم المطبوعة بالحرف العربي في أسواق بلاد الإسلام بالمشرق. إلا أن المحافظين عارضوا ذلك وأظهروا نوعًا من "المقاومة السلبية" برفضهم البضاعة الأوربية خوفًا من أن تغزو سوق الكتاب، رغم أنهم لا يملكون بضاعة مماثلة قادرة على المزاحمة ورغم ترخيص السلطان مراد الثالث لذلك فإنهم "قاطعوا" الكتاب العربي المطبوع في أوربا؛ لأنه سيقضي على بضاعة تقليدية هي المخطوط. إن هذا الموقف هو رد فعل على التحدي الاقتصادي الذي فرضته أوربا، بعدما حققت تقدمًا صناعيًا وتجاريًا كبيرًا في الوقت الذي تقلص

فيه دور الطرقات البرية بين الشرق الأدنى وأوربا التي يسيطر عليها المسلمون. إن المحافظين انطووا على أنفسهم خوفًا من أن تتدفق عليهم منتوجات أوربية أخرى تؤدى إلى " هلاك " الصناعات التقليدية. وكرد فعل على هذا الموقف أكد المجددون على الفوائد الاقتصادية للمطبعة، فسعر الكتاب ينخفض فيصبح في متناول كل الفئات الاجتماعية، فينتشر في كل مدينة وقرية من الإمبراطورية(١٦٣). إن ثمن المخطوط مرتفع جداً ولا يقدر على شرائه إلا الأغنياء، وسيصبح دوره ثانويًا في حالة انتشار المطابع إن الكتاب المطبوع يقدر على شرائه الغني والفقير. وهناك تكمن أكبر فائدة اقتصادية للاكتشاف" وإن لم نقتنع بهذا، فإن الأتراك يكونون قد أصابوا عندما رفضوا إقامة مطابع في بلدهم خوفًا من القضاء على مهنة الناسخين وتكون أوربا المتحضرة قد أخطأت"(١٦٤).

إن العامل الاقتصادي يعدّ حاسمًا في هذا الحوار الحضاري؛ لأنه لا مجال للمقارنة بين أثمان الكتاب والمخطوط وبين قدرة الإشعاع الثقافي والعلمي لهذا وذاك. إن اكتشاف فن الكتابة الجديد يقدم الحل الناجع للقضاء على الأمية وحالة التدهور الثقافي داخل الإمبراطورية العثمانية. فإذا وضعت المصلحة العامة للمجتمع الإسلامي فوق كل اعتبار، يحق عند ذلك التضحية بمهنة النسخ(١٦٥). كما ذهب المجددون أبعد من هذا في ردهم على المحافظين إذ انتقدوا الموقف السلبي لهؤلاء الذين اكتفوا برفض تداول الكتب المطبوعة في أوربا. وبينوا أنه لا ينبغي "مقاطعة" هذا المنتوج الغربي فقط، بل يجب تقديم إنتاج محلي منافس، وإلا فان أوربا ستتمكن آجلاً أو عاجلاً من اقتحام سوق الكتب داخل الإمبراطورية ويقول متفرقة: "وإذا فتحوا فرعًا من فروع التجارة لبيع كتبهم عندنا، فإنهم سيستفيدون من ذلك، وفي نفس الوقت سنتضرر نحن إذ ستتحول مبالغ مالية هامة خارج ولايات إمبراطوريتنا" (١٦٦).

يرى المجددون أن أوربا تنوي فرض سيطرتها على المسلمين بطرق سلمية، فهي تنوي غزو أسواق الدولة ليس فقط بالكتب المطبوعة، بل وكذلك ببضائع واكتشافات أخرى ولذلك يجب التصدي لهذه المخططات بتبني كل أسباب التقدم، ويقول متفرقة إنه من المعقول بما أن المسلمين سبقوا كل الدول الكافرة في كل أصناف العلوم، أن يحولوا دون أن تتقدم عليهم في فن الطباعة باللغات التي يتكلمونها" (١٦٧). ويريد إبراهيم متفرقة تجديد العهد مع الماضي الزاهر، حيث كانت بلاد الإسلام تحمل مشعل الحضارة والعلوم وذلك بالتصدي لتحدي البلدان غير الإسلامية ، وسلوك سياسة ديناميكية بمواكبة التقدم الحضاري والسير مع تيار الرقي.

٧ - خاتمة الفصل الثاني :

تناول الحوار الذي دار بين المحافظين والإصلاحيين موضوع تجديد أدوات العمل الثقافي والمقارنة بين جدوى المخطوط والكتاب المطبوع، وبين الكتابة بخط اليد والكتابة بحروف المطبعة، وبين مهنة الناسخ والمطبعي. وإذا دافع المحافظون عن المخطوط، فلأنه كان أميناً عبر العصور في نقل قيم الإسلام والعلوم المختلفة كتابياً، وكان وعاء الكتابة التقليدي محل عناية خاصة من طرف الناسخين والعلماء والمسلمين بصفة عامة، نظراً إلى أنه مكتوب بالحرف العربي الذي يحظى بالاحترام، فهو الرسم المادي للآيات الكريمة، ومن هنا اهتم المسلمون بالخط العربي وأبدعوا فيه. أما الكتاب: المطبوع فكان المحافظون يرون فيه تهديداً للمخطوط فهو قادم من "بلاد الكفار" للقضاء على الكتابة بخط اليد الجميلة وتعويضها بحروف معدنية كبيرة. وكان محل ريبة لأنه قد ينسخ كتباً غير مطابقة للأصل، فيشوهها ويحرفها كما أنه سيدخل أفكاراً "مشبوهة" ويروّجها بشكل واسع لإحداث الاضطراب في العقول أكثر، مما ينقل الحكمة والعلوم المفيدة للمسلمين. وأخيراً فإن فن الطباعة سيحطم مهنة الناسخين ويحرمهم من مورد رزقهم.

أما المجددون فيرون المخطوط من زاوية أخرى، فهو لم يعد قادراً على نقل القيم ومكاسب الحضارة الإسلامية، ولا على إنقاذ آلاف المؤلفات العربية المهددة بالفناء بسبب أحداث تاريخية مؤسفة ؛ لأن الناسخين كانوا جاهلين ومهملين في مهنتهم وأساء وا كثيراً إلى ميدان الثقافة والعلوم وكانوا يعملون ببط ء ، ويرتكبون أخطاء كثيرة عند الكتابة. وكان المخطوط نادراً وباهظ الثمن، ولهذا لم يكن سعره في متناول الجميع. وهذا مما تسبب إلى حد كبير في نشر الأمية حسب تعبير إبراهيم متفرقة. وكان المجددون يرون في الكتاب المطبوع وعاء معلومات المستقبل، وهو قادر على مضاهاة الكتابة بخط اليد من حيث الإبداع. والأهم من ذلك هو قدرته العجيبة على نشر العلوم والفنون في كل أوساط المتعلمين. فالمطبعة تصدر عدداً كبيراً من النسخ للكتاب الواحد. فيصبح الثمن زهيداً ويقبل الجميع على اقتنائه. وقد عبّر أنصار فن الكتابة الجديد عن موقفهم هذا من منطلق حضاري، إذ أبرزوا أن الطباعة ستسهم في تجديد الحضارة الإسلامية وازدهارها بالتفتح على العالم المتقدم.

إن التعريف الذي قدمه المجددون للمطبعة كان قريباً من التعريف المتعارف عليه في الغرب يعني أنها وسيلة سريعة للإكثار من الكتب وترويج الكتاب العلمي والأدبي على نطاق واسع وبأسعار منخفضة. والفرق الوحيد في هذا التعريف هو أن المطبعة في الشرق لا يمكن لها أن تمس المخطوط الديني. لكن هذا التنازل لم يضر بالمطبعة، إذ أن لها مجالاً واسعًا في إصدار الكتب العلمية والأدبية. وهكذا أصبح للمطبعة مفهوم شرقي متفاعل مع المناخ الفكري والحضاري السائد في المجتمع الإسلامي في العهد العثماني.

إن الحوار بين المحافظين والمجددين كان يدور حول قيم الحضارة الإسلامية؛ لأن المخطوط يمثل شكلها القديم ، ويحافظ على التراث الأدبي الذي خلفه الأجداد طيلة قرون ودافع عنه أنصاره بعنوان احترام التقاليد، وعدّوه همزة وصل بين الماضي والحاضر، إنه التواصل بين الأجيال. أما الكتاب المطبوع فقد جاء ليقترح شكلاً جديداً للحضارة، فهو يريد المحافظة على المؤلفات الإسلامية ونقل المعارف الأوربية لينهض بالأمة الإسلامية. إنه نظرة جديدة للمستقبل فهو يريد تدشين مرحلة جديدة من تاريخ المسلمين.

بقي أن نعرف مدى استجابة مطبعة إستانبول الأولى لهذا المفهوم وهل قدمت نتائج من شأنها أن تفتح عهداً جديداً للمجتمع الإسلامي؟

الهوامش

(١) لا تؤخذ مطبعة قوزحية هنا بعين الاعتبار لأنها ليست مطبعة عربية ولانها ليست من عمل المسلمين.

(٢) LE Febvre, Michel Sieu, L'Etat présent de la Turque, Paris, Courterot, 1675, p 199.

(٣) Marsigli, Le Comte De, l'Etat militaire ottoman, ses progrés et sa décadence, La Haye, 1732, p. 313.

(٤) Chardin Jean, Voyage de Monsieur le Chevallier Chardin en Perse et autres lieux d'Orient, Amsterdam, De Lorme, 1711, vol 2, p 108.

هناك شـهادات أوربيـة أخرى حـول غـياب المطبـعة العـربيـة لدى المسلمين مـثل تلك التي أوردها المستشرق الفرنسي قالان: Galland

Préface de la Bibliothéque orientale d'Herbelot, Paris, 1697 F 14;

وكذلك شـهادة أمين مكتبة السربون شوفيلي Chevillier, A, l'origine de l'imprimerie de Paris, Paris, Laulne, 1694, p. 270, De Belleforest, Francois, Cosmographie universelle, Paris, Sonnius, 1575, T11, p. 593.

(٥) "Mémoire sur l'utilité de l'établissement de l'imprimerie à Constantinople par Ibrahim Mutafarrika, In" Documents sur l'imprimerie à Constantinople" publiés par H. Omont, in Revue des Bibliothéaues, 1895p 200.

يشار إلى هذا المصدر لاحقًا بعنوان الرسالة الأصلي: رسالة وسيلة الطباعة.

(٦) حاول المبشرون الكرمان Carmes إدخـال المطبـعة إلى بلاد فـارس في مناسـبتين أي في ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م و١٠٧٩هـ/١٦٦٩م لكن دون جـدوى انظر : Flour, W.M. "The first printing press in Iran in: Zeits der Deutschen Margenlandischen Gesellschraft, Band 130, Heft 2, 1980 pp 369-371.

(٧) Voyage en Perse, op. cit., p. 110.

(٨) بدأت المطبعة الأرمينية في نور جولا سنة ١٠٤٧هـ/١٦٣٨م انظر :

Richard, François, "Un Témoignage sur les débuts de l'imprimerie à Nor Jula" in : Revue des études arméniennes, T XIV, 1980, pp. 483 - 484.

(٩) Toderini, A. G, De la littérature des Turcs, Paris, Poinçit, 1789, TIII p. 12.

(١٠) Saint-Olon, Pidou De, Etat présent de l'Empire du Maroc, Paris, 1694, p 79.

(١١) Chevillier, A, L'Origine de l'imprimerie... op. cit., p 270.

(١٢) سنعود إلى هذه النقطة عند الحديث عن فن الطباعة بالألواح الخشبية عند المسلمين.

(١٣) Balagna, J, "le fonds" ... op. cit; N 2, 1979, p 76.

(١٤) أنشئت أول مطبعة بالمغرب فيما بين ١٨٥٩م و١٨٧٣م انظر
Ayache, G, "l'apparition de l'imprimeric au Maroc" in Hesperis Tamuda, vol V, 1964, p. 143.

(١٥) المطابع العربية التي ظهرت في البلاد الإسلامية فيما بعد كانت مطبعة كلكتا التي أسسها الإنجليزي ويلكانز سنة ١٧٨١ ومطبعة بومباي سنة ١٨٠١ انظر :
Partington, D.H, "Arabic Printing" In: Encyclopedia of Library and Information science, New York, Dckker, 1978, T XXIV, pp. 71-72.

(١٦) "التقاريض على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" في : جوهري. أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي، الصحاح. ترجمة محمد بن مصطفى الواني، القسطنطينية، ١٧٢٨، جزء، ورقة ٦.

(١٧) Nouvelle description de la ville de Constantinople, Paris, 1721, p.45.

(١٨) The Jewish Encyclopedia. New-York, Funk and Wangalls Compagny, 1903; vol IV, pp. 238 - 244, article Consuantinople.

(١٩) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ تأسيس أول مطبعة عبرانية في القسطنطينية فمثلاً قدم قايس سنة ٨٩٢ / ١٤٨٨م في : Bull. Inst. Egyptien, 1907, p. 134. وذكر الأب لويس شيخو سنة ٨٩٥ هـ/١٤٩٠م في المشرق، ١٩٠٠، ص ١٧٥. أما بارتينفتون فقد ذكر سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣م في : Encycl. of library, TXXIV, p. 59.

(٢٠) أكد ذلك الرحالة نيكولا دي نيكولا الذي زار تركيا في ٩٥٧هـ/١٥٥١م وتحدث عن اليهود الذين طردوا من إسبانيا والبرتغال فقال " أنهم أسسوا لأول مرة في تلك الربوع مطبعة وطبعوا كتبًا بحروف جميلة في لغات عدة منها اليونانية واللاتينية والأسبانية وحتى العبرانية التي هي لغتهم العادية ولكن لم يسمح لهم بالطباعة باللغة التركية والعربية : Les navigation, peregrinations et voyages, faits en la Turquie, Antwerp, 1576, p 246 Cite in LEWIS, Bernard, The Emergency of Modem Turkey, Oxford University Press. 1961,
p. 42.

(٢١) ظهرت مطبعة عبرانية في دمشق سنة ١٠١٨هـ/١٦١٠م.

(٢٢) Safadi, Y, H, Arabic printing and book production in: Arabic islamic bibliographie, London, harvester, 1977, p. 225.

(٢٣) المصدر السابق، ص ٢٢٥.

(٢٤) طبع غوتنبرغ الألماني كتابه الأول وهو الكتاب المقدس باللاتينية سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٥م ، ورغم الاحتياطات التي اتخذها ليبقى اكتشافه سراً في مدينة مينز، فإن الطباعة انتشرت بسرعة بعد تعرض هذه المدينة إلى الغزو ، فظهر فن الطباعة في روما سنة ١٤٦٥ والبندقية في ١٤٦٩، وباريس في ١٤٧ وليون في ١٤٧٣ وبرشلونة في ١٤٧١ واشبيلية في سنة ١٤٨٠ كما انتشر هذا الفن في أوربا الوسطى مثل بوهيميا في ١٤٧٦ وبولونيا في ١٤٧٣ والمجر في ١٤٧٣ انظر:

Labarre, Albert, Histoire du livre, paris, PUF, 1970, pp. 57 - 58.

(٢٥) Dahl. S. Histoire... op. cit, p. 102.

(٢٦) فضل الله ابن عماد بن علي رشيد الدين (١٢٤٧ - ١٣١٨) ولد في همذان طبيب ومؤرخ ورجل سياسي فرنسي. عين وزيراً في عهد المغول كتب، "جامع التواريخ " أو تاريخ غازاني الذي تضمن تاريخ المغول والفرس والصينيين.

(٢٧) تحدث رشيد الدين عن المطبعة عند ذكر الكتب التي أطلع عليها لكتابة تاريخ ملوك الكاتاي.

(٢٨) وردت ترجمة رسالة المطبعة لرشيد الدين من الفارسية إلى الفرنسية في كتاب :

Klaproth, J. V, lettre à M. le Baron A. De Humbtoldt sur l'invention de la boussole, Paris Dondey-Dupre, 1834, pp. 131 - 132.

(٢٩) Carter, The invention of printing in China, New-York, Ronald press, 1955, pp. 152-153; Voir aussi Demeersemann, A, "Les donnees de la controverse autour du probléme. de l'imprimerie" in IBLA, no 65, 1954. p.1.

(٣٠) Bonola BEY, F, "Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe" in, Bulletin de l'Institut Egyptien, 5 serie, decembre 1909, p 76; Voir aussi Carter, The invention... op. cit., p. 168.

ونشير إلى أن فن الطباعة بالحروف الخشبية لم يظهر بفرنسا إلا في ٧٧١هـ/١٣٧٠م مما يدل على أن هذا الفن لم يكن معروفاً بأ وربا الا قبل قرن من اكتشاف غوتنبرغ.

(٣١) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، أورد المؤلف ذلك عند تقديم ترجمة أبو بكر القلوسي.

(٣٢) ابن الأثير، الحلة السرية، طبعة دوزي، ص ١٣٧.

(٣٣) Hammer-Purgstall, J, "Sur un passage curieux de l'Ihater sur l'art d'imprimer chez les arabes en Espagne" in Journal Asiatique, 1852, n 2,4 serie, TXX, pp. 252 - 255.

(٣٤) Geiss, A, "Observations à la suite de la note de Bonola-Bey" in Bulletin de l'Institut Egyptien, 5 serie, T III, ler fascicule, décembre 1909, p 85.

(٣٥) HITTI, Ph. Précis d'histoire des Arabes, trad. Palaniol, Paris, Pa ot,1950 p 47.

يرى ديمرسمان كذلك أن الأمر يتعلق بشكل جنيني للمطبعة انظر IBLA عدد ٦٥، ١٩٥٤ ص ٢١.

(٣٦) رضوان أبو الفتوح، تاريخ مطبعة بولاق، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩٥٣، ص ١-٢.

(٣٧) طبع الأتراك الويغور كتبًا بلغتهم الأصلية في واحة طرفان بتركستان الصينية منذ القرن ٥ هـ/ ١١م إلا أنهم لم يستعملوا الحرف العربي في الطباعة، بل الحرف الصغدي وهو قريب من السرياني وقد ذهب بعض الباحثين الألمان إلى أن الويغور قد سبقوا الصينيين في اختراع فن الطباعة بالأحرف المنفصلة إلا أن المجال لا يسمح بالدخول في تفاصيل أكثر ونقتصر على القول بأن هذه المحاولة كانت محدودة على المستوى التقني والثقافي لأن هذا الشعب كان يستخدم حروفاً خشبية وليست معدنية ، وهذا من شأنه أن يعيق عملية نسخ الكتب. يضاف إلى ذلك عدم استخدامهم للحرف العربي مما يحول دون توزيع الكتب لدى الشعوب الإسلامية الأخرى وبالتالي يؤدي ذلك إلى عدم اشعاعهم الثقافي على البلاد المجاورة.

CARTER, T.F, The invention op. cit; pp 140-144, voir aussi GERCEK, Selim Nushet, Turk matbaciligi (l'imprimerie turque), Islanbul, Derlctbasimeri, 1939, pp 14-16.

(٣٨) كانت سمرقند أول مدينة إسلامية تستخدم الورق بعد أن استفادت من خبرة الصينيين الذين وقعوا في الأسر إثر معركة أطلاخ بين جيش المسلمين وجيش الفرغانيين أحلاف الصينيين وذلك في سنة ١٣٣هـ/٧٥١م ثم انتقلت صناعة الورق إلى بغداد وقد أمر هارون الرشيد بتعويض الرق بالورق في الإدارة لأن الجلود كما يقول القلقشندي في صبح الأعشى تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد ، وإن كشط ظهر كشطة وبسرعة تعددت المصانع وظهرت عدة أنواع من الورق مثل السليماني والطلحي والنوحي والفرعوني والجعفري وغيرها. ورغم الانتشار الواسع للورق في البلاد الإسلامية فإن الأوروبيين لم يستخدموه إلا في القرن ٦هـ/١٢م بعد أن نقله المسلمون إليهم عن طريق الأندلس وصقلية ، ويقول فيليب إن الورق من أجلّ الخدمات التي أسداها الإسلام إلى أوربا ، انظر الحلوجي، عبدالستار. المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري. الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٧٨، ص ٢٣-٣٣. أنظر أيضًا دائرة المعارف الإسلامية.

Encyclopédie de l'Islam, nouv. ed, T. IV p 437- 438 article Kaghad.

(٣٩) Cartier, The invention ... op. cit; pp. 140 - 144.

(٤٠) Ibid., p. 150.

(٤١) ألّف هذا القائد كتاب " البحرية " وقدم للسلطان سليم الأول خريطة كريستوف كولب التي غنمها من إحدى المعارك البحرية مع الإسبان والبرتغاليين انظر : Adnana, A, La Science chez les Turcs ottomans, Paris, Maisonncuve, 1939, p. 59 - 64.

(٤٢) Busbeco, O. G. DE, Ambassades et voyages en Turquie et Amasie, trad. s. A., Gaudon, Paris, David, 1946, p 343.

كان بيسباك شاهد عيان على الحركة الفكرية والعلمية النشيطة في عهد سليمان القانوني.

(٤٣) Belleforest, F, De, Cosmographie... op. cit., T II, p 593.

(٤٤) من الغريب أن تصدر هذه الأحكام عن علماء أوربيين عاشوا في آخر القرن ١٨، أي بعد نصف قرن من إدخال المطبعة بالحرف العربي إلى استانبول، وبعد معاينتهم لموقف المسلمين المتحمس لاستخدام فن الكتابة الجديد. فمثلاً يتحدث فولني عن مطبعة شوير بجبل لبنان سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م ويقول "لو ان الباشا الجزار علم بوجودها. لحطّمها وهدمها ويكون مدفوعًا في ذلك بنزعة التعصب التي يغذيها رجال الدين، دون أن يدركوا حقيقة ما يضيرهم من المطبعة حتى يرفضوها وكأن الحماقة لها غريزة طبيعية قادرة على التنبه لمخاطر المطبعة". ويقول المستشرق بيانكي أيضًا في سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م " إن الأمة التركية عبيدة الأحكام المسبقة وعدوة لدودة لكل تجديد قامت أخيرًا بتأليف وطبع أول كتاب بالتركية عن التشريح" BIANCHI, T.X, Notice sur le premier ouvrage d'anatomie... suivi du catalogue.., Paris, Cellot, 1821, pp. 1-2.

(٤٥) نشر إبراهيم متفرقة هذه الرسالة سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م في مقدمة أول كتاب تصدره مطبعة استانبول وهو ترجمة صحاح الجوهري لوانقولي ، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى الفرنسية ونشرت في مجلة المكتبات الفرنسية.

n5, Revue des bibliotheques, 1895, pp. 193-200.

(٤٦) عبدو، إبراهيم، تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية، القاهرة، مكتبة أدب، ١٩٤٩ ص٢٢.

(٤٧) HOPP, 1, "Ibrahim Muteferriqa: fondatcur de l'imprimerie turque" in Acte Orientalia Hung, n 29, 1975; p. 108.

(٤٨) SCHWAB, M, les incunables orientaux et les impressions orientales au commencement du XVIe siecle, Paris, 1883.

(٤٩) صابات خليل، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨م.

(٥٠) رضوان أبو الفتوح، المصدر نفسه.

(٥١) المصدر السابق، ص ١٢.

(٥٢) SCHWAB, les incunables... op. cit, P. 6.

(٥٣) Weil, G, "Die ersten Drucke der Turken" in Wentralblant Bibliothekezesen (Z.B), Fevrier 1907, T XXIV, pp 49-61.

نلاحظ أن المستشرق فيكتور شوفان تناول المسألة مكتفيًا بإعادة أقوال الرحالة الأوربيين ولم يدل برأيه في هذا الموضوع.

Chauvin, Victor, "Notes pour l'histoire de l'imprimerie à Constantinople" In

Z.B. 1907, TXXIV, pp. 255-262.

(٥٤) Demeersemann, A, "les données..." in IBLA, 1954, n 65, pp 1- 48; n 66, 1954. pp 113 - 140.

(٥٥) Ibid p 1.

(٥٦) حدث السيناريو نفسه في أوربا عند ظهور المطبعة إلا أن موقف الرفض لم يدم طويلاً ففي فرنسا رفض رجال الكنيسة هذا الإكتشاف خوفًا من أن يفقد كتاب الإنجيل إذا ما طبع قدسيته. وقد تحالف الناسخون مع الكنيسة لمجابهة المطبعة التي تهدد مورد رزقهم إلا أن الملك لويس الحادي عشر تحمس لانتشار المطبعة وشجع المطبعي الألماني فوست على الاستقرار بباريس سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م، بعد أن رأى في المطبعة وسيلة ناجحة لنشر الثقافة الفرنسية بسرعة ونسجت الكنيسة على منواله بعد أن اطلعت على فوائد هذا الاكتشاف وحدث نفس الأمر في أسبانيا وانجلترا بعد فترة قصيرة من التردد، ولكن بقي بلد أوربي واحد رافضًا لاستخدام فن الكتابة الجديد إلى حد نهاية القرن وهو روسيا.

(٥٧) رسالة وسيلة الطباعة، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٥٨) ان الحروف العربية التي استعملها سافاري في مطبعته بروما وباريس في القرن ١٦م، كانت قد أعدت في إستانبول أنظر فقرة: "مطبعة سافاري" ص ٣١.

(٥٩) Stochove, Vincent Sr de ste Catherine, Voyage du levant, Bruxelles, Velpius, 1650. p. 139.

(٦٠) قام تيفي برحلة إلى الشرق سنة ٩٥٥هـ/١٥٤٩م ثم عيّن مؤرخًا وجغرافيًا للملك من طرف كاترين دي ميدتشي.

(٦١) Thevet, Andre, Histoire des plus illustres et savants hommes de leurs siécles, Paris, Manger, 1671, T VII, p. 111, article sur Gutenberg.

(٦٢) اكتفى بعض المؤرخين الأوربيين بذكر هذا الإجراء المنسوب إلى السلطانين العثمانيين نقلاً عن تيفي دون مناقشته أو نقده.

Chevillier, A, l'origine... op cit., p. 271; GUIGNES, Joseph Dc, "Essai... op. cit"; p XXVII.

(٦٣) Thevet; A, "Histoire... "op. cit., p. 111.

(٦٤) يذكر المستشرق هربولو أن بايزيد الثاني كان يغدق في العطاء على العلماء ويقدم لهم الملابس والمنح المالية...

Herbelot Bibliothéque orientale, Paris, 1697, pp. 177 - 178.

Cantemir, A.D, Histoire de l'Empire Ottoman, trad. Joncquieries, Paris Barois, 1743, T.I, pp 137.

(٦٥) المصدر السابق، ص١٣٨.

(٦٦) D'ohsson, M., Tableau général de l'Empire Ottoman, Paris, 1787, vol 1, p 294; Herbelot Bibliothéque... op. cit., p 802; Adnan, A la science... op cit., p. 57.

(٦٧) Marsigli, LE Comte De, l'Etat militaire Ottoman: ses progrés et sa décadence La Haye, Goose, 1732, p. 313.

(٦٨) Biographie universelle de Michaud, TXXXXI, p 330 article Thevet.

(٦٩) قرار بترخيص بيع الكتب المطبوعة بأوربا داخل الإمبراطورية العثمانية.

(٧٠) قرار بإعادة فتح مطبعة إستانبول سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م ، ومن الملاحظ ان حكام المسلمين في الولايات العثمانية هم الذين قرروا وأشرفوا على إدخال المطابع بولاياتهم مثل محمد علي باشا بمصر الذي أسس مطبعة بولاق في ١٢٣٧/١٨٢١م والصادق باي بتونس سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٩م.

(٧١) Inalcik, H, The Ottoman Empire: The Classical Age 1300-1600, Weidenfeld, 1973, p. 174.

(٧٢) يوجد نص القرار في آخر صفحة من كتاب تحرير أصول الأوقليدس، ترجمة نصر الدين الطوسي، روما، مطبعة الميدتشي، ١٥٩٤م.

(٧٣) هذه الكتب نشرها الهولانديان رافلانج وأربنيوس في مدينة ليدا في القرن ١١هـ/١٧م وهي : رسالة القديس يوحنا طبعت سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢م، ورسالة القديس بولس ١٠٢٤هـ/١٦١٥م، والعهد الجديد ١٠٢٥هـ/١٦١٦م.

(٧٤) كتب سفير فرنسا في استانبول في ٢٧ يونيو ١٦٢٨: قام البطريرك كيريل عدو اللاتينية بنشر البدع في كنائس الشرق ، وذلك بتوزيع كتب البدع المطبوعة باليونانية في كل مكان ، وقد تسلم سفير انجلترا ثلاثين صندوقًا مليئة بالأحرف اليونانية لطبع كل كتب البدع التي يمكن أن يتخّيلها الإنسان. وفي الغد تناول البطريرك كيريل العشاء علنًا مع سفير هولندا ببيت سفير انجلترا (وثائق المكتبة الوطنية بباريس .B. N. Mss. Fr. 16153F. 48)

(٧٥) كان رد فرنسا ضد تصرفات البطريرك كيريل لوكار عنيفًا وقد تدخلت لدى السلطان العثماني تحت غطاء قانوني يخول لها حماية المسيحيين في الأماكن المقدسة كما تنص على ذلك بنود اتفاقية 'الامتيازات' التي أمضتها مع سليمان القانونى. ان شدة معارضة فرنسا للدعاية البروتستانية كان سببها خوفها من تقلص نفوذها كحامية للمسيحيين بالمشرق مما قد يكون له تأثير سلبي على مصالحها الاقتصادية بالإمبراطورية العثمانية.

(٧٦) Vitre, Histoire... op. cit, pp 11-12; Voir aussi DUVERDIER, Abrégé de l'histoire des Turcs, Lyon, 1665, T 2 p 585; Chevillier, A, l'origine.. op. cit, p 299.

(٧٧) Lettre du baile de Venise à Constantinople de 22 Juin, 1628 in RABBAT, Documents... op. cit, T1 p. 3.

(٧٨) رسالة بتاريخ ١٤ مايو ١٦٢٨ (وثيقة بالمكتبة الوطنية بباريس Mss. Fr. 16150F 48).
هذا الكتاب الجدلي قد يكون كتاب الأب اليانو: " هذا مصاحبة روحانية " الذي تهجم على الدين الإسلامي وقد طبعه اليسوعيون بروما سنة ٩٧٣هـ/١٥٦٦م.

(٧٩) SAUSSURE, Cesar De Lettres de Turquie (1730 - 1739), Budapest, Academie Hongroise des Scichces, 1909, p 94.

(٨٠) صابات خليل، تاريخ المصدر نفسه، ص ٢١. يقول كذلك الأب ديمرسمان إن السبب الذي يدفع مختلف الحكومات إلى تأخير إدخال المطبعة هو الحفاظ على سلطتها في شكلها القديم انظر مقاله في: IBLA, n 66, 1954, p 136.

(٨١) Saussure, lettres... op. cit, p 94; Ohsson, M.D, Tableau... op cit., vol 1, p. 295.

(٨٢) خط همايون للسلطان أحمد الثالث يسمح بإنشاء مطبعة بإستانبول في ١١٤٠هـ/١٧٢٦م، وقد ترجم إلى الفرنسية ونشرفي Revue des bibliothéques, 1895, p. 190.

(٨٣) سنعود إليه وإلى رسالة متفرقة في هذا الفصل.

(٨٤) الحلوجي، المخطوط... المصدر نفسه.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ١٢٥ - ١٤١ " انظر أيضًا يوسف العش ".
Enche, Y, les bibliothéques arabes publiques et semi-publiques en Mésopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen à Damas, Institut Français d'Archéologie, 1967, p. 283.

(٨٦) الزيات حبيب، "الوراقة والوراقون في الإسلام" في المشرق، يوليو ١٩٤٧، ظهرت أدبيات كثيرة للوراقين فتحدثوا عن مهنتهم وطريقة عملهم انظر المصرف، ناجي زين الدين، مصور الخط العربي، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٧٤ وللمؤلف نفسه كتاب ثان، " بدائع الخط العربي "، بغداد مكتبة النهضة، ١٩٨١م، القلقشندي، صبح الأعشى... المصدر نفسه ، جـ ١، ٢، ٣.

(٨٧) من بين أنواع الخط نذكر الكوفي، الريحاني، المغربي، والطليق، والديواني، والرقاع، والنسخي، والثلثي وغيرها.

(٨٨) Eche, les bibliothéques ... op. cit., p. 274.

(٨٩) Ibid, p. 275.

(٩٠) مثل "مناقب هينزافران (تراجم الفنانين) الذي كتبه مصطفى دفتري في ٩٩٥هـ - ١٥٨٧م، وأيضاً "قلزار صواب" لزاده نفسه الذي أهداه للسلطان مراد الرابع انظر :

Huart, clement Imbault, les Calligraphes et les miniaturistes de l'Orient musulman, Paris leroux, 1908, pp. 6 - 7.

(٩١) المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٩٢) Galland, préface de la Bibliotéque Orientale d'Herbelot, f 14.

(٩٣) المصدر السابق.

(٩٤) تهافت المستشرقون على عكس أبناء الشرق على اقتناء كتاب ابن سيناء بل الأكثر من ذلك أعادوا طبعه في القرن ١١هـ/١٧م مثلما فعل الألماني كيرستن الذي نشر الكتاب في برسو (بولونيا) في ١٠١٨هـ/١٦٠٩م.

(٩٥) يقول الأب نيكولا بوارسون رئيس بعثة المبشرين اليسوعيين في سوريا وبلاد فارس في هذا الصدد سنة ١٠٦٣هـ/١٦٥٢م: " تتم كتابة الكتب في هذه البلاد بخط اليد وتجد هذه المخطوطات قبولاً لأن الكتب المطبوعة تعتبر أفرنجية وبالتالي فهي محل ريبة " . RABBAT, A, Documents ... op. cit., T1 p.51.

(٩٦) Chenoufl, Moncef, "Le probléme des orgines de l'imprimerie et de la prosse arabes en Tunisie dans sa relation avec la Renaissance "Nahda", Paris, Sorbonne, 1970, F. 19 - 21 (These dactylographiée); voir aussi DEMEERSEMANN, A, Les données... op. cit., " in IBLA, n 65, 1954, p. 32.

(٩٧) CHENOUFI "le probléme... op. cit., " F 859.

(٩٨) إبراهيم متفرقة " رسالة وسيلة الطباعة " ص ١٩٦.

(٩٩) المصدر نفسه.

(١٠٠) فرمان السلطان أحمد الثالث الذي يرخص بإقامة مطبعة بإستانبول.

Rev. Bib, 1895, n 5 p. 198.

(١٠١) متفرقة " رسالة وسيلة الطباعة، "، ص ١٩٦ - ١٩٧.

يقول في السياق نفسه الرحالة دي لافيلا الذي زار سوريا في ١٠٣٤هـ/١٦٢٥م لا يوجد لدى الشرقيين الا القليل من المخطوطات لأن الناسخين يقضون وقتاً طويلاً لكتابتها. وفي العادة لا يوفقون في تدوين النسخ نتيجة جهلهم وإهمالهم واسراعهم الكبير في الكتابة للحصول على المال مقابل العمل ذكر في : Chevillier, A, L'origine... op. cit., p. 270.

(١٠٢) متفرقة " رسالة "... المصدر نفسه، ص ١٩٨ - ٢٠٠.

(١٠٣) يقول سيمون نقري وهو مسيحي من الطائفة الأرثوذكسية بسوريا عاش في القرن ١٢هـ/١٨م معللاً امتناع الشرقيين عن إقامة مطابع. بولعهم الشديد بالكتابة بخط اليد فهم متعودون هي استعمال المخطوطات الجميلة وليس لهم أي حافز لاستخدام الكتب المطبوعة. Chauvin, V, "Notes... op. cit.," p. 257.

(١٠٤) يقول مكسيم رودنسون إن الكتابة رمز في نظام اجتماعي، رمز انتماء لحضارة قائمة علي أيديولوجية أي بالنسبة للفترة التي نتحدث عنها على ديانة معينة. Rodinson, M, "le Monde islamique et l'extension de l'écriture arabe" In, L'Ecriture et la psychologie des peuples" Paris, Colin, 1963, p. 268.

(١٠٥) اختلف الفقهاء في مسألة تحريم أو إباحة التصوير فهناك من يرى أنه كان مكروها ولم يكن محرماً تحريماً صريحاً وهناك من يقر بإباحيته مادام بعيداً عن الوثنية وعن شبهة منافسة الخالق في حين أن هناك من استمسك بتحريمه ولمزيد من المعلومات يمكن النظر في : الباشا حسن، **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩، ص ٩ – ١٥ تيمور أحمد، التصوير عند العرب، القاهرة، إخراج زكي محمد حسن، ص١٢٨.

(١٠٦) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦م، ص ٧٥٤.

(١٠٧) كتبت أشعار ورسائل لمدح القلم والحبر والتحدث عن الخط وطريقة الكتابة مثل أقوال ابن البواب في الريحاني أو رسالة أبي حيان التوحيدي في علم الكتابة وأرجوزة النسابة الوضاحة لأصول الكتابة انظر: القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، جزء ١، ٢، ٣. ناجي، زين الدين، مصور الخط... المصدر نفسه، ص ٣٣٨ – ٣٩٦.

(١٠٨) Stochove, Voyages... op. cit., p. 440.

(١٠٩) متفرقة،رسالة... المصدر نفسه ، ص ١٩٩.

(١١٠) مثال ذلك كتاب صلاة السواعي وهو كما رأينا أول كتاب عربي مطبوع، صدر في فانو بإيطاليا سنة ٩١٩هـ/١٥١٤م، وأيضاً رسالة بولس الرسول الذي طبع في هايدلبرغ سنة ٩٩١هـ/١٥٨٣م، وكل هذه الكتب طبعت بأحرف عربية رديئة ومتقطعة وبعيدة عن المخطوطات العربية الجميلة.

(١١١) Demersemann, "les données... op. cit, in IBLA n 65, 1954, p. 40.

نشير إلى أن الكتابة بحروف عربية متصلة مع بعضها في الكلمة الواحدة بقيت مستعملة إلى اليوم على عكس الكتابة اللاتينية. كما أن محاولات استعمال الحرف اللاتيني عوضاً عن الحرف العربي في الكتابة، قد باء ت بالفشل مثل محاولة عبدالعزيز فهمي الذي اقترح مشروعاً في هذا الصدد سنة ١٩٤٤م، ولقي كذلك معارضة شديدة. نشير كذلك إلى أن مصطفى كمال قد عوض بتركيا الحرف العربي باللاتيني لكتابة اللغة التركية، إلا أن محاولته لم تتوسع إلى بقية البلدان المجاورة.

(١١٢) متفرقة،رسالة... المصدر نفسه، ص ١٩٩.

(١١٣) مثل: مطبعة الميدتشي بروما.

(١١٤) GERCEK, S.N, Turk...op. cit., p 46.

(١١٥) متفرقة، " رسالة "... المصدر نفسه، ص ١٩٨.

(١١٦) الحوجي، المخطوط... المصدر نفسه.

(١١٧) يقول المستشرق الفرنسي قالان في آخر القرن ١٧ حول هذا الموضوع : رفض المحمديون النسخ التي جئنا بها خشية أن يقع فيما بعد إدخال كتاب القرآن مطبوعًا وهو في نظرهم أكبر انتهاك لحرمة هذا الكتاب .GALLAND; Préface...op. cit., F. 14 كما يقول الرحالة بيسباك في القرن ١٠هـ/١٦م: " لا توجد أي أمة أجنبية في تفتحها وقبولها للمكتشفات القادمة من شعوب أخرى (مثل الأمة التركية) فهي لم تتردد في استخدام المدافع والجوامع وغيرها من الأشياء العديدة التي تظهر عندنا بل كانت تقبل عليها بشغف كبير. إلا انها لم توافق على استعمال الطباعة والساعات العمومية ، ذلك لأن الدين رفض ذلك خوفًا من أن يفقد كتابهم المقدس في صورة طباعته قدسيته وأن تنقص كذلك الساعات العمومية بعض نفوذ المؤذنين والعلماء" Busbec, Ambassades... op. cit., pp 342 - 343.

(١١٨) صابات خليل، تاريخ المصدر نفسه، ص ٢١. إنه من المفيد معرفة ردود فعل المسلمين ازاء طبعات كتاب القرآن بأوربا (طبعة هنكلمان بهامبورغ سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤م ومارشي في بادوا في ١١٠٩هـ/١٦٩٨م) إلا أن المصادر التي اطلعنا عليها لا تشير إلى هذه النقطة بل ربما لم يقع البتة توزيع هذه الكتب بالمشرق.

(١١٩) ابن كثير، اسماعيل القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، بيروت دار المعرفة، ١٩٦٩، جزء ٢، ص ٥٤٧.

(١٢٠) المصدر السابق.

(١٢١) المصدر السابق.

(١٢٢) حرص المسلمون على حفظ السور القرآنية عن ظهر قلب مع احترام قواعد القراءة. فظهر علم القراءات والتجويد والتلاوة.

(١٢٣) يروي البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأحد الصحابة ادع لي زيدًا وليجيء باللوح والدواة والكتف أو الكتف والدواة كما يروي عن أم سلمة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعا بأديم وعلي بن أبي طالب عنده فلم يزل رسول الله أنه يملي وعلي يكتب حتى ملأ بطن الأديم وظهره وأكرعه. مرّت عملية تكوين أول كتاب عربي وهو القرآن الكريم بعدة مراحل هي مرحلة التدوين في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومرحلة الجمع في عهد أبي بكر ومرحلة توحيد المصحف في عهد عثمان وأخيرًا مرحلة ضبط القرآن ووضع العلامات والحركات في عهد الدولة الأموية والعباسية، انظر الحلوجي، المخطوط... المصدر نفسه ، ص ٦٧ – ٩٩.

(١٢٤) المصدر السابق ، ص ٦٧ – ٦٩.

(١٢٥) ورد نص فتوى شيخ الإسلام سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م في مقدمة أول كتاب أصدرته مطبعة إستانبول ، صحاح الجوهري ، كما وردت الترجمة الفرنسية في ١٩٢ – ١٩١ Rev. bib, 1895, pp.

(١٢٦) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(١٢٧) GERCEK, Turk... op. cit., p, 46.

(١٢٨) فتوى شيخ الإسلام.

(١٢٩) يقول إبراهيم متفرقة في إحدى مذكراته: أصدر مولانا السلطان خط همايون يسمح بمقتضاه إقامة مطبعة لطبع كل الكتب باستثناء ما يتعلق منها بالدين والفقه مثل المعاجم والمؤلفات الطبية والفلكية والفلسفية والجغرافية وكل الكتب التاريخية والعلمية.

"Note de Mutafarrika a" in: Rev. Bib, 1895, p 200.

(١٣٠) صدرت في تلك الفترة فتوى بإستانبول تجيز طبع كتب الدين والفقه أخذوا بالمذهب القائل 'الأمور بمقاصدها ' رضوان، تاريخ... المصدر نفسه ، ص ١٦.

(١٣١) انظر نص فرمان السلطان عبدالحميد الأول لإعادة فتح مطبعة القسطنطينية في

Toderini, De la litterature... op: cit., T III? p. 227.

(١٣٢) طبع كتاب القرآن لأول مرة من طرف المسلمين خارج حدود الإمبراطورية العثمانية وذلك في سان بتسبورغ في ١٢٠١هـ/١٧٨٧م، بمبادرة من مولاي عثمان ثم في بولاق بمصر في ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م وإستانبول في ١٢٩١هـ/١٨٧٧م.

يشير أبو الفتوح رضوان في كتابه إلى أن علماء الأزهر عارضوا في البداية طبع كتاب القرآن قبل أن يسمحوا بذلك سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م إلا أن إحدى طبعات المصحف الشريف صودرت ومنع بيعها من طرف عباس الأول سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٣م، نظراً لوقوع بعض الأخطاء المطبعية بها ، تاريخ مطبعة بولاق، ص ٢٧٧ – ٢٨٢.

(١٣٣) INALCIK, Halil, The Ottoman Empire: op. cit., trad. N. Itzkowitz and K. Imber, London, Weidenfeld and Nicolson, 1973 pp. 167 - 181; ADNAN, A, la Science... op. cit., pp. 21-54; Toderini, De la litterature... op. cit., T pp. 15-40; GIBB, H. A. R. and BOWEN. H. Islamic Society and the West, a Study of the Impact of Western Civilisation on Moslem Culture in the Near East, Londres, New-york, Toronto, Oxford University press, 1959, T II, pp 81-114.

– الحياة الفكرية في الولايات العربية في أثناء العهد العثماني، زغوان : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، ١٩٩٠، ٣ أجزاء.

(١٣٤) INALCIK, The Ottoman... op. cit., pp. 168 - 172.

(١٣٥) BOMBACI, A, Histoire de la littérature turque, Paris, Klinckoreck, 1968, p. 271; MAN-écono- TRAN, Robert, Istanbul dans la seconde moitié du XVII é : Essai d'histoire institutionnelle, mique et sociale, Paris, Maisonneuve, 1961 pp. 420-421.

(١٣٦) يقول متفرقة " لقد تسرب في هذه الأمة نوع من الكسل والتواني جعلها لا تهتم بكل ما يتعلق بالعلوم والآداب " « رسالة وسيلة الطباعة » ص ١٩٦.

(١٣٧) يعتبره أديفار عدنان "رائد النهضة التركية" انظر:

ADNAN, La Science...op.cit.,p120.

(١٣٨) المصدر السابق ص ١٠٥ – ١٠٧. Bombaci, Histoire... op. cit., p. 309.

(١٣٩) أولغ باغ (محمود طرغاي) أمير مغولي (١٣٩٣هـ – ١٤٤٩م) حكم تركستان عالم فلكي وفقيه وشاعر ومؤرخ جعل من سمرقند آخر أكبر مركز للحضارة الإسلامية في العصر الوسيط. وفيه أعدت جداول أولغ باغ.

(١٤٠) INAKLCIK, The Ottoman... op. cit., p. 179.

(١٤١) STOCHOVE, Voyage... op. cit., 139-141.

(١٤٢) المصدر نفسه ، ص ١٤١.

(١٤٣) Chevallier, Dominique, La société du Mont-liban à l'époque de la Révolution industrielle en Europe, Paris, Geuthner, 1971, p. 11, note 3.

(١٤٤) الفابوري ميخائيل. كتاب يشتمل على أجوبة أهل الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الجامعة الرسولية لاعتراضات المسلمين واليهود والهراطقة ضد الكاثوليكيين. روما، مجمع نشر الإيمان، ١٦٨١، ص١-٢.

(١٤٥) يقول كوادانولوس في مقدمة كتابه الجدلي : "فخذ الآن ياقارئي الفقيه أحاديثنا في هذا الكتاب بأسرار الله وشريعة المسيح وانكشاف أباطيل الغرور لتعرف حق المسيح إجابة القسيس فيليب كوادانولوس إلى أحمد الشريف زين العابدين الفارسي الأسبهاني، روما، مجمع نشر الإيمان، ١٦٣٧ ص٢.

(١٤٦) رسالة " وسيلة الطباعة " ، ص ١٩٧.

(١٤٧) نفس المصدر.

(١٤٨) De Saussure, Lettres... op. cit, p. 94; GALLAND, Préface... op. cit., F14.

هناك الكثير من المؤلفين في القرنين ١١-١٢هـ/١٧-١٨م ممن أثاروا هذه القضية ، وأكدوا على الجانب الاجتماعي فيها. ومنهم سوسير الذي قال " إن آلاف الناسخين في إستانبول وداخل الإمبراطورية، سيتعرضون إلى الموت جوعًا لأنه لم يعد بإمكانهم كتابة الرسائل ودفاتر الحسابات

ومذكرات الخواص وأيضًا كل الكتب المنتشرة في الإمبراطورية لأنه سيقع طبعها جميعًا

De Saussure, Lettres... op. cit., p 94.

ويتناول هوسون هذه المسألة بقوله " إن كثرة المخطوطات والخوف من تفقير جمهور كبير من الناسخين هما السببان الأساسيان اللذان ساهما في تأخر ظهور الطباعة عند العثمانيين"

D'HOSSON, Tableau... op. cit..., T 1 p 298; Voir aussi Marsigli, l'Etat... op. cit, p 313; De Guignes "Essai... op. cit." p XXVIII.

(١٤٩) يقول مارسيغلي " إنهم لا يريدون منع الناسخين وعددهم تسعون ألفًا لما كنت بالقسطنطينية من الحصول على مورد رزقهم ".

MARSIGLI, l'Etat... op. cit, p. 313.

(١٥٠) كانت أكبر مدينة بأوربا والشرق الأوسط في القرن ١١هـ/١٧م انظر MANTRAN, Istanbul... op. cit., p. 47.

(١٥١) انظر ما كتبه سوسير في الهامش عدد ١٤٩.

(١٥٢) D'HOSSON, Tableau.. op. cit., T1 p. 298; MANTRAN Istanbul.. op. cit., pp 495 - 496.

(١٥٣) ان هؤلاء مقسمون على صنفين، الصنف الأول يشتمل على خمسين حانوتًا ، ويعمل بها ثلاثمائة بائع والصنف الثاني يضم مقسمون حانوتًا ويشتغل بها مائتا بائع انظر روبار منتران، المصدر السابق ص ٤٩٦.

(١٥٤) المصدر السابق، ص ٣٦٨.

(١٥٥) المصدر السابق، ص ٣٧١.

(١٥٦) المصدر السابق، ص ٣٧٥.

(١٥٧) يقول منتران "توجد لدى هذه الأصناف" عقلية احتكارية تمثل إلى جانب عقليتها المحافظة حاجزًا لكل توسع أو تقدم، إنه يكاد يكون مستحيلاً تغيير الأنظمة والقوانين الداخلية للأصناف، لأن مثل هذا التغيير يمكن أن يؤدي إلى ثورة في مستوى هيكل الصنف وإلى مراجعة امتيازاتها وحقوقها ولا توجد في تلك الفترة بصورة جلية معالم تطور مادي أو فني أو تحسن بسيط للعمل وظروف العمل.

Mantran, Istanbul... op. cit, p 388.

(١٥٨) لهذا السبب تأخر إدخال المطبعة في القرن ١٠هـ/١٦م حسب أقوال إبراهيم متفرقة في رسالته، إلا أننا كما رأينا في أول هذا الفصل أن المؤلف أعطى لهذه الحجة حجمًا أكبر مما تستحق لإخفاء الأسباب الجذرية.

(١٥٩) Martin, H. J, " L'imprimerie: origines et conséquences d'une découverte" in: l'écrit et la psychologie... op. cit., p. 284.

(١٦٠) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

(١٦١) متفرقة، رسالة وسيلة الطباعة، ص ١٩٨.

(١٦٢) GALLAND, Préface... op. cit., F14.

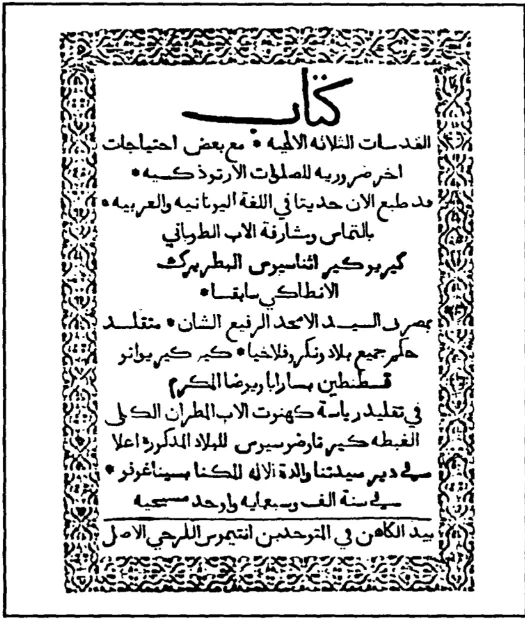
(١٦٣) رسالة وسيلة الطباعة، ص ١٩٨.

(١٦٤) EDEN, F: M, State of the poor, Londres, 1797 in: MANTOUX. P, La révolution industruelle au XVIII é, Paris, 1973, p. 171; voir aussi LAURENS, H, "les origines intellectuelles de l'Expédition d'Egypte: l'orientalisme islamisant en France au XVIIIe é, 1698-1789, Paris, Sorbonne IV, 1981 F.F 307- 308. (Thése de 3è cycle dactylographièe).

(١٦٥) رسالة وسيلة الطباعة، ص ١٩٩.

(١٦٦) المصدر السابق.

(١٦٧) المصدر السابق.



كتاب

القدسات الثلاثه الالهيه • مع بعض احتياجات

اخر ضروريه للصلوات الارتوذكسيه •

قد طبع الان حديثا في اللغة اليونانيه والعربيه •

بالتماس وشارقة الاب الطوباني

كيريو كير اثناسيوس البطريرك

الانطاكي سابقا •

بمصروف السيد الامجد الرفيع الشان • متقلد

حكم جميع بلاد ونكروفلاخيا • كير كير يوانو

قسطنطين بسارابا ويرضا المكرم

في تقليد رياسة كهنوت الاب المطران الكلي

الغبطه كير ثاوضوسيوس للبلاد المذكوره اعلا

في دير سيدتنا والدة الاله الكنا بسيناغوفو •

في سنة الف وسبعمايه واحد مسيحيه

بيد الكاهن في الترحدبن انتيموس الكرجي الاصل

كتاب القدسات الثلاثة الالهية – طبع بمدينة بوخاريست سنة ١٧٠١

الجـزء الثانـي

بـداية الطباعة العربية بالمشرق

الفصل الأول

المطابع المسيحية ببلاد الشام
حلب والشوير وبيروت

أسس المسيحيون ثلاث مطابع عربية في النصف الأول من القرن ١٨م بحلب في ١١١٨هـ/١٧٠٦م، وشوير في ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، وبيروت في ١١٦٥هـ/ ١٧٥١م، وكان ذلك بمبادرة من الطائفة الملكية بحزبيها الأرثوذكسي والكاثوليكي، وقد سبقتها محاولات المارونيين لإقامة مطابع بجبل لبنان في القرن ١١هـ/١٧م، وقد فشلت جميعها. وبعدها تمكن الملكيون من إدخال ثلاث مطابع بالمشرق في ظرف نصف قرن، فكيف نفسر توفقهم في هذا المجال؟؛ ثم كيف كان المناخ الثقافي والديني السائد عند المسيحيين العرب في تلك الفترة؟؛ وكيف تغلبوا على الصعوبات الفنية والمالية في بداية مشاريعهم؟؛ ثم هل حصلوا على دعم مادي أو استفادوا بخبرات من خارج الإمبراطورية العثمانية؟.

لم تشتغل ورشات الطباعة بحلب وبيروت إلا فترة قصيرة ، في حين واصلت ورشة شوير بجبل لبنان عملها طيلة القرن ١٢هـ/ ١٨م. ثم كيف يمكن تفسير ومقارنة ظروف تأسيس المطابع الثلاث وأهداف مؤسسيها؟؛ هل كان للكتاب المطبوع لديها المفهوم نفسه والدور نفسه الذي لعبه في أوربا في تلك المدة؟؛ هل تم تسخيره لمواصلة دور الكتاب العربي القادم من روما أي للدعوة إلى الاتحاد مع كنيسة روما ولنشر المذهب الكاثوليكي ، أم أنه جعل لخدمة الحياة الفكرية والاستجابة لحاجيات الطلاب وأبناء الطوائف المسيحية؟؛ هل أسهم أخيراً في تطور المحيط الثقافي بالمشرق؟

١-المطبعة العربية بحلب (١١١٨هـ / ١٧٠٦م - ١١٢٣هـ / ١٧١١م) :

شهدت هذه المدينة مولد أول مطبعة عربية بالمشرق وفتحت المجال بذلك لمبادرات مسيحية أخرى، لإرساء تقاليد جديدة في العمل الثقافي. وإنه لمن المهم البحث عن أسباب اختيار هذه المدينة لإيواء أول ورشة طباعة عربية ، وظروف تأسيسها ، ومدى إسهامها في تنشيط الحياة الدينية والثقافية لدى الطائفة الأرثوذكسية الملكية.

١.١ - اختيار مدينة حلب :

١.١.١ - حلب مركز تجاري كبير بالمشرق[١] :

ولئن فقدت الطرقات التجارية الإسلامية بين الشرق الأقصى وأوربا حيويتها بعد اكتشاف الطرقات البحرية الكبرى في القرنين ٩ و١٠هـ/١٥ و١٦م، فإن التجارة الإسلامية انتعشت بعد توسع الفتوحات العثمانية وسيطرة الأتراك على عدة طرقات برية كبرى[٢] . وقد استفادت بلاد الشام كثيراً من هذه الوضعية وخاصة مدينة حلب الواقعة في مفترق عدة طرقات تجارية كبرى، فاستقطبت جزءاً مهماً من التجارة الدولية. ومع انفتاح الموانئ السورية على التجارة البحرية الأوربية، تمكنت حلب وهي مدينة قارية من جلب التجار الفرنسيين منذ سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م والإنجليز في ٩٩١هـ/١٥٨٣م[٣]. واليهولنديين في ١٠٢٢هـ/١٦١٣م وغيرهم... وهؤلاء التجار أقاموا مصارف وقنصليات في هذه المدينة. وقد ازدهرت التجارة بحلب وبقيت إلى أواسط القرن ١٧م السوق الرئيسية في كل المشرق، حيث إنها تفوق في أهميتها الإسكندرية وإستانبول[٤]. وكانت تباع بها كل البضائع القادمة من الشرق الأدنى ومن الغرب مثل الأحجار الكريمة والحرير والتوابل والقماش والورق وغير ذلك[٥] . لقد كانت حلب مدينة كبيرة إلى درجة أن أحد المبشرين اليسوعيين شبهها في القرن ١١هـ/١٧م، بمدينة ليون في فرنسا من حيث حجمها وجمالها وتجارتها وعدد سكانها[٦] .

وقد اغتنمت الأقليات المسيحية بحلب فرصة حضور إخوانهم في الدين من المسيحيين للاستفادة من النشاط التجاري الدائب بالمدينة، فعملوا كمترجمين ووسطاء لدى الأجانب، أما التجار الأغنياء منهم فإنهم تولوا الاتجار على حسابهم الخاص[٧] . وهكذا فإن هذه الأقليات قد أولت أهمية كبرى لهذا النشاط التجاري حتى تقيم علاقات مع أوربا وتستفيد من قوتها وتقدمها[٨] . ومن أهم نتائج هذا الازدهار التجاري هو دعم الأقليات الدينية بحلب وبيروت وطرابلس وتطور الحركة الأدبية لديهم.

٢.١.١ - حلب مركز ثقافي مسيحي :

تعد حلب من بين المدن القليلة التي حافظت وطورت إلى حد ما، تقاليدها الأدبية بعد الفتوحات العثمانية[٩]. وقد أثر الأوربيون على الحركة الفكرية لدى المسيحيين العرب. فإلى جانب التجار الأوربيين، استقر مبشرون بحلب ارتبطوا بالأقليات المسيحية بهدف تحقيق الاتحاد بين كنائس الشرق وروما. كما أقام بعض العلماء الأوربيين بالمدينة لمدة طويلة مثل المستعرب الهولندي يعقوب غوليوس الذي مكث بها من ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م إلى ١٠٤٦هـ/١٦٣٦م.

أ - نشاط المبشرين :

أعطى هؤلاء دافعًا جديدًا للنشاط الأدبي للأرثوذكس الملكيين، وقد توافدوا على حلب منذ نهاية القرن ١٠هـ/١٦م. فالفرنسيسكان وصلوا إلى المدينة في ٩٧٨هـ/١٥٧١م، واليسوعيون والكبوشيون في ١٠٣٥هـ/١٦٢٥م، والكارم في ١٠٣٦هـ/١٦٢٦م. وقد أسس المبشرون مدارس منذ ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م مثل الأب اليسوعي جيروم كيروت (Jerome Queyrot) الذي كان يدير مدرسة الأبناء الملكيين، وقد وصل عدد التلاميذ بها في سنة ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م. زهاء الألف[١٠] . أما الكارم فقد أسسوا مدرسة بحلب يدرسون بها اللغات العربية والإغريقية واللغات الأوربية [١١] ، وظهرت مدرسة مارونية بالمدينة نفسها في

١٠٧٧هـ/١٦٦٦م بمبادرة من البطريرك اسطفهان الدويهي[١٢] . وأسهم مجمع نشر الإيمان في تعليم أبناء الطائفة الأرثوذكسية حيث استقدم بعض أصيلي حلب بداية من ١٠٧١هـ/١٦٦١م إلى روما للدراسة بها [١٣] . وكذلك الأمر بالنسبة لمعهد اليسوعيين الذي فتح أبوابه لتلاميذ الطائفة بداية من ١١١٢هـ/١٧٠٠م [١٤] . وهؤلاء التلاميذ عادوا بعد إنهاء دراستهم إلى بلادهم في مطلع القرن ١٢هـ/ ١٨م. وتقلدوا مناصب مهمة في صلب كنيسة أنطاكية ، وتولوا كذلك ترجمة عدة مؤلفات أدبية وأسهموا في تنشيط الحياة الثقافية التي ازدهرت لدى المسيحيين بحلب وألفوا عدة كتب إلا أنه كان ينقصها الابتكار، إذا اقتصرت على ترجمة كتب وإعداد منتخبات ومراجعات للمخطوطات، وكان محتواها في الغالب دينيًا وحتى الكتب التي ألفوها في التاريخ والشعر فقد كانت تتعلق عن قرب أو بعد بمسائل مسيحية [١٦] .

ب – العربية، لغة المذهب الأرثوذكسي الملكي :

استعمل المسيحيون بالمشرق عدة لغات في كنائسهم منها اليونانية والسريانية والكلدانية والعربية وغيرها. وعرفت الطائفة الأرثوذكسية الملكية حدثًا بالغ الأهمية في حياتها الثقافية يتمثل في تعويض السريانية بالعربية خلال القرن ١١هـ/١٧م. لقد بقيت السريانية لغة الدين عند الملكيين منذ القرن ٤هـ/ ١٠م[١٧]. رغم استعمالهم للغة اليونانية في بعض الفقرات من نصوصهم الدينية. وقد اختفت هذه اللغة من أواسط بلاد الشام منذ القرن ٦هـ/١٢م[١٨]. وفي هذه الأثناء بدأت اللغة العربية تستخدم شيئًا فشيئًا في كنيستهم، بعد أن كانت مقتصرة على التخاطب بينهم في حياتهم اليومية. وكان قد استخدمها لأول مرة في الكتب المقدسة عبدالله بن الفضل الأنطاكي في القرن ٧هـ/١١م، لترجمة بعض الأسفار عن اليونانية وكذلك مؤلفات القديس يوحنا[١٩] . وفي النصف الثاني من القرن ١١هـ/١٧م، لم يعد أبناء الشام يتكلمون السريانية باستثناء أهالي جبل لبنان، بل إنها اختفت من بعض المناطق لفائدة العربية منذ القرن

١٠هـ/١٦م[٢٠]. ومنذ تلك الفترة أصبحت العربية نهائيًا لغة المذهب الأرثوذكسي الملكي باستثناء بعض التراكيب اليونانية في نصوص دينية معينة.

مراجعة وترجمة الكتب الدينية :

شهدت مدينة حلب حركة أدبية نشيطة تمثلت في مراجعة وترجمة كتب الأرثوذكسية إلى العربية منذ القرن ١١هـ/١٧م، وكان عبدالكريم كرمي ومكار الثالث زعيم وكلاهما شغل منصب رئيس الأساقفة بحلب. كما تقلدا على التوالي منصب بطريرك كنيسة أنطاكية وهما من أبرز من قام بهذه العملية، فالأول تولى مراجعة وإصلاح الكتب الدينية[٢١] ، والثاني قام بتأليف الكتب وترجمة بعض النصوص من اليونانية إلى العربية، مستعينًا في ذلك بابنه بولس. ويتمثل هدفهما في ترجمة كل الكتب الدينية إلى العربية بعد أن أصبحت لغة التخاطب والأدب عند أبناء الطائفة بسوريا في الوقت الذي لم تعد السريانية مفهومة إلا في جبل لبنان وبعض القرى المجاورة لدمشق، وقد حرصا على أن تكون الترجمات العربية حسب الأصل اليوناني[٢٢] .

قام عبد الكريم كرمي بمراجعة وإكمال بعض الكتب الملكية ومنها الأرولوجيون القنداق وستشراري الترتيل والتلحين، وكان ذلك بالاعتماد حسب كارلفسكي على الكتب اليونانية المطبوعة بالبندقية في القرن ١٠هـ/١٦م[٢٣] . وهذا الرأي عارضه نصر الله الذي يرى أن كرمي استعان أيضًا بمنشورات روما ومختلف المخطوطات السريانية على الأقل بالنسبة للأرولوجيون القنداق[٢٤].

إن الكتب التي راجعها كرمي هي التي طبعت فيما بعد لفائدة الكنيسة الأرثوذكسية الملكية[٢٥]. وكان من نتائج تعويض العربية للسريانية كلفة دين، ومخطوطات الكتب التي تمت مراجعتها وترجمتها للعربية لم تكن كافية للاستجابة لرغبات القراء الملكيين الأرثوذكس.

تطور العربية الفصحى :

كان كرمي يستعمل العربية العامية في مراجعاته ، مما جعل بعض التراكيب اللغوية غير واضحة المعاني[٢٦] . وفي تلك المدة كان المسيحيون العرب لا يتعلمون ولا يتخاطبون إلا بالعربية العامية وحتى الشعراء الملكيون لا يكتبون الأزجال إلا بهذه اللهجة[٢٧] . والأمر نفسه بالنسبة للأدباء الذين كتبوا في النثر إلا أنهم شعروا بضرورة تعلم الفصحى نظرًا لأهميتها في عملية ترجمة ومراجعة كتبهم الدينية[٢٨] . فأقبلوا على تعلمها لدى علماء المسلمين في حلب مثل الشيخ سليمان النحوي الحلبي، الذي تعلمت على يديه مجموعة من التلاميذ المسيحيين في القرن ١١هـ/١٧م، مثل فرحات جرمانوس (١٠٨٠م/١٦٧٠ - ١١٤٥هـ/١٧٣٢م) وعبدالله الزاخر (١٠٩٠هـ/١٦٨٠م - ١١٦١هـ/١٧٤٨م) وغيرهم[٢٩] .

جـ - الجدل الديني :

كانت حلب كذلك ساحة للصراعات والجدال الديني بين الطوائف المسيحية فيما بينها، وكذلك بين المسيحيين والمسلمين. ودارت عدة حلقات نقاش بين المسيحيين بالخصوص[٣٠] ، كما ظهرت في القرن ١١هـ/١٧م، عدة مؤلفات جدلية تعبر عن مدى حساسية كل الأطراف لبعض القضايا. والتي منها قضية الاتحاد مع روما التي استأثرت باهتمام كل الطوائف. وقد شن الأرثوذكس الملكيون حملة ضد الحزب الكاثوليكي وضد كنيسة روما[٣١] . مثلما فعل انيطاس ميقالي قس طرابلس الذي كتب في ٩٩١هـ/١٥٨٣م : "جواب على بابا رومية الذي أرسله مع باطشتا تلميذه إلى البطريرك يواكيم بمدينة الشام" وفيه تفنيد لآراء اللاتينيين[٣٢] . كما ظهرت مؤلفات جدلية بين الكاثوليكيين فيما بينهم وخاصة بين المارونيين والملكيين الكاثوليك. من ذلك رسالة يوسف الحصروني (توفي في ١١٠٧هـ/١٦٩٥م) التي ترد على هجومات الملكيين.

ودار جدال أيضًا بين المسلمين والمبشرين حول صحة كل رسالة من الرسالات السماوية وقضية التثليث. من ذلك القصيدة التي كتبها الشيخ شمس الدين البكري حول أخطاء المسيحيين فيما يتعلق بالمسيح وقضية التثليث ، وقد أثار هذا النقد ردود فعل كثيرة من لدن المسيحيين وخاصة من طرف الماروني بطرس مخلوف وجبرائيل فرحات(٣٣) .

٣.١.١ - حلب مركز ديني كبير :

بلغ عدد سكان المدينة في القرن ١١هـ/١٧م، حوالي مئتي ألف نسمة، منهم أربعون ألفًا من المسيحيين حسب شهادة فرمنال في ١٠٤١هـ/١٦٣١م، الذي بين أن هذا العدد يشمل كلاً من الملكيين والأرمنيين والنساطرة والمارونيين واليعاقبة، وقد أقيمت أربع كنائس جديدة في النصف الأول من القرن ١١هـ/ ١٧م في حي الجديدة الآهل بالمسيحيين(٣٤) .

أ - نمو الحزب الكاثوليكي بحلب :

وجد المبشرون في حلب مجالاً واسعًا لدعوة الكنائس الشرقية للاتحاد مع روما، إذ وجدوا بالمدينة عينة من كل الطوائف النصرانية التي لم يتأخر البعض منها في الاستجابة لدعوة المبشرين. فقد اعتنق عدد كبير من الأرمن المذهب الكاثوليكي سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م(٣٥) . أما عدد أبناء الطائفة الأرثوذكسية الملكية الذين اتحدوا مع كنيسة روما، فقد بلغ في سنة ١١٢١هـ/١٧٠٩م أربعة آلاف(٣٦) . وقد انتخب المبشرون اليعاقبة لهذا الحزب الكاثوليكي الجديد، قسيسًا كاثوليكيًا منذ ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م هو اندري أكيدجان وهو أحد تلاميذ معهد روما.

إن نمو الحزب الكاثوليكي بحلب لم يمر بسلام إذ أحدث صدامات مع الأرثوذكس ومع السلطات العثمانية. فالبطاركة الملكيون حاولوا منع حركة العودة إلى روما؛ لأنهم رأوا في انتماء بعض أبناء طائفتهم للكاثوليكية ضربًا

للمذهب الأرثوذكسي وسبباً لفتنة طائفية خطيرة. أما الباشوات الأتراك فقد رأوا في هذه التحولات تدخلاً في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية، وعدّوا الكاثوليكيين الجدد بمثابة "أعوان موالين للخارج" (٣٧) . ولهذا قام البطاركة بالتعاون مع السلطات العثمانية في بداية القرن ١٨م، بحملة اضطهاد ضد أعضاء الحزب الكاثوليكي ببلاد الشام.

ب - حلب، أحد مراكز إقامة البطريرك :

لعبت أبرشية حلب دورًا رئيسيًا في تاريخ الطائفة الأرثوذكسية بداية من القرن ١٠هـ/١٦م، فقد كانت المقر الثاني للبطريرك إلى جانب دمشق، أما عن مقر الطائفة بأنطاكية فقد هجره البطاركة منذ ١٢٦٨م، واستقروا بدمشق حيث يقيم الوالي(٣٨) مع أنهم كانوا يتحولون أحيانًا إلى حلب(٣٩) . وفي سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤م نشب صراع بين اثنين من المرشحين لكرسي البطريرك كيرلس الخامس الزعيم الذي عينه باشا دمشق وأثناسيوس الثالث دباس، الذي جلس على كرسي البطريركية من ١٠٩٧هـ/١٦٨٥م إلى ١١٠٦هـ/١٦٩٤م، وانتهى باتفاق يتمثل في تولي كيرلس لمنصب البطريرك والاستقرار بدمشق. أما أثناسيوس الثالث فيقيم بحلب ويخلف البطريرك عند وفاته، وهذا ما تم فعلاً إذ عند وفاة كيرلس سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، حيث أخذ اثناسيوس مكانه إلى سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٤م وهو الذي أسس مطبعة في حلب أثناء إقامته بها.

عرفت حلب حركة ثقافية نشيطة في أوساط المسيحيين العرب في القرن ١١هـ/١٧م، إلا أنها اقتصرت على تناول المسائل الدينية. وقد أسهم المخطوط والكتاب المطبوع في أوربا في الدعوة إلى الاتحاد مع روما وفي نشر المذهب الكاثوليكي. ولئن بذل مجهود كبير لمراجعة الكتب الدينية بالعربية، فإن عملية التعريف بها كانت عسيرة لأن المخطوط لم يكن قادرًا على ذلك. وبدأت فكرة إقامة مطبعة ببلاد الشام ، تراود أذهان الأرثوذكس الملكيين. وقد بقي السؤال المطروح كالآتي: كيف أمكن تنفيذ الفكرة وتنزيلها على أرض الواقع؟.

٢.١ – جذور مطبعة حلب، النشر العربي ببوخاريست :

أسست مطبعة عربية ببوخاريست برومانيا في سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م[٤٠] بمبادرة وبطلب من الأرثوذكس الملكيين السوريين، الذين أعربوا عن حاجتهم إلى كتب دينية عربية مطبوعة. وهذه الورشة كانت المصدر المباشر للمطبعة التي أقيمت بعد خمس سنوات بحلب. فعلاوة على بعض الآلات والتجهيزات التي نقلت منها إلى بلاد الشام، كان أبرز شخص باشر عملية النشر في بوخاريست وهو بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث دباس في الوقت نفسه ، مؤسس مطبعة حلب ، وتكمن أهمية مطبعة بوخاريست في أنها أول ورشة داخل الإمبراطورية العثمانية تصدر كتبًا عربية، كما أنها تعكس تحولاً مهمًا في تاريخ الكتاب العربي المطبوع وفي موقف الباب العالي من النشر بالحرف العربي.

ويعدّ تأسيس المطبعة العربية برومانيا تمهيداً لظهور المطابع العربية المسيحية الثلاث، بحلب وشوير وبيروت. فمطبعة بوخاريست مهدت الطريق لتأسيس مطبعة حلب بصفة مباشرة، ومطبعة شوير بصفة غير مباشرة. أما مطبعة جاسي (Jassy) في مولدافيا (Moldavie) فقد مهدت الطريق لمطبعة بيروت ولنا أن نتساء ل في بداية الأمر كيف نفسر هذه العلاقة بين مطابع رومانيا وبلاد الشام؟ وكيف تم التعاون بين ورشتي بوخاريست وحلب؟؛ وما مدى إسهام الرومانيين في دفع حركة النشر العربي في بلاد الشام؟.

١.٢.١ – العلاقة بين الأرثوذكس العرب والرومانيين :

دخلت المطبعة الإغريقية إلى بلاد الفلاخ في سنة ٩١٢هـ/١٥٠٧م على يد القس مكار (Macaire) في مدينة اغرا (Agres)[٤١] ، ولم تعرف بوخاريست أول ورشة للطباعة إلا في سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م حيث أصدرت أول كتاب مهم لها بعد عشر سنوات من انطلاقتها وهو الكتاب المقدس (Biblia Wallachia). أما عن أول محاولة للنشر بالحرف العربي فقد ظهرت في سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م بفضل

أمير بلاد الفلاخ قسطنطين بسرابا برنكوفيانول (١٠٩٩هـ/١٦٨٨م - ١١٢٦هـ/١٧١٤م)، ولم تكن لدى الرومانيين فائدة مباشرة من طبع كتب عربية على أرضهم، حيث لا يوجد بها سكان عرب أو يتكلمون العربية ولا علماء مستعربين بجامعتها: فحتى لغة الإدارة بها كانت التركية. إذن لماذا أصدرت هذه المنشورات العربية، ولمن وجهت؟؛ ومن أشرف على طبعها؟؛ وأين تم توزيعها؟.

أمام رفض مجمع نشر الإيمان طبع كتب كما رأينا لفائدة الطائفة الأرثوذكسية الملكية، فقد توجه أبناء هذه الطائفة في القرن ١٢هـ/١٨م، إلى إخوانهم في فلاشيا. ويندرج هذا التعاون بين الأرثوذكس العرب والرومانيين في نطاق العلاقات الدينية والثقافية القائمة بين الطرفين منذ أمد بعيد.

أ - علاقات تقليدية :

كانت الروابط الروحية بين أرثوذكس بلاد ا لشام وأوربا الشرقية متينة منذ قرون عديدة، وازدادت العلاقات متانة في عهد العثمانيين، حيث كانوا خاضعين لسلطة الباب العالي. وكان رجال الدين الملكيين يترددون على بلاد الفلاخ ومولدافيا لمناقشة مسائل دينية وأحيانًا لطلب مساعدات مالية للتغلب على المصاعب المادية لكرسي البطريركية بأنطاكية. وفي كل مرة يسافرون فيها إلى رومانيا كان البطاركة والأساقفة السوريون يهتمون بالكتب الإغريقية والرومانية ويحرصون إما على نسخها أو ترجمتها. فمثلاً تولى بطريرك أنطاكية مكار الثالث زعيم ترجمة كتاب تاريخ بايات فلاخيا[٤٢] . في حين كلف أحد مرافقيه وهو الخوري صابا يوسف بنسخ كتاب القداس[٤٣] . أما رئيس أساقفة صيدا وصور يواصف المصّور، فقد قام بالتعاون مع كريستودول غزة بترجمة كتاب ماكسيم دي بيلوبوناز وعنوانه "انشقاق البابوية" الذي نشر في بوخاريست سنة ١١٠١هـ/١٦٩٠م[٤٤] . أما اثناسيوس الثالث فقد ترجم في ١١١٦هـ/١٧٠٤م كتاب "صلاح الحاكم وفساد العالم الذميم"، وكلف فرحات جرمانوس

بمراجعته(٤٥) . إلى جانب هذه الترجمات جلب البطاركة معهم من فلاشيا ومولدافيا، مجموعة مهمة من المخطوطات وأودعوها مكتبات كنائسهم بسوريا.

ب - تطور العلاقات في القرن ١١هـ/١٧م :

تطورت العلاقات الدينية والثقافية بين الطرفين بفضل حركية بطريرك أنطاكية إثناسيوس الثالث دباس. فقد تحول عدة مرات إلى بلاد الفلاخ ومولدافيا التي كانت تتمتع بنوع من الحرية في تلك المدة نظراً للتعاون الوثيق القائم بين أمرائها والسلطة العثمانية (٤٦) . وأمكن لحكام رومانيا تنشيط الحياة الثقافية عندهم بفضل إقامة مطابع وإصدار العديد من الكتب. وقد أرسلوا إلى إخوانهم الأرثوذكس ببلاد الشام كتباً دينية باللغة اليونانية للاستفادة منها في كنائسهم. وقد وجد اثناسيوس الثالث الفرصة سانحة للتقدم بطلب إلى حاكم رومانيا لطبع كتب عربية بعد حركة التعريب الواسعة لكتب الطائفة خلال القرن ١١هـ/١٧م وندرة المخطوطات عندهم.

لم يكن للأرثوذكس الملكيين بالمشرق لا الإمكانات المالية ولا الخبرة الفنية الكافية للمبادرة بإقامة مطبعة عربية في بلاد الشام، على حد قول أثناسيوس دباس الذي تحدث فعلاً عن حالة الفقر التي يعاني منها أبناء طائفته.

٢.٢.١ - تأسيس المطبعة العربية ببوخاريست :

أ - طلب اثناسيوس الثالث:(٤٧)

شغل اثناسيوس الثالث كما رأينا منصب بطريرك كنيسة لمدتين متميزتين. تتلمذ على يدي اليسوعيين بدمشق قبل أن يعين راهباً في دير قرب بيت المقدس. ثم أصبح مبشراً في بلاط حاكم فلاشيا لمدة قصيرة، ثم عين بطريركاً على كنيسة أنطاكية للمرة الأولى، وأعلن في ذلك الوقت عن اعتناقه للكاثوليكية أمام المبشرين الفرنسيسكان في سنة ١٠٩٩هـ/١٦٨٧م، ثم تراجع بعد ذلك في سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، حيث أصبح أرثوذكسياً متصلباً بل إنه اضطهد الحزب

الكاثوليكي بحلب ولم يكن موقفه من المذهب الكاثوليكي واضحًا البتة طيلة حياته. وبعد تخلي أثناسيوس عن كرسي البطريركية فائدة منافسه كيرلس الخامس، قام بعدة رحلات خاصة إلى إستانبول وبلاد الفلاخ، ففي ١١١٢هـ/١٧٠٠م تولى في بوخارست إبرام عقد قران ابنة الحاكم قسطنطين برانكوفيانول[٤٨] . واغتنم بعد ذلك فرصة وجوده ببوخاريست ليطلب من هذا الأمير الذي كان يرعى الأدب والعلوم، طبع كتب دينية عربية.

ويشير البطريرك إلى طلبه هذا في مقدمة ثاني كتاب عربي يطبع ببوخاريست وهو الأورولوجيون، فيقول متحدثًا عن ا لأمير الروماني برانكوفان : "لما علم من حقارتنا في المحل الذي حضينا (كذا) فيه بالاجتماع مع سعادته، وإعلامنا له عن قلة الكتب الكنائسية بسبب أنها كتابة اليد (كذا) وتعذر اقتنايها، فمن زيادة ورعه وحسن ديانته في الأمور الإلهية اجتهد في عمل طبع عربي لأجل الكتب الضرورية بكلفة زايدة وإطلاق يد في المصرف"[٤٩] .

يؤكد أثناسيوس الثالث في طلبه إلى أمير بلاد الفلاخ على ندرة المخطوطات العربية وعدم قدرة الناسخين، وعددهم قليل على الاستجابة لحاجيات الكنائس السورية من النصوص العربية الجديدة بعد أن تمت ترجمة الكتب الدينية للطائفة الأرثوذكسية من السريانية واليونانية إلى العربية. إن التجاء البطريرك إلى بلاد رومانيا لطبع كتب عربية، كان نتيجة عدم قدرة أبناء طائفته على إقامة مطبعة عربية مسيحية في بلاد الشام، نظرًا لفقرهم وكذلك نتيجة رفض مجمع نشر الإيمان بروما طباعة كتب وفق مذهبهم كما سبق أن رأينا ذلك.

ويتحدث أثناسيوس الثالث عن ظروف إنشاء مطبعة عربية في فلاشيا، فيقول: إن الأمير استجاب لطلبه وأسس مطبعة عربية وأمر القس أنتيموس إيفير وهو مطبعي ماهر يعمل عنده بطبع كتب دينية باللغتين العربية والإغريقية ووفر له الأموال اللازمة لحفر الحروف العربية بكل دقة[٥٠] .

ب - المطبعي أنتيموس ايفير الكرجي :

هو كاهن من بلاد الكرج (جيورجيا) درس الأدب الإغريقي والروماني والتركي، ثم اشتغل بورشة طباعة ببوخاريست[٥١] ، وفي سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م غادر هذه المدينة مصطحبًا معه آلات الطباعة والقوالب والطوابع للأحرف ليستقر في دير سناغوفو الموجود في جزيرة تقع على بعد ثلاثين كيلو مترًا شمالي بوخاريست، وقد قام بطبع كتابين عربيين بأمر من الأمير برانكوفيانول بعد أن توصل إلى حفر حروف عربية، وكانت خشنة وغير دقيقة. ولم تكن عملية تنضيد النصوص العربية جيدة فقد ارتكب أغلاطًا كثيرة. ويعترف أنتيموس الكرجي بهذا النقص فيقول في خاتمة كتابه الثاني "أيها الأخوة المكرمين الذين تطالعون في (كذا) هذا الكتاب المبارك أسألكم وأتضرع (كذا) إليكم أنا الفقير صانع هذا الطبع أن تسامحوني عن جميع ما صدر فيه من الغلط وعدم التقويم بما أني غريب من (كذا) اللغة العربية " [٥٢] .

وجد هذا المطبعي صعوبة كبيرة في حفر الحروف العربية وفي عملية التنضيد رغم تعاونه مع البطريرك اثناسيوس الثالث، وهذا الأخير هو الذي راجع النصوص العربية. وكانت البداية دائمًا عسيرة في عملية النشر بصفة عامة. أما إذا كانت تخص الحروف العربية فهي أصعب ، مثلما حدث ذلك في روما وباريس وأكسفورد وغيرها من المدن الأوربية، نظرًا للمشاكل التقنية لحرف الطباعة العربي ولجهل المطبعيين في الغالب باللغة العربية. فهل استفاد العرب من هذه التجارب؟؛ هذا ما سنعرفه فيما بعد عند التعرف على تجارب مطابع بلاد الشام وإستانبول.

٣.٢.١ - محتوى المنشورات العربية :

لم تصدر مطبعة سناغوفو سوى كتابين مسيحيين هما القدسات الثلاثة الإلهية في سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م والأورولوجيون في سنة ١١١٤هـ/

١٧٠٢م[٥٣] ، وذلك على يد المطبعي أنتيموس وبإشراف بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث كما ذكر على صفحتي عنوان هذين الكتابين.

أ - كتابان دينيان :

- كتاب القدسات الثلاثة الإلهية مع بعض احتياجات أخرى ضرورية للصلوات الأرثوذكسية، طبع هذا الكتاب باللغتين اليونانية والعربية حتى يصل إلى أكبر عدد من الكهان ورجال الدين الأرثوذكس الذين يحذقون على الأقل إحدى اللغتين[٥٤] .

- كتاب الأورولوجيون[٥٥] طبع أيضًا باللغتين العربية واليونانية ويذكر أثناسيوس أنه يهدي الكتابين إلى حاكم بلاد الفلاخ.

طبع الكتاب الثاني حسب النص الذي راجعه عبدالكريم كرمي، ثم أعاد مراجعته أثناسيوس دباس، وقد تمت إعادة طبعه في شوير عدة مرات أي في ١٧٦٣ و١٧٨٧ و١٨٥٢ و١٨٧٩م. إن في إصدار هذا الكتاب الديني عند انطلاق مطبعة بوخاريست دلالة مهمة ، إذا علمنا أن كنيسة روما قد رفضت طبعه رغم النداءات المتكررة من بطريركي أنطاكية كرمي ومكار زعيم. فمجمع نشر الإيمان بروما اشترط مراجعة هذا الكتاب وغيره حسب النص اللاتيني قبل طبعه. وكذلك اعتناق بطريرك أنطاكية للمذهب الكاثوليكي، ولذلك حرص الأرثوذكس الملكيون على الدفاع عن مذهبهم من كل "تحريف" والحفاظ على استقلالية كنيستهم وطائفتهم من كل تدخل "أجنبي" في شؤونها فكان أن توجهوا إلى إخوانهم الأرثوذكس برومانيا لطبع كتبهم وإنقاذها من التشويه.

ب - التوزيع :

يتحدث البطريرك أثناسيوس عن وجهة هذين الكتابين فيقول: "ليوزعوها هبة على الكهنة الورعين الأرثوذكسيين قاطنين (كذا) البلاد العربية " [٥٦] . ويؤكد بذلك أنها موجهة إلى رجال الدين في الكنيسة الأرثوذكسية الملكية وليس لكل

أبناء الطائفة، خاصة وأن عدد المتعلمين من هولاء ضعيف جداً وأن الأولوية ستعطى للكنائس والأديرة لسد النقص الفادح في المخطوطات.

ومن ناحية صدى هذه المنشورات في بلاد الشام أعرب الملكيون عن موقفهم الإيجابي الذي نقله لنا أحد مؤرخي رومانيا المعاصر لتلك المدة بقوله: إن البطريرك أثناسيوس الثالث وزع المنشورات العربية لسيناغوفو في كنائس بطريركية أنطاكية، وأنها وجدت قبولاً حسنًا لدى أبناء الطائفة الأرثوذكسية الذين أعجبوا بهذه الكتب المطبوعة التي لم يروا مثلها من قبل وتوجهوا بالشكر إلى أمير بلاد الفلاخ واعترفوا بجميله عليهم[٥٧] .

إلا أن مطبعة سيناغوفو سرعان ما توقفت بعد إصدار هذين الكتابين. إن رحيل البطريرك أثناسيوس الثالث إلى قبرص، للقيام ببعض المهام الدينية، كان سبباً مباشراً في تعطل الورشة. أضف إلى ذلك صعوبة الاتصال بين بوخاريست وبلاد الشام وعدم وجود معاونين عرب للعمل مع المطبعي أنتيموس ومراقبة عملية النشر العربي وإصلاح الأخطاء.

تكمن أهمية مطبعة سيناغوفو في أنها مهدت الطريق للأرثوذكس العرب لإقامة مشاريع مماثلة ببلدهم[٥٨] . فالدعم المادي والفني من رومانيا ممكن جداً ونجاح ورواج منشوراتها لدى أبناء الطائفة واكتساب البطريرك وهو أعلى سلطة في كنيسة أنطاكية للخبرة الفنية الكافية، علاوة على تحمسه للمطبعة. كل ذلك قد أسهم في القيام بأول تجربة بسوريا تتمثل في تأسيس مطبعة عربية بحلب.

٢.١ - المطبعة العربية بحلب :

١.٢.١ - تأسيس المطبعة

أ - مؤسس المطبعة :

تتفق المصادر التاريخية على ذكر مؤسس أول مطبعة عربية بالمشرق وهو البطريرك أثناسيوس الثالث دباس، الذي ذكر في أهم مصدر أصلي، وهو

الكتاب الثاني الذي طبع في حلب الإنجيل سنة ١١١٨هـ/١٧٠٦م، متحدثًا عن دوره في طباعة هذا الكتاب: "فشرعت حينئذٍ بطبعه بعد أن حررته على اللغة اليونانية بوضعه جملة فجملة وأصلحت إعرابه لفظة فلفظة" (٥٩) . يتبين من هذه الفقرة أن بطريرك أنطاكية أشرف على طبع الكتاب، وأنه سخر كل خبرته التي اكتسبها في سيناغوفو ببوخاريست لدفع مطبعة حلب الجديدة. ونجد ذكراً للشخص نفسه في مقدمة آخر كتاب تصدره المطبعة: "إن كيركير أثناسيوس البطريرك الأنطاكي الأفخم والهمام النبيل المعظم لما باشر مشارفة طبع هذا الكتاب الجلي المعاني الواضح المباني..." (٦٠) .

ويدل هذا على أن البطريرك أثناسيوس الثالث هو الذي أشرف على عملية طبع كل الكتب التي نشرت في حلب أي من ١١١٨هـ/١٧٠٦م إلى ١١٢٣هـ/١٧١١م سنة توقفها، أي أنه واكب كل مراحل حياة المطبعة التي لم تعمر طويلاً، والأهم من ذلك أنه هو صاحب المشروع من أوله، فهو الذي قام بالمبادرة منذ أن تحول إلى بوخاريست لاستصدار كتب عربية هناك. وما مطبعة سيناغوفو إلا مرحلة أولى من مشروعه الرامي إلى إقامة مطبعة عربية مسيحية في بلاد الشام فلم يبق مكتوف الأيدي بعد توقف مطبعة بوخاريست العربية في سنة ١١١٤هـ/١٧٠٢م عن العمل، إذ سعى منذ عودته إلى حلب بعد سنتين من ذلك إلى تأسيس مطبعة، وتمكن من الحصول على مساعدة مادية مهمة من حاكم بلاد الفلاخ لتنفيذ مشروعه. ورغم أننا لا نملك - حسب معلوماتنا الحالية - تفاصيل دقيقة حول هذه المساعدة المادية، فهل تتمثل في أموال أو تجهيزات أو غيرها؟، إلا أنه من المؤكد أن هذه الإعانة مهمة جداً، الأمر الذي دفع أثناسيوس الثالث إلى إهداء أول كتاب تصدره مطبعة حلب إلى الأمير الروماني قسطنطين بسرابا برانكوفيانول، وقد قال البطريرك في نص الإهداء: "فرح عظيم شمل المسيحيين لما ظهر قسطنطين العظيم... حين كانت المؤمنون قبله مضنوكين (كذا) من الاضطهادات اليونانية، ثم أصبحوا بغتة ظافرين مؤيدين.

أكثر منه يشمل اليوم الفرح الكلي بل الأكمل كافة المؤمنين حين ظهرت ياأيها الهمام النبيل حاملاً يديك تلك الغيرة الروحانية الواصلة منك نحو المؤمنين المقيمين في البلاد العربية " (٦١) .

إن الدعم الذي قدمه أمير بلاد الفاخ لتأسيس المطبعة، لا ينبغي أن يطمس دور البطريرك أثناسيوس الثالث دباس في هذا المشروع، ويمكن عدّه مؤسس مطبعة حلب ومديرها. وأن الخبرة الفنية التي اكتسبها في مطبعة بوخاريست أهلته للقيام بدور المطبعي في حلب، ولم تكن المؤهلات الفكرية والأدبية لتنقصه. فهو من رجال الأدب البارزين في الطائفة إذ قام بتأليف جملة من الكتب والرسائل وبترجمة نصوص دينية من اليونانية إلى العربية، علاوة على مراجعة وتصحيح مخطوطات أخرى كان قد ترجمها سابقوه وساعده في ذلك حذقه للغتين العربية واليونانية. فمثلاً ألف "رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة" وقام بطبعها في حلب سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م، كما ترجم "كتاب الدر المنتخب" من اليونانية إلى العربية وطبعه سنة ١١١٩هـ/١٧٠٧م. وتولى مراجعة كتاب الإنجيل والباركليتي قبل طبعهما (٦٢) .

ب - تمويل المطبعة :

إلى جانب الأموال التي أرسلها أمير بلاد الفلاخ قسطنطين برانكوفان لمساعدة البطريرك على تنفيذ مشروعه، التجأ أثناسيوس الثالث أيضاً إلى الأغنياء الأرثوذكس الملكيين وإلى بعض المؤسسات الخيرية للحصول على المال، وإذا استخدمت مساعدات أمير رومانيا لتمويل المطبعة عند انطلاقتها، فإن المساعدات الأخرى مكنت من استمرار العمل بها حتى توقفها في سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م. وهناك وثائق أصلية تتحدث عن إعانات أبناء الطائفة مثل مقدمة آخر كتاب يطبع في حلب حيث توجه البطريرك بالشكر إلى كل من أسهم في تمويل الطبعة: "فلم نشح بموازرة الباري تعالى بالمساعدة للمسيحيين على حسب الإمكان من مصروف القبر الكلي القداسة، بل من صدقات المسيحيين

ولذلك بذلنا المجهود في طبع هذه المواعظ... من أجل خلاص أنفس وأجساد المسيحيين الأرثوذكسيين الذين بواسطة صدقاتهم، أمكنا أن نطبع هذا الكتاب [٦٣].

أسهم الأغنياء إذن من أبناء الطائفة الأرثوذكسية الملكية إلى جانب البطاركة في تمويل المطبعة. وقد ذكرت أسماء أبرز المحسنين الذين صرفوا الأموال اللازمة لطبع أحد الكتب مثل جان مازيا (Jean Mazeppa) قائد جيش الإنكشارية في بلاد الفلاخ الذي مَوّل طبعة الإنجيل في سنة١١١٩هـ/١٧٠٨م، وخريسطوس (Chrysanthe) بطريرك بيت المقدس الذي موّل طبعة كتاب المواعظ الشريف سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م، وكذلك كيرلس الخامس منافس أثناسيوس الثالث الذي موّل كتاب الباركليتي أي المعزي سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م. وقد ذكرت هذه الأسماء في مقدمة الكتب المطبوعة نفسها. أما عن مقر المطبعة فهو أبرشيه الأرثوذكس اليونانية الموجودة حاليًا بحي الجديدة بحلب[٦٤].

٢.٣.١ - المشاكل الفنية للنشر العربي :

أ - مصدر آلات الطباعة :

إذا لم يكن هناك شك حول اسم مؤسس المطبعة، فإن الاختلاف حصل بين المؤرخين حول مصدر آلات وحروف الطباعة. فشنورر [٦٥] يرى أن الحروف التي استعملت بحلب هي الحروف نفسها التي استخدمت في سيناغوفو، وبالتالي فهي قادمة من بلاد الفلاخ وذهب بعض المؤرخين المعاصرين إلى الرأي نفسه[٦٦]. بل أضافوا أيضًا أن آلات الطباعة هي كذلك قادمة من سيناغوفو، ورأوا أنه في وجود ختم أمير بلاد الفلاخ على أول صفحة لكتاب المزامير الصادر بحلب مثلما هو الحال للكتابين الذين صدرا بسيناغوفو، وهذا دليل كافٍ على أن آلات وحروف الطباعة مصدرها بوخاريست. وقد عارض المستشرق

الفرنسي دي ساسي هذا الرأي. فبعد أن قارن حجم وشكل حروف مطبعة سيناغوفو مع حروف حلب، لاحظ أن هناك فارقًا واضحًا بين كلتا الكتابتين[٦٧].

ومن الواضح بعد مقارنة دقيقة بين الخط العربي في كلتا الطبعتين فإن الفارق بينهما مهم مما لا يدعو للشك إلى أنهما من مصدرين مختلفين فحروف مطبعة سيناغوفو خشنة، بينما حروف حلب دقيقة، وهذا مما يؤكد أنه حصل في هذه الأثناء تطور فني. وإذا ما أخطأ شنورر في حكمه فذلك يعود أساساً إلى عدم تمكنه من القيام بمثل هذه المقارنة بسبب عدم حصوله على نسخ من كتب بوخاريست وحلب نظراً لندرتها.

إلا أن هذا التأكيد لا يمنع من احتمال لجوء اثناسيوس إلى أخذ حروف عربية من سيناغوفو لتكون نموذجًا للحفارين بحلب، عند إعداد قوالب وطوابع للحروف العربية، خاصة وأن الأرثوذكس الملكيين بسوريا ليست لديهم خبرة فنية في الميدان. وقد يكون البطريرك وجد بعض صناع المعادن الماهرين لحفر الحروف تحت إشرافه وهو الذي تعلم هذا الفن في بلاد الفلاخ. ولا يمكن له أن يستدعي انتيموس ايفير الكرجي من سيناغوفو كما ذهب إليه الأب شيخو[٦٨] . أولاً لأن هذا المطبعي غادر ورشته في ١١١٧هـ/١٧٠٥م، لتقلد كرسي الأساقفة في ريمنيك[٦٩] . ثانيًا لأن حروف حلب أكثر جودة من بوخاريست ويستبعد من انتيموس، أن يقدم عملاً أحسن من قبل. هذا إذا أضفنا أن العرب قادرون على القيام بهذا العمل بدقة. ويكفي التذكير بأن سافاري دي براف قد أمر بإعداد الحروف العربية بإستانبول في بداية القرن ١٧م، والتي استعملها فيما بعد، في مطبعته بروما وباريس.

بقي أن نشير إلى أن مصدراً آخر يشير إلى أن الشماس عبدالله الزاخر هو الذي أعد الأحرف العربية، وهذا ما ذكره أحد تلاميذ هذا العالم الأرثوذكسي الملكي ويدعى يواكيم مطران ١١٠٨هـ/١٦٩٦م – ١١٨٠هـ / ١٧٦٦م)، الذي قال في ترجمة أستاذه عبدالله الزاخر إنه : "اصطنع مطبعة في حلب بمساعدة

أخيه وعملا اباتها واماتها (كذا) وأحرفها وجميع آلاتها وطبعا جملة كتب بدون أن يشاهدوا المطابع وبغير أن يرشدهما أحد إلى هذا العمل " [٧٠] .

ولئن كان الأب نصر الله يرى أن هذه الترجمة حقيقية وأنه يصعب ردّها، إلا أننا نلاحظ أنها رواية جد مبالغ فيها. فكاتبها هو تلميذ أراد تمجيد أعمال أستاذه ويمكن أن تنطبق هذه الشهادة فعلاً على مطبعة الشوير. أما على مطبعة حلب ، فهذا أمر جد مستبعد خاصة وأن المصادر الأولية تؤكد أن اثناسيوس الثالث هو مؤسس ومدير المطبعة. أضف إلى ذلك أنه لا يمكن لعبدالله الزاخر أن يقوم بمثل هذا المشروع، دون أي دعم مادي من أي طرف بل دون أن تكون له فكرة عن فن الطباعة. إلا أنه من المحتمل أن يكون عبدالله الزاخر قد أسهم مع البطريريك وفنيين آخرين في إعداد الأحرف وهذا أمر وارد جداً، أولاً لأن أثناسيوس الثالث يقول إنه عمل مع مجموعة من الأشخاص حيث " أنه (الله) وفقنا إلى عمل طبع الحرف العربي" [٧١] ثانيًا لأنه تعاون تعاونًا وثيقًا مع عبدالله الزاخر حتى سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م وهو العالم المسيحي الكبير - كما سنرى فيما بعد - والفنان البارع في مجال النقش والحفر على الخشب والمعادن[٧٢] .

وقد أخذت الأحرف العربية ثلاثة أحجام منقوشة على الخشب. الحجم الأول كان خشنًا واستعمل في طبع كتاب المزامير والإنجيل وكتاب النبوات والرسائل. أما الحجمان الآخران فيشبهان الخط النسخي وطبع بهما كتاب المواعظ والباركليتي والتوبة[٧٣] .

أما عن نوعية الكتابة العربية فقد نقل الحافرون الحروف الجميلة للكتاب النسخي التي رسمها ناسخ مسيحي من عائلة لبّاد بحماه[٧٤] . وفي خصوص آلات الطباعة التي يصعب صنعها في بلاد الشام في تلك المدة، فيمكن أن تكون قد استقدمت من الخارج وعلى الأرجح من بوخاريست، وهو ما يمكن أن يفسر طبيعة المساعدة المادية التي قدمها حاكم بلاد الفلاخ للملكيين[٧٥] .

ب - مشكلة إعداد أحرف الطباعة العربية :

واجه المطبعيون بحلب الصعوبات الفنية نفسها التي اعترضت سبيل زملائهم في أوربا في القرنين ١٠ ،١١هـ/١٦ و١٧م. فهؤلاء فشلوا في البداية حين عملوا على تطبيق مبدأ الفصل بين الحروف العربية في كتابة الكلمات والجمل مثلما هو الحال في الهجائية اللاتينية، إذ طبعوا نصوصاً عربية غير واضحة، وهذا ما حدث لجيستنيانوس الذي طبع كتاب المزامير في جنوة سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، والمستشرق بوستال الذي طبع كتاب النحو العربي بباريس سنة ٩٤٩هـ/١٥٤٣م وغيرهما، إذ لم يستخدما الأشرطة الرابطة بين الأحرف وسرعان ما انصرف الأوربيون عن هذه الطريقة ، وسعوا إلى تطويع المطبعة للكتابة العربية المخطوطة عوضاً عن تطويع هذه الكتابة للمطبعة[٧٦] الأمر الذي تسبّب في مشاكل فنية عدة[٧٧] .

١ - إن الحرف العربي يأخذ عدة أشكال حسب موقعه في الكلمة أي إذا كان في بداية الكلمة أو وسطها أو في آخرها، فمثلاً حرف الباء يأخذ الأشكال الآتية أولاً "بـ" ثانياً "ـبـ" ثالثاً "ب" ورابعاً "ـب" وهذا يستدعى إعداد قوالب عديدة لكل شكل من أشكال الحرف الواحد الأمر الذي لا تتطلبه الهجائية اللاتينية حيث يأخذ كل حرف شكلاً واحداً، أضف إلى هذا قوالب العلامات والحركات على كل حرف مما يستدعي مجهوداً إضافياً كبيراً[٧٨].

٢ - تطبيقاً لمبدأ الطبع وفق كتابة المخطوطات العربية أي عدم الفصل بين أحرف الكلمة الواحدة وجب إعداد الأشرطة الرابطة.

٣ - في الكتابة العربية هناك أحرف ترتفع إلى أعلى السطر مثل أ، ط، ظ، ك؛ وأخرى تنزل إلى أسفل السطر مثل ع، س، ق؛ وغيرها وهذا يتطلب مساحة أكبر في النص العربي.

أما عن نتائج هذا الوضع فتتلخص فيما يلي :

١ - يضيع العمال وقتًا طويلاً للبحث عن الحروف العربية في صندوق الأحرف ولوضع الحركات والعلامات عليها بما أن عددها مرتفع جداً بالمقارنة مع الأحرف اللاتينية وهذا ما لاحظه الرحالة الفرنسي فولني الذي زار مطبعة الشوير سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، حيث ذكر " أنه ينبغي سبك عديد من الأحرف المضاعفة وهذا ينتج عنه مضاعفة عدد صناديق الأحرف التي تصبح في غير متناول يد المطبعي المصفف الذي يضطر إلى التنقل أمام منضدة يبلغ طولها ١٨ قدماً والبحث عن الأحرف في قرابة ٨٠٠ عين للأحرف، وينتج عن ذلك خسارة وقت كبير تجعل المطابع العربية غير قادرة على مضاهاة مطابعنا " (٧٩) .

٢ - يصعب استخدام أحجام صغيرة للحروف وتضييق المسافة بين الأسطر نظراً لطبيعة الكتابة العربية وهذا لا يسمح بتوفير مساحة للنص العربي كما هو الحال بالنسبة للنص اللاتيني مما يؤدي إلى خسارة كبيرة في الورق. وإذا أضفنا إلى كل هذا أن المطبعيين بحلب يواجهون هذه المشاكل بالجملة لأول مرة في تاريخ المشرق، ومطالبون بإيجاد حلول لها علمنا صعوبة المهمة التي تعهدوا بها، خاصة وأنهم لم يستفيدوا من تجارب أوربا الغربية التي سبقتهم في هذا المجال بحكم خلافاتهم مع كنيسة روما. بالإضافة إلى هذا المشكل الفني اعترضت أثناسيوس الثالث مشكلة مادية انعكست على عملية إعداد الأحرف تمثلت في عجزه عن شراء المعدن الخاص بالقوالب والطوابع فاضطر العمال إلى نقش الأحرف على الخشب مستعملين في ذلك أدوات النجارة البسيطة مثل الإزميل والمطرقة. ذلك لأن سبك الحروف على المعادن يتطلب أدوات متطورة ودقيقة.

جـ - صعوبة النشر العربي في حلب :

يقوم المطبعي في القرن ١٢هـ/ ١٨م بدور " الناشر العلمي" علاوة على دوره التقني المهني الأصلي ذلك لأنه مطالب بتتبع كل "مراحل النشر" من اختيار المخطوط ومراجعته ثم تنضيده وإصلاح التجارب إلى حدّ السحب، وفي كل

مرحلة تعترضه صعوبات جمة خاصة عند مراجعة المخطوط وبالذات المخطوطات القديمة التي تداول الوراقون عبر العصور على نسخها، إذ كان لابد من القيام بعملية "تحقيق" للتثبت من مطابقة النسخة للنص الأصلي قبل الشروع في عملية الطبع وفي جل الأحيان تتسرب الأخطاء في النسخ نتيجة إهمال الناسخين وتتراكم حتى تبتعد النسخة عن النص الأصلي وهذه الأخطاء تتنوع وتبدأ من أخطاء الرسم إلى أخطاء النحو فالجمل الناقصة فالألفاظ المتحولة عن موضعها الأصلي فالألفاظ المستبدلة بألفاظ أخرى وغيرها ، حتى يصير النص بمرور الزمن مشوهًا ومحرفًا.

وقد تولى مهمة الناشر بحلب البطريرك أثناسيوس الثالث إذ تعهد باختيار ومراجعة المخطوطات قبل طبعها. وحرص في كل طبعة على طمأنة القارئ على صحة النص المطبوع ومطابقته للنص الأصلي. وكان يعدد الأعمال التي قام بها للوصول إلى نص خالٍ من الأخطاء، ففي كتاب المواعظ ذكر أثناسيوس أنه عند طبع هذا الكتاب "رأى أنه مع تمادي الأيام وتخالف عقول الناسخين وعدم معرفتهم بمعاني الكتب وقوانين اللغة العربية قد وهى تركيبه وتقوضت مبانيه ، وأزيد ما لا احتياج إليه ونقص ما تدعو الضرورة إليه ، فتلافاه حينئذٍ بحسب الإمكان وحذف منه مازاد عن الواجب من الإعادات المملة وأثبت ما وجب إثباته لنيل الإفادة فحصل مصحفًا عري (كذا) من التحريف مفيداً بوضوحه لمن قصر فهمه عن مطالعة الأسفار العميقة" (٧٩) . ولم يكن البطريرك وحيداً في عمله، إذ أسهم معه بعض العلماء الآخرين من أمثال منافسه كيريل الخامس بطريرك أنطاكية وفرحات جرمانوس(٨١) . وأيضًا كريسانت نوتاراس بطريرك بيت المقدس(٨٢) .

اختار أثناسيوس الثالث للطبع الكتب المقدسة المسيحية وكتب الأخلاق والزهد، وهي إما كتب ترجمت إلى العربية عن اليونانية أو تم تأليفها في ذلك العصر أو تم تجميعها من نصوص عدة. ومن جملة الكتب المقدسة يوجد الزبور

والإنجيل وكتاب النبوات، أما عن كتب الزهد فتتضمن المواعظ وجل هذه الكتب قديمة وقد حرفت وشوهت بمرور الزمن. ويؤكد أثناسيوس أنه راجع مع زملائه كل الكتب التي طبعت بحلب وأنه قام بإصلاح كل الأخطاء الموجودة بالنسخة العربية. وكان في كل مرة يطمئن القارئ إلى دقة النص المطبوع ووفائه لروح أفكار المؤلف وأنه في بعض الأحيان اضطر إلى تغيير بعض الجمل التي كتبها المؤلف ويمكن أن يعزو ذلك إلى عدم حذق العلماء المسيحيين سواء مترجمين أو مؤلفين للغة العربية الفصحى، التي كما رأينا عوّضت السريانية والإغريقية في كتبهم الدينية[٧٩] . لهذا فعلى القارئ ألا يعول إلا على الكتاب المطبوع وإهمال المخطوط منه وهذا ما توجه به إلى القارئ في أحد كتبه إذ قال : " إياك ياهذا أن تعتقده محرفًا إذا ما رأيته لأصله مخالفًا، بل اتخذه عين الصواب إن كنت منصفًا واعلم أن كل كتاب يوجد منه منسوخًا غير مطبوع، فهو من الغلط موسوع (كذا) وأما ما وجد منه طبعًا (كذا) فإنه محكم الإنشا وضعا فلا يجب الاعتماد إلا عليه ولا يحسن الميل إلا إليه " [٨٤] .

٤.١ - إسهام النشر العربي بحلب في تنشيط الحياة الدينية والثقافية عند المسيحيين في بلاد الشام :

نشرت المطبعة ثمانية كتب من بينها طبعتان معادتان، وذلك من سنة ١١١٨هـ/١٧٠٦م إلى سنة توقفها في ١١٢٣هـ/١٧١١م، وهي كلها كتب دينية[٨٥] ، ولنا أن نتساء ل ما هو سبب اختيار أصحاب المطبعة لهذه الكتب؟؛ وما مشاغلهم واهتماماتهم الرئيسة وهم ينشرون كتبًا عربية لأول مرة في المشرق؟ هل يمكن التعرف على المفهوم الذي حملوه عن دور المطبعة في حياة طائفتهم؟ وما صدى هذه الكتب في بلاد الشام؟؛ وما مدى إسهامها في تنشيط الحياة الدينية والثقافية والعلمية لدى الطائفة الأرثوذكسية ولدى بقية الطوائف[٨٦]

١.٤.١ - محتوى الكتب المطبوعة :

طبعت هذه الكتب الدينية بغرض استخدامها في كنائس الطائفة

الأرثوذكسية الملكية. وقد اختيرت بالنسبة للكتب المقدسة الترجمات العربية المعتمدة عندهم والتي أعدها عبدالله بن الفضل الأنطاكي منذ القرن ٢ هـ/٨م، وتولى مراجعتها أثناسيوس الثالث أما كتب الأخلاق والزهد فقد اختيرت من بين المؤلفات الإغريقية القديمة وترجمت إلى العربية من طرف البطريرك، فكتاب المواعظ للقديس يوحنا المطبوع في ١١٢٣هـ/١٧١١م هو جملة من المواعظ وعددها أربع وثلاثون، تولى جمعها وترجمتها إلى العربية أثناسيوس الثالث؛ كما أن "رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة" المطبوعة أيضاً في ١١٢٣هـ/١٧١١م وهي منتخبات من كتب إغريقية جمعها وترجمها كذلك البطريرك نفسه، وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب "المواعظ الشريف" للأب أثناسيوس بطريرك بيت المقدس الذي ألفه في القرن ٩هـ/١٥م وطبع في ١١٢٣هـ/١٧١١م، وهذه الكتب كانت مهملة ولا يعرفها إلا القليل حتى من رجال الدين. لذلك بادرت المطبعة بنشر ترجمتها العربية أولاً للتعريف بها لدى الأرثوذكس، ثم لتسهيل قراء تها لأنها باللغة العربية التي أصبح يتكلمها كل أبناء الطائفة. وثانياً لتقدير مجهود العلماء منهم الذين بذلوا جهداً كبيراً منذ القرن ١١هـ/١٧م لمراجعة المخطوطات وترجمة بعض الكتب مثل عبدالكريم كرمي ومكار الثالث زعيم وأثناسيوس الثالث دباس وغيرهم، وهذا في وقت ندرت فيه المخطوطات وارتفع ثمنها رغم أنها مليئة بالأخطاء. ولكن كيف يبرر هؤلاء اختيارهم لهذه الكتب دون غيرها؟. ذكرت أسباب ذلك في مقدمات بعض الكتب، إلا أنها اقتصرت على إشارات غامضة. فمثلاً في كتاب الإنجيل ذكر في المقدمة أنه طبع "قصداً بذلك أن تستفيد من تعاليمه الساطعة". كما وردت إشارة أخرى في مقدمة كتاب المواعظ عن الدوافع التي كانت وراء طبعه "لما تأملناه من النفع العام الذي نرجوه أن يحصل من هذا المصحف السمي".

لم يفسر أصحاب المطبعة الألفاظ التي أوردوها مثل "النفع العام" إلا أنه من

الواضح أن المسألة تتعلق بالفوائد الدينية التي تعود على الملكيين عند استعمالهم لهذه الكتب من فهم بعض التعاليم المسيحية والاتعاظ بأفعال السابقين وغير ذلك.

يقول أيضاً كريسانت نوثاراس بطريرك بيت المقدس (١١١٩هـ/١٧٠٧م - ١١٤٤هـ/١٧٣١م)، الذي موّل وأشرف على عملية نشر آخر كتاب بحلب وعنوانه "مواعظ أثناسيوس" [٨٧] ، متحدثاً عن فائدة الكتاب :

" وجدنا هذا الكتاب الرفيع المحل المشتمل على أقوال خلاصية نافعة للنفس تتلا (كذا) على مدار السنة في الحدود والأعياد، وهو منتمي لأثناسيوس بطريرك أورشليم... لكننا عرفنا يقيناً من المطلعين على هذه اللغة ضرورية هذا السفر الشريف ونفعه وخاصة من بطركي مدينة الله العظمى (أنطاكية) الجيلين الكليين لطوبا أي كيركيرلس المتقلد البطريكية يرحمه الله تعالى وكيراتاناسيوس البطريرك السابق الفايق الغبطة أخوينا الحبيبين... بما انهما متعمقان في فقه اللغة العربية" [٨٨] . يرى بطريركي أنطاكية وبيت المقدس، أنه ينبغي أن تستأثر المواضيع الدينية بنصيب الأسد في منشورات حلب لذلك توجهت مطبعة حلب توجهاً دينياً بعدِّها تعمل تحت إشراف رجال الدين الذين يريدون تسخيرها لخدمة المذهب الأرثوذكسي الملكي أما عن إهمالهم للمواضيع العلمية والأدبية في هذه المنشورات فيمكن أن تعزى إلى أن المخطوطات التي تتناول هذه المواضيع متوافرة بالسوق على عكس المخطوطات الدينية المسيحية التي هي نادرة. لذلك حرصت كنيسة أنطاكية على توفير الكتب الدينية بأعداد كبيرة حتى يجتمع كل أبناء الطائفة حول نصوص دينية موحدة، خالية من الأخطاء ومترجمة إلى العربية حسب الأصل اليوناني. كذلك لم يهمل أثناسيوس الثالث ورفاقه الفائدة الثقافية من هذه المنشورات. فالنصوص مزدوجة اللغة (عربية ويونانية)، مما يمكن القراء من تعلم العربية الفصحى بالاستعانة بالنص اليوناني الموجود مقابل كل صفحة عربية، والتدرب على مطالعة كتب عربية في أسلوب متوسط لا غير ، وبنية نحوية متماسكة نوعاً ما.

إن هذا الأمر جديد بالنسبة للمتعلمين الأرثوذكس الملكيين بسوريا وعددهم في الحقيقة قليل. وأقل منه عدد أولئك الذين تعلموا العربية الفصحى، إن بعض الكتب المطبوعة كانت في الوقت نفسه، عبارة عن كتب مدرسية للأطفال والكهول. فمثلاً يعدّ كتاب الزبور، علاوة على قيمته الدينية، بمثابة كتاب لتعليم العربية للأطفال وهذا هو سبب إعادة طبعه مرة أخرى في حلب، لتوزيعه على أكبر عدد من الأرثوذكس، وهو في حجم صغير ليسهل مسكه واستعماله، إذن كان لمنشورات حلب دور ثقافي وتربوي إلى جانب دورها الديني. ولنا أن نتساءل الآن هل فكر أصحاب مطبعة حلب في مواجهة الكتب الكاثوليكية القادمة من روما مثلما ذهب إليه كميل أبو صوان(٨٩) .

من خلال محتوى هذه الكتب يتبين أنها لا تضم كتبًا جدلية ضد الكاثوليكية أو لتعليم المذهب الأرثوذكسي، إذا استثنينا الكتاب الأخير وهو "المواعظ" حيث تضمن تقديم الكتاب هجومًا ضد أعداء الأرثوذكسية من "ذوي الهرطقات الذين يريدون بث أفكار هدامة " (٩٠) . دون تحديد هوية هؤلاء "المارقين عن الدين" هل هم الكاثوليكيون أم البروتستانت أم غيرهم؟. إن كاتب هذا التقديم هو خريستطوس نوتاراس وهو بطريرك بيت المقدس سنة (١١١٩هـ/١٧٠٧م – ١١٤٤هـ/١٧٣١م)، الذي عرف بدفاعه عن الأرثوذكسية ضد الكاثوليكية متابعًا في ذلك منهج عمه دوسيتوس Dosithee ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م – ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م)، الذي تهجم على الكاثوليكية وفنّدها في كتبه(٩١) . وإذا استثنينا هذه الإشارة في تقديم الكتاب ، فإنه لا توجد كتب أخرى مطبوعة بحلب تهاجم المذهب الكاثوليكي أو أعضاء الطائفة الملكية الذين انضموا إلى الحزب الكاثوليكي أو تجيب عن الكتب الجدلية العربية التي طبعها مجمع نشر الإيمان بروما إذ أن أكبر مشاغل أثناسيوس الثالث وزملائه هو توفير كتب الأناشيد والطقوس الدينية التي تحتاج إليها كنائسهم أشد الحاجة. وهذه النصوص قادرة على جمع شتات كل أعضاء الطائفة حول أناشيد واحدة ورواية واحدة

للإنجيل، بعد ما اختلفوا حول تراجم الكتب المقدسة العديدة، واختلفوا حتى عند قراءة المخطوطات نظرًا للتحريف والتشويه الذي أصابها، وهذا ما أمكن تفاديه عن طريق البطريرك أثناسيوس دباس وأصحابه الذين سعوا إلى إصدار كتب مترجمة من اليونانية إلى العربية بعد مراجعة وتفحص دقيق للمحتوى والشكل، ويرون كذلك أن هذه المنشورات مدعوة لتعويض المخطوطات تدريجيًا. وهذا ما يفسر النداء الذي توجهوا به إلى القارئ في آخر كتاب أصدروه بألا يعتمدوا إلا على هذا الكتاب المطبوع، وألا يلتفتوا إلى النسخ المخطوطة منه(٩٢). إن المخطوط هو مصدر الأخطاء والمشاكل التي تقسم أبناء الطائفة، لذلك وجب إقصاؤه واستعمال الكتاب المطبوع فقط.

إن هدف المطبعة هو إفادة كل أبناء الطائفة بما فيهم "المنشقين" الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي، ولهذا لم تسع إلى إصدار كتب جدلية باستثناء تلك الإشارة التي وردت في آخر كتاب لها. لقد حرص أثناسيوس الثالث مؤسس المطبعة ومديرها مع مساعديه على طبع أكبر عدد ممكن من الكتب الدينية الضرورية لكنائس الطائفة، ولكن الأمر تغير فيما بعد حوالي سنة ١١٣٣هـ /١٧٢٠م حيث أعلن البطريرك الحرب على عبدالله الزاخر الذي اعتنق المذهب الكاثوليكي وكان لهذه الحادثة تأثير على تاريخ الطباعة العربية إذ كانت من بين أسباب تأسيس مطبعة الشوير.

٢.٤.١ - التوزيع :

قرر أثناسيوس الثالث توزيع منشورات حلب مجانًا على رجال الكنيسة الملكية الأرثوذكسية وذلك لتشجيع القراءة، خاصة وأن هذه الكتب قد طبعت بفضل المساعدات التي قدمها أمير رومانيا وأغنياء الطائفة. ولم يكن الغرض إذن الحصول على أرباح أو تغطية المصاريف من خلال بيعها. وقد تحدث خريستطوس عن وجهة هذه المنشورات فقال: "لكي يفرقوا مجانًا في كنائس

العرب الأرثوذكسيين لكي يقروهم (كذا) في محل اجتماعهم. ولذلك نلتمس من كافة الذين يحصلون عليهم بل ننصحهم نصيحة أباوية أن لا يجتهدوا في تحصيل هذا الكتاب فقط، بل وأن يستمروا على قراء ته (كذا) مواضبين على ما يأمرهم به من التعليم الخلاصي المفيد لا سيما الكهنة والمتقدمين في الكنائس، فإياهم أن يتهاملوا به (كذا) كدين واجب عليهم يقروه في وقت اجتماع المؤمنين بمسمع الكافة جلياً ويحتوهم (كذا) على سماعه والعمل بموجبه " (٩٣) .

وجهت هذه المطبوعات إذن بالدرجة الأولى إلى رجال الدين الأرثوذكس، وهم يحسنون القراءة والكتابة وقادرون بالتالي على قراء ة هذه الكتب على أسماع الأرثوذكس الأميين. ونظراً إلى أن عدد المتعلمين يكاد ينحصر في الكهان والأساقفة، فإن الكتاب يبقى في الكنيسة للقراءة الجماعية(٩٤) . ويدعو خريستطوس رجال الدين إلى الإكثار من قراء ة فقرات من الكتب الصادرة بحلب أثناء الصلوات بالكنيسة والأعياد حتى يطلع المؤمنون على النصوص العربية الجديدة المترجمة عن اليونانية ويسهل عليهم حفظ الأناشيد وفقرات من الكتب المقدسة وذلك باللغة المتداولة عندهم عوضاً عن اللغات المقدسة التي لم تعد مستعملة في حياتهم اليومية.

يمكن أن نفسر سبب حرص أصحاب حلب على إيداع كتبهم في الكنائس والأديرة فقط دون تشجيع الأرثوذكس على تداولها خاصة في الأماكن العمومية بحذرها الشديد من أن تتسبّب في استفزار "المسلمين" الذين لا يقبلون بسهولة الكتب العربية المطبوعة، علاوة على أنها مسيحية، هذا بالنسبة لعامة المسلمين. أما عن السلطات العثمانية فإن الوثائق لا تشير إلى أنها كانت مطلعة على مطبعة حلب، إلا أنه يبدو وأن الباب العالي كان بصدد الإعداد لقرار يسمح بإدخال أول مطبعة إسلامية بإستانبول، وربما كان هذا العامل مشجعاً للبطريرك أثناسيوس الثالث ولأمير بلاد الفلاخ قسطنطين برنكوفيانول لإقامة مطبعتين على

الأراضي العثمانية ونشر وتوزيع كتب عربية في ثلاث بطريركات أرثوذكسية هي أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية.

٣.٤.١ - توقف المطبعة :

أصدرت مطبعة حلب آخر كتاب لها في سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م، ثم توقفت ولا ندري إن كان هذا التوقف وقتيًا أم نهائيًا. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الورشة انطلقت من جديد في ١١٣٤هـ/١٧٢١م لتطبع كتابين الأول "**صخرة الشك** في ١١٣٤هـ/١٧٢١م، والثاني **القنداق** في ١١٣٨هـ/١٧٢٥م" ولا يزال الكتاب الأول محفوظًا في المكتبات الكبرى في العالم وهو كتاب جدلي كتبه أحد الأرثوذكس اليونانيين ويدعى إلياس منياتاس (١٠٨٠هـ/١٦٦٩م - ١١٢٦هـ/ ١٧١٤م)، وترجمه أثناسيوس الثالث إلى العربية، إلا أنه حصل اختلاف حول المطبعة التي نشرت الكتاب فشنورر ونصر الله يعتقدان أن الترجمة العربية صدرت في لندن وليس في حلب(٩٥) . أما لوفانك فيرى أن هناك طبعتين واحدة بحلب وأخرى بلندن(٩٦) . جاء في آخر كتاب صخرة الشك: "تم ذلك وبرز باللغة العربية في مدينة حلب المحمية بهمة الأب المكرّم أثناسيوس البطريرك الأنطاكي في سنة ١٧٢١". نفهم من هذا أن الترجمة أعدت بحلب وليست الطبعة. فقد اعتاد صاحب مطبعة حلب على استعمال هذه العبارة على صفحات منشوراته: "قد طبع حديثًا بمحروسة حلب المحمية" وإنه ليس من باب الإهمال أن يغفل البطريرك عن ذكر هذه العبارة التقليدية. فهل تم فعلاً طبع الكتاب بلندن، وفي هذه الحالة نتساءل: كيف نفسر اتصال أثناسيوس بالبروتستانت لطبع كتب بإنجلترا؟؛ إن عنصر الاتصال هنا كان أحد التلاميذ الذي أرسله أثناسيوس الثالث نفسه للدراسة في أوربا ويدعى سليمان الأسود (توفي في ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م) الذي عرف باسمه اللاتيني (Salomon Negri) (٩٧) . وكان قد استقر في باريس ثم في هال وأخيرًا في لندن، حيث كلفته مؤسسة إنجليزية متخصصة في نشر الكتب المقدسة بمراجعة الكتب التي طبعها أثناسيوس الثالث بحلب

بغرض إعادة طبعها، وقام بإصدار ثلاثة كتب في لندن: **المزامير** في ١١٣٨هـ/١٧٢٥م، **والإنجيل** في ١١٤٠هـ/١٧٢٧م، وكذلك كتاب صخرة الشك الذي ترجمه بطريرك أنطاكية. وهذا ما تؤكده شهادة أصلية لفرحات جرمانوس الذي كان معاصراً لأثناسيوس دباس، حيث قال "ونقل أيضاً أثناسيوس المذكور كتاباً آخر يسمى **صخرة الشك** مملوءاً قذفاً وشكاً ضد الإيمان المقدس وأرسل فطبع هذا الكتاب النجس الدّجالي في بلد الإنجليز وتكلف على طبعه من ماله)[٩٨] .

وإذا تأكدنا من أن هذا الكتاب لم يطبع بحلب، فإنه بقي كتاب آخر يزعم أنه طبع في هذه المدينة وهو "القنداق" إلا أنه لا توجد أية نسخة منه في المكتبات الكبرى في العالم ولا نجد له ذكراً إلاّ في وثيقة تعود إلى القرن ١٣هـ/١٩م، وهي رسالة من الخوري أوغسطينوس مقصود الذي دخل الرهبانية الشويرية في ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م، وتعرف على مطبعة الشوير، وكان قد بعث هذه الرسالة في ١٢٥٧هـ/١٨٤١م إلى الراهب الشويري مكسيموس مظلوم، ذكر فيها أن البطريرك سيلفستروس القبرصي. (١١٣٧٠هـ/١٧٢٤م - ١١٧٩هـ/١٧٦٦م) قد طبع كتاب **القنداق** في المطبعة التي هجرها سلفه أثناسيوس في حلب سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م[٩٩] .

إن هذه الوثيقة تبقى غامضة فعلاوة على أنها غير معاصرة للحدث فإنها لا توضح كيف تم إحياء مطبعة حلب بعد أن هجرت وأهملت منذ أربع عشرة سنة، وبما أنه توجد طبعة لكتاب القنداق بالعربية في سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م صدرت في رومانيا وأشرف عليها سلفستروس بالذات والأرجح أن أوغسطينوس مقصود يقصد في رسالته هذه الطبعة لا غير[١٠٠] . ومما يدعم رأينا أن مطبعة حلب لم تشتغل قط بعد توقفها سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م تلك المساعي التي قام بها الأرثوذكس الملكيون لتجديد طلبهم لدى مجمع نشر الإيمان بروما لطبع كتابي الأورولوجيون والصلوات وكان ذلك في سنة ١١٢٨هـ/١٧١٦م[١٠١] ،

وذلك بعد ما تبين أن تجهيزات مطبعة حلب لم تعد صالحة للاشتغال من جديد نظراً للحالة الرديئة التي أصبحت عليها الآلات والحروف.

لقد تقدم البطريرك كيريلس الخامس بهذا الطلب إلى المجمع رغم ما أبدته هذه المؤسسة من رفض لمطالب مماثلة كان قد تقدم بها كرمي وزعيم في القرن ١١هـ/١٧م، وأعيد الطلب مرة أخرى في سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م من طرف التلاميذ الملكيين بروما وتمسك مجمع نشر الإيمان بموقفه وشروطه التي رأيناها سابقًا. إن إعادة التوجه نحو روما يؤكد عجز الأرثوذكس على إحياء مطبعة حلب من جديد أو القيام بمشروع جديد. أما عن أسباب انقطاع المطبعة فلا تزال غامضة ولا شك أن العامل المادي قد أسهم في تعطيل العمل فالمطبعة مرتبطة تمام الارتباط بالمساعدات التي تقدم إليها ولا تملك مصادر مالية خاصة بها، فهي لا تبيع الكتب ووجب عليها مجابهة المصاريف الكبيرة التي تتطلبها كل طبعة وهذا الذي أزعج كثيراً أثناسيوس الثالث حسب شهادة الخوري يعقوب صاجاتي الحلبي أحد المعاصرين لعبدالله الزاخر[١٠٢] كما كان في رحيل هذا الأخير عنها وهو أبرز المطبعيين بها الأثر السلبي في سير الورشة.

أما عن مصير تجهيزات المطبعة فهو غامض إذ لم يبق أثر للآلات والأدوات الأخرى، وقد ذهب المؤرخ معلوف إلى أن أدوات المطبعة نقلت من حلب إلى دير سيده البلمند، ثم إلى دير الشوير مشيراً إلى أنه عثر على بعض القطع الخشبية من مطبعة حلب في دير البلمند[١٠٣] إلا أن هذه النتيجة غير كافية في غياب مصادر أولية لمعرفة مصير مطبعة حلب وعلاقتها بمطبعة الشوير.

الخلاصة والخاتمة :

كان للأرثوذكس في حلب الفضل في إدخال أول مطبعة عربية إلى بلاد المشرق منذ القرن ١٢هـ/ ١٨م. وقد أسهمت عدة عوامل في اختيار مدينة

حلب لتكون مقراً لهذه الورشة منها وزنها في التجارة الدولية وتأثرها بالحضور الأوربي المتمثل في التجار والمبشرين مما أدخل حركية جديدة في الحياة الدينية والاجتماعية للطوائف المسيحية، تمثلت بالخصوص في ترجمة الكتب الدينية من الإغريقية إلى العربية، ومراجعة مخطوطات دينية عديدة واتصالها بمنشورات أوربا، مما دفع بالأرثوذكس إلى التحمس للاستفادة من فن الطباعة.

وقد توجه بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث إلى الأرثوذكس ببوخاريست لطبع كتب دينية باللغة العربية بعدما رفض مجمع نشر الإيمان طبع كتب الطائفة الأرثوذكسية الملكية. ثم أقام البطريرك مطبعة بحلب نجحت في إصدار ثمانية كتب من ١١١٨هـ/١٧٠٦م إلى ١١٢٣هـ١٧١١م. وقد تهجم علماء الطائفة الأرثوذكسية الملكية على المخطوط والناسخ ، فوعاء المعلومات التقليدي ينقل أخطاء النحو والرسم العديدة، وبالخصوص ينقل نصوصاً دينية محرفة ومشوهة بسبب جهل وإهمال الناسخين. وعلاوة على ذلك فإن المخطوط نادر وباهظ الثمن. أما عن فوائد المطبعة كما يراها بطاركة كنيسة أنطاكية، فتتمثل في أنها أداة لمضاعفة عدد الكتب الدينية التي ترجمت إلى العربية لتعويض النصوص اليونانية والسريانية، التي لم تعد مفهومة من طرف غالبية أبناء الطائفة. إن الكتاب المطبوع في نظرهم سيكون في خدمة الكنيسة وأبناء الطائفة، وسيسهم في جمع شملهم حول نصوص دينية موحدة ولم يفكروا في طباعة الكتب العلمية والأدبية العربية؛ لأنها غير مطلوبة بكثرة من طرف طائفتهم ولأنها متوافرة لدى الوراقين المسلمين.

لم تهدف منشورات حلب إثارة جدال ديني ضد الكاثوليكيين وبقية المذاهب المسيحية الأخرى، فقد كانت بصفة عامة بعيدة عن الصراعات العقائدية التي أثارها المبشرون والكاثوليكيون العرب بحلب. ولم تعمر مطبعة حلب طويلاً إذ لم تدم سوى ست سنوات فقط، ولم تكن كافية للحكم على مدى تأثيرها على الحياة الثقافية والدينية لدى المسيحيين بسوريا. إلا أنها قدمت فائدة للمطابع التي

ظهرت من بعد، مثل الشوير وبيروت إذ كانت نموذجًا لها، وأعدت مطبعيين وحفارين ذهبوا للعمل بجبل لبنان. وبذلك يكون فن الطباعة قد تركز ببلاد الشام بفضل هذه المطبعة.

٢ - المطبعة العربية بالشوير ١١٤٧هـ/١٧٣٤م :

توقفت حركة النشر لمدة ثلاث وعشرين سنة بعد تعطل مطبعة الأرثوذكس الملكيين بحلب، وقبل أن تظهر مطبعة ثانية لدى المسيحيين. وكانت هذه المرة بالشوير بجبل لبنان وبمبادرة من الملكيين الكاثوليكيين، ولنا أن نتساءل: هل كان لهؤلاء المفهوم نفسه عن المطبعة مثل الذي كان للأرثوذكس بحلب؟. هل تم تسخيرها لخدمة المذهب الكاثوليكي؟، وهل أثرت في مجرى الحياة الثقافية بسوريا، خاصة وأن ورشة الشوير عمرت طويلاً، رغم المصاعب التي اعترضتها (١١٤٧هـ/ ١٧٣٤م - ١٣١٤هـ / ١٨٩٩م) ، والتي أسهمت في احتداد الصراعات المذهبية بينهم، مما دفع البعض منهم إلى الهجرة إلى الشوير ثم تأسيس مطبعة بها.

١.٢ - الصّراعات بين المسيحيين بحلب :

سنحاول دراسة وضعية المسيحيين بحلب في القرن ١٢هـ/ ١٨م، والتي أسهمت في احتداد الصراعات المذهبية بينهم، مما دفع البعض منهم إلى الهجرة إلى الشوير ثم تأسيس مطبعة بها.

١.١.٢ - الاضطهادات :

انتشرت الكاثوليكية بسرعة في أوساط الأرثوذكس الملكيين في حلب نتيجة للنشاط الكثيف الذي قام به المبشرون الذين أرسلتهم روما وباريس. وكما رأينا فإن عددهم وصل إلى ٤٠٠٠ كاثوليكي من جملة ٤٠ ٠٠٠ مسيحي. وقد قاومت الكنائس الشرقية هذه الحركة وسلكت طريقتين في ذلك، الإقناع بواسطة الحوار والكتابات الجدلية أو الردع والقمع. وقد وجدت في الباب العالي خير

سند في مهمتها. وكان أن سلطت ضغوطات قوية على كل من اعتنق المذهب الكاثوليكي إلى حد أنها وصلت للتعذيب البدني وللتصفية الجسدية، كل ذلك كان بأوامر من البطاركة والباشوات. فقد شن الأرثوذكس بقيادة البطريرك كيريلس الخامس، حملة عنيفة ضد كل مراكز الكاثوليكية ببلاد الشام[١٠٤] ، وكذلك لم يتردد أثناسيوس الثالث الذي اعتلى كرسي البطريركية في ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، بعد تراجعه عن الكاثوليكية، من شن حملة لاضطهاد ضد كل الكاثوليكيين واللاتينيين، وذلك بعد حصوله من السلطان على فرمان في ١١٢٥هـ/١٧٢٢م، لمنع الأرثوذكس الملكيين من اتباع مذهب البابا بروما " أو حتى الاتصال بالمبشرين بسوريا " [١٠٥] . وأمام هذا التهديد لم يجد الكاثوليكيون بداً من الفرار إلى جبل لبنان المنيع إلا أنهم لم يكتفوا بالتحصن به بل عملوا على تنظيم صفوفهم ورد هذه الهجومات بشتى الوسائل ومن بينها استخدام فن الطباعة لنشر المذهب الكاثوليكي. إن أمر المطابع لم يعد يخفى على أحد، خاصة بعدما تأسست أول مطبعة إسلامية بإستانبول وبقرار من السلطة العثمانية التي أبدت اقتناعها بضرورتها وفوائدها. وقد أراد الملكيون الكاثوليكيون الاستفادة من هذا الفن بعدما انضم إلى صفوفهم أحد العناصر الخبيرة في هذا المجال وهو عبدالله الزاخر.

٢.١.٢ - عبدالله الزاخر (١٠٩٠هـ / ١٦٨٠ م - ١١٦٠هـ/ ١٧٤٨م) :

تتوقف عند حياة عبدالله الزاخر وهو من أبرز موسسي مطبعة الشوير، وهو الذي واكب نمو الحزب الكاثوليكي والتطور الذي حصل له في القرن ١٢هـ/ ١٨م. وكان أبواه أصلاً كاثوليكيين من حماه[١٠٦]، التي تعلم فيها العربية العامية، وكانت مهنة أبيه الصياغة[١٠٧] ، ثم غادر حماه في ١١١٣هـ/ ١٧٠١م، للاستقرار بحلب في صحبة ابن عمه نيقولا الصائغ، حيث درسا الآداب العربية لدى العالم المسلم : الشيخ سليمان الحلبي النحوي. ثم درسا الفلسفة والعلوم الدينية المسيحية لدى الأب يوحنا بجع[١٠٨]. وعلى غرار عبدالله الزاخر وابن

عمه، كان الشباب النصراني في القرن ١٢هـ/ ١٨م يتعلم العربية الفصحى لدى العلماء المسلمين ، ثم يتابعون دروسًا في الديانة المسيحية، وقد علم الأب بجع مبادئ هذا الدين لهؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد، من أشهر العلماء والمؤلفين المسيحيين مثل الزاخر وابن عمه ومكريدج الكسيح ومكسيموس الحكيم وغيرهم. وقد تعلم وحذق عبدالله الزاخر اللغة العربية الفصحى وقواعدها وهي اللغة التي دخلت في تقاليد الحزب الكاثوليكي. كما أنه أقام علاقات طيبة في حلب مع المبشرين اللاتينيين، الذين لا يحذقون العربية وكان يصلح لهم ترجماتهم إلى العربية، ويساعدهم على نسخ المخطوطات وتعامل مع رئيس بعثة اليسوعيين في سوريا الأب بيار فروماج، حيث راجع كتبه المترجمة إلى العربية(١٠٩). مثلما تعامل من قبل مع البطريرك أثناسيوس الثالث في طبع الكتب بحلب وخاصة في حفر الحروف العربية ومراقبة المنشورات إلا أن علاقاته مع البطريرك تدهورت في حدود سنة ١١٣٣هـ / ١٧٢٠م بسبب الحملة الجدلية التي استعرت بين الأرثوذكس والكاثوليك.

٢.١.٢ - المناظرات الجدلية بين الملكيين الأرثوذكس والكاثوليك :

وقد تطور الجدال الديني بين المسيحيين بحلب في تلك الفترة إلى حد أن "الأمر أصبح عاديًا" حسب تعبير أحد الأرمنيين (١١٠) . فقد كثر عدد المناظرات الجدلية بين رجال الدين النصرانيين وكذلك الكتب التي تتناول هذا المجال، وقد كتب المبشرون أنفسهم رسائل جدلية ضد الأرثوذكس قبل أن يوكلوا المهمة فيما بعد إلى تلاميذهم من الملكيين الكاثوليكيين للردّ بدورهم على الأرثوذكس (١٠٠)، ومن جملة الكتب الجدلية نذكر أولاً نماذج من تلك التي كتبها الأرثوذكس :

- " **السيف القاطع** " (١١٢) كتبها أحد الأرثوذكس ليبرهن على أن كنيسة فوسيوس(١١٣) على حق وليست كنيسة البابا، وذلك في شكل سؤال وجواب.
- " **القضايا الثلاث** " من تأليف غابريال دي فيلادلفي وترجمة أثناسيوس

الثالث وشارمان[١١٤] إلى العربية لرفض سلطة البابا والرد على كتب تعليم المسيحية لبلارمان وبوسيفان.

- " **صخرة الشك** " ألفه إلياس مانياتس وترجمه إلى العربية أثناسيوس الثالث وفيه يحمّل المؤلف رجال كنيسة روما مسؤولية الانشقاق الذي حصل بين الكنائس الشرقية من جهة وكنيسة روما بسبب حرصهم على السيطرة على كل المسيحيين[١١٥] .

وكان رد فعل الملكيين الكاثوليكيين على هذه الكتابات خاصة من طرف عبدالله الزاخر الذي كان يتقن " فن الجدل " فألّف بعض الكتب نذكر منها :

- " **الترياق الشافي من سم الفيلادلفي** " كتبه زاخر سنة ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م، ردًا على كتاب القضايا الثلاث للفيلادلفي[١١٦] .

- " **التفنيد للمجمع العنيد** " وفيه يرد الزاخر على القرارات التي اتخذها مجمع القسطنطينية في سنة ١١٣٥هـ/١٧٢٢م[١١٧] .

- " **كتاب البرهان اليقين على فساد المنشقين** " ألفه عبدالله الزاخر في سنة ١١٣٨هـ/١٧٢٥م لتفنيد كل مبادئ الأرثوذكسية التي حددها مجمع القسطنطينية الذي اجتمع في سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٤م ، وقد حرص على نشرها بطريرك أنطاكية الجديد سيلفستروس[١١٨] .

- " **الدّحض الخطير لإنكار الذبيحة الإلهية** " فهو جواب على كتاب استراتوس أرجانتس وهذا الكتاب الأخير طبعه لبطريرك سيلفستروس برومانيا سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٧م.

كان الحوار ساخنًا بين الطرفين إلى درجة أنه تجاوز نطاق النقاش الفكري لينقلب إلى حملة اضطهاد يقودها بطريرك أنطاكية ضد الكاثوليكيين، فأثناسيوس الثالث اطلع على كتاب الزاخر: "الترياق الشافي" قبل تحوله إلى القسطنطينية لحضور المجمع الذي انتظم بها في ١١٣٤هـ/١٧٢٢م، واستطاع

أن يحصل من الصدر الأعظم على خط شريف يسمح له بتتبع كل الكاثوليكيين ويقطع رأس عبدالله الزاخر[١١٩] . وحين علم الزاخر بذلك، سارع بالفرار إلى جبل لبنان حيث قضى بضع سنوات متنقلاً بين عدة أديرة هي الشوير وزوق ميكايل وعين طورا[١٢٠] . ثم تفرغ بعد ذلك لطباعة الكتب في مطبعة جديدة أقيمت بالشوير.

٢.٢ - تأسيس مطبعة الشوير :

١.٢.٢ - مؤسس المطبعة :

لا تتفق الوثائق على ذكر اسم المؤسس الحقيقي للمطبعة، فهناك وثائق تقدم اليسوعيين على أنهم هم المؤسسون وأخرى تقدم عبدالله الزاخر. ففي رسالة للأب اليسوعي فروماج إلى السيد ترويهيلي وهو تاجر فرنسي بصيدا مكتوبة بعين طوره سنة ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م. وقد ذكر له فيها أنه مشغول بتركيب قطع مطبعة كان قد استقدمها من أوربا. بعد أن أشرف على حفر حروف عربية شبيهة بتلك المستعملة بمجمع نشر الإيمان بروما، وأنه أرسل في طلب مجموعة من المطبعيين الماهرين من أوربا[١٢١] . أما الأب اليسوعي فنسب لنفسه حسب هذه الرسالة تأسيس المطبعة فهو يؤكد أنه هو الذي أحضر آلات الطباعة من أوربا، كما أنه عمل على إعداد أحرف الطباعة العربية دون أن يقدم توضيحات عن جنسية الحفارين الذين قاموا بالعمل، وفيما إذا قدموا من أوربا أم من بلاد الشام وكذلك طريقة عملهم.

وهناك وثيقة أخرى وهي رسالة كتبها رحالة فرنسي يدعى دي لاروك في ١١٤٨هـ/١٧٣٥م يؤكد فيها ما قاله الأب فروماج ويذكر أن هذا الأخير هو مؤسس المطبعة، ولعله يكون قد استورد الأحرف العربية من روما[١٢٢] إلا أنه يتبين أن دي لا روك استقى معلوماته من ترويهيلي الذي تلقى الرسالة الأولى. إذن فهذا الرحالة لا يقدم جديداً لبحثنا.

إن المصادر تتناقض فيما بينها حول هذه النقطة. ففي رسالة أخرى للأب فروماج موجهة لعبدالله الزاخر في ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، تفيد أنه ليس مؤسس المطبعة إذ يقول: " إني أعرف كثيراً من الأشخاص بأوربا، فإذا بعثوا لي بمساعدات لمطبعتكم، فهل تسمحوا لي باستعمالها لفائدة الأعمال الطبية ولتوزيع الكتب الدينية» (١٢٣) . وهذا اعتراف من الأب اليسوعي بأن صاحب المطبعة هو الزاخر، وذلك باستعماله ضمير الجمع في عبارة " مطبعتكم " في خطابه. وهذا يبين بأن الزاخر هو الشخص الوحيد المؤهل لاتخاذ قرار بقبول أو رفض المساعدات. أما الأب فروماج فدوره ثانوي في هذا المشروع ويقتصر على جمع الأموال من الأوربيين.

إن الأب فروماج يردد العبارة نفسها والاعتراف نفسه في رسائل أخرى، ولم ينسب إلى نفسه ألبتة شرف تأسيس المطبعة، باستثناء ما أورده في الرسالة الأولى، وعندما تدهورت علاقاته مع عبدالله الزاخر بداية من ١١٤٩هـ/ ١٧٢٦م بسبب قضية " العابدات " وعندما تدوهورت علاقاته مع عبدالله الزاخر بداية من ١١٤٩هـ/١٧٢٦م بسبب قضية "العابدات" فهو يقول له "ومطبعتك التي تعتاش منها أنت وسواك، من هم الذين ساعدوك على تحقيقها أليسوا اليسوعيين؟.(١٢٤) وهنا يشير إلى المساعدات المالية التي قدمها اليسوعيون لإقامة المطبعة، التي لم تكن مهمة كما سنرى فيما بعد، إذن يتبين من خلال مراسلات الأب فروماج نفسه. أنه تراجع فيما ذهب إليه في رسالته الأولى للتاجر الفرنسي من أنه مؤسس المطبعة، ويعترف بأن عبدالله الزاخر هو المؤسس والمدير للمطبعة وأن دوره اقتصر على جمع المساعدات المالية من المحسنين لفائدة المشروع، ولا يمكن تفسير الرواية التي ذهب إليها في خطابه الموجه لترويهيلي، إلا في هذا الإطار ، أي لحثه هذا الأخير على الإسهام في تمويل المطبعة لا غير.

وبعد التخلص من هذا الإشكال الذي طرحه خطاب الأب فروماج إلى التاجر الفرنسي باعتراف اليسوعي نفسه في خطاباته المتتالية، بأن عبدالله الزاخر هو

صاحب مطبعة الشوير، فإن بقية المصادر الأصلية تسير في السياق نفسه، وتقدم تفاصيل عن ظروف تأسيس المطبعة من طرف الزاخر. من ذلك ما ذكره أحد تلاميذ عبدالله الزاخر في ترجمة حياة أستاذه: "فسكن إحدى القرى في كسروان وهناك ابتدأ بعمل مطبعة أخرى متقنة في الغاية، مع أنه لم يكن يوجد له آلات تلزم هذا العمل ولا مكان مناسب ولا من يعرف مهنة غير الفلاحة سوى رجل صايغ كان يسعفه بتقديم بعض الآلات ومساعدته في بعض أعمال خفيفة. فبهذا المكان المقفر الخالي من المعونة البشرية والإسعاف اللازم والآلات وشغل المطبعة بطبع كتب كثيرة مفيدة جداً " (١٢٥) ؛ وتبين هذه الترجمة أن الزاخر هو الذي أقام المطبعة بالشوير بفضل نشاطه وخبرته، حيث وفق إلى ذلك رغم صعوبة الظروف التي عمل فيها وافتقاده للمساعدة من يد عاملة وأموال وأدوات وغير ذلك. ولم تذكر ألبتة أنه استقدم آلات من مطبعة حلب. كما نجد وثيقة أصلية أخرى تقدم تفاصيل أخرى عن ظروف نشأة المطبعة وعن مؤسسها وهي حوليات الرهبانية الحلبية الشويرية التي تذكر: " السنة ١٧٣١: مضى (عبدالله الزاخر) إلى الزوق وشرع في عمل المطبعة واشتغل فيها كثيراً وإذ رجع إلى ماري يوحنا اصطحب الجميع معه وشرع في إتمام البقية ودفع له الأب نيقولاوس (أي نيقولاوس الصائغ) الوكيل العام أحد الأخوة ليتعلم منه ويساعده وهو يواكيم بن المطران البعلبكي حين كان مبتدئاً...، " السنة ١٧٣٣: في هذه الأيام ابتدأ شغل المطبعة العربية في دير ماري يوحنا بيد الشماس عبدالله الزاخر الحلبي وقد كان هيأها وأتقنها بصنعة يديه وحذاقة عقله، وهو في زوق مكايل حينما كان ماري يوحنا مأخوذاً بيد المشاقين والأخوة نازحون. ولما عادوا إليه عاد المذكور وأخذ في عملها حتى أتمها وابتدأ بطبع كتاب ميزان الزمان عدد ٨٠٠ (أي طبع منه ثماني مائة نسخة)" (١٢٦). تؤكد هذه الوثيقة الثمينة مكانة عبدالله الزاخر بوصفه مؤسساً للمطبعة وفيها تقدير لجهده المتميز في مواصلة مشروع إقامة المطبعة رغم الصعوبات التي اعترضته، وخاصة ما يتعلق

منها باحتداد الصراع المذهبي بين المسيحيين العرب، وخاصة ما لقيه الروم الكاثوليك من "اضطهاد" على يد الأرثوذكس وفرار أعضاء الرهبنة الشويرية الناشئة من دير ماريوحنا، لما اقتحمه الأرثوذكس وهم يلاحقون عبدالله الزاخر العدو اللدود لبطاركة أنطاكية ويزداد في مدة الاضطهاد هذه إصرار الزاخر على تنفيذ مشروعه باستخدام فن الطباعة للرد على هجوم الأرثوذكس، وجعل المطبعة في خدمة الحزب الكاثوليكي في المشرق. إن حوليات الرهبانية الشويرية تقدم حقائق دقيقة عن ظروف عمل الزاخر وعن توظيفه لخبرته في فن الطباعة ونقش الحروف[١٢٧] . مما لا يدع مجالاً للشك في أنه وقف على كل مراحل إقامة المطبعة بل أكثر من ذلك أنه تابع العمل بها حتى وفاته سنة ١٧٤٨م/١١٦١هـ. وهنا نجد وثيقة أصلية تبين أنه بقي المتصرف الوحيد في المطبعة وتجهيزاتها إلى نهاية حياته، وهذه الوثيقة هي وصيته بتاريخ ٢٩ أغسطس ١١٦١/ ١٧٤٨م التي أوصى فيها بأن تكون مطبعته وكل تجهيزاتها وقفًا للرهبانية الباسيلية بالشوير على أن يديرها تلميذه سليمان قطان وأن توزع بعض النسخ من كل كتاب يطبع مجانًا، وأن يتسلم ابن أخيه ثلاث أو أربع نسخ[١٢٨] . وهذه الوصية لم يعترض عليها أحد ، فلو كان لليسوعيين مثلاً حق في ملكية هذه المطبعة لكانوا قد طالبوا به واحتجوا على هذه الوصية.

وأخيرًا نورد وثيقة أصلية أوربية في السياق نفسه ، وهي للرحالة الفرنسي فواني الذي زار دير الشوير في ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م وقضى هناك ثمانية أشهر وتحدث عن هذه المطبعة وهي المطبعة العربية المسيحية الوحيدة التي بقيت تشتغل في تلك الفترة وبما أنه استقى معلوماته من الرهبانية الشويرية، فإن شهادته لا تختلف كثيرًا عن حوليات الرهبانية التي تعرفنا عليها سابقًا[١٢٩] . إن الرحالة الفرنسي يؤكد بدوره أن الزاخر هو مؤسس المطبعة لأنه هو الذي خطط للمشروع ونفّذه ، ثم بين الأسباب التي دفعته إلى ذلك : "عندما غادر بلده لم يهمل أفكاره الإصلاحية بل صمّم أكثر من ذي قبل على نشرها، ورأى أنه لا

يستطيع القيام بذلك إلا بواسطة الكتابات وأن المخطوطات غير كافية لتبليغها"[١٣٠] . نلاحظ أن فولني مقتنع بالمفهوم الذي توصل إليه الأوربيون حول دور المطبعة أي أنها وسيلة لبث الأفكار الإصلاحية الجديدة ونشر الآراء التي ستحدث ثورة في كل مكان ويرى أن هذا المفهوم هو الذي يحمله أصحاب المطابع بالمشرق فما هي حقيقة الأمر عن مطبعة الشوير؟ هذا ما سنتعرف عليه عند دراسة محتوى مطبوعاتها؟.

٢.٢.٢ - آلات الطباعة بالشوير :

إذا توصل عبدالله الزاخر إلى إعداد الأحرف العربية فإنه لم يكن قادراً على صنع آلات الطباعة نظراً لتشعبها وافتقاده للأدوات والمادة الأولية لذلك، هذا علاوة على غياب مساعدين من ذوي الكفاء ات لمساعدته في صنع الآلات ولم تتعرض الوثائق الأصلية لهذه النقطة بالذات باستثناء ذلك الخطاب الذي أرسله الأب فروماج إلى التاجر ترويهيلي والذي ذكر فيه أنه بصدد تركيب قطع مطبعة كان قد استحضرها من أوربا ويقصد بلفظ مطبعة آلات الطباعة لأنه يتحدث فيما بعد عن الحروف العربية التي سيتولّى إعدادها حسب قوله حفارون قادمون من أوربا، وعلى ضوء هذه الرسالة لا يستبعد أن يكون اليسوعيون قد أسهموا في مشروع الزاخر بتقديم آلة الطباعة التي جلبوها من أوربا علاوة على الأموال التي جمعوها لفائدته، بقي أن نتساء ل : ما البلد الأوربي الذي جلبت منه المطبعة؟؛ وهنا يرى لويس شيخو أن هذا البلد هو فرنسا[١٣١] ، وهذا الاحتمال يبقى وارداً نظراً للعلاقة الوطيدة التي تربط الأب فروماج بالتجار الفرنسيين.

لقد كان الملكيون الكاثوليكيون مقتنعين بفوائد إقامة مطبعة ببلاد الشام ولم يترددوا في طلب المساعدة من الأوربيين وخاصة المبشرين اليسوعيين الذين شجعوا المبادرة ورأوا فيها إحياء لمشروع قديم كان قد فكر فيه كما رأينا الأب الكبوشي جوزيف في ١٠٣٥هـ/١٦٢٦م لإقامة مطبعة بجبل لبنان إلا أنه فشل في ذلك؛ وإذا ما رفض مجمع نشر الإيمان بروما قبل مئة عام مثل هذا

المشروع فإنه لم يعارض مشروع الزاخر بل قدم له مساعدة غير مباشرة عن طريق اليسوعيين، وكان يرى فيه فوائد كبيرة للبابورية فالمبادرة هنا تعود لأبناء المشرق من الكاثوليكيين الذين أسسوا حزبًا لهم ونانوا إلى الاتحاد مع روما رغم معارضة واضطهاد بطاركة أنطاكية، ولذا فإن مجمع نشر الإيمان كان يرى في عبدالله الزاخر والمبشرين والرهبانية الشويرية خير مدافعين عن أهداف كنيسة روما.

٣.٢.٢ - تمويل مطبعة الشوير :

تمكن عبدالله الزاخر من تأسيس مطبعة بفضل آلة الطباعة التي جاء ته من أوربا، وكذلك المساعدات المالية التي تلقاها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق المبشرين اليسوعيين وهؤلاء جمعوا مبالغ مالية من التجار الأوربيين المقيمين بالمشرق على غرار الفرنسي ترويهيلي الذي كتب إليه الأب فروماج في الخطاب نفسه - الذي رأيناه سابقًا - يطلب منه الإسهام في تمويل المطبعة "نحن لا نزال في البداية والموارد المالية تعوزنا... إننا نعول على عناية ومساعدة الكرماء لأن مثل هذه المشاريع باهضة الثمن" (١٣٢) . وكان نتيجة هذا الطلب أن أرسل إليه التاجر الفرنسي ستين قرشًا " (١٣٣) .

ما التكلفة الإجمالية لإقامة المطبعة؟؛ يجيب عن هذا السؤال مؤسسها في خطاب له أرسل إلى الأب فروماج سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م " إن المطبعة التي تدعي أنه بإسعافكم لي هذا المبلغ كان قيامها ووجودها قد تكلفت قبل أن تطبع ورقة واحدة نحو ألف قرش وإلى الآن تكلفت نحو ألف وخمسمائة قرش فماذا إذًا يكون مبلغك الذي هو مقدار ثمانية وسبعين قرشًا بالنسبة إلى الألف وما الذي يحصل عنه بهذا العمل من الإسعاف وماذا يصدر عن عدمه من التعطيل والتعويق"(١٣٤) .

إن تكاليف إقامة المطبعة باهظة ولم يسهم اليسوعيون فيها إلا بمبلغ ضئيل لا يساوي عشر التكلفة، ولهذا عبّر الزاخر عن ضآلة المبلغ وأنه كان بإمكانه

الاستغناء عن هذا الإسهام دون أن تضر بمشروعه. ويبدو أن ثمن آلة الطباعة التي جلبها اليسوعيون من أوربا غير مضمن في مبلغ ثماني وسبعين قرشاً التي قدمها المبشرون، إما لأن عبدالله الزاخر قد دفع ثمنها أو لأنها قدمت بعنوان هدية. ولنا أن نتساء ل : كيف جمع مؤسس المطبعة مبلغ ألف قرش؟؛ ويبدو أنه تولى جمعه هو وأعضاء الرهبنة الشويرية مباشرة من أغنياء الكاثوليكيين العرب وقد يكون أضاف إليه من ماله الخاص الذي ورثه من أبيه الصائغ.

٤.٢.٢ - مقر المطبعة :

أقيمت المطبعة بدير ماريوحنا بالشوير منذ ١١٤٤هـ/١٧٣١م قبل أن تستكمل كل معداتها وكان الزاخر قد بدأ مشروعه في قرية زوق ميكايل حسب حوليات الرهبانية الشويرية قبل أن ينتقل إلى الشوير فما أسباب اختيار دير الشوير كمقر للمطبعة؟؛ يقول الأب فروماج في خطابه نفسه إلى التاجر ترويهيلي إنه حاول إقامة هذه المطبعة في ديرهم الجديد في عين طورا إلا أنه نظراً لضيق المكان اضطر إلى اختيار دير مار يوحنا في الشوير[١٣٥]. ويبدو هنا أن الأب فروماج يريد أن يبرر فشل اليسوعيين في إقامة المطبعة لحسابهم الخاص أكثر من أن يقدم الأسباب الحقيقية لاختيار دير الشوير. إن عبدالله الزاخر الذي كان يبحث عن مكان منعزل لم يفكر في عين طورا، بل في الشوير التي تضم ديراً جديداً أقامته الرهبانية الباسلية الناشئة التي لم يكن رئيسها سوى ابن عمه نيكولا الصائغ الذي دعاه وشجعه للإقامة بالدير وساعده في عمله[١٣٦] . وكذلك فإن موقع الدير في جبل كسروان قرب الخنشارة يجعله بعيداً عن أنظار السلطات العثمانية[١٣٧]. وبطاركة أنطاكية، وقد شجع الزاخر على الإقامة هناك، النشاط الأدبي الحثيث الذي عرفه الدير[١٣٨] .

ولا يزال مبنى المطبعة موجوداً ومحافظاً على شكله الهندسي الأول بعد ترميمه ، ويتكون من ثلاث قاعات؛ واحدة للتنضيد وتضم صناديق الحروف؛

وأخرى للطباعة وتضم آلات الطبع، وثالثة لسبك الرصاص وإعداد الحبر وتضم الأدوات اللازمة لهاتين العمليتين[١٣٩] .

٢.٣ - تنظيم العمل ، ومشاكل النشر :

حفر عبدالله الزاخر حروفًا عربية حسب الخط الكنسي الذي عرفت به عائلة اللباد، وقد حصل على حروف رقيقة وجميلة أفضل من الحروف الخشنة التي طبع بها في حلب وقد حفر الحروف والقوالب على معدن مستعينًا في ذلك بالأدوات اللازمة من أحد الصائغين بزوق ميكايل[١٤٠] ، وأعد كذلك الحبر الأسود ولم يستورد من أوربا إلا الآلات والورق.

٢.٣.١ - تنظيم العمل :

في البداية لم يستنجد الزاخر إلا برجل صائغ في زوق ميكايل لمساعدته في عمله لأنه لم يكن يوجد هناك سوى الفلاحين؛ وبعد ذلك أي في ١١٤٤هـ/١٧٣١م، لما استقر بالشوير انتدبت له الرهبانية الباسيلية شابًا يدعى يواكيم بن المطران (١١١١هـ/١٦٩٦م - ١١٨٠هـ/١٧٦٦م) لمساعدته في عمله[١٤١] ، ثم التحق بهما تلميذ الزاخر سليمان قطان (توفي في ١١٩٢هـ/١٧٧٨م[١٤٢]) ، وكذلك بعض الرهبان من الطائفة وقد خلف قطان أستاذه بعد وفاته سنة ١١٦١هـ/١٧٤٨م وأصبح يدير المطبعة حسب رغبة الزاخر في وصيته.

وقد وصلتنا معلومات عن تشكيل الفريق الذي عمل مع سليمان قطان حسب وثيقة تعود إلى ١١٩٠هـ/١٧٧٦م ويتكون من سبعة أشخاص منهم ثلاثة رهبان يشغلون الطباعة، واثنان في التصفيف، وواحد في سكب الحروف، وواحد لتعليم السكب وهو موسى ابن أخ سليمان قطان الذي يشتغل في الوقت نفسه في التصفيف[١٤٣] .

وقد قام سليمان بتجديد بعض آلات المطبعة على حسابه الخاص وأعاد سكب بعض الحروف العربية[١٤٤] . إلا أنه رغم ذلك وجهت إليه تهمة إتلاف

إحدى الآلات وهي المسبكة التي تسببت في إيقاف العمل لمدة سنتين. ونشب من جراء ذلك خلاف بينه وبين الرهبانية الشويرية سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م(١٤٥) ، وعرفت المطبعة منذ ذلك الحين صعوبات وتدهورت أحوالها وانخفض إنتاج الكتب بها ونقص كذلك عدد العاملين بها، ولم يجد الرحالة فولني لما زارها سوى أربعة رهبان(١٤٦) .

وكمل أوقف الزاخر في وصيته المطبعة لفائدة دير الشوير، فإن سليمان قطان خليفته فعل بالمثل بالنسبة للآلات والحروف الجديدة التي جددها أو اشتراها حسب وصيته في ١١٨٩هـ/١٧٧٥م(١٤٧) . وكان رؤساء الرهبانية هم الذين يتولون الإشراف العام على المطبعة فهم يسيرون ويراقبون عملية النشر ويدفعون أجور العمال.

أجور العمال :

ذكرت بعض الوثائق الأصلية معلومات حول أجور العمال بالمطبعة ، من ذلك أن سليمان قطان كان يتقاضى مبلغ مئة قرش في السنة في حياة الزاخر. ثم لما كلف بإدارة الورشة تضاعف له الأجر(١٤٩) .. وكان موسى ابن أخي سليمان قطان يتقاضى بدوره مئة قرش منذ ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م. أما بقية العمال فلم يكونوا يتقاضون أجرًا بعدِّهم من الرهبان. ويعيشون مثل سائر أعضاء الرهبانية الشويرية حياة تقشف وزهد(١٥٠) . ورغم هذا العمل المجاني من طرف الرهبان، فإن المطبعة عرفت صعوبات مادية مما تسبب في غلقها طيلة خمس سنوات من ١٢١١هـ/١٧٩٧م إلى ١٢١٧هـ/١٨٠٢م، لأن تكاليف الطباعة كانت باهظة والورق يستورد من أوربا واليد العاملة بطيئة(١٥١) .

٢.٣.٢ - مشاكل النشر بمطبعة الشوير :

أ - الناشرون :

قام بمهمة اختيار المخطوطات ومراجعتها ومراقبة عملية الطبع كل من

رؤساء الرهبانية الباسيلية الشويرية ومديري المطبعة وهما على التوالي عبدالله الزاخر وسليمان قطان.

وقد ورد ذكر رؤساء الرهبانية في كل آخر صفحة من الكتب المطبوعة بداية من ١١٥٣هـ/١٧٤٠م، حسب هذه العبارة التي كانت تتردد في كل مرة وهي "قد طبع هذا الكتاب بأمر الرؤساء في دير القديس يوحنا الصائغ الملقب بالشوير من جبل كسروان بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية سنة...".

وكان رؤساء الباسيلية حريصين على متابعة عملية النشر إلى جانب مؤسس المطبعة الزاخر، ولكن لم يرد ذكر هذا الأخير ألبتة في الكتب المطبوعة بصفته ناشراً أو مطبعياً رغم أنه سخّر كل جهده في مراجعة الكتب ومراقبة النشر. إلا أن اسمه ورد في بعض الكتب بعدّه مؤلفاً أو مراجعاً للترجمات(١٥٢) . إنه من المهم دراسة طريقة مراجعة الكتب قبل طبعها، ذلك أن الناشرين كانوا يميزون بين ثلاثة أصناف من النصوص: كتب لمؤلفين معاصرين ، وكتب لمبشرين وهي مترجمة للعربية ، ونصوص مسيحية مقدسة.

ب - مراجعة كتب لمؤلفين معاصرين :

يندرج ضمن هذا الصنف كتاب واحد من تأليف عبدالله الزاخر وعنوانه «البرهان الصريح في حقيقة سر دين المسيح » طبع بعد وفاة صاحبه سنة ١١٧٨هـ / ١٧٦٤م(١٥٣) . لم يشكل هذا الكتاب أية عقبة عند طباعته فقد كتب من طرف مؤلف يحذق العربية والمخطوط لم يقع تشويهه من طرف الناسخين ، وهذا على عكس الصنفين الآخرين من المخطوطات اللذين طرحا مشاكل عدة عند مراجعتهما.

جـ - مراجعة كتب المبشرين :

بلغ عدد كتب المبشرين أحد عشر كتاباً من ضمن تسعة عشر كتاباً طبعت

في المدة من ١١٤٧هـ/١٧٣٤م إلى ١٢٠١هـ/١٧٨٧م. هؤلاء المبشرون هم من اليسوعيين والكارم والفرانسيسكان الذين ألفوا هذه الكتب في القرنين ١٠و١١هـ/١٦و١٧م وقد تمت ترجمة بعض الكتب إلى العربية لأول مرة من طرف المشرفين على المطبعة، فيما اقتصر الأمر على مراجعة الترجمات الموجودة لبعض الكتب الأخرى. ويعدّ الأب فروماج أبرز المترجمين في هذا المجال حيث تولى لوحده ترجمة خمسة كتب(١٥٤) . أما البقية فهي موزعة على مبشرين آخرين(١٥٥) ، وكذلك على بعض رجال الكنائس الشرقية (١٥٦) . وقد تعهد بمراجعة هذه الترجمات عبدالله الزاخر والرهبان الباسيليين بالشوير، ولم يكن الزاخر عارفًا باللغتين اللاتينية والفرنسية، إلا أنه قام بمراجعة النصوص التي ترجمها المبشرون إلى العربية ، وهؤلاء لم يكونوا بارعين في هذه اللغة، وهذا كله يفسر بعض الأخطاء والغموض الذي ظهر في بعض الترجمات.

هناك ظاهرة أخرى في هذا المجال وهي إعادة ترجمة بعض المؤلفات القديمة نتيجة الأخطاء الكثيرة التي ارتكبها المترجمون ومن بعدهم الناسخون ؛ من ذلك كتاب « ميزان الزمان » لصاحبه اليسوعي الأسباني نيرا مبرك (٩٩٩هـ/١٥٩٠م - ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م) ، وهو أول كتاب تصوره مطبعة الشوير ، وقد تولى إعادة ترجمته الأب فروماج الذي ذكر في المقدمة : « واعلم أن هذه النسخة قد استخرجت جديداً من اللغة الإيطاليانية إلى هذه اللغة العربية استخراجاً مضبوط النقل بالتدقيق، مطابق الأصل على التحقيق، فلا اعتماد على تلك النسخة الأولى المكتتبة المشحونة من التحريف والغلط والتبديل والشطط».

د - مراجعة كتب الطقوس والنصوص المقدسة :

اعتمدت مطبعة الشوير في طبعها لهذه الكتب على ترجمة العهد القديم والعهد الجديد لعبدالله ابن الفضل الأنطاكي، وعلى ترجمة كتب الطقوس لعبدالكريم كرمي. وقد تمت مراجعتها حسب منشورات بوخاريست وحلب التي قام بها أثناسيوس الثالث دباس. إن عمل هذا البطريرك رغم جو المشاحنات

والصراع الدائر بين الأرثوذكس والملكيين، كان محل تقدير من طرف ناشري الشوير(١٥٧) . وكان هؤلاء حريصين على مراجعة الترجمات العربية قبل إعطاء الإذن بطبعها نظراً للأخطاء الكثيرة التي ارتكبها الناسخون عند نسخ المخطوطات الدينية المسيحية، وكانوا يؤكدون على هذا الجانب في جل الكتب المطبوعة من هذا الصنف ويتهمون الناسخين بالجهل واللامبالاة عند أداء عملهم، وكان هذا على غرار النقد اللاذع الذي وجهه إبراهيم متفرقة بالنسبة للناسخين المسلمين، ونجد صدى لهذا الاتهام على سبيل المثال في كتاب " الرسائل " المطبوع في ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م، حيث ذكر في المقدمة " ثم اعلم أنه إذا كانت نسخة الرسائل العربية مع كثرة الأيام والأعوام قد أدخل بها جهل الكتبة من العوام بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها فحرروها بالغلط، وتحريفات لألفاظ لم يفهموا معناها فصحفوها بنقل الحروف والنقط..." يتضمن هذا النص إشارة إلى جهل الناسخين لقواعد اللغة العربية التي دخلت الكنيسة الشرقية ، حديثًا وعدم حذقهم لها علاوة على عقلية اللامبالاة وعدم التحري في نقل النص. إلا أن الناشرين بالشوير أخفوا نقطة مهمة وهي أن المتهم الرئيسي في ارتكاب الأخطاء هو المترجم الذي كان يخل بالمعنى أحيانًا ، وهذا ما يفسر لجوء الناشرين إلى القيام بعملية تحقيق الكتاب الديني العربي على الأصل اليوناني وهذه العملية بالذات جديرة بالاهتمام لأنها تختلف حسب الكتب. فتحقيق كتاب السنوات الكنائسي كان على الشكل الآتي: "لذلك جمعنا كتبًا يونانية كثيرة وقابلنا النسخة العربية على تلك النسخ المستعملة في كنايس الروم مقابلة مضبوطة بغاية التدقيق على يد من هو متمكن بمعرفة اللغتين اليونانية والعربية، فلا تنسبن ما تراه متغيراً عن النسخة العربية القديمة إلى التحريف والغلط، وما لا يتغير إلى السهو والشطط إذا كنت لا تعرف قواعد هاتين اللغتين؛ لأن من عرف ذلك يمدح هذا العمل ويبريه من شوايب الزلل(١٥٨) .

إن نصوص الكتب المقدسة المسيحية التي طبعت بالشوير، كانت تلك المستعملة في الكنائس الشرقية وليست تلك المتداولة في كنيسة روما، وهذا خلافًا لما حصل للمارونيين، كما رأينا، الذين اتصلوا بكتب الإنجيل من روما مطبوعة حسب النص اللاتيني، إن الكتاب المطبوع بالشوير لم يعمل على "رومنة " الطقوس والكتابات الدينية الموجودة عند الطائفة الملكية ، بل سعى إلى المحافظة على طابعها الشرقي وذلك بتوفير أكبر عدد من النسخ من النصوص الدينية العربية المحققة حسب الأصل اليوناني.

هناك طريقة أخرى في التحقيق ليست صارمة، بل اتسمت بالتساهل في نقل النصوص إلى العربية دون التشدد في تغيير كل الألفاظ والتعابير. والسبب في ذلك كما ذكره الناشرون هو : "فجمعنا نسخًا يونانية كثيرة فرأيناها تختلف عن بعضها اختلافًا باللفظ عرضيًا لا اختلافًا بالمعنى جوهريًا، فاثبتنا ما وجدنا له اصلاً في بعض النسخ اليونانية أو عند بعض الآباء المفسرين وإن لم يوجد في جميعها وذلك مراعاة للنسخة العربية التي قد اندرجت على أسماع الناس وألسنتهم...» [١٥٩] . إن مطبعة الشوير كانت حريصة على عدم التسبب في صدم شعور المسيحيين وتقاليدهم وعاداتهم في قراء ة النصوص الدينية حسب النص العربي القديم، وهذا لا تتسبب فيه التعابير القديمة في تحريف المعنى الأصلي في كل مرة . إن الغرض من الكتاب المطبوع ليس إحداث ثورة في الطقوس والقراء ات المسيحية، بل ضمان الاستمرارية في هذه الطقوس حتى يتآلف ويتقارب ويتحد كل أبناء الطائفة الملكية حول نصوص موحدة.

لقد تصرف رؤساء الرهبانية الشويرية بكل حرية عند مراجعة الكتب الدينية دون أن تمارس عليهم أية ضغوطات من أية جهة كانت، بما في ذلك كنيسة روما. وقد وجهوا منشوراتهم إلى الطائفة الملكية التي كانت تعتمد على النصوص اليونانية وليست اللاتينية، وهذا بالرغم من وجود حزب يوناني كاثوليكي متحد مع روما، إذ بقي محافظًا على توجهه الشرقي، وحرصت المطبعة على أن تكون منشوراتها في خدمة كل أبناء الطائفة الملكية الكاثوليكيين

منهم والأرثوذكس، ولم يلتجئ أصحابها إلى إصلاح المخطوطات إلا إذا كان النص مشوهاً والمعنى محرفاً. لقد صمم الكتاب المطبوع للتعريف بالترجمات العربية للكتب المسيحية المقدسة ونشرها لدى أوساط الطائفة المسيحية، فالهدف إذن ديني ثقافي.

إنه من الملاحظ أن الأسلوب اللغوي المستعمل في الكتب المطبوعة بالشوير ضعيف وغير متماسك، وأحياناً توجد جمل وفقرات غامضة المعنى وقريبة من العربية العامية. وبالمقابل وبالرغم من أن اللغة العربية الفصحى، لا يعرفها إلا النفر القليل من أبناء الطائفة فإن رجال الدين كانوا كثيراً ما يستعملون ألفاظاً صعبة وغير متداولة ، الأمر الذي يجعل الكتاب عسير الفهم على القارئ.

٤.٢ - إسهام منشورات الشوير في تطوير الحياة الفكرية والثقافية:

أصدرت مطبعة الشوير فيما بين ١١٤٧هـ/١٧٣٤م - ١٢٠١هـ/١٧٨٧م، تسعة عشر كتاباً من بينها أحد عشر كتاباً أعيد طبعها. وقد أعيد طبع بعض الكتب مثل: **المزامير** (خمس مرات) **الرسائل** (ثلاث مرات) **الأورولوجيون** (مرتين) **الأكطويخوس** (مرة واحدة). إن معدّل نشر الكتب في المدة التي ندرسها هو كتاب واحد لكل سنتين. إلا أن درجة التواتر تختلف فهناك سنوات طبع فيها أكثر من كتابين مثل سنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م التي شهدت صدور ثلاثة كتب (**المزامير، واحتقار أباطيل العالم، والاقتداء بالمسيح**) أما سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م فقد شهدت صدور كتابين (**المزامير، البرهان الصريح**). وهنا نشير أنه في هاتين السنتين أعيد طبع كتاب المزامير، وهي عملية فنية يسيرة لا تتطلب تصفيف الحروف من جديد فالنص جاهز وهو محفور على المعدن وقد شهدت بعض السنوات انقطاعاً عن النشر مثل الفترة الممتدة بين سنتي ١١٥٣هـ/١٧٤٠م و١١٧٨هـ/١٧٦٤م وهذا بسبب القطيعة بين الرهبان الشويريين واليسوعيين على ما يبدو ، وبسبب قضية العابدات أثناء الفترة الممتدة

فيما بين ١١٧٨هـ/ ١٧٦٤م و١١٨١هـ/ ١٧٦٧م وأيضاً ١١٨٦هـ/١٧٧٢ و١١٨٩هـ/١٧٧٥م، وسبب توقف المطبعة يعود إلى الخلاف الذي حصل بين مدير المطبعة سليمان قطان ورؤساء الرهبانية الشويرية إلا أن كل هذه المشاكل لم تمنع مطبعة الشوير من مواصلة نشاطها رغم موت مؤسسها إلى أن تفاقمت مشاكلها المالية، وقد توقفت لمدة طويلة في بداية القرن ١٣هـ أو أواخر القرن ١٨م.

١.٤.٢ - محتوى منشورات الشوير :

تعالج جميع الكتب الصادرة بالشوير مواضيع دينية ، موزعة بين أجزاء من الكتب المسيحية المقدسة ومن الطقوس والأخلاق والزهد والتصوف والدفاع عن المسيحية. ويمكن تفسير هذا الاختيار مباشرة بتوجه رجال الدين الذين أشرفوا على هذه المطبعة والتي يوجد مقرّها في دير للرهبان لخدمة الدين المسيحي أساساً. وإن كان الناشرون يذكرون أسباب اختيارهم لهذه الكتب دون غيرها على غرار الناشرين بحلب بعبارات عامة وغامضة مثل: النفع العام، وكتب ضرورية ومهمة للتعليم وعموماً فقد صدر كتاب الشوير لتقديم النفع للطائفة الملكية ولكن بأي شكل وكيف كان ذلك؟.

أ - الكتب الدينية :

هناك أجزاء من الإنجيل والتوراة طبعت حسب الترتيب الذي وضعه رجال الكنيسة الشرقية مثل المزامير، والإنجيل والرسائل وكتاب النبوات. وفي كل مرة تذكر فوائد الكتاب في مقدمته، من ذلك ما ورد في مقدمة المزامير طبعة ١٤٤٨هـ/١٧٣٥م من أن هذا السفر يعدّ "ينبوع الحياة والخلاص" وأنه يشفي الروح، وكذلك ورد في مقدمة كتاب الإنجيل (طبعة ١١٩٠هـ/١٧٧٦م) " فلذلك اعتنينا بطبعه ليسهل اقتناؤه لجميع الأنام وتشمل إفادته الخاص والعام" كما وردت تفاصيل أكثر حول فوائد هذه الكتب من ذلك ما ذكر في مقدمة كتاب

الأورولوجيون (طبعة ١١٧٧هـ/١٧٦٣م) " فمن ثم إذ رأى مجمع رهبان مار يوحنا الروم الباسيليين القانونيين احتياج الكهنة والعوام إلى هذا الكتاب الذي يتعسّر حصوله خطا (أي في شكل مخطوط) على الطلاب قدموه مطبوعاً للكنيسة المذكورة لتسهيل العبادة وتعميم الإفادة".

إن هذه الكتب كانت موجهة للروم الكاثوليك والأرثوذكس على حد سواء بما أنها أجزاء من الكتب المسيحية المقدسة وما حرص مطبعة الشوير على طبعها إلا لتوفيرها بأعداد كافية لأبناء الطائفة حتى تحصل لهم "الفائدة" وهذا بعد أن وقفت على حاجة رجال الكنيسة الشرقية وأيضاً عامة المسيحيين العرب لها خاصة، وإنه يتعذر عليهم اقتناؤها مخطوطة نظراً لندرتها أو غلاء سعرها، وبالخصوص نظراً لاحتواء المخطوط منها على أخطاء كثيرة سببها جهل الناسخين واختلاف الروايات الدينية. فكانت مطبعة الشوير تحرص على دعوة القراء إلى اعتماد الكتب المطبوعة فحسب دون المخطوطة منها(١٦٠) .

وعلاوة على ذلك، كان للكتاب المطبوع هدف آخر إلى جانب هدفه الديني وهو هدف تربوي تعليمي، فقد دعت مطبعة الشوير على سبيل المثال وعلى غرار مطبعة حلب إلى اعتماد كتابي المزامير والرسائل ككتب مدرسية لتعليم الأطفال. وقد ركزت مقدمات هذين الكتابين على هذا الجانب فبالنسبة لكتاب المزامير (طبعة ١١٤٨هـ/١٧٣٥م) ورد ما يلي: "فقد طبع الآن حديثاً ليسهل اقتناؤه على الجميع ولا يتعذر أحد عن عدم اهتمامه بتعليم أولاده القراءة بمقولة لا أستطيع... ثم اعلم انه إذا كان هذا الزبور الإلهي يستعمله المؤمنون لتعليم الأولاد القرا ءة (كذا) العربية لم نرد أن نحذف من الأفعال المعتلة حالة الجزم وعدم الإسناد إلى الضمائر المتصلة ما يوجد فيها من أحرف العلة بل استثنينا هذه الأحرف في الحالة المذكورة حسب العادة الجارية من الكتبة الذين لا يفهمون اصطلاحات اللغة العربية، وذلك لكي لا تتعسر قراء ة هذه الأفعال على الأولاد المتعلمين ولا على غيرهم من الذين لا يحسنون النطق بها في حال حذف

هذه الحروف من المعلمين، لا سيما أن إثبات هذه الحروف في حالة الجزم قد سمع في لغات العرب فلا تنسبن ذلك إلى الجهل المشين بل اعتده تنازلاً ومراعاة لعدم فهم الذين لا يحسنون قراءتها إذ تكون على حرف واحد أو على حرفين".

لقد استعملت الحركات والعلامات، وذلك في كتابة نص المزامير الحركات والعلامات لتوضيح الكلمات العربية وتسهيلاً لقراءتها، هذا بالرغم من الصعوبات الفنية لطباعة نص عربي بهذا الشكل، وقد عدّه المطبعيون بالشوير كتاباً للنحو العربي يمكن من فهم بعض القواعد النحوية، فأبقوا ، على بعض الأخطاء النحوية ليفهم القارئ أصل الكلمة قبل إدغامها. إن كتاب المزامير كان جد مطلوب من طرف القراء للأسباب التي سبق ذكرها، وهذا ما يفسر إعادة طبعه خمس مرات في القرن ١٢هـ/١٨م، وحتى شكله المادي يسهل استعماله، فقد طبع في حجم صغير (طوله ١٦,٥ سنتيمتر وعرضه ١٠,٥ سنتيمتر وسمكه ٣ سنتيمترات) وهذا من شأنه أن يسهل استخدامه من طرف القارئ الصغير على عكس شكل المجلدات الكبيرة.

إن تعليم اللغة العربية يتم عبر كتاب المزامير وأيضاً الرسائل[١٦١] ، ولكن هذا لا يكفي بل وجب على كل من يريد حذق هذه اللغة أن يكمل تعلمه باستخدام كتب النحو العربي والدراسة بمدارس إسلامية. وقد وقف الناشرون بكسروان على خطورة الوضع الثقافي الناجم عن نقص المدارس، ففيه إضرار فادح بالطوائف المسيحية، لأن الجهال من العوام يمكنهم أن يضلوا عن الدين كما ورد ذلك على لسان عبدالله الزاخر الذي قال في أحد كتبه: "إن أكثر مسيحيي عصرنا هذا يجهلون هذه المعرفة وذلك لفقر اللغة العربية وعدم المدارس اللاهوتية (كذا)، فهم مسيحيون حقًا يقينًا لكن بالتسليم فقط دون المعرفة فلا يستطيعون أن يتكلموا أو يوضحوا حق ايمانهم بدون خطر الضلال والغلط" [١٦٢] .

إن الجهل والضلال الديني أمران متلازمان حسب رأي الزاخر، والمتعلم فقط هو القادر على فهم دينه فهماً صحيحاً، ويتبين أن دور المطبعة والكتاب الديني لا

يكتمل لدى الطائفة إلا إذا توافرت المدارس لتعليم الأطفال وتخريج أفواج من المتعلمين القادرين على قراء ة الكتب لذلك شعر المشرفون على مطبعة الشوير بهذه الثغرة التي تعيق إشعاع مطبعتهم، فعدد القراء ضعيف ولا يشجع على سحب عدد كبير من النسخ في كل طبعة، وبالتالي فإن المبيعات لا تغطي حتى مصاريف الطباعة كما سنرى فيما بعد.

ب - كتب الأخلاق والزهد والدفاع عن الدين المسيحي :

هذه الكتب هي من إنتاج المبشرين وهي مخصصة لتوجيه أبناء الطائفة[١٦٣]. وإصلاح الأخطاء والضلالات الموجودة. يقول عبدالله الزاخر حول كتابه الذي طبع في ١١٧٨هـ/١٧٦٤م: "إنه من المعلوم اليقيني أن جميع البدع ما ظهرت إلا لأن أصحابها إما أنهم جهلوا معرفة هذين السرين إما لأنهم لم يؤمنوا بهما كما يحق لهما " ...[١٦٤] .

إن الكتاب المطبوع مخصص حسب قول الزاخر إذن للقضاء على الضلالات وإنارة السبيل أمام أبناء الطائفة الذين إما أنهم نسوا أو أهملوا مبادئ دينهم. إن هذا المفهوم الذي يحمله عبدالله الزاخر عن دور الكتاب المطبوع يتكرر ويتأكد في عدد من الكتب الصادرة بالشوير، وإن كان ذلك بأسلوب مختلف إذ يقع التعرض إلى نظرة المشرفين عن المطبعة عن مفهوم الكتاب المطبوع لديهم وهو الكتاب الديني الذي جاء ليصلح الأخطاء الواردة في المخطوطات والمتمثلة في بعض الانحرافات الدينية وينشر المسيحية حسب المذهب الكاثوليكي، هذا علاوة على دوره التربوي والتعليمي خاصة لتعليم اللغة العربية الفصحى ولتقريب بعض المفاهيم الدينية للقارئ بشكل يسير كأن يأخذ الكتاب شكل حوار فيه أسئلة وأجوبة[١٦٥] . وهذه طريقة تربوية اعتمدها المبشرون لتبليغ مضمون المذهب الكاثوليكي إلى العوام والكهان.

أصدرت مطبعة الشوير كتبًا في الدفاع عن الدين المسيحي وكتب الأخلاق والزهد وهي من تآليف المبشرين من يسوعيين وكبوشيين وفرانسيسكان لنشر

مبادئ الكاثوليكية، وقد اختار المشرفون على المطبعة هذه الكتب المعاصرة خلافًا لمطبعة حلب التي اختارت المؤلفات اليونانية القديمة، وذلك للتعريف بالمذهب الكاثوليكي ولتدعيم الحزب الكاثوليكي بالمشرق، ويمكن القون إن مطبعة الشوير أنشئت أساسًا لخدمة المذهب الكاثوليكي ونشره بين أبناء الطائفة الملكية الشرقية وتكريس حركة الاتحاد بين كنائس الشرق وروما، ولم يكن لها أي توجه نحو خدمة العلوم والثقافة والتعريف بالمعارف الحديثة التي ظهرت بأوربا إلا إذا استثنينا توجهها بصفة غير مباشرة نحو نشر اللغة العربية لدى أبناء الطائفة.

٢.٤.٢ - التوزيع :

وجهت مطبعة الزاخر كتبها المطبوعة بصفة عامة نحو كل القراء النصارى بدون تمييز في المذاهب فهي تحث في العديد من المناسبات المسيحيين العرب من رجال الكنيسة والعوام على اقتناء كتبها والاطلاع عليها حتى يتفادوا الوقوع في الضلالات، فحرصت على توزيعه على أكبر عدد ممكن من القراء "فهذا الإيمان المقدس إذ قد حصلت حقايقه (كذا) مجهولة من كثيرين ألجاتنا الضرورة أن نجرد عمله العناية (كذا) والاهتمام بطبع هذا البرهان المختصر لتمكن مطالعته بتكريم ليفهم القارئ معانيه ويسهل على كل غني وفقير أن يقتنيه"[١٦٦] ، لم يوزع أصحاب مطبعة الشوير منشوراتهم مجانًا بل إنهم باعوها بثمن يعدّونه زهيداً بما أنهم كما يقولون يريدونه أن يقتنيها الغني والفقير، وهذا على عكس مطبعة حلب التي وزعت كتبها مجانًا. فقد ذكر عن طبعة "ميزان الزمان" الصادرة في ١١٤٧هـ/١٧٣٤م أنها: "طبعت بعد ضبط إعرابها لتمتد إفادتها إلى الجميع ويسهل اقتناؤها على كل ذي قدر ووضيع" [١٦٧] .

سلكت مطبعة الشوير في مجال التوزيع مسلكًا توفيقيًا بين عدم توزيع الكتب مجانًا وعدم بيعها بأسعار باهظة، والسبب في عدم إهدائها للكتب يكمن على ما يبدو في عدم حصولها على مساعدات مالية مثل تلك التي حصلت عليها مطبعة حلب، فكنيسة روما والبعثات التبشيرية لم تقدم مساعدات ذات بال لمطبعة

الزاخر[١٦٨] ، عكس ما حصلت عليه مطبعة أثناسيوس الدباس في حلب من أموال من حاكم بلاد الفلاخ وبعض أغنياء الطائفة الأرثوذكسية، لقد كانت مطبعة الشوير مستقلة مادياً وكانت تمول مشاريعها بنفسها بفضل العائدات المتأتية من مبيعات كتبها، وبذلك كانت تتمتع بحرية في تسيير المطبعة واختيار مواضيع كتبها.

كانت مطبعة الشوير تؤكد في كل مطبوع أن أسعار كتبها زهيدة وتبرر توجهها نحو بيع الكتب وليس إهدائها بأن ثمن مطبوعاتها في متناول الغني والفقير، وبخاصة أن المخطوطات كان ثمنها جد مرتفع، هذا علاوة على أنها مليئة بالأخطاء فقد ذكر في مقدمة كتاب النبوات الذي طبع في ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م ما يلي "ثم بعد هذا التعب والضبط على قواعد لغة العرب، استصوبنا أن نحرره بالمطبعة لامتداد الخير وزيادة المنفعة ولكي ينحفظ من غلط الكاتبين ويسهل ثمنه على الطالبين".

ولنا أن نتساءل : ماذا عن حقيقة هذه الأثمان فهل هي حقًا في متناول الجميع؟، لقد حفظت لنا أرشيفات الرهبانية الشويرية بعض الأرقام عن هذه الأسعار ففي الرسالة التي بعثها عبدالله الزاخر إلى الأب فروماج سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م وردت بعض الأرقام :

- كتاب **ميزان الزمان** سعره ثلاثة قروش.
- كتاب **المزامير** سعره قرش ونصف.
- كتاب **تأملات الأسبوع** سعره قرش ونصف [١٦٩] .

ويتبين أن أسعار الكتب تتراوح بين قرش ونصف وثلاثة قروش ونصف أي ما يعادل آنذاك أجرة عامل يعمل فيما بين أربعين يوماً وثلاثة وتسعين يوماً[١٧٠]. إن هذه الأرقام تبين بصفة عامة أن أثمان الكتب مرتفعة. إلا أن البعض منها يبقى في متناول عدد كبير من أبناء الطائفة خاصة بالنسبة لكتاب المزامير الذي

وجد إقبالاً أكثر من غيره من الكتب، لأنه يستعمل عندهم لتعليم الأطفال(١٧١) . مما يفسر إعادة طبعه خمس مرات كما رأينا. كذلك هناك كتب أخرى أعيد طبعها نظراً لنفاد الطبعة الأولى وحتى بعض أجزاء من الكتاب المقدس أو الطقوس مثل الرسائل والأرولوجيون والأكطويخوس.

إن منشورات الشوير وجدت إقبالاً عند انطلاق المطبعة، حتى أن أعداء عبدالله الزاخر لم يترددوا في اقتنائها، حيث إنهم وجدوها جميلة وخالية من الأخطاء على حد تعبير الرحالة فواني(١٧٢) ، وعلاوة على بيع الكتب كان الزاخر يهدي البعض منها إلى بعض الأوربيين. وذلك اعترافًا منه بمساعداتهم التي قدموها عند تأسيس المطبعة، فكان أن أهدى منشوراته إلى المبشرين من يسوعيين وكبوشين وأيضًا إلى التجار الفرنسيين وحتى إلى قنصل فرنسا بصيدا وطرابلس لبنان(١٧٣) ودمشق وحلب وحمص والقاهرة والإسكندرية وعكا وأيضاً مدينة روما التي كانت إلى جانب مصر وحلب أهم مراكز التوزيع(١٧٤) .

تراجع نشاط المطبعة شيئًا فشيئًا بعد موت مؤسسها سنة ١١٦٠هـ/ ١٧٤٨م، وتقلص عدد الكتب المطبوعة بعد ذلك التاريخ، نظراً للصعوبات المالية التي كانت تعيق السير الطبيعي للمطبعة. فالأرباح ضئيلة؛ لأن الكتب المطبوعة بها لا تباع إلا قليلاً. وبالمقابل كانت المصاريف باهظة إلى حد أن المطبعة التجأت إلى التداين لشراء الورق، قبل أن تتوقف تماماً عن العمل للسبب نفسه ١٢١١هـ/١٧٩٧م(١٧٥) .

٣.٤.٢ - نتائج نشاط مطبعة الشوير :

ما نتائج نشاط مطبعة الشوير وتأثيرها على محيطها الثقافي؟، وما دور الكتاب المطبوع عند الطائفة الملكية؟، وما مفهوم المطبعة لديهم؟.

بما أن مطبعة الزاخر كانت تقوم بإصدار النصوص الدينية بأعداد وافرة، فإنه لا يوجد نظرياً نقص في الكتب لدى الطائفة الملكية ، وهذه المنشورات كانت

موجهة نحو الفقراء والأغنياء على حدّ سواء بما أن أسعارها كانت نسبيًا في متناولهم. ولكن هل كان باستطاعة كل الملكيين الروم قراء ة هذه النصوص؟؛ خاصة وكما رأينا فإن الأمية كانت منتشرة في الأوساط الشعبية ولا يوجد إلا عدد ضعيف من المتعلمين ومن الأطفال الذين يرتادون المدارس القليلة التي أنشأها المبشرون بهذا الخصوص . وجل هؤلاء المتعلمين من رجال الدين بعد أن درسوا في مدارس روما أو مدارس المبشرين ببلاد الشام، انضموا إلى كنيسة الروم الملكيين. أما عن الأميين فقد فكرت مطبعة الشوير في وضعيتهم فكانت تدعوهم إلى حضور القراء ة الجماعية للنصوص الدينية المطبوعة التي تنظم بالكنائس، وأيضًا إلى شراء كتاب المزامير: لتعليم أبنائهم القراء ة من خلال النص الديني.

حرص عبدالله الزاخر ورؤساء الرهبانية الشويرية على تشجيع القراء ة وذلك بنشرهم لكتب مكتوبة بخط جميل واضح، وأحيانًا توجد ببعض الكتب الحركات والعلامات على الحروف العربية. واستعمل الحبر الأحمر والأسود لمزيد من الوضوح ، وحرصت المطبعة على إرسال هذه الكتب ووضع الأختام المذهّبة عليها لتعطيها رونقًا وجمالاً أكثر ، هذا من حيث الشكل، أما من حيث المحتوى فالنصوص الدينية تمت مراجعتها سواء منها الكتب المقدسة التي وقع تحقيقها حسب الأصل اليوناني أو النصوص الحديثة التي تمت مراجعة ترجمتها وإصلاح الأخطاء اللغوية والنحوية من طرف بعض الكفاء ات. والهدف من ذلك هو دفع الطائفة إلى اعتماد هذه الكتب المطبوعة دون المخطوط منها الذي لم يعد قادرًا على مضاهاتها لا من حيث الشكل ولا من حيث دقة المحتوى.

وكان من نتائج عمل المطبعة أن أقبل المسيحيون على اقتناء مطبوعاتها منصرفين بذلك تدريجيًا عن المخطوط، وهذه النتيجة أقرها الرحالة الفرنسي فولني الذي زار جبل كسروان حيث قال "إن تأثير المطبعة كان ناجحًا حيث إن

مؤسسة ماريوحنا رغم نقائصها أحدثت تغييراً ملحوظًا، ذلك أن فن القراءة والكتابة وحتى نوع من المعرفة أصبح منتشراً اليوم أكثر مما كان عليه الحال قبل ثلاثين سنة[١٧٦] .

لاحظ هنا الرحالة الفرنسي نوعًا من التقدم الثقافي بفضل عمل الشوير التي دفعت بالمسيحيين إلى القراءة والاهتمام بالكتاب، ولكن ما هو مدى أهمية هذا التحول إذ كان عدد القراء ضعيفًا وبالتالي فإن "العرض" كان يفوق " الطلب " مما يجعل إشعاع المطبعة محدوداً أضف إلى ذلك توجهها نحو طبع الكتب الدينية فقط، ويرى الرحالة الفرنسي فولني أن مطبعة الشوير أساءت الاختيار عندما اقتصرت على طبع الكتب الدينية فحسب، التي من شأنها أن تنفر الناس من العلوم، ولم تنشر بالتالي كتب الآداب والفنون التي تنهض بالعقول والأذواق. ويشبه فولني هذه السياسة بالسياسة التي انتهجتها المطابع الأوربية في بداية عملها، خاصة بإنجلترا وألمانيا وفرنسا حيث أصدرت كتب الإنجيل والطقوس المسيحية التي أدت إلى الانقسامات والفوضى السياسية وتسببت في تأخر العقول، ويضيف فولني قوله " لو أن مطبعة الشوير نشرت كتبًا لها فوائد اجتماعية لقدمت خدمات جليلة لسكان كسروان والدروز وكل بلاد الشام وأدت إلى تغيير النظام السائد هناك" [١٧٧] .

لقد أشار فولني إلى مطبعة الشوير عندما أثار قضية "أسباب جهل الشرقيين" [١٧٨] ، حيث ذكر أن أهم سبب هو قلة الكتب وغياب المطبعة، وأن مطبعة الشوير لم تؤد إلى الإشعاع الثقافي عند العرب حيث إنها لم تهتم بنشر كتب الآداب والعلوم التي تثقف الناس وتنهض بالعقول إن الرحالة فولني كان متأثرًا بالأفكار الرائجة ببلده قبل الثورة الفرنسية. وكان يرى الشرق بمنظار لائيكي غربي يندد بالانقسامات الدينية في أوربا التي سببها ظهور البروتستانتية وردود فعل كنيسة روما العنيفة عليها، والتي أدت إلى حروب دينية هناك مما أدى إلى تخلف الناس وانتشار الجهالة ومن هنا كان هجوم الرحالة الفرنسي عنيفًا

على الخطة التي انتهجتها مطبعة الشوير. فهو يرى أنها تغذي الصراعات الدينية وتؤذن بحصول المآسي نفسها التي حدثت بأوربا، وهو يقترح في الآن نفسه على هذه المطبعة أن تتجه نحو طبع كتب العلوم حتى تسهم في نشر المعارف الأوربية الجديدة وتثقيف الناس، وتنمية الأفكار حتى ينتشر الوعي لدى أبناء المشرق ويتغير النظام السياسي عندهم على غرار ما كان يقع إعداده في فرنسا.

إن الرحالة الفرنسي يريد نشر الكتب على نطاق واسع حتى تسهم في إحداث التحولات الاجتماعية والسياسية في المشرق. والمطبعة حسب رأيه هي "المحرك الحقيقي للثورات " (١٧٩) . وهي الأمل الوحيد الذي ينشده أهل الشرق لنيل الحرية والتخلص من سلطة الحكام العثمانيين مثل الجزار باشا حاكم عكا في ذلك العهد.

إن الرهبانية الشويرية لم تكن ترى الرأي نفسه، فالمطبعة بالنسبة لها ليست وسيلة لإحداث الانقسامات بل على العكس هي أداة ناجعة للقضاء على الضلالات والفتن الدينية المنتشرة لدى مسيحيي المشرق والتي روجتها المخطوطات الدينية. إن المطبعة حسب اعتقادها ستلعب دور "المحرك الحقيقي للوحدة المسيحية" حيث إنها تسعى إلى جمع كل المسيحيين بالمشرق حول نصوص دينية موحدة، وبالتالي فإنها ستدعم الروابط الروحية بين أبناء الطوائف المسيحية بالشرق من جهة وبين هؤلاء وإخوانهم المسيحيين المنتمين لكنيسة روما من جهة أخرى.

إن منشورات الشوير لن تؤدي حسب مفهوم الزاخر ورؤساء الرهبانية الشويرية إلى تأخر العقول بل إلى تقدمها وإنارتها، إذ ستدفعها نحو "معرفة الطريق الصحيح للعبادة " ، ولا تكمن فائدة النص المطبوع في نشر المؤلفات غير الدينية فحسب ، بل التعريف بالكتب الدينية التي "تحضر النفوس للحياة

الأبدية". وهذا المفهوم هو الذي كان سببًا في توجه مطبعة الشوير توجهًا دينيًا بحتًا.

٣ - المطبعة العربية ببيروت :

لا يعرف عن هذه المطبعة إلا النّزر القليل؛ لأنها اختفت مع وثائقها بعد مدة قصيرة من نشأتها تحت أنقاض المبنى الذي كان يؤويها والكنيسة المجاورة لها "القديس جيورجيوش" في ١١٨١هـ/١٧٦٧م إن منشوراتها قليلة ونادرة جداً في المكتبات الكبرى في العالم، وأندر من ذلك الدراسات والبحوث الحديثة المتعلقة بها ولم نتمكن إلا من جمع بعض المعلومات عنها من مصادر تعود إلى القرنين ١٣ و١٤هـ/١٩ و٢٠م.

١.٣ - حالة المسيحيين ببيروت في منتصف القرن ١٢هـ/ ١٨م :

كانت بيروت المدينة الثانية على ساحل جبل لبنان بعد طرابلس من حيث عدد السكان(١٨٠) . ويعد المارونيون، وهم تحت رعاية الأمراء الدروز، أهم طائفة تقطن المدينة. وكانوا قد استقروا بأعداد غفيرة بها منذ الحملات الصليبية(١٨١) ، أما الروم الأرثوذكس فيأتون في المرتبة الثانية من حيث العدد، وكانوا قد أسسوا بعض الأديرة ببيروت، وقد شملت الدعاية الكاثوليكية هذه المدينة في بداية القرن ١٢هـ/ ١٨م(١٨٢) .

تعد بيروت من المدن التجارية المهمة وقد ازدهرت خاصة في عهد الأمير الدرزي فخر الدين الثاني. وقد استقر بها التجار الأوربيون وخاصة من البندقية، وأسسوا بها مصارف وقد استغل المارونيون والروم الأرثوذكس هذه الوضعية، وكما هو الشأن بحلب، لتوسيع تجارتهم. إلا أن المدينة عرفت مدة ركود بعد وفاة فخر الدين حتى مجئ الأمير ملحم شهاب، الذي استقر بها نهائيًا في ١١٦٨هـ/١٧٥٤م وحرص على النهوض بها. وقد ازدهرت التجارة بها من

جديد خاصة عندما قررت الحجرة التجارية بمرسيليا إقامة مصارف بها. وبدأ التجار الفرنسيون الذين انزعجوا من تصرفات باشوات عكا وصيدا في مغادرة هاتين المدينتين للاستقرار ببيروت (١٨٣) .

وفي هذه المدة بالذات عرفت المدينة حدثًا ثقافيًا مهمًا تمثل في إنشاء ثالث مطبعة عربية مسيحية ببلاد الشام. وكانت نقطة بداية لحركة نشر عريقة ونشيطة جعلت من بيروت أكبر مركز للنشر في البلاد العربية إلى جانب القاهرة حتى اليوم. إن ظروف نشأة المطبعة ببيروت كانت مشابهة لظروف تأسيس مطبعة حلب، إذ أن بطريرك أنطاكية تحول إلى رومانيا لطبع كتب دينية قبل أن يتوصل إلى تأسيس مطبعة جديدة في جبل لبنان، وذلك بفضل مساعدة بعض الأغنياء ببيروت. هذا البطريرك يدعى سلفستروس القبرصي.

٢.٣ – أصل مطبعة بيروت : مطبعة جاسي في بلاد الفلاخ :

١.٢.٣ – البطريرك سلفستروس :

خلف البطريرك سلفستروس القبرصي أثناسيوس الثالث دباس على كرسي البطريركية فيما بين سنتي ١١٣٧هـ/١٧٢٤م و١١٨٠هـ/١٧٦٦م، وقد ولد سلفستروس في ١١٠٨هـ/١٦٩٦م بقبرص وتتلمذ على يد أثناسيوس ثم عين راهبًا في دير جبل طوس(١٨٤) .قبل أن يصبح بطريركًا لأنطاكية بقرار من بطريرك القسطنطينية، وهذا الأخير كان يرمي من تعيين هذا الأرثوذكسي المتصلب إلى منع ازدياد عدد الملكيين الكاثوليكيين ببلاد الشام.

تحول سلفستروس إلى رومانيا في ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، حيث مكث بها مدة أربع سنوات واستقر هناك في جاسي قرب بوخاريست. وقد لقي ترحيبًا كبيرًا من حاكم بلاد البغدان الأمير قسطنطين ابن نيقولا بك، الذي ساعده هناك على طبع كتب عربية. فعمل على إعداد حروف عربية في دير القديس سابا في بوخاريست، ثم في مدينة حلب بمساعدة اثنين من المطبعيين السوريين هما

الشماس جرجس الحلبي والراهب ميخائيل بازي من قرط الذهب بلبنان. وقد نشرت ورشة الطباعة بجاسي خمسة كتب دينية على الأقل بين كتب الطقوس والجدال.

٢.٢.٣ - الكتب الطقسية :

- **القنداق** (ليترجكون) طبع في ١١٥٨هـ/١٧٤٥م. وفي المقدمة يذكر البطريرك أنه راجع كل النص وأصلح الأخطاء اللغوية والنحوية التي تسربت إلى الطبعة الأولى التي أشرف على إصدارها البطريرك السابق أثناسيوس في بوخاريست سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م.
- كتاب **الزبور الشريف** : صدر في ١١٦٠هـ/١٧٤٧م، ويتحدث سلفستروس في المقدمة عن مجهوده في بلاد البغدان للحصول على كتب عربية لفائدة المسيحيين، وأنه أصدر كتاب الزبور لتمكين الأطفال من التعلم وتوفير الكتب المقدسة بسعر زهيد في متناول الفقراء [١٨٥] .

٣.٢.٣ - كتب الجدال :

- **أعمال المجمعين الكنسيين الملتئمين في القسطنطينية** : نشر في ١١٦٠هـ/١٧٤٧م[١٨٦] . هذا الكتاب يتضمن خمس رسائل جدلية ضد الكنيسة الرومانية، وهي بمثابة الرد على التغييرات الخمسة التي أدخلها الكاثوليكيون على المذهب المسيحي، ويتضمن الكتاب دستوراً للكنيسة الشرقية[١٨٧] .
- كتاب : **العشاء الرباني**" طبع في ١١٦٠هـ/١٧٤٧م، وهو ترجمة عربية لكتاب الطبيب أنستراتيوس أرجنتس، قام بها مسعد نشو.
- **قضاء الحق ونقل الصدق** : صدر في ١١٥٩هـ/١٧٤٦م كتاب لبطريرك بيت المقدس نكتاريوس كتب باليونانية للرد على الكاثوليكيين (ترجمه إلى العربية سلفستروس وفيه ملحق ضد عصمة بابا روما؛ كتبه أنتراسيوس أرجتنس وترجمه إلى العربية أيضاً مسعود نشو. وقد ذكر المؤلف في المقدمة أن البابا سعى إلى نشر "الضلالات" في أوساط المسيحيين العرب عن طريق تلاميذ

"مضللين" قدموا إليهم "لهدم" ديانة الأرثوذكس ونشر التفرقة بين الناس، وأن المؤلف قـرر الرد على هذه الآراء ودحض هذا المذهب ليسـتـفـيـد بذلك كل الأرثوذكس ويتجنبوا الوقوع في الشك والحيرة.

ومن خلال هذا النص يتبين توجه هذه المطبعة الجدلي للرد على الكاثوليكيين وتفنيد مذهبهم. وهذا التوجه رسمه البطريرك سلفستروس لتسير عليه مطبعة جاسي برومانيا إلا أنها سرعان ما توقفت عن النشاط إثر عودة البطريرك إلى سوريا في ١١٦٠هـ/١٧٤٧م.

٣.٣ – مطبعة القديس جيورجيوس ببيروت :

١.٣.٣ – تأسيس المطبعة :

هناك روايتان مختلفتان حول ظروف تأسيس مطبعة بيروت وخاصة حول مؤسسها. فالرواية الأولى تتحدث عن سلفستروس على أنه مؤسس المطبعة. والثانية تذكر اسمًا ثانيًا وهو أبو عسكر أحد الروم الأرثوذكس. فمن هو المؤسس الحقيقي للمطبعة؟.

أ – دور سلفستروس :

إن الرواية الأولى التي تتحدث عن بداية مطبعة بيروت هي لمؤلف غير معاصر لتلك المدة وهو الخوري أغسطينوس مقصود، ويعود تاريخ رسالته إلى ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م ويقول فيها " اتجد في مدينة بيروت أوايل مطبعة والمظنة أنها هي مطبعة حلب.... فلما حضر سلفستروس مثيرًا اضطهادًا قويًا... حضر إلى بيروت وأرسل جاب المطبعة من حلب ودوّرها في بيروت والفقير اطلعت على كتاب الزبور من مطبعة بيروت ومختصر سواعيه... وبعد حين انطوت في انطوش جماعة الروم الغير الكاثوليك " (١٨٨) . يقدم صاحب الرسالة معلومات غير دقيقة وغير مؤكدة حول تأسيس المطبعة، فهو لم يواكب تلك المدة وينطلق من

افتراض ليبّين مصدر آلات مطبعة بيروت، حيث يفترض أنها جاء ت من حلب. إلا أنه لو بقيت أحرف وآلات مطبعة أثناسيوس بحلب صالحة للاستعمال بعد أن هجرت منذ أربعين سنة لكان سلفستروس قد استخدمها بحلب نفسها عوضاً عن أن يتوجه إلى بلاد الفلاخ ثم إلى بيروت لطبع كتب جديدة. لذلك نستبعد فرضية أغسطينوس مقصود ونرى أن تجهيزات مطبعة بيروت جديدة، وأنها استحدثت خصيصاً لها. أما عن مؤسس المطبعة فهو سلفستروس حسب رأي مقصود وهذا ما تعارضه رواية ثانية تقدم أبا عسكر على أنه مؤسس المطبعة.

ب - دور أبي عسكر :

تتحدث الرواية الثانية للأب لويس شيخو[١٨٩] عن شخص ثانٍ هو الشيخ يونس بن نيقولا الجبيلي المعروف بأبي عسكر، وهو أحد أعيان الروم الأرثوذكس وله علاقة متينة بحاكم عكا. وهذا الأخير عينه عاملاً لاستخلاص المعاليم في قمارق بيروت وكلفه بتنظيم الشرطة هناك. وقد كان رجلاً ثرياً إلى درجة أنه سعى إلى تمكين طائفته من مطبعة ومن كنيسة. وفعلاً بنى كنيسة في ١١٧٨هـ/١٧٦٤م، إلا أنها انهارت بعد سنتين فقط. ومات تحت أنقاضها كثير من الناس وقام أبو عسكر بإعادة بنائها في ١١٨٦هـ/١٧٧٢م. وقد خامرته فكرة إنشاء مطبعة بعدما وقف على فوائد هذه المؤسسة من خلال تجربة الشوير[١٩٠] فموّل على حسابه الخاص مشروع المطبعة وكلف بعض المتخصصين بإعداد حروف عربية حسب نماذج حروف الشوير.

إن هذه الرواية لا تذكر ألبتة اسم البطريرك سلفستروس، ولا أي دور قد يكون لعبه في تأسيس مطبعة بيروت وتقتصر فقط على تقديم أبي عسكر على أنه مؤسس هذه المطبعة. لئن بدت كلتا الروايتين مختلفتين، فإن ذلك لا يمنع حسب رأينا من أن تكونا متكاملتين، إذ يبدو أن كلا من الرجلين قد لعب دوراً معيناً في عملية تأسيس المطبعة. فالبطريرك سلفستروس هو الذي أعد المشروع

منذ أن كان في بوخاريست، ولكنه لم يتمكن من تنفيذه إلا بفضل المساعدة المالية التي قدمها أغنياء الطائفة الأرثوذكسية لبيروت وخاصة منهم أبو عسكر الذي يتمتع بنفوذ واسع لدى أبناء طائفته وأيضًا لدى السلطات العثمانية. إن دور أغنياء الأرثوذكس في إصدار المنشورات العربية كان كبيرًا ، فهم الذين أسهموا كما رأ ينا في صرف الأموال اللازمة لطبع بعض كتب حلب، ويبدو أن إخوانهم ببيروت قد ساروا على نهجهم وهم الذين استفادوا بدورهم من التجارة الدولية التي اتخذت من بيروت مركزًا جديدًا لها، فشاركوا في تحقيق بعض المشاريع الدينية والاجتماعية والثقافية لفائدة طائفتهم. ويمكن القول إذن إن البطريرك سلفستروس هو الذي لعب الدور الأساسي في تأسيس مطبعة بيروت مع الاستفادة من مساعدة أبي عسكر المالية، وكان له من الخبرة العلمية والفنية ومن النفوذ الديني ما يؤهله لتنفيذ المشروع.

بالنسبة لاختيار مدينة بيروت لاحتضان هذه المطبعة لا توجد كذلك مصادر أصلية توضح هذه النقطة وتعطي تفاصيل إضافية عن أسباب هذا الاختيار خاصة وأن حلب هي مؤهلة أكثر من غيرها لاحتضان هذه المطبعة بعد أن اكتسبت تجربة وخبرة في مجال الطباعة. ويذكر مقصود في رسالته المذكورة سابقًا أن البطريرك سلسفستروس تحول إلى بيروت لاضطهاد الروم الكاثوليكيين الذين ازداد عددهم وأصبحوا مصدر إزعاج له ويمكن أن نستخلص من هذه المعلومة أن سلفستروس قد يكون وقع اختياره على بيروت لهذا السبب أي الاستفادة من خدمات مطبعة جديدة هناك للرد على كتابات الكاثوليكيين والمبشرين. ويبدو أن الهدف الذي حدده سلفستروس لمطبعة بيروت هو هدف جدلي على غرار التوجه الذي اختاره قبل ذلك بالنسبة لمطبعة جاسي. ولكن ما هو محتوى الكتب المطبوعة في بيروت؟.

٢.٣.٣ - محتوى منشورات بيروت :

لا نعرف عن منشورات هذه المطبعة سوى كتابين هما "المزامير" الذي طبع في ١١٦٥هـ/١٧٥١م وأعيد طبعه في ١١٦٧هـ/١٧٥٣م[١٩١] ، وكتاب "السواعي" (والأورولوجيون)، اقتصرت المطبعة إذن على إصدار كتب دينية وطقسية مطلوبة بكثرة وكانت مطبعتا حلب والشوير قد سبقتا بيروت إلى طبعهما مرات عديدة، ولم تتح الفرصة لسلفستروس لنشر كتب جدلية إذ توقفت المطبعة على ما يبدو دون أن تصدر كتبًا أخرى، وقبل انهيار كنيسة القديس جيورجيوس بوقت طويل[١٩٢] . فهل توقفت المطبعة لأسباب مالية ؟ ، أم بسبب رحيل البطريرك عن بيروت أم لأسباب أخرى؟ هناك تساؤلات أخرى كثيرة تبقى دون جواب، ونأمل أن تكتشف وثائق أصلية تلقي مزيداً من الأضواء على هذه المطبعة.

٤ - خاتمة الفصل الأول :

إن الكتاب المطبوع وهو رسول المعرفة بين الشعوب لم ينشر لدى الطوائف المسيحية بالمشرق سوى النصوص الدينية، ولم ينقل في القرن ١٢هـ/ ١٨م الأفكار الجديدة المنادية بالحرية والتي انتشرت بأوربا أو المعارف الحديثة التي ظهرت بأوربا بعد عصر النهضة. لم تسهم منشورات بلاد الشام حسب رأي فولني في تحريك الهمم لتغيير الوضع السياسي والتشجيع لمقاومة السلطة العثمانية ، وخصوصاً للاستفادة من الوضع الاقتصادي الجديد في حلب وجبل لبنان والذي يمكن المسيحيين مادياً من تأسيس المدارس ونشر المعرفة على نطاق واسع ونشر العلوم الحديثة.

عملت المطابع الثلاث بحلب والشوير وبيروت، بعدٌ مؤسسيها هم من رجال الدين المسيحي، على إنتاج الكتب الدينية لفائدة الطائفة الملكية الأرثوذكسية، وذلك لإثبات هويتهم وبلورة شعورهم الطائفي ولذلك توجهت توجهًا دينيًا بحتًا وإذا ما سعت إلى نشر النصوص المسيحية المقدسة حسب النصوص العربية المعتمدة لدى كنيسة الروم الأرثوذكس، فإنها لم تخف رغبتها في توظيف المطبعة في الجدل الديني القائم بين الأرثوذكس والكاثوليكيين. فكان أن عملت أولاً مطبعة الشوير على نشر المذهب الكاثوليكي. وكان رد فعل الأرثوذكس سريعًا ومباشرًا إذ أصدروا في مرحلة أولى كتبًا جدلية انطلاقًا من جاسي، على أن تتبعها إصدارات أخرى في مرحلة ثانية انطلاقًا من بيروت. إلا أن مطبعة بيروت لم تعمر طويلاً حتى تسهم في التصدي لتسرب المذهب الكاثوليكي.

ورغم هذا الصراع المذهبي الذي أسهمت في تغذيته هذه المطابع، فإنها كانت متّفقة على هدف واحد وهو مقاومة الضلالات الدينية والانحرافات، لكن كل واحدة حسب طريقتها الخاصة، وكانت متفقة أيضًا على التهجم على المخطوط الذي تسبب في تحريف النصوص الدينية وفي نشر الضلالات والتفرقة بين الكنائس الشرقية. ومن وراء المخطوط الناسخون وهم من الرهبان الجهال والمهملين الذين نسخوا مخطوطات مليئة بالأخطاء والتي كانت على نوعين: لغوية وعقائدية. بالإضافة إلى ذلك فإن الناسخين حسب بطاركة أنطاكية ورؤساء الرهبانية الشويرية، هم خمولون لا يبذلون المجهود الكافي لنسخ عدد كافٍ من المخطوطات مما جعل هذه الأوعية نادرة وباهظة الثمن. ونظرًا لكل هذه النقائص، دعا المطبعيون القراء إلى ترك الوعاء القديم للمعلومات مصدر الانشقاق والخطأ وتعويضه بالكتاب المطبوع. وهذا الأخير مدعوٌ لتقديم نصوص دينية سليمة من الأخطاء بكل أنواعها ولإرشاد المسيحيين إلى دينهم.

إن ظهور المطبعة يعني بداية عهد جديد حسب رأي أصحاب المطابع، عهد يقظة الطائفة الملكية الأرثوذكسية وتدعيم هويتها حسب قول البعض، وعهد نهاية الانشقاق وبداية الاتحاد مع كنيسة روما حسب قول البعض الآخر. إن نتائج نشاط المطابع الثلاث لم تكن على الدرجة نفسها من الأهمية، ذلك أن تأثير ورشتي حلب وبيروت في الحياة الدينية والثقافية، كان محدوداً لأنهما لم تعمّرا طويلاً إذ توقفتا بضع سنوات من تأسيسهما في حين أن مطبعة الشوير تمكنت من التغلب على المصاعب الفنية والمالية وواصلت نشاطها إلى نهاية القرن ١٣هـ/١٩م. وحققت بعض النتائج الإيجابية إذ طبعت في ظرف نصف قرن تسعة وعشرين كتاباً عربياً مسيحياً وأسهمت في تنمية الرغبة في المطالعة ووفرت الكتب للمتعلمين بأسعار مناسبة.

وبالرغم من محدودية نشاط هذه المطابع، فإنه لا ينبغي إغفال إسهامها في إدخال حركية جديدة في الحياة الثقافية. فعملية إقامة مطابع تعدُّ في حّد ذاتها تحولاً مهمّاً في المسار الثقافي للمسيحيين العرب، الذين وقفوا على مزايا هذه الأداة الثقافية الجديدة لمضاعفة إنتاج الكتب ونشر المعرفة وتنمية المطالعة، وبذلك يكونون قد وضعوا الركيزة الأساسية لحركة النهضة الأدبية التي شهدها القرن التالي، إذ غرست تقاليد جديدة لدى المتعلمين المسيحيين وتتمثل في التعامل مع الأدوات الثقافية الحديثة التي ستسمح لهم فيما بعد بمواكبة التطور العلمي الذي حققته أوربا.



كتاب

الانجيل الشريف الطاهر • والمصباح المنير الزاهر • مقسمًا
كنايسيًا على مدار السنة حسب ترتيب الابا القديسين الشرقيين •
مضبوطًا على اللغة اليونانية. وموافقًا النسخة العربية •
من غير تغيير ما اصلاً • على اننا حذفنا التفسير الموضوع
بتلك النسخة اى العربية اقتداءً بالاصل
اليوناني الذى لا يوجد به التفسير
• المذكور كما اوضحنا •
• في فاتحة •
الرسايل

كتاب الإنجيل المطبوع بمدينة الشوير ١٧٧٦م

الهوامش

(١) GOYAU, Georges, Un precurseur: Francois Picquet, Paris, Geuthner, 1942, p. 28.

(٢) Sauvage T, J, Alep: cssai sur le developpement d'une grande ville syrienne, Paris, Geuthner, 1941, T1, p. 200.

(٣) كان للإنجليز جالية تقدر بستين تاجرًا في سنة ١٠٧٢هـ/١٦٦٢م انظر : حتى، فيليب، تاريخ.... جـ٢، ص ٣١٩.

(٤) SAUVAGET, Alep, ... op. cit., T1, p. 210.

(٥) يرى الرحالة بسون أن حلب تعد في هذه الفترة المدينة الرئيسية بسوريا بفضل ازدهار تجارتها انظر: Goyau, Un procurseur...op. cit., p. 30.

(٦) RABBAT, Documents... op. cit., p 41 عبر الرحالة الأوربيون عن إعجابهم وتقديرهم لسكان حلب ولكرم الضيافة الذي يتميزون به انظر على سبيل المثال شهادة الرحالة فولني:

Volney, Voyage... op. cit., p. 275.

(٧) Sauvaget, Alep...op. cit; T 1 p. 206.

(٨) Chevallier, D, La societe... op. cit., p. 13.

(٩) Encycl. Islam, nouv. ed. article Farhat. Djermanus, T II, p 814.

(١٠) Vaumas, G, De, L'eveil missionnaire de la France, Lyon, Imprimerie express, 1942, p. 331.

(١١) Rabbat, Documents... op. cit, T 1, p. 51.

(١٢) Nasrallah, Histoire... op. cit, p. 58.

(١٣) Karalevsky, Charon, art. Alep in DHGE col 104; voir aussi Nasrallah, Notes... op. cit., T 1, pp. 137 - 138.

(١٤) Rabbat, Documents... op. cit., T1, pp. 530 - 537.

(١٥) Nasrallah, Histoire.. op. cit., vol IV, p. 52.

(١٦) المصدر السابق، ص ٦٣.

(١٧) Karalevsky Histoire des patriarcats. op. cit., T III. p 24.

(١٨) المصدر السابق ص ١٣٨.

(١٩) ظهرت الترجمات العربية الأولى للكتب المقدسة المسيحية منذ القرن ٢هـ وذلك بعد توسع الدولة الإسلامية وانتشار اللغة العربية ببلاد الشام حيث بدأ المسيحيون يستعملون هذه اللغة في طقوسهم.

Dictionnaire de la Bible. article Arabes. T 1, col. 845 - 856.

(٢٠) Karalevsky Histoire... op. cit., T III. p 45 - 46.

(٢١) يرى نصر الله ان عبدالكريم كرمي مترجم في حين يعارض كارلفسكي هذا الرأي ، ويعتقد أن كرمي لم يقم الا بمراجعة التراجم العربية للنصوص المقدسة المسيحية ، ويرى أن كرمي لا يمكن أن يكون مترجماً لأن عملية ترجمة كتاب مسيحي واحد يمكن أن تشغل حياة شخص بأكملها انظر:
Karalevsky, d'Histovie... op.cit., Nasrallah, Histoire.. op. cit., vol IV, p. 76. T3, p. 47.

(٢٢) كارلفسكي، المصدر نفسه، ص ٤٧ – ٤٨.

(٢٣) المصدر السابق، ص ٥٠.

(٢٤) Nasrallah, Histoire... op. cit., vol IV pp 85 - 86.

(٢٥) KARALEVSKY, Histoire... op. cit., T II, p. 54 سنعود بالتفصيل إلى هذه النقطة عند دراسة منشورات حلب والشوير.

(٢٦) Karalevsky, Histoire... op. cit., T III p. 48.

(٢٧) Nasrallah, Histoire... op. cit., vol IV, pp. 237 - 239.

(٢٨) يقول فولني إن المدارس الإسلامية لم تكن تقبل المسيحيين وحيث أن هؤلاء لا يعرفون إلا العربية العامية، فإنهم لم يتمكنوا من اتقان فن الجدال ولذلك لجأوا إلى كل الوسائل للتتلمذ على الشيوخ المسلمين، ومن ذلك دفع مبالغ مالية لهؤلاء ، وتمكنوا من حذق اللغة العربية والنحو
Volney, Voyage... op. cit., p. 292.

(٢٩) كان فرحات جرمانوس قسيساً بالكنيسة المارونية بحلب وكان شاعراً وقد ألف معجم اللغة العربية وكتاباً في النحو العربي
Encycl. Islam. nouv. ed. article FARHAT DJARMANUS, T II, pp. 814 - 815 .

(٣٠) Nasrallah, Catalogue des manuscrits du Liban, Beyrouth, Harissa 1958-1970. T1 p. 144. Jock, T, Jésuites et Chouérites, Paris, Geuthner, 1937.

(٣١) مثل الكتب التي تحدث عن الدين المسيحي للأب اليانو، وبلارمان وريشليو وغيرهم.

(٣٢) Nasrallah, Histoire... op. cit., vol IV, pp. 181-182.

(٣٣) المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٣٤) Vaumas, L'éveil... op. cit., p 329.
Goyau, Un précurseur... op. cit., pp. 30 - 31.

(٣٥) Sauvaget, Alep... op. cit., T II, p. 208.

(٣٦) المصدر السابق، ص ٢٠٨.

(٣٧) المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٣٨) D. H. G. E. article Alep. T II, col 103.

(٣٩) المصدر السابق.

(٤٠) ازدهرت حركة النشر العربي بأوربا في القرن ١٢هـ/١٨م، وقد ظهرت مطابع عربية جديدة في العديد من المدن مثل بوخاريست ومدريد ولشبونة وفيانا وغيرها. وقد بلغ عدد الكتب العربية المطبوعة في ذلك القرن حسب شنور ١٥٦ كتاباً.

Schnurrer, Bibliotheca... op. cit., pp. 401 - 403.

(٤١) Picot, E, "Notice sur l'imprimeur d'Ivir" in "Nouveaux mélanges orientaux publies par l'Ecole des Langues Orientales, Paris, Leroux, 1886 (2 serie, T XIX) p. 536.

(٤٢) Candea, Virgil, "Dialogue roumano-libanais sur le livre et l'imprimerie" in: le livre et le Liban... op. cit., p. 285; voir aussi Nasrallah, Histoire... op. cit., T IV, P.97.

(٤٣) CANDEA, "Dialogue... op. cit.," p. 284.

(٤٤) المصدر السابق، ص ٢٨٤.

(٤٥) Nasrallah, Histoire... op. cit., T IV p. 139.

(٤٦) Simonescu, Dan, "Impression de livres arabes et Karamanlis en Valachie et en Moldavie au XVIII siccle" in Studia et Acta Orientalia, n 5-6, 1967, pp. 50-51.

(٤٧) بالنسبة لترجمة اثناسيوس انظر : ادلبي، البطريرك اثناسيوس الثالث دباس في نشرية الكنيسة الأرثوذكسية بحلب ١٩٨٠، ص ١٠٧-١٣٢. انظر أيضاً : Karalevsky, "Antioche" in D. H. G. E., T III, col 644-647; voir aussi Levenq, G, "Athanase III, in D. H. G. E., T IV, col 1369 - 1374; Nasrallah, Histoire... op. cit., vol IV, pp. 132-146.

(٤٨) Karalevsky, " Antioche... op. cit.," col 644.

(٤٩) كتاب الأورلوجيون، بوخاريست، ١١١٤هـ/١٧٠٢م.

(٥٠) مقدمة كتاب القدسات الثلاثة الإلهية الذي طبع في بوخاريست سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م.

(٥١) Picot, "Notice... op/ cit., "p. 518.

(٥٢) كتاب الأورولوجيون.

(٥٣) يضيف بعض المؤلفين كتاباً ثالثاً هو "الكتاب المقدس" وأنه طبع في سنة ١١١٢هـ/١٧٠٠م إلا أن شنورر يفند هذا الرأي ، انظر : نصر الله، "مطابع الملكيين منذ ظهور الطباعة إلى أواخر القرن

١٨" في المسرة، ١٩٤٨ ص ٤٤٠، انظر أيضاً أدلبي، البطريرك... ص ١١٥.

(٥٤) يذكر اثناسيوس هذا السبب الذي دفعه لاستعمال اللغتين في مقدمة الكتاب الأول.

(٥٥) يوجد بالمكتبة الوطنية بباريس تحت عدد: ١٥٨١.

(٥٦) مقدمة كتاب الأرولوجيون، ورقة ١٢.

(٥٧) هذا ما ذكره أحد المؤرخين الرومانيين المجهولي الاسم انظر:

Dan Simonescu, "Impressions..." op. cit., p. 59.

(٥٨) يرى فرجيل كانديا أن العلاقات بين رومانيا وبلاد الشام شجعت الأرثوذكس الملكيين على انتهاج سياسة ثقافية مستقلة.

Candie, Virgil, "Une politique culturelle commune roumano-arabe dans la premiere moitié du XVIII siécle" in: Bulletin de l'Association Internationale d'Etudes du Sudest Europeen, Bucarest, 1965, n 1, p 51.

(٥٩) كتاب الإنجيل، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م ورقة ٢.

(٦٠) كتاب المواعظ، حلب ١١٢٣هـ/١٧١١م ورقة ٢.

(٦١) نص الإهداء في كتاب المزامير، حلب، ١١١٨هـ/١٧٠٦م.

(٦٢) Karalevsky, " Antioche... op. cit:," col. 645-697.

Levenq, "Athnase... op. cit., col. 137. Nasrallah, Histoire... op. cit., vol IV, pp. 133 - 134.

لاثناسيوس الثالث مؤلفات أخرى مثل: أعمال المجامع، كتاب الدر المنتخب، صلاح الحكيم منهاج الكهنوت. منهاج الصلاح، كتاب في صناعة الفصاحة، صخرة الشك.

(٦٣) مقدمة كتاب المواعظ، ورقة : ٥ – ٦.

(٦٤) هذا ما أكده نيوفيطوس أدلبي رئيس أساقفة الروم الكاثوليك بحلب عند زيارتنا له بحلب في أبريل ١٩٨١.

(٦٥) Bibliotheca arabica, p. 270.

(٦٦) Karalevsky, Histoire... op. cit., TIII, p 169; DAN SIMONESCU, " Impressions op. cit., p. 59. Candea, "Dialogue... op. cit.," 286 - 287.

(٦٧) Sacy, Bibliotheque... op. cit., T1, p. 289.

(٦٨) المشرق رقم ٣، ١٩٠٠م، ص ٣٥٥.

(٦٩) Picot, "Notice..." op. cit., p. 519.

(٧٠) مخطوط [حريصا في المسرة]، ١٩٤٨م، ص ٣٨٧.

(٧١) مقدمة كتاب المزامير، حلب ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م.

(٧٢) البستاني. فؤاد افرام. " الشماس عبدالله الزاخر " في : المسرة، ١٩٤٨، ص ٤٠٠، انظر أيضاً نصر الله، "مطابع الملكيين" في : المسرة ; ١٩٤٨، ص ٤٥٠. نلاحظ أن نصر الله يتناقض في تحليله في هذا المقال إذ بعد أن يقر بأن البطريرك، اثناسيوس هو منشيء المطبعة (ص ٤٤٨) ، إذا به يقدم عبدالله الزاخر على أنه منشئ المطبعة نفسها (ص ٤٥٠).

(٧٣) Nasrallah, L'imprimerie... op. cit., p. 21.

(٧٤) حاج، أثناسيوس. الرهبانية الباسيلية الشويرية جونية. مطبعة الكريم، ١٩٧٣م، ج ١، ص ٥٤٣.

(٧٥) صابات، خليل، تاريخ ... ص ٢٩، حتى فيليب، تاريخ... ج ٢، ص ٣٤٢.

(٧٦) مثل قرانجون واليانو ولوبي وكرستان وأربنيوس الذين وّفقوا في إعداد حروف عربية جيدة.

(٧٧) المنظمة العربية والثقافة والعلوم، اللجنة الفنية لدراسة الأحرف العربية، القاهرة، ١٩٧١م. أنظر أيضاً SEUVAGET, Jean, "Suggestions pour une réforme de la typographie arabe" in: Revue des Etudes Islauni- miques, 1951, p 127-132; HAMZAOUI, R, L'academie de la langue arabe du Caire, Tunis: versité, 1975, pp. 211 - 246.

(٧٨) يعدد المطبعي الفرنسي فيتراي على سبيل المثال عدد الحروف والقوالب التي كان يستعملها لكل حجم من أحجام الحروف: العربي الصغير: ٤٤٥، الحرف العربي الكبير ٣٢٤. الحرف العربي المتوسط ٣٢٤. إلا أن المطابع الهولندية والإيطالية والألمانية كانت تستعمل حروفاً أقل لا تتجاوز ١٥٠ قلب لأنها لم تستخدم العلامات والأشرطة الرابطة بنفس القدر الذي استخدمته مطبعة باريس انظر:

De Guignes, Principes de composition typographique pour diriger un compositeur dans l'usage des caractéres orientaux de l'imprimerie royale, Paris, 1790.

(٧٩) VOLNEY, Voyage... op. cit., pp. 293 - 294.

(٨٠) تنبيه القارئ في كتاب المواعظ، حلب ، ١١٢٣هـ/ ١٧١١م ورقة ٧.

(٨١) ساهم فرحات جرمانوس في مراجعة كتاب الدر المنتخب الذي طبع بحلب في ١١١٩هـ/١٧٠٧م.

(٨٢) هذا بالنسبة لكتاب المواعظ الذي طبع بحلب في ١١٢٣هـ/١٧١١م، ورقة٥.

(٨٣) انه من المهم لو تتم مقارنة بين نص الكتاب المقدس الذي طبعه اثناسيوس والنسخة العربية لعبدالله ابن الفضل للتعرف على مدى دقة عمل البطريرك إلا أن هذا العمل يتجاوز نطاق دراستنا.

(٨٤) كتاب المواعظ، ورقة ٧.

(٨٥) هذه الكتب كالآتي :

- الزبور، حلب ١١١٨هـ/١٧٠٦م أعيد طبعه بعد ثلاث سنوات.
- الإنجيل ، حلب ١١١٨هـ/١٧٠٦م، وأعيد طبعه بعد سنتين.
- كتاب الدر المنتخب، حلب ١١١٩هـ / ١٧٠٧م.
- كتاب النبوات، حلب ١١٢٠هـ/١٧٠٨م.
- كتاب الرسائل، حلب ١١٢٠هـ/١٧٠٨م.
- كتاب الباركليتي، حلب ١١٢٣هـ/١٧١١م.
- كتاب المواعظ الشريف، حلب ١١٢٣هـ/١٧١١م.
- رسالة وجيزة توضح كيْفية التوبة، حلب ١١٢٣هـ/١٧١١م.

(٨٦) إن هذه الدراسة ستكون محدودة نظرًا لعدم تمكننا من الاطلاع إلا على كتابين فقط من إنتاج المطبعة بسبب ندرتها وهما: الإنجيل والمواعظ.

(٨٧) هي مواعظ أثناسيوس الثالث بطريرك القدس (١٤٦٠م - ١٤٦٨م).

(٨٨) كتاب المواعظ، ورقة ٥.

(٨٩) Abousouan, C, "Une etape importante dans les relations Orient-Occident: la naissance de l'imprimerie arabe en Europe occidentale et balkanique" in: Actes du colloque international de civilisations balkaniques, Bucarest, 1962.

(٩٠) كتاب المواعظ، ورقة ٤.

(٩١) يقول خريستطوس في مقدمة كتاب المواعظ ورقة ٥. متحدثًا عن عمه دوسيتوس "ويود إشهار قبح الآراء الفاسدة المزمعة الحدوث بمكاتبات منه خصوصية صحبة مكاتبات رجال حكماء متفلسفين التي عما قليل كان قد دثرها طول الزمان فجمعها من كل ناحية بتفتيش بليغ لتكون للجميع أسلحة كافية لكي بها يقاومون الآراء المفندة لحسن الإيمان التي ستحدث".

(٩٢) كتاب المواعظ، ورقة ٧.

(٩٣) كتاب المواعظ، ورقة ٦ - ٧.

(٩٤) لم تصلنا الأرقام حول نسبة سحب الكتب إلا أنه يعتقد أن عدد النسخ لم يكن مرتفعًا لأن رقم السحب يخضع لعامل السوق وسخاء بعض الأغنياء من رعاة الأدب والعلم لذلك اقتصر توزيعها على الكنائس فحسب.

(٩٥) Schnurrer, n 274; Nasrallah, Histoire... op. cit., vol IV, p. 142.

(٩٦) Levenq, "Athanase... op. cit"., col 1373-1374; voir aussi ELLIS, A. Catalogue... op cit., T1, col 328.

(٩٧) Biographie universelle, Paris, Michaud, 1822 T 31, article NEGRI.

(٩٨) نصر الله، مطابع الملكيين، ص ٤٥١.

(٩٩) حاج، الرهبانية، جـ ١ ، ص ٥٥٠.

(١٠٠) طبع "القنداق" بالعربية واليونانية في المطبعة الجديدة برومانيا التي أسسها حاكم بلاد الفلاخ ايوان مروكردات ولنا عودة إلى هذه المطبعة في الفصل التالي.

(١٠١) Nasrallah, Notes... op. cit., T1, p. 103.

(١٠٢) حاج،الرهبانية...، جـ أ، ص ٥٤٠.

(١٠٣) DAN SIMONESCU, "Impressions... op. cit.," p. 58.

(١٠٤) Bacel, P, "Abdallah Zakher" in: Echos d'Orient, n 11, 1908, p. 219.

(١٠٥) Levenq, "Athanase" ... op. cit., col 1371.

(١٠٦) كان أبوه زكريا قد فرّ مع أخيه نعمة الله من حلب عند بداية حملة الاضطهاد ضد الكاثوليكيين وكان والدهما موسى الصايغ قد قتل من قبل في حماه. BACEL, "Abdallah... op. cit., p. 219.

(١٠٧) عرف بالزاخر لوفرة علمه وكثرة مواهبه وكان يحذق عدة صناعات إلى جانب الصياغة منها صناعة التصوير "ترجمة حياة الفيلسوف الشماس عبدالله الزاخر" في : المسرة، ١٩٤٨، ص ٣٨٧.

نلاحظ أن الأب باسل يعتمد على ترجمة ذاتية لعبدالله الزاخر الا أن نصر الله يشكك في وجود هذه الوثيقة إذ لم يعثر لها على أي أثر في أرشيف الأب باسل الذي تحتفظ به مكتبة حريصا لذلك فقد فضلنا الاعتماد على ترجمة أخرى كتبها أحد تلاميذ الزاخر ونشرت بمجلة المسرة.

(١٠٨) يوحنا بجع هو تلميذ عبدالكريم كرمي، ساهم في مراجعة الكتب الدينية مع أستاذه وفي ترجمة الكتاب المقدس المسيحي. له خبرة كبيرة في مجال التعليم وفي المسائل الدينية انظر:

Nasrallah, Notes... op. cit., T.1, pp. 139-141.

(١٠٩) BACEL, "Adballah... op. cit.," p. 224.

(١١٠) رسالة من الأرميني مكريدج الكسيح في ١٧٢٣م منشورة في : Echos d'Orient, n 11, 1908,p. 222.

(١١١) يشير فولني إلى هذا الموضوع فيقول بأن اليسوعيين أسسوا بمدينة حلب مدرسة لتعليم الأطفال المسيحيين الديانة الرومانية والمحاورات الجدلية بسبب تطور الجدل الديني بين مختلف المذاهب المسيحية بالشرق ولم يتأخر اللاتينيون بحلب في الدخول في هذه المجادلات ضد اليونانيين.
VOLNEY, Voyage... op, cit., p. 292.

(١١٢) BACEL, P. "Abdallah... op, cit., pp. 221.

(١١٣) فوسيوس هو رجل رفين بيزنطي، بطريرك القسطنطنية في ٨٥٨ كان من دعاة الأرثوذكسية.

(١١٤) Nasrallah, "Athanase... op. cit., T IV, pp. 141 - 142.

(١١٥) Levenq, "Athanase... op. cit.," col 1371.

(١١٦) BACEL, "Abdallah... op. cit., p. 267.

نصر الله، "عبدالله الزاخر واشارة الأدبية"، في المسرة، ١٩٤٨، ص ٤١٠.

(١١٧) المصدر السابق، ص ٤١١.

(١١٨) المصدر السابق، ص ٤١١، Bacel, Abdallah... op. cit., pp. 368-369.

كانت لعبدالله الزاخر مناظرات مع البروتستان والمسلمين وآثار فلسفية وتاريخية ورسائل إلى أصدقائه وأشعار.

(١١٩) Volney, Voyage... op cit., p. 292.

(١٢٠) حاج، الرهبانية... جـ١، ص ٥٢٥.

(١٢١) هذه الرسالة محفوظة في أرشيف الرهبانية الباسيلية الشويرية وقام بترجمتها إلى الفرنسية الأب باسل في صدى الشرق.

Echos d' rient, 1908, p. 284.

(١٢٢) البستاني، الشماس ص ٤٠١، نشرت هذه الرسالة لأول مرة في مجلة.

Le Mercure, mai 1736, voir DE SACY, Bibliotheaque... op. cit., T 1 pp. 412-413.

(١٢٣) Echos d'Orient, n 11, 1980, p. 285.

(١٢٤) نصر الله، مطابع الملكيين، ص ٤٥٦.

(١٢٥) المسرة، ١٩٤٨م، ص ٣٨٨ ذكر نصر الله ان عبدالله الزاخر، كتب رسالة إلى أحد أصدقائه في حلب يصف الطريقة الجديدة التي اخترعها لرسم حروف الطباعة وحفرها وسكبها ومد ساعده على ذلك الا أن المؤلف لم يوفق في الحصول على هذه الوثيقة النفيسة المسرة ١٩٤٨م، ص ٤١٩.

(١٢٦) المصدر السابق، ص ٣٨٨.

(١٢٧) المصدر السابق، ص ٤١٩.

(١٢٨) وصية عبدالله الزاخر المسرّة، ١٩٤٨م، ص ٤٦٣.

(١٢٩) هناك شهادة أخرى تبين أن الزاخر هو مؤسس المطبعة وقد أوردها المستشرق الفرنسي دي ساسي نقلاً عن نص مكتوب بخط اليد في القرن ١٢هـ/١٨م على أول ورقة من كتاب الزبور الذي طبع بالشوير في ١١٤٨هـ/١٧٣٥م ذكر فيه "هذا الزبور العربي طبعه أحد السوريين الذي تولى صب أحرف الطباعة وتأسيس مطبعة في بداية القرن ١٢هـ/١٨م" هذه الوثيقة لم تتحدث البتة عن اليسوعيين إنما ذكرت أحد السوريين الذي لا يمكن أن يكون إلا عبدالله الزاخر.

(١٣٠) VOLNEY, Voyage... op. cit., pp. 292-293.

(١٣١) شيخو، لويس، تاريخ فن الطباعة، المشرق، رقم ٣، ١٩٠٠، ص ٤٦٠.

(١٣٢) BACEL, "Abdallah... op. cit.," p. 284.

(١٣٣) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(١٣٤) المسرّة، ١٩٤٨، ص ٤٥٦-٤٥٧.

(١٣٥) BACEL, "Abdallah... op. cit., p. 284.

(١٣٦) VOLNEY, Voyage... op. cit., p. 293.

(١٣٧) يتحدث فولني عن مقر المطبعة ويؤكد على الجانب الأمني في اختياره فيقول لو أن الجزار (باشا عكا) علم بذلك لحطّم مطبعتهم المصدر السابق، ص ٢٩٧.

(١٣٨) توجد بالدير مكتبة هامة، المصدر السابق ص ٢٩٤.

(١٣٩) Nasrallah, L'imprimerie... op. cit., p. 31.

(١٤٠) المسرة، ١٩٤٨م، ص ٣٨٨.

لا يزال دير الشوير يحتفظ إلى اليوم بلوحات من الفضة والنحاس وبالحروف.

(١٤١) ولد في بعلبك، دخل الرهبانية الباسيلية في ١١٤٢هـ/١٧٢٩م، درس النحو العربي والمنطق والفلسفة، ألف زهاء عشرين كتابًا في الديانة المسيحية والجدل والفلسفة والمواعظ انظر : نصر الله، يوسف، تلاميذ عبدالله الزاخر وآثارهم الأدبية في المسرة، ١٩٤٨م ص ٤٣١ - ٤٣٥.

(١٤٢) أصيل زوق ميكايل، تعرف على الزاخر في ١١٣٩هـ/١٧٢٦م وعمل معه. له كتب في الجدل.

(١٤٣) Nouvelles bases de travail entre Suleiman Qattan et l'ordre Chouerite. Document publie par Nasrallah, l'imprimerie... op. cit., pp. 148 - 150.

(١٤٤) وصية سليمان قطان أوردها نصر الله في كتابه عن المطبعة في لبنان، ص ١٤٧، ١٤٨.

(١٤٥) المصدر السابق، ص ١٤٦ - ١٤٧. لم تنشر المطبعة بالفعل أي كتاب فيما بين ١١٧٨هـ/١٧٦٤م و١١٨١هـ/١٧٦٧م.

(١٤٦) VOLENEY, Voyage... op. cit., p. 296.

(١٤٧) Nasrallah, L'imprimerie... op. cit., pp. 147 - 148.

(١٤٨) ورد نص فتوى الأب يوسف بابيلا حول الخلاف الحاصل بين سليمان القطان والرهبانية الشويرية حول المطبعة في كتاب نصر الله، المصدر السابق، ص ١٤٦.

(١٤٩) المصدر السابق.

(١٥٠) المصدر السابق، ص ١٥١.

(١٥١) VOLNEY, Voyage... op. cit., p. 293.

(١٥٢) نذكر على سبيل المثال كتاب "تفسير سبعة مزمورات من مزامير داود" الذي طبع في ١١٦٧هـ/١٧٥٣م حيث ذكر في الكتاب ما يلي: "المنسوب إلى الأب العالم المحقق والرسول اللاهوتي المدقق البادري بطرس الأنودي اليسوعي والمهذب والمعرب من المعلم الفاضل والفيلسوف الكامل الشماس عبدالله الزاخر الحلبي" الملاحظ أن الزاخر كان يجهل اللغات الأجنبية واقتصر دوره على مراجعة الترجمات وتنقيح بعض العبارات المعربة فحسب.

(١٥٣) ألف زاخرهذا الكتاب بحلب في سنة ١١٣٣هـ/١٧٢١م وذلك بطلب من أحد المسيحيين الذي أراد "معرفة أسرار المسيحية" إلا أنه لم يشر إلا بعد أربعة وأربعين سنة من ذلك التاريخ.

(١٥٤) هذه الكتب هي : ميزان الزمان، كتاب مرشد الخاطئ، كتاب مرشد الكاهن، كتاب مرشد المسيحي، كتاب إيضاح التعليم المسيحي.

(١٥٥) ترجم فيناتايول كورجاد كتاب **احتقار أباطيل العالم** أما الأب سانت ليدوين فقد ترجم كتاب **الاقتداء بالمسيح**، والملاحظ أن المترجم الثاني هو مبشر من الكارم عمل بجبل لبنان وهو شقيق المستشرق الهولندي يعقوب غوليوس.

(١٥٦) مثل يوسف بن جرجيس الحلبي الذي ترجم كتاب **تأملات جهنم المريعة** وكذلك ميخائيل مزراق الذي ترجم كتاب قوت النفس بقيت ثلاثة كتب مجهولة المؤلف هي : **تأملات روحية لأيام الأسبوع** ومختصر التعليم المسيحي وتفسير سبعة مزمورات التوبة.

(١٥٧) على سبيل المثال نجد في مقدمة كتاب الأكطويخوس المطبوع بالشوير سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٧م ما يلي : "جردنا العناية والاهتمام بأمر الرؤساء وحثهم على طبع حسب النسخة المحررة في كتاب المعزى المستخرج والمصحح والمطبوع عربياً في مدينة حلب باهتمام البطريرك أثناسيوس والتماس البطريرك كيرلس المعاصرين الذين حرضهما على ذلك حصول كثرة الغلط في النسخة القديمة التي غالتها أقلام الكتبة بالتحريف وانقلاب المعاني المستقيمة ".

(١٥٨) كتاب **النبوات الكنائسي**، الشوير، ١١٨٩هـ/١٧٧٥م ورقة ٤، نجد إشارة كذلك لطريقة تحقيق نص المزامير في مقدمة هذا الكتاب الذي طبع في ١١٤٨هـ/١٧٣٥م ورقة ٧ : "ثم اعلم انه إذا كانت نسخة الزبور العربية الأصلية قد أدخل بها جهل الكتبة بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها وتحريفات لألفاظ لم يفهموا معناها، فلذلك طبع هذا الكتاب على نسخة قد قوبلت على أصلها اليوناني بغاية التدقيق وتصححت حسب قراءتها وفهمها من الآباء القديسين والعلماء المفسرين بغاية التحقيق وذلك على يد أناس ذوي خبرة باللغتين اليونانية المستخرج منها والعربية المنقول إليها، فلا تنسبن اذا ما تراه مغايراً بها عن الحال الأصلي إلى التغليط والتحريف فتضل وتخدع بل تحقق انه عين الحق حسب الأصل اليوناني فتستفيد وتنفع ".

(١٥٩) كتاب الرسايل، الشوير، ١١٩٣هـ/١٧٧٩م ورقة ٣ ليس في نية المشرفين على مطبعة الشوير

تغيير كل النصوص الدينية العربية ومقابلتها على الأصل اليوناني طالما كانت تؤدي المعنى تقريبًا والسبب كما ورد في مقدمة كتاب الاورولوجيون المطبوع في ١١٧٧هـ/١٧٦٣م ورقة ١: "ليل (كذا) تعثر الألسن المعتادة على تلاوته بالاختلاف والتغيير إذ كان لا يوجد اختلاف بالمعنى يوجب العنا".

(١٦٠) يقول الأب فروماج على سبيل المثال في مقدمة كتاب ميزان الزمان "فلا اعتماد على تلك النسخة الأولى المكتتبة المشحونة من التحريف والغلط والتبديل والشطط".

(١٦١) ورد في مقدمة كتاب الرسائل، ورقة ٣ ما يلي : "ومن ليس له وقت للقراءة فقد أمره القديس المذكور أن يواظب الكنيسة حيث تقرأ الرسايل ليسمع قراءتها فمن ثم لهذا السبب نفسه رأينا ضروريًا أن نقدم للمؤمنين هذا الكتاب... متوسط الحجم ليسهل نقله على الأولاد الضروري أن يتعلموه كما يتعلمون المزامير ليحسنوا قراءته في الكنايس.

(١٦٢) الزاخر، عبدالله، **البرهان الصريح**، ص ٣ - ٤.

(١٦٣) كان المبشرون يختارون الكتب التي ينوون ترجمتها ثم طباعتها ويبينون فوائدها على غرار هذا الكتاب الذي قال عنه الأب .../... بطرس فروماج "انني فيما كنت أمعن النظر في كتب العلماء الأقدمين وأجيل طرفي في دساتير الآباء المتأخرين رأيت في خزانة بيعه الله درة يتيمة تعز عن (كذا) تعادلها قيمة وهي الكتاب المؤلف من الأنبابولس سينيري اليسوعي المدعو مرشد الكاهن" مقدمة مرشد الكاهن ورقة ٢.

(١٦٤) الزاخر، **البرهان** ... ص ٤.

(١٦٥) جاء في مقدمة كتاب إيضاح التعليم المسيحي المطبوع في ١١٨٢هـ/١٧٦٨م توضيح عن أسباب اختيار هذا الكتاب: "فهذا كتاب جزيل المعاني سديد الأركان والمباني ينطوي على إيضاح قواعد الدين المسيحي... مع ما يحتاج إلى معرفة مسايلة جميع المؤمنين صغارًا وكبارًا كهنة وعوامًا رجالاً ونساء أغنيا وفقرا من كل ذي رتبة كانت من بني المعمودية مما ألفه أحد خوارنة مدينة باريس العظمى العلية ورتبه على سؤال وجواب ليسهل حفظ معانيه".

(١٦٦) كتاب البرهان الصريح، ص ٦.

(١٦٧) جاء كذلك في مقدمة كتاب إيضاح التعليم المسيحي ورقة ١ ما يلي : "فلما رأى مجمع رهبان ماريوحنا القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكين عظيم فايدة هذا الكتاب الفريد حركتهم الغيرة القوية والمحبة الأخوية إلى طبعه لامتداد افادته ونفعه ويحصل عليه جميع المسيحيين الراغبين من مثرين ومقترين".

(١٦٨) باستثناء ما حصلت عليه المطبعة من مساعدات عند انطلاقتها.

(١٦٩) Bacel, "Abdallah... op. cit"., p. 287.

(١٧٠) أبو نهرا، جوزيف، "عبدالله الزاخر رائد الطباعة العربية في لبنان في العهد العثماني" ورقة مقدمة إلى المؤتمر العالمي الثالث للدراسات العثمانية حول : الحياة الفكرية في الولايات العربية في العهد

العثماني، زغوان – الحمامات (تونس) ١٥ – ٢٠ مارس ١٩٨٨م.

(١٧١) Volney, Voyage... op. cit., p. 293.

(١٧٢) المصدر السابق ص ٢٩٣.

(١٧٣) Bacel, "Abdallah... op. cit.," p. 287.

(١٧٤) أبو نهرا، "عبدالله... نفس المصدر".

(١٧٥) VOLNEY, Voyage... op. cit., p. 293.

BROWNE, Nouveau voyage dans la haute et basse Egypte, la Syrie, ... trad. J. Castra. Paris, Deutre, 1800, T 11, p. 245.

يذكر الرحالة الأخير انه لما زار الشوير في ١٢١١هـ/١٧٩٧م وجد المطبعة معطلة بسبب غلاء سعر الورق.

(١٧٦) VOLNEY, Voyage. p. 396...

(١٧٧) المصدر السابق، ص ٢٩٣ – ٢٩٤.

(١٧٨) المصدر السابق، ص ٣٨٩ – ٣٩٨، أنظر أيضاً.

Laurens, Henri, "les origines intellectuelles de l'Expédition d'Egypte: l'orientalisme islamisant en siécle (1698-1798)" Thése de doctorat de 3é cycle, Paris IV, Sorbonne, 1981, France au XVIII é pp. 305-398. (multigraphiée).

(١٧٩) Volney, Voyage... op. cit., p. 396.

(١٨٠) Encycl. Islam. nou. ed. T 1, p. 1172 article BAYRUT.

(١٨١) Karalevsky, Beyrouth in D.H.G.E, T V III, col 1319.

(١٨٢) المصدر السابق، سنة ١٣٠٩.

(١٨٣) Gaulmier, "Commentaires" in Volney, Voyage... op. cit., p. 290, note 4.

(١٨٤) Dan Simonescu, "impressions... op. cit.,".

(١٨٥) لم نتمكن من العثور على هذا الكتاب إلا اننا رجعنا إلى نص مقدمة في ببليوغرافية :
SCHNURER, Bibliotheca... op. cit., p. 515.

(١٨٦) عقد المجمع الكنسي الأول في ١١٣٥هـ/١٧٢٢م برئاسة البطريرك جيريمي والثاني في ١١٤٠هـ/١٧٢٧م . برئاسة بايزيوس.

(١٨٧) نصر الله، مطابع الملكيين، ص ٤٤٠ – ٤٤١. Dan Simonescu, "impressions ... op. cit., p. 6.

(١٨٨) حاج، الرهبانية...، جـ ١، ص ٥٥٠.

(١٨٩) شيخو،تاريخ... المشرق ٣، ١٩٠٠، ص ٥٠١ – ٥٠٢.

(١٩٠) المصدر السابق، ص ٥٠١.

(١٩١) Schnurrer, Bibliotheca... op. cit., n 534.

(١٩٢) حسب مذكرات حنانيا المنير التاريخية " أنه في ٢٦ شباط ١٧٦٦ وقعت في بيروت كنيسة الروم فقتل بها مقدار مائة نفس أغلبهم غرباء" حاج، الرهبانية... جـ ١، ص٥٥٠.

الفصل الثاني

المطبعة الإسلامية في إستانبول

مقدمة :

كان الحوار الذي دار بين المسلمين المصلحين منهم والمحافظين طويلاً وشاقًا، لأنه جمع بين مجموعة صغيرة من العلماء المتفتحين على الاكتشافات الأوربية وقاعدة واسعة من المتعلمين والعلماء المعارضين وغير المتحمسين لاستخدام هذه الاكتشافات التي من بينها المطبعة. ولم يفض هذا الحوار إلى نتائج حاسمة إلا بفضل تدخل السلطات العثمانية لإيجاد حل مناسب يعاضد من جهة أنصار فن الكتابة الجديد دون إثارة حفيظة المحافظين . إن هذا الدعم السياسي الكبير للمجددين جاء في ظروف تاريخية ملائمة لاستعارة بعض الاكتشافات الغربية . فما هذه العوامل التي ساعدت أنصار المطبعة على الحصول على ترخيص من السلطان العثماني لتأسيس أول مطبعة إسلامية ؟ وهل أسهمت هذه العوامل في تواصل عمل أول مطبعة بإستانبول بعد وفاة أحمد الثالث ؟، وهل شجعت على إقامة مشاريع مماثلة في الولايات العثمانية ، كذلك هل نجح المطبعيون المسلمون الأوائل في تخطي الصعوبات الفنية والمادية؟، وهل مهدوا الطريق لغيرهم للنسج على منوالهم؟. بقي السؤال الأهم في هذا الموضوع وهو ماذا قدمت مطبعة إستانبول للمجتمع الإسلامي في القرن ١٢هـ/١٨م ؟ هل ساهمت في تطور الحياة العلمية والثقافية وبقية المجالات ؟ وما صدى تأسيسها ونشاطها داخل العالم الإسلامي؟، وما موقف

المسلمين من الكتاب المطبوع وكيف تعاملوا معه ؟، وهل حقق هذا الوعاء الجديد للمعلومات الفوائد التي تحدث عنها متفرقة في رسالته؟

١- ، عصر الغزامى ، وتأثير الغرب ١١٢٩هـ/١٧١٧م - ١١٤٣هـ/١٧٣٠م :

أخذ الباب العالي المبادرة وتحمل مسؤولية إدخال فن الطباعة بالحرف العربي داخل الإمبراطورية العثمانية . وهذه المبادرة الجدية هي الأولى من نوعها، لأن السلاطين الذين حكموا قبل أحمد الثالث لم يحاولوا الاستفادة من المطبعة العربية [١] رغم علمهم بوجودها بأوربا، ولدى الأقليات الدينية داخل الإمبراطورية كما سبق أن رأينا ذلك. إن المدة التاريخية التي حكم فيها السلطان أحمد الثالث (١١١٥هـ/١٧٠٣م - ١١٤٣هـ/١٧٣٠م) ، ووزيره الأكبر إبراهيم باشا داماد (١١٢٩هـ/١٧١٧م - ١١٤٣ هـ/ ١٧٣٠م) ، كانت متميزة برغبة متزايدة لدى الباب العالي لإدخال بعض الإصلاحات على أجهزة الدولة، وداخل المجتمع أيضاً، ولم يتردد الحكام في التفتح على الغرب المسيحي لاستعارة بعض التقنيات والاكتشافات الحديثة التي كان من ضمنها آلة الطباعة .

١.١ - الحاجة إلى الإصلاحات :

منذ القرن ١١هـ/ ١٧م، نادى بعض المفكرين ورجال السياسة العثمانيين بضرورة إصلاح المؤسسات الإدارية والعسكرية و الثقافية، وتناولوا بالتحليل أسباب ضعف الدولة منذ نهاية القرن ١٠هـ / ١٦م وعلى سبيل المثال كتب لطفي باشا[٢] الوزير السابق في عهد سليمان القانوني رسالة **"أسف نامة" أو "مرآة الوزراء"**، ذكر فيها أسباب تدهور الوضع داخل الخلافة العثمانية . وكذلك الأمر بالنسبة لمؤرخ البلاط ، علي، الذي كتب في ١٠٠٣هـ/ ١٥٩٥ م رسالة حول الوسائل الناجعة التي يستخدمها لإصلاح الدولة [٣] . أما الألباني كوشي باي [٤] والذي يعرف بأوربا بمونتسكيو الشرق فقد كتب رسالة في ١٠٤٠ هـ / ١٦٣٠م إلى مراد الرابع لإبراز مشاكل الإدارة والحكم .أما كاتب

شلبي المعروف بحاجي خليفة فقد كتب في ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣م "**دستور العمل في إصلاح الخلل** "حيث تناول فيه بالتحليل أسباب إفلاس الدولة ماليًا، واقترح جملة من الإصلاحات. ويعدّ حاجي خليفة أول عالم مسلم يدعو إلى الاستفادة من العلوم الموجودة لدى الغرب(٥) .

أما حسين هزرفن ، خزندار الدولة ، فقد كتب في ١٠٧٩ هـ/ ١٦٦٩م "**تلخيص البيان في قوانين آل عثمان**"، وفيه يتحدث عن تنظيم هياكل الدولة وينقد سياسة السلاطين وظاهرة الرشوة لدى الوزراء. ويعدّ هزرفن أول مسؤول عثماني ربط علاقات صداقة متينة مع بعض رجال الفكر والعلم الأوربيين (٦) . فقد التقى بالمستشرق الفرنسي ڤالان والإيطالي مارسيغلي كما استفاد هزرفن عند تأليفه لكتاب عن تاريخ العالم بمصادر يونانية ولاتينية معتمدًا في ذلك على مترجمي السرايا. وهناك مؤرخ آخر استخدم هذه المصادر الأجنبية وهو إبراهيم باشوي (٧) . إن هذه النزعة الجديدة المتمثلة في التوجه نحو الغرب، قد تدعمت لدى المفكرين العثمانيين في بداية القرن ١٢هـ/ ١٨م الذين أصبحوا ينادون بإصلاح الجيش والإدارة فمنذ هزيمته سنة ١١١٠هـ/١٦٩٩م ، أمام جيوش روسيا والنمسا وتوقيع معاهدة سلم في كارلوين، أفاق الباب العالي من سباته وأدرك مدى الضعف الذي كان عليه جيشه وتجهيزاته العسكرية بالقياس مع جيوش أعدائه المتفوقين عليه من حيث التنظيم والعتاد، وأصبح يعي أهمية الإصلاحات التي أدخلها قيصر روسيا بطرس الأكبر الذي استفاد بدوره من مساعدة أوربا الغربية له، واستطاع أن يجعل من روسيا دولة قوية. وقد أراد الباب العالي أن ينسج على منوال بطرس الأكبر بعدما عاش في عزلة عما يحدث بأوربا من تطور وتقدم منذ عصر النهضة التي عرفتها. بل إن المجتمع الإسلامي عموما انطوى على ثقافته وآدابه ولم يربط صلات ثقافية بالغرب، ولم يسع إلى التفاعل حضاريا مع مجتمعات أخرى مثلما فعل المسلمون الأوائل ومع مجيء السلطان أحمد الثالث ، الذي كان متفتحًا على أوربا الغربية، ظهرت إنجازات عديدة في مختلف المجالات وخاصة في المجال الثقافي .

٢.١ التوجهات السياسية الجديدة لأحمد الثالث ووزيره :

١.٢.١ أحمد الثالث : كان سلطانًا مسالمًا. وقد أختار عقد اتفاقات سلام على إثر الهزائم العسكرية التي منيت بها الجيوش العثمانية أمام الجيوش الروسية والنمساوية، وبسبب المصاريف الباهظة التي يتطلبها تجهيز الجيوش في وقت كانت خزينة الدولة في حالة عجز مالي . وقد مكنت مدة السلم هذه، الباب العالي من الاهتمام بالعلوم والثقافة الغربية فشجع السلطان أحمد الثالث العلوم والآداب وأغدق على العلماء ورجال الفكر. وكان بدوره شاعراً وخطاطًا ومولعًا بكتابة الرسائل. وقد عمل على إحاطة نفسه برجال مثقفين، فأمر بتعويض "الدوشير" [٨] بمسلمين أحرار في المناصب الإدارية والعسكرية المهمة. وهؤلاء كانوا مهتمين بالمعارف الحديثة . كما عيّن في سنة ١١٣٠هـ/١٧١٨م رجلاً متفتحًا عل حضارة أوروبا في منصب الصدر الأعظم .

٢.٢.١ - الصدر الأعظم إبراهيم باشا :

ولد هذا الوزير في نوشير في ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م وتوفي مقتولاً إثر ثورة الإنكشارية في ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م. وكان أحد مخططي "سياسة السلام" التي انتهجها الباب العالي[٩] إذ أنه افتتح وزارته بتوقيع أبرز اتفاقية سلام في ذلك الوقت والتي عقدها في باساروفيتش في ١١٣٠ هـ/ ١٧١٨م مع النمسا والبندقية.

كرس هذا الوزير جهده لإعادة بناء الاقتصاد والجيش [١٠]، وعمل على إدخال حركية جديدة في مجال الثقافة فأسس أول مكتبة عمومية [١١] وكوّن لجنة تتكون من خمسة وعشرين عالمًا، لترجمة المؤلفات المهمة من العربية واليونانية إلى اللغة التركية العثمانية [١٢] . كما أنه كان يتابع باستمرار النشاط العلمي بأوربا من خلال مجلة العلماء (Journal des savants)، وشجع العلماء على اتباع السلوك نفسه، وقد بلغ عدد الأدباء والشعراء لدى الباب العالي في مدة وزارته

أكثر من مائة [١٣] ؛ كما أن عدد المؤلفات العلمية وخاصة منها الطبية والرياضية قد إزداد بشكل ملحوظ [١٤] .

وقد وفّر الصدر الأعظم إبراهيم باشا في هذه المدة جوًا شاعريًا منعشًا أطلق عليه اسم إحدى الأزهار وهو "لالي دوري" أي "عهد الخزامى"، وهذه الزنبقة كان قد جلبها من هولندا السفير بيسباك [١٥] ، ووجدت إقبالاً لا نظير له من طرف سكان إستانبول، الذين غرسوها في حدائقهم ووشّوا بها شرفات منازلهم. كما أن الصدر الأعظم شجع غراسة هذه الأزهار وخصص مكافآت لذلك، وقد ظهر نمط عيش راقٍ في العاصمة العثمانية، وازدهر في تلك المدة، من ذلك أقيمت المآدب الفاخرة وأقبل الأغنياء على ارتداء الملابس الرقيقة ومنها ثياب الفرو وكذلك التحلي بالجواهر الثمينة. كما كانت النساء تقمن بفسحات على ضفاف البسفور في الحدائق الجديدة والأكشاك والحنفيات وقد عبّر الشاعر أحمد نديم (توفي في ١١٤٣هـ/١٧٣٠م) ، عن هذاالجو الشاعري بقوله:"لنضحك ولنمرح ولنتمتع بالدنيا، تعال إلى شجر السّرو لنتوجه نحو سعد آباد" [١٦] .

ان هذا النمط الجديد من العيش استوحاه سكان إستانبول من مشاهدات سفير الباب العالي إلى باريس في ١١٣٣هـ/١٧٢٠ - ١٧٢١م . وقد وصف حياة الرفاهة لدى الباريسيين وبعض مظاهر التقدم الحضاري لديهم في كتاب عن رحلته هذه . إن الباب العالي لم تكن لديه المعلومات الكافية عن التطور الثقافي والفني بأوربا، فحرص على إرسال سفراء إلى فيينا وباريس، لينقلوا إليه مظاهر هذا الازدهار. وإذا لم يوفق سفير الباب العالي إلى فيينا في مهمته ، فإن سفيره إلى باريس قد نجح في نقل صورة حيّة عن مشاهداته، مما أسهم نوعًا ما في تأثر العثمانيين بنمط الحياة الغربية، وبالخصوص في الاستفادة من بعض الاكتشافات ومظاهر التقدم العلمي عندهم. وسنحاول تحليل التأثير المباشر لسفارة باريس في إدخال المطبعة إلى إستانبول .

٣.١ مطبعة إستانبول ، رسالة السفير العثماني إلى باريس :

١.٣.١ مهمة السفير العثماني :

أرسل الصدر الأعظم إبراهيم باشا مبعوثًا إلى ملك فرنسا والوصي على العرش دوق أورليان لاطلاعه على نتائج إصلاح كنيسة القديس Saint Sépulcre ببيت المقدس[١٧] وليقترح عليه تجديد معاهدة "الامتيازات" [١٨] . إلا أن هذه الأسباب الرسمية كانت تخفي وراء ها الهدف الأصلي الذي يرمي إليه الوزير والمتمثل في " الاطلاع على كل ماهو عجيب بالملكة الفرنسية والاستفادة منه في تسيير شؤون الإمبراطورية " [١٩] .

إن الصدر الأعظم كان يريد من سفيره وصف نمط الحياة الأوربي، وبالخصوص تقديم تحليل دقيق لكل مظاهر الحضارة والتربية الحديثة فيه، وما يمكن أن يستعيره المسلمون بما يتلاءم ونهضة مجتمعهم [٢٠] . ونظرًا لدقة هذه المهمة ، فقد كلف الصدر الأعظم أحد الرجال الأوفياء له لتأديتها وهو ضابط بارز داخل السرايا.

٢.٣.١ – السفير :

اسمه يرمسكز شلبي محمد أفندي، وهو الذي سبق له أن قام بمهام دبلوماسية وإدارية في أعلى مستوى ، إذ أشرف على المفاوضات التي أدت إلى توقيع اتفاقية باساروفيتش [٢١] ، كما شغل منصب خزندار [٢٢] . وكان رجلاً متعلمًا ذا ثقافة عالية ومولعًا بالآداب العربية والتركية والفارسية[٢٣]. وقد زار فرنسا في مهمة دبلوماسية في ١١٣٣هـ/١٧٢٠ – ١٧٢١م حيث تجول في كامل

البلادالفرنسية قبل أن يستقر بباريس لمدة أربعة أشهر. وكتب كتابًا حول رحلته إلى فرنسا وصف فيها أهم مشاهداته وبالخصوص كل ماهو فريد وغريب في هذا البلد .

١.٣.٣ - رسالة حول الرحلة :

ذكر محمد أفندي يرمسكز كل مراحل رحلته ولقاءاته مع ملك فرنسا والوصي على العرش والأمراء وبعض كبار الشخصيات في الدولة. وقد وصف بدقة بعض المعالم المهمة مثل قنال لانقدوك ومرصد باريس وقصري فرساي وفونتانبلو ومصانع النسيج ومعمل السكر، كما تحدث عن فن صقل المرآة وعن تدريب الجنود الفرنسيين والسويسريين في سهل سابلون. كما نقل كل النشاط الثقافي الذي قام به بباريس منها زيارته لجامعة السربون ولمكتبة الملك [٢٤]، وكذلك حضوره للعروض التي قدمت على خشبة الأوبرا وقاعة الألعاب في الماري. وبصفة عامة يعطي كتابه فكرة عن المجتمع الفرنسي وعن التقدم الذي حققته أوربا في كل الميادين . وتعتبر رحلته اكتشافاً لعالم جديد وعجيب وهذا ما يفسر أهميتها في التعريف بالغرب لدى الشرقيين [٢٥] . وقد جلب هذا الكتاب كل إعجاب وتقدير لصاحبه في إستانبول سواء لدى السرايا أو الفئات الغنية بها، والتي استعارت بعض أنماط الحياة الباريسية التي وردت في الكتاب : مثل البناءات الحديثة والحدائق والحنفيات وغيرها.

١.٣.٤ - زيارة مطبعة باريسية :

لم يتحدث السفير العثماني في رحلته عن المطبعة التي زارها بباريس رغم أن سان سيمون يؤكد ذلك في مذكراته حيث قال : "اهتم (السفير) بالآلات والمصانع وخاصة الميداليات والمطبعة، كما شاهد بارتياح كبير مخططات لساحات الملك ومكتبته ، حيث تبين أنه يعرف جيداً التاريخ والكتب القيمة . وقد كان صديقًا حميمًا للصدر الأعظم فاقترح عليه إقامة مطبعة بإستانبول ومكتبة رغم معارضة الأتراك وقد نجح في ذلك"[٢٦] إن شهادة سان سيمون هي شهادة أصلية إذ أنه التقى بالسفير أثناء وجوده بفرنسا. وإلى جانب هذه الشهادة الأوربية هناك شهادة إسلامية معاصرة للأحداث وهي لمؤرخ السرايا شلبي

زادة الذي يؤكد زيارة يرمسكز لمطبعة بباريس[٢٧] وقد نقلها جودت في تاريخه[٢٨] .

وأمـــام هذا التأكيد من طرف مؤرخين معاصرين للسفير يصبح من الصعب تفسير موقف يرمسكز محمد أفندي الذي تحاشى الحديث عن المطبعة، ولم يفردها بوصف دقيق على غرار مافعله في مشاهداته الأخرى ، خاصة وأن باريس ليست غريبة عن المطبعة العربية [٢٩] . فهل يمكن تفسير هذا الموقف بتخوفه من معارضة المحافظين أم أنه تحاشى إثارة الموضوع في كتابه حرصاً منه على إخفاء مشروع إقامة مطبعة قد يكون بصدد إعداده مع ابنه الذي رافقه في الرحلة، حتى يضمن نجاحه، ذلك لأن أحد العلماء الفرنسيين الذي التقى بالسفير، ذكر بأن يرمسكز كانت له مشاريع عديدة أفضى بها عند عودته إلى إستانبول إلى الصدر الأعظم ، واقترح عليه إنجاز البعض منها مما يتلاءم وذوق الوزير [٣٠] . ومهما كان موقف السفير من المطبعة فإن ابنه سعيد شلبي قد تحمس لإعداد مشروع إقامة المطبعة .

٥.٣.١ - سعيد شلبي :

اشتغل كاتبًا لدى سفارة والده بباريس وأصبح بدوره سفيراً للباب العالي في السويد سنة ١١٤٦هـ/١٧٣٣م ، ثم فرنسا في ١١٥٣هـ/١٧٤١م [٣١] . وعند عودته سمي نيشانجي باشا، وهذا اللقب يسند للموظفين السامين بالسرايا ثم أصبح صدراً أعظم في ١١٦٨هـ/١٧٥٥م، قبل أن يعزل وينفى مثل والده [٣٢] لم يكن يبلغ من العمر عندما رافق والده إلى باريس سوى خمس وعشرين سنة . وكان رجلاً متفتحاً ومعجباً بأجواء الحرية السائدة بفرنسا[٣٣] . وقد حصل له أن خرج يتفسح بباريس بدمن أبيه فشاهد معمل السكر وعروضاً بمسرح الأوبرا[٣٤] ، وزار أيضاً ورشات الرسم والطباعة رفقه واندهش من آلة الطباعة التي تخرج بسهولة عدداً كبيراً من الكتب [٣٥] . ومنذ ذلك الحين فكر وربما بالتعاون مع أبيه ، في إدخال فن الطباعة بالحرف العربي إلى إستانبول، وقد

وجدت الفكرة القبول الحسن من طرف الصدر الأعظم الذي كلفه بإعداد مشروع بالتعاون مع إبراهيم متفرقة لتقديمه إلى السلطان .

ويتبين هنا أن الباب العالي لم يكن موافقًا فحسب على استخدام آلة الطباعة، بل إنه تحمس لإعداد مشروع في هذا الغرض. فالمناخ الثقافي السائد في "عهد الخزامي" كان ملائمًا لتنفيذ مثل هذه المشاريع العلمية والثقافية. أضف إلى ذلك اطلاع المسلمين على ما يحدث في أوربا وخاصة بفرنسا من تقدم في المجالات الثقافية والعسكرية. ولم يكن كتاب يرمسكز سوى حافزًا لدفع العقول المتفتحة لاستعارة بعض التقنيات والاكتشافات. ووجد أنصار المطبعة في سياسة التفتح على الغرب التي كان يسلكها الباب العالي فرصة سانحة لإقامة أول ورشة للطباعة بالحرف العربي بإستانبول وتحقيق الأمل الذي كان يحدو بعض الأوساط الإسلامية المثقفة .

٤.١ - إبراهيم متفرقة :

يعدّ إبراهيم متفرقة وهو رجل أدب وعلم وديبلوماسي ، من أبرز رواد حركة الإصلاح في الدولة العثمانية في القرن ١٢هـ/١٨م . وهو عالم من أصل مجري ولد في كولوز فار (تعرف اليوم بكليج بالمجر) سنة ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٥م، من أبوين مسيحيين ، درس في معهد مسيحي وفي عام ١١٠٣هـ/١٦٩٢م ، وقع أسيرًا في قبضة الأتراك وعندها اعتنق الإسلام [٣٦] وسمي إبراهيم. وكان رجلاً عالمًا ذكيًا يحذق اللغات التركية والعربية والفارسية واللاتينية[٣٧]، علاوة على لغته الأم أي المجرية [٣٨] ، وقد درس الرياضيات والعلوم والفنون وسرعان ما أصبح متبحرًا في العلوم والآداب ولقب عند ذلك بمتفرقة أي متعدد المواهب. وهو لقب يطلق على رجال الفكر والعلم بالسرايا ممن بلغ درجة عالية من المعرفة. تقلد مناصب مختلفة بالإدارة العثمانية ، حتى كلفه الباب العالي بمهام سياسية ودبلوماسية سامية وأصبح مستشارًا ومبعوثًا خاصًا للسلطان. وأجرى مفاوضات دبلوماسية سامية خاصة مع النمسا و روسيا في ١١٢٧هـ/

١٧١٥م، ثم في فيينا في ١١٢٨هـ / ١٧١٦م[٣٩] وفي سنة ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م عين ضابط اتصال ومترجماً لدى الأمير المجري راكوزي[٤٠] ، ثم اشترك مع أحمد باشا بونفال في إعداد مشروع تحالف عثماني سويدي ضد روسيا في ١١٥٦هـ / ١٧٤٣م .

كتب بالتركية "**رسالة إسلامية**" دافع فيها عن القرآن وفسّر سبب اعتناقه الإسلام. كما فنّد في رسالته المذهب الكاثوليكي. وأكد أن النصر النهائي سيكون للإسلام، بما أن هذا الدين تنبأ به سيدنا عيسى عليه السلام على أنه دين العالمين [٤١] . كما كتب كتاباً مهماً يقترح فيه القيام بإصلاحات عسكرية للنهوض بالدولة العثمانية عنوانه "**أصول الحكم في نظام الأمم**"، ويعدّ هذا الكتاب امتداداً لكتابات كوشي باي وحاجي خليفة، التي تحدثت عن أسباب عدم الاستقرار والفوضى داخل الإمبراطورية والهزائم العسكرية والإصلاحات اللازمة للنهوض بالأمة. وكان إبراهيم متفرقة يعطي الأولوية لإصلاح الجيش حسب النمط الأوربي ولم يخف إعجابه بالتجارب الغربية وقد استشار عند تحرير كتابه بعض الخبراء الأوربيين في المجال العسكري[٤٢] . وكان على دراية كبيرة بالتقدم الذي حققته أوربا في عدة ميادين فنية وعلمية. وكان كذلك متحمساً لإدخال بعض الاكتشافات الجديدة إلى الإمبراطورية العثمانية مؤكداً على أنه يجب التمييز بين الديانة المسيحية التي لا تفيد المجتمع الإسلامي وبين العلوم الحديثة بأوربا التي ستعود بالنفع على المسلمين ، وأنه لا تعارض بين العلم والإسلام . وبهذا الفكر التحرري المنفتح على أوربا اهتم إبراهيم متفرقة بمشروع إقامة مطبعة بالحرف العربي بإستانبول. وقد خامرته فكرة تنفيذه قبل إرسال يرمسكز إلى باريس، وهذا حسب شهادة أصلية لأحد الديبلوماسيين الفرنسيين الذين اشتغلوا بالسفارة الفرنسية بإستانبول في ذلك العصر، وحيث ذكر أن متفرقة عرض مشروعه على بعض الوزراء الذين وإن كانوا اقتنعوا بجدواه فقد رأوا أنه صعب التحقيق في ذلك الظرف ، إلى أن أتيحت له

الفرصة في السنوات الأخيرة من وزارة الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد. وكان من المقربين إليه حيث حصل على موافقته . ووجد كل تشجيع من لدنه لإتمام مشروعه (٤٣) . وتعد هذه الوثيقة الأوربية مهمة بعد ماعرف عن هذا العالم المجري من مناقب وكفاءة عالية في مجال العلم والسياسة. وما رسالته حول "وسيلة الطباعة" التي تعرضنا إليها في الفصل الثاني من الجزء الأول، إلا دليل آخر على عمق تفكيره وقدرته على الإقناع وتبحره في العلوم والآداب . إلا أن الدبلوماسي الأوربي غفل عن ذكر شخص ثانٍ اشترك مع متفرقة في إعداد المشروع وهو سعيد شلبي .

إن إبراهيم متفرقة لم يسع كما يقول في رسالته، إلا لإخراج مشروع إقامة مطبعة بالحرف العربي لدى المسلمين من طي النسيان، بعدما تمت مناقشة المبدأ منذ أكثر من قرن. واعترف الجميع بما فيهم المحافظون بفوائد فن الطباعة، ولم يكتف العالم المجري بهذا العمل النظري ، بل عمل على تنزيله على أرض الواقع وقام بتنفيذ كل مراحل مشروعه بالتعاون مع زميله مما يؤكد اقتناعه بضرورة اقتران الجانب النظري في تفكيره بالجانب العملي التطبيقي، ونتساءل هنا: كيف تمكن متفرقة من التعرف بدقه على فن الطباعة والظهور بمظهر "الدماغ المفكّر" لأكبر مشروع ثقافي علمي عرفته الدولة العثمانية في القرن ١٢هـ/ ١٨م ؟.

إن اطلاعه الواسع على ما يحدث بأوربا من خلال قراءاته واتصالاته بالدبلوماسيين والمستشرقين والتجار الأوربيين الذين يعملون بالعاصمة العثمانية وكذلك صداقته الحميمة بسعيد شلبي الذي رافق أباه في سفارته إلى باريس، مكناه من أخذ فكرة واضحة عن فن الكتابة الجديد. ولا يستبعد أن يكون قد زار مطابع الأقليات الدينية بإستانبول . كما أن رحلاته الرسمية لدى العديد من البلدان بأوربا الوسطى ، قد تكون أيضًا أسهمت في تعميق معرفته بهذا الاكتشاف .

٢ - تأسيس المطبعة :

١.٢ - تسيير المطبعة :

١.١.٢ - المساعي الرسمية :

أعدّ إبراهيم متفرقة بالتعاون مع سعيد شلبي مشروعًا لتأسيس أول مطبعة إسلامية بالحرف العربي في العالم ويكون مقرها إستانبول هذا بالإضافة إلى "رسالة وسيلة الطباعة" (٤٤) . وقد عرضا في مشروعهما الإجراء ات العملية لإقامة المطبعة، وبالخصوص تحملهما لكل المصاريف التي تتطلبها(٤٥) . وقد قدما بالإضافة إلى نص المشروع، بعض العينات من النصوص المطبوعة بالحرف العربي (٤٦) للصدر الأعظم الذي استحسن الفكرة ونقل كل الوثائق إلى شيخ الإسلام وبعض العلماء المقربين للسرايا، وهؤلاء وافقوا على المشروع وكتبوا تقاريظ على "**رسالة وسيلة الطباعة**" كما أصدر شيخ الإسلام فتوى يجيز فيها طبع الكتب، ماعدا تلك المتعلقة بالشريعة والفقه الإسلامي. وهذه الفتوى كانت أكبر سند قانوني للمشروع عند عرضه على أنظار السلطان أحمد الثالث الذي وافق عليه وأصدر "خط هما يون" بتاريخ ١٥ ذي القعدة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، يرخص فيه لإبراهيم متفرقة وسعيد شلبي بإقامة مطبعة بالحرف العربي في إستانبول وقد أرفق هذا الأمر بنص فتوى شيخ الإسلام حرصًا منه على إتخاذ كل الاحتياطات اللازمة لإبراز موافقة علماء الإسلام على استعمال هذا الاكتشاف وإقناع الرعايا بمزاياه وخاصة المحافظين منهم، وكذلك فعل صاحبا المطبعة اللذين نشرا في أول كتاب يصدرانه ، نصوص خط همايون والفتوى ورسالة وسيلة الطباعة وتقاريظ العلماء عليها(٤٧) .وبهذا الإجراء ضمن الباب العالي كل ظروف النجاح للمشروع إذ أن الفقهاء والعلماء والسلطان أيدوا هذا الاكتشاف ووافقوا على استخدامه وتفادى في الوقت نفسه كل معارضة من طرف المحافظين، مثلماحدث ذلك في سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٨٨م عند محاولة بيع كتب أوربية مطبوعة بالعربية .

٢.١.٢ - إدارة المطبعة

لمن عهدت إدارة هذه المطبعة ؟ وهل تحملها كل من متفرقة وشلبي أم أحدهما فقط ؟؛ إننا نطرح هذا السؤال نظراً لتضارب المصادر حول هذه النقطة بالذات ، والتي كانت تذكر في الغالب أحد الرجلين فقط وسعيد منهما خاصة[٤٨] .

من خلال خط الهمايون ، يتبين أن السلطان يرخص لكلا الرجلين بتنفيذ المشروع دون التمييز بينهما ودون تعيين أحدهما لإدارة المطبعة . إذن يفهم من هذا أن ورشة الطباعة تم تأسيسها بمجهودها المشترك ، وأن إدارة المطبعة قد تعهدا بها في البداية معًا إلا أن هذا التعاون لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما أخذ العالم المجري كل المسؤولية على عاتقه . واستغنى بذلك عن خدمات صديقه سعيد شلبي. وهذا ما يؤكده مصدر أصلي للمبشر اليسوعي الأب هولدرمان الذي عمل مع متفرقة في المطبعة لإصدار كتاب له باللغتين التركية والفرنسية وعنوانه "**النحو التركي**"، وذلك في ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م ، حيث ذكر في مقدمة هذا الكتاب أن إبراهيم متفرقة اشترك في البداية مع سعيد آغا. إلا أنه لم يتفق معه فانفرد لوحده بإدارة شؤون المطبعة [٤٩] . وكذلك هناك مصادر أخرى تؤكد شهادة هولدرمان، وهي الكتب ذاتها المطبوعة بالحرف العربي في إستانبول التي كانت تذكر في خاتمتها معلومات ثمينة عن شؤون المطبعة . فقد ورد في ثالث كتاب مطبوع اسم المسؤول عن الطباعة : "تم الكتاب بعون الملك الوهاب على يد الحقير والفقير إبراهيم بن متفرقة كان دركاه على يد المأمور بعمل الطبع بدار الطباعة المعمورة في البلدة الطيبة قسطنطينة دامت عمارتها إلى دامان القيامة" . وبعد صدور الكتابين الأولين اللذين لم يرد فيهما اسم المشرف على المطبعة، أصبح يذكر باستمرار اسم متفرقة على أنه هو الذي يشرف على عملية الطباعة حتى وفاته سنة ١١٥٨هـ/١٧٤١[٥٠] . وهذا ما يؤيد ما ذهب إليه الأب هولدرمان على أن متفرقة تفرّد بعد مدة وجيزة، بمهمّة الطبع

وبعد ذلك خلفه في إدارة المطبعة تلميذه إبراهيم أفندي القاضي حتى سنة ١١٧٠هـ/١٧٥٦م . وبعد إعادة فتح الورشة في ١١٩٨ هـ / ١٧٨٤م تعهد بالتسيير عالمان هما أحمد واصف ومحمد راشد أفندي . إن مهمة مدير المطبعة لم تكن واضحة المعالم في البداية، إلا أنها تبلورت بمرور الزمن حتى أصبحت تشمل التسيير والتصرف في شؤون المطبعة ومراقبة ومتابعة كل مراحل عملية النشر من حفر الحروف وتصفيفها ومراجعة التجارب المطبعية إلى غاية السحب والتوزيع. إن هذه المهام متعددة ومعقدة خاصة بالنسبة للمبتدئين، وكان لابد على إبراهيم متفرقة من الاستعانة بعمال أكفاء من ذوي الخبرة .

٣.١.٢ - العمال :

هل استعان متفرقة منذ البداية بعمال أتراك أم أنه استدعى عمالاً أجانب؟؛ نجد جزءاً من الإجابة لدى ثلاثة من المؤرخين الأوربيين من القرن ١٢ هـ/ ١٨م الذين ذكروا أن أعوان المطبعة كانوا أجانب قدموا من أوربا إلا أن رواياتهم تضاربت حول أصل هؤلاء فهناك من أورد أنهم قدموا من ألمانيا(٥١) وآخر من النمسا(٥٢) والثالث؛ من فرنسا(٥٣) إلا أن هؤلاء المؤرخين اتفقوا على أن هؤلاء العمال اضطروا إلى مغادرة إستانبول إما بسبب ثورة سنة ١١٤٣ هـ/ ١٧٣٠م وإما بسبب معارضة العلماء أو الناسخين (٥٤) . ويمكن رغم هذا التضارب الإقرار بأن متفرقة استعان بعمال أجانب من ذوي الخبرة لتسيير مطبعته في البداية، إلا أن هذه المساعدة لم تدم طويلاً إذ غادر هؤلاء الأعوان الورشة تاركين مكانهم لعمال أتراك لعلهم يكونون قد تعلموا على أيديهم واكتسبوا بذلك تجربة في مجال الطباعة، ولم يكن هؤلاء الخبراء الوحيدين الذين عملوا بمطبعة إستانبول بل أسهم إلى جانبهم أفراد من الأقليات الدينية والبعثات التبشيرية العاملة بالإمبراطورية فقد سبق أن رأينا أن الأب اليسوعي هولدرمان قد عمل إلى جانب متفرقة في إصدار كتابه وكذلك أحد اليهود ويدعى يونس الذي كان ماهراً في فن الطباعة (٥٥) .

إن مشاركة الأوربيين والأقليات الدينية في عملية الطباعة كانت ظرفية في انتظار تدريب عمال مسلمين على استخدام فنون الطباعة إلا أن هؤلاء الاخيرين لم يبدوا انضباطًا كبيرًا أو تفانٍ في عملهم إلى درجة أن السلطان عبد الحميد الأول تهجم عليهم وعلى طريقة انتدابهم حيث ذكر في نص "خط همايون" أنه من الضروري ألا يقع قبول أناس جاهلين وحمقى بالمطبعة أو دون أن تكون لهم أية دراية بالعلوم والفنون الجميلة ويجب أن ينتدب المصففون والناظرون وكل العمال بعد استشارة واختيار المطبعيين وأن يمنع دخول الجاهلين والعاجزين إليها بطريق ملتوية بتجنب التدخلات والوساطات" (٥٦) .

إن هذا المصدر ثري بالمعلومات المتعلقة بالعمال الذين اشتغلوا بورشة الطباعة مع متفرقة أو خليفته، وقد أثير هذا الموضوع عندما تقرر إعادة فتح المطبعة أي بعد أن توقفت لمدة ثمان وعشرين سنة وذلك لتفادي أخطاء الماضي . إن شهادة السلطان عبد الحميد الأول شديدة اللهجة ولا تعترف بالعمل الهائل والبديع الذي أنجزه عمال المطبعة الذي بقيت بعض النماذج من الكتب المطبوعة شاهدًا على كفاء ة عالية وخبرة متميزة في هذا المجال من ذلك كتاب الجغرافيا "جهان نما" الذي نشر في ١١٤٥هـ/١٧٣٢م والذي احتوى على خرائط بديعة ومهما يكن من أمر فإن شهادة عبدالحميد الأول مبالغ فيها ولا تعدو أن تكون من تحرير العالمين اللذين طلبا إعادة فتح المطبعة وتحاملا فيها على عمل أسلافهما.

ويمكن استشفاف طريقة العمل المعتمدة بالمطبعة والتي ترتكز على توزيع المهام بين المطبعيين والناظرين والمصففين والمراجعين والمكلفين بصب الحروف والحفارين ، وقد وصلتنا أسماء بعض المتخصصين العاملين بالمطبعة، فإلى جانب اليهودي يونس وهو أبرز معاوني متفرقة واليسوعي هولدرمان الذي أشرف على صب الحروف اللاتينية (٥٧) ، توجد أسماء الحفارين الذين أسهموا في إعداد خرائط كتاب الجغرافيا وقد حفروها على لوحات من نحاس وأدرجوا

أسماء هم في زاوية من زواياها، مثل أحمد الكريمي وميجرديز غلاطيا وإبراهيم طوفاني . ولا يعرف العدد الإجمالي لعمال المطبعة في بدايتها، إلا أن الرحالة ميشو الذي زار الورشة في ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م ، يذكر عشرة عمال منهم اثنان من المراجعين وستة من المصففين واثنان من المطبعيين [٥٨] .

٤.١.٢ - لجنة الرقابة :

إن خط الهمايون الذي أصدره أحمد الثالث بشأن المطبعة، وكذلك فتوى شيخ الإسلام في هذه المسألة ، يشترطان مراقبة المطبوعات ومراجعة النصوص بدقة قبل سحبهاحتى لاتتسرب الأخطاء اللغوية والنحوية ولا "الأفكار الهدامة". وبمقتضى ذلك عين أحمد الثالث لجنة مراقبة مكونة من أربعة علماء هم: إسحاق أفندي قاضي الآستانة سابقًا وبيرى زاده أفندي قاضي سالونيك سابقًا وأسعد أفندي اليانيلي قاضي غلاطيا، وموسى أفندي شيخ مولوية قاسم باشا[٥٩] . وقد اختارهم الباب العالي لكفاءتهم وقدرتهم على أداء هذه المهمة[٦٠] والمتمثلة في اختيار المخطوطات الصالحة للنشر وتفادي إصدار أي كتاب يتعلق بالشريعة والفقه الإسلامي وكذلك يتولى الحكماء الأربعة تحقيق المخطوطات ويتابعون أيضًا عملية مراجعة التجارب المطبعية حتى صدور الكتاب، وهذا ما تم فعلاً حسب شهادة المؤرخ تودوريني الذي ذكر على سبيل المثال أن لجنة المراقبة اكتشفت أخطاء كثيرة في التجارب المطبعية لمعجم صحاح الجوهري وتسببت في تأخر صدوره [٦١] . إن الحكماء الأربعة هم بمثابة العين الساهرة للباب العالي على شؤون المطبعة إذ يطلعونه على مشاريع النشر ويحصلون على موافقته على طبع كتاب. وهذا الإجراء هو شبيه بما يعرف في أوربا "بامتياز الطبع" Privilège d'imprimer، حيث إن كل صاحب مطبعة مطالب بالحصول على هذه الرخصة التي تساعد السلطات على مراقبة محتوى النشر وتحمي بالمقابل صاحب المطبعة من مزاحمة المتطفلين على المهنة، إلا أن الإجراءات في إستانبول تذهب إلى أبعد من هذا، إذ أن الباب العالي يمنح لكل كتاب

رخصة على حدة ، وهذا نموذج من طلب هذه الرخصة الذي كان يقدمه إبراهيم متفرقة : " إلى معالي الصدر الأعظم حفظه الله .. إني التمس منكم الترخيص لي في طبع هذا الكتاب الذي أعرضه بين أيديكم وهو ترجمة لكتاب سياح أو غزو الأفغان وقضاؤهم على امبراطورية الفرس . إن في طباعته ستحصل فائدة للجمهور.. العبد الفقير إلى ربه إبراهيم" (٦٢) .

٥.١.٢ - تمويل المطبعة :

من قام بتمويل المطبعة في بدايتها؟ ومن استثمرها؟؛ هل دفع الباب العالي المصاريف اللازمة لتأسيس المطبعة وشراء تجهيزاتها وصرف مستحقات العمال، أم أن المؤسسة كانت تعمل بكل استقلالية ؟. تضاربت المصادر حول هذا الموضوع، فخط الهمايون الذي أصدره أحمد الثالث يقضي بأن يتكفل إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي بكل مصاريف المطبعة .إلا أن الوثيقة الثانية وهي خط الهمايون الذي أصدره عبد الحميد الأول ، يذكر بأن خزينة الدولة تولت صرف أجور العمال عند انطلاقة المطبعة. ويفهم من هذه المعلومة أن المصاريف الأخرى تعهد بها المشرفان على المطبعة والمتعلقة بإيجاد مبنى خاص بها، وبشراء التجهيزات وهناك وثيقتان تؤيدان ذلك ، الأولى للرحالة سوسير الذي أفاد أنه أمام الصعوبات المادية التي اعترضت المطبعة اضطر متفرقة إلى ترك المبنى الأول والانتقال إلى بيته الذي حوله إلى ورشة طباعة (٦٣)، وهذا المقر ظل يأوي المطبعة إلى سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م ، حيث تحولت المطبعة إلى مبنى جديد.

أما الوثيقة الثانية وهي قرار السلطان عبد الحميد الأول ، الذي يقضي بأن يتصل المسؤولان الجديدان عن المطبعة محمد راشد وأحمد واصف بأرملة قاضي إبراهيم، وهو خليفة متفرقة على رأس المطبعة لشراء حروف وآلات الطباعة ، وهذا ما يدل على أنها ليست ملكًا للباب العالي ، بل هي على ملك المشرفين على الورشة . إن هذه الحروف والتجهيزات تحولت بعد وفاة متفرقة إلى قاضي إبراهيم ، ثم بقيت عند أرملة هذا الأخير ولا يستبعد أن يكون متفرقة

قد أعدها أو اشتراها لحسابه الشخصي ، خاصة وأنه رجل ثري إذ يمتلك ضيعات كثيرة ويتقاضى أجرًا مرتفعًا من طرف الباب العالي (٦٤) .

إن إسهام الباب العالي في تمويل المطبعة كان جزئيًا وظرفيًا بدليل الصعوبات التي اعترضت صاحب المطبعة، ويضاف إلى مساعدة السرايامساعدة أخرى مهمة مصدرها الأوقاف وسخاء بعض الأثرياء ممن يرعون ويشجعون العلم والعلماء . وهذا المصدر كان ضروريًا لإخراج طبعات للكتب في حلة أنيقة وفي مظهر خلاب والتي تتطلب مصاريف باهظة سواء لتصفيف الحروف أو لشراء الورق أو لحفر الخرائط على لوحات معدنية أو تنميق الكتب وغير ذلك .

بقي المصدر المالي الأخير لتسيير المطبعة وهو مداخيل الكتب التي تباع في السوق وتبين أنها لا تغطي المبالغ المالية التي صرفت في النشر خاصة وأن أسعار الكتب كانت زهيدة، وقد حددت من طرف لجنة المراقبة لتشجيع الإقبال عليها، وهذا ليس من شأنه أن يوفر مرابيح لخزينة المطبعة .

إن الصعوبات المادية التي اعترضت الورشة جعلت الباب العالي ، لا يقدم على مطالبتها برسوم الأداء ات حتى سنة ١١٩٨ هـ/ ١٧٨٤م ، حيث تقرر منذ ذلك التاريخ أن تدفع المطبعة على كل كراس مبلغ قرش واحد (٦٥) . لقد أصبحت الورشة في نظر الباب العالي بعد مرحلة تجريبية مؤسسة مستقلة ماديًا وبإمكانها تسيير شؤونها اعتمادًا على المداخيل التي تغنمها بعد أن اكتسبت سمعة جيدة، وهذا ما يفسر قرار عبد الحميد الأول الذي طالب المطبعيين الجدد بتحمل كل النفقات اللازمة لإعادة فتح المطبعة من جديد. من ذلك البحث عن مبنى جديد لها ودفع أجرة العمال وكل المصاريف المتعلقة بشراء الحبر والورق ودفع الأداء ات وبالمقابل يحصل راشد أفندي وأحمد واصف على امتياز حق التصرف في مطبعة إستانبول .

٦.١.٢ المبنى :

ذكر في كل آخر كتاب مطبوع بإستانبول أنه طبع "بدار الطباعة المعمورة ... في البلدة الطيبة قسطنطينة صانها الله عن الآفات والبلية". إن الصفة التي أسندت للورشة إلى جانب غموضها لا تتماشى مع المبنى غير المناسب المخصص لها، وهو بيت مديرها الأول إبراهيم متفرقة ولم نعثر على معلومات تحدد المدة التي بقي فيها بيت متفرقة يأوي ورشة الطباعة ومهما كان الأمر، فإنها لا تتجاوز سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م ، حيث تذكر المصادر أن المطبعة انتقلت من مكانها القديم إلى سكوتاري[٦٦].

ويقدّم الرحالة تودريني الذي زار المطبعة إثر إعادة فتحها وصفًا غير دقيق لمكوّناتها، فهي تحتوي على أربع قاعات الأولى مخصصة للطباعة وتتضمن آلتين للطباعة والثانية للتصفيف والثالثة لإصلاح التجارب المطبعية والرابعة للأرشيف، وفي هذه الأخيرة يذكر تودريني أنه شاهد لوحات من النحاس لطبع خرائط كتاب الجغرافيا[٦٧] . كذلك ذكر الرحالة ميشو الذي زار المطبعة في ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م، انها انتقلت إلى مبنى آخر في وسط إستانبول وهو مبنى ضخم كان عبارة عن حمام عمومي قبل أن تحول إليه آلات الطباعة، ويصف الرحالة بعض القاعات ومنها قاعة الإصلاح وقاعة التصفيف والطبع، وهذه الأخيرة حسب قول الرحالة بها فضاء رحب وإنارة كافية [٦٨] .

٢.٢ - آلات الطباعة :

٢ . ٢ . ١ - مصدر الأحرف العربية :

هناك خلاف حول هذا الموضوع حيث إن المؤرخين الأوربيين يفترضون أن أحرف المطبعة، وآلاتها قد جاء ت من فرنسا[٦٩] أو هولندا[٧٠] في حين يذهب البعض إلى أنها صنعت في عين المكان أي بإستانبول .

وإذا كانت الوثيقتان الأوليان لا تقدمان حججًا عن ذلك، فإن الوثيقة الأخيرة تدعم ما ذهبت إليه بشهادات عن ذلك من المطبعيين أنفسهم وبمصادر تركية.

فقد ذكر تودريني أن مترجم سعيد شلبي أثناء إرساله إلى باريس في ١١٥٤هـ/١٧٤٢م، ويدعى لوماكا قد أكد لهذا الرحالة الأوربي أن الأحرف قد تم إعدادها في إستانبول (٧١) .كما أن الأب بينيون أمين مكتبة ملك فرنسا أرسل خطابًا سنة ١١٤٢هـ / ١٧٢٩م إلى سعيد شلبي يقول له فيه :" إن الأحرف التي تم حفرها جيدة جدًا حتى أني أصبحت أحسدكم ، بعد أن أدركت أن تجاربكم هذه شبيهة بما يمكن أن يقوم به عمالنا الماهرون من أصحاب الخبرة الطويلة" (٧٢) .

إن هذه الشهادة التي تعبر عن إعجاب صاحبها وهو رجل آداب فرنسي وصديق لسعيد شلبي تؤكد في الآن نفسه أن القوالب وأمهات الأحرف قد وقع إعدادها في إستانبول وليس في فرنسا وقد سبق أن رأينا الأحرف العربية التي استخدمها السفير الفرنسي سافاري دي براف في القرن١١هـ/١٧م بروما وباريس قد حفرت كذلك بإستانبول .

هناك مصدر آخر يستنتج منه أنه لم يقع الالتجاء إلى أية مساعدة أجنبية لإعداد أحرف الطباعة، ويتمثل في شهادة الأب اليسوعي هولدرمان الذي عمل مع متفرقة على طبع كتاب النحو التركي بالتركية والفرنسية بعد أربع سنوات فقط من تأسيس المطبعة، حيث إنه يعتذر لدى القراء في مقدمة هذا الكتاب عن الأخطاء التي تسربت في أثناء طباعة النص الفرنسي، نظرًا لجهل العمال الأتراك باللغة الفرنسية (٧٣) . وهذا ما يبين أن فريق متفرقة لم يحفر الأحرف العربية، فحسب بل وكذلك الأحرف اللاتينية (٧٤) . ويتناول الأب اليسوعي هذه المسألة من جديد في مذكراته، فيقول إن إبراهيم متفرقة "كلف عمالاً لصب الأحرف التركية وبدأ في طبع الكتب، (٧٥) ثم يشير هولدرمان إلى دوره في طباعة كتابه :"إني كلفت بعض العمال بصب أمهات الحروف (اللاتينية) في ثلاثة أقسام، ولم تكن جيدة كما أريد ولكن بما أن العمال الذين عملوا معي لا يعرفون البتة اللغة الفرنسية فقد نفد صبري، وأتمنى أن يرضى الجمهور على هذا العمل

ويصفح عن بعض الأخطاء التي تسربت في أثناء الطباعة" [٧٦] .

يؤكد هولدرمان مرة أخرى أن الأحرف العربية واللاتينية، قد تم إعدادها وحفرها بكل تأكيد في إستانبول . وإذا ما برزت بعض الصعوبات في صب الأحرف اللاتينية، فإن الأمر يختلف بالنسبة للأحرف العربية ويمكن القول أن مجموعة العمل التي أشرف عليها متفرقة كانت تتقن عملها إلى حد أنها استطاعت طبع كتاب بلغة أوربية .

أخيراً نشير إلى وثيقة أصلية أخرى تبين أن كل العمل قد تم بإستانبول، وهي لعبد الحميد الأول الذي أشار إلى الدور الذي قام به متفرقة الذي "أعد أحرف الطباعة من الحديد والفولاذ والنحاس والرصاص" [٧٧] .

إن هذه المصادر الأخيرة لا تختلف فيما بينها حول مصدر أحرف المطبعة فهي تؤكد أنها أعدت بإستانبول من طرف عمال الأتراك ، وهذا أمر طبيعي إذا علمنا أن أصحاب مهن المعادن من المسلمين وخاصة الصائغين منهم ، لهم خبرة كبيرة في مجال النقش على المعادن وصب الأشكال المختلفة من المجوهرات، وبالتالي فإن المسلمين قادرون فنياً على ممارسة فن الطباعة مادام ليس هناك عقبات قانونية أو سياسية تمنعهم من ذلك .

٢.٢.٢ – آلات وتجهيزات المطبعة :

إن المصادر المتوافرة لا تتحدث عن مصدر هذه الآلات والتجهيزات ويمكن افتراض التجاء متفرقة إلى مساعدات أجنبية في هذا المجال .

إن الورق كان يستورد من البندقية [٧٨] . أما آلات الطباعة فلا يستبعد أن يكون متفرقة قد اشتراها من الأقليات الدينية داخل الإمبراطورية أو أنه استوردها من أوربا[٧٩]. وكل ما يعرف عن هذه المسألة هو أن المطبعة قد استخدمت في البداية أربع آلات لطبع الكتب واثنتين للخرائط [٨٠] . ثم تقلص العدد في ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م إلى اثنتين [٨١] ثم ارتفع إلى ستة في ١٢٤٥هـ/ ١٨٣٠م [٨٢] .

٢ . إسهام منشورات إستانبول في تنشيط الحياة العلمية والثقافية بالإمبراطورية العثمانية :

بالرغم من أن عدد الكتب العربية المطبوعة كان ضعيفًا، فإنه من المهم تحليل محتوى كل الكتب باعتبار أن مطبعة إستانبول، تعتبر أول تجربة إسلامية في مجال النشر وأنها استخدمت أبرز اللغات المستعملة من طرف المسلمين وهي العربية والتركية والفارسية، والتي تشترك جميعًا من حيث الرسم في أنها تستخدم الحرف العربي .

ويعدّ من الأهمية بمكان دراسة التوجهات العامة لأول مطبعة إسلامية في مجال النشر وانشغالات المشرفين عليها وأسباب هذه الاختيارات، ومدى إسهام هذه المنشورات في إعطاء حركية جديدة للعمل الثقافي والعلمي داخل الإمبراطورية .

١.٣ - حجم الإنتاج واللغات :

١.١.٣ - الإنتاج والتوزيع :

أصدرت مطبعة إستانبول عشرين كتابًا منذ ظهورها في ١١٣٩هـ/ ١٧٢٦م حتى ارتقاء السلطان سليم الثالث الحكم في ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م . وهذه الكتب تتناول مواضيع تاريخية (ثلاثة عشر) وجغرافية (اثنان) وعسكرية إصلاحية (واحد) ولغوية أدبية (أربعة) .

إن معدل النشر حسب السنوات كان ضعيفًا في هذه المدة الممتدة على إحدى وستين سنة، حيث إن المطبعة تصدر كتابًا واحدًا كل ثلاث سنوات تقريبًا . وهذا المعدل لا يتطابق مع واقع نشاط هذه الورشة التي عرفت عهود نشاط وعهود ركود. ويمكن القول إن هناك ثلاثة عهود مهمة في حياة المطبعة، الأول: يمتد من ١١٣٨هـ/ ١٧٢٦م إلى ١١٥٨هـ/ ١٧٤٦م والثاني : من ١١٥٨هـ/ ١٧٤٦ م إلى ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م والثالث : من ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م إلى ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م .

إن العهد الأول كان مزدهراً فقد شهد نمو حركة النشر وبلغت الكتب المطبوعة فيه سبعة عشر كتاباً في ظرف ستّ عشرة سنة أما الثاني فلم يعرف منذ موت متفرقة إلا طبعة واحدة في ظرف أربعين سنة وأخيراً لم يعرف الثالث سوى ثلاثة كتب .

٢.١.٣ - اللغات :

إن أغلب الكتب المطبوعة كانت باللغة التركية. أما البقية فكانت موزعة بين العربية والفارسية والفرنسية وتوجد خمسة كتب ثنائية اللغة منها اثنين بالتركية - العربية وواحد بالتركية - الفارسية وواحد بالتركية - الفرنسية. ومحتوى الكتابين اللذين صدرا بالعربية والتركية ، كانا يتعلقان باللغة والنحو العربيين. فهناك صحاح الجوهري مع ترجمة تركية لوانقولي الذي نشر في ١١٤١هـ/١٧٢٨م ، وأعيد طبعه في ١١٧٠هـ/١٧٥٦م ، وهناك أيضاً إعراب الكافية لابن الحاجب مع ترجمة تركية لزاني زادة طبع في ١١٩٩ هـ/ ١٧٨٥م.

٢.٣ - محتوى الكتب :

١.٢.٣ - مشكلة الاختيار :

إن الخطوط العريضة فيما يتعلق باختيار الكتب المعدة للطبع ، قد تم تحديدها منذ ١١٣٩هـ/١٧٢٦م وهذا بمقتضى خط هما يون السلطان أحمد الثالث الذي سمح لإبراهيم متفرقة وسعيد شلبي بنشر المجلدات الضخمة التي لا يقبل الناسخون على نسخها، وهذا مما جعلها نادرة في السوق . ويوضّح نص القرار مضمون هذه الكتب بأنها تلك المتعلقة بالعلوم والآداب مثل المعاجم وكتب المنطق والفلسفة والفلك وغير ذلك ، دون الإشارة إلى القرآن الكريم وكتب الأحاديث والفقه وغيرها المتعلقة بعلوم الدين والتي كما رأينا لم يسمح بطبعها لعدة أسباب . إذن كانت مطبعة إستانبول في "عهد الخزامى" موجهة لخدمة الفنون والآداب والعلوم على عكس المطابع العربية المسيحية التي حرصت على خدمة الديانة المسيحية .

إن رجال الباب العالي والعلماء كانوا منشغلين بمصير "كتب التراث" التي توشك أن تنقرض، بعد أن أصبحت نادرة، ويرون في فن الطباعة وسيلة عجيبة ومثالية لإنقاذ هذه المؤلفات الثمينة من التلف وبالتالي للحفاظ على المكاسب الأساسية للحضارة الإسلامية . إن المطبعة الإسلامية في القرن ١٢هـ/ ١٨م، كانت موجهة لتوفير الكتب العلمية والأدبية العربية بالخصوص وإثراء المكتبات وتثقيف القراء .

إلا أنه أمام وفرة " كتب التراث " لدى المسلمين ، فقد كان من الصعب اختيار الأنسب للطبع. وقد أوكلت هذه المهمة لمدير المطبعة وأعضاء لجنة المراقبة الذين كانوا مطالبين بدراسة مقترحات العلماء[٨٣] ورجال السياسة [٨٤] وحتى الأوربيين [٨٥] . وقد كان المطبعيون يتعاونون تعاونًا وثيقًا مع الباب العالي الذي تعود إليه الكلمة الفصل في هذه المسألة حيث إنه يمنح حق الطبع أو يسحبه حسب رغبته وقد نجح إبراهيم متفرقة في كل مرة في الحصول على هذا الترخيص، ولم يكن الباب العالي ليرفض له طلبه حتى وإن تعلق الأمر بطبع كتابه المتعلق بالإصلاحات "أصول الحكم" في مدة سياسية دقيقة اتسمت بالتوتر إثر ثورة الانكشارية .

٢.٢.٣ - كتابات التاريخ :

خصص أكثر من نصف الكتب المطبوعة لهذا المجال ، وتتمثل في ثمانية كتب تتناول تاريخ العثمانيين، وأربعة كتب تتعلق بتاريخ مصر والفرس وأمريكا وتيمورلنك، وأخيرًا جداول زمنية للتاريخ الإسلامي . إنه من المهم التعرف على السبب الذي دفع الناشرين إلى طبع هذا العدد الكبير من كتب التاريخ دون تخصيص ولو كتاب واحد لمجالات معرفية أخرى مثل الطب والرياضيات والفلسفة وغير ذلك. إن كتب الحوليات الخمسة كانت من عمل مؤرخي البلاط وهم نعيمة [٨٦] وراشد [٨٧] وشلبي زاده[٨٨] وسامي وشاكر وصبحي[٨٩] وأخيرًا عزي[٩٠] . وهذه الكتب تغطي حوادث الفترة التاريخية الممتدة من ١٠٠١هـ/

١٥٩٢م إلى ١١٦٥هـ/١٧٥١م، أي بداية من حكم السلطان مراد الثالث إلى حكم السلطان محمود الأول.

ويتمثل مشروع متفرقة في نشر كامل تاريخ الأسرة العثمانية ثم بقية التاريخ الإسلامي، ويعلل سبب اهتمامه بتاريخ الدولة العثمانية بالذات ، بحرصه على إبلاغ المسلمين أخبار انتصارات السلاطين العثمانيين على المسيحيين والتأكيد على شجاعة هؤلاء الأمراء. ويقول في هذا الصدد :

« لا يمكن لأي أحد أن يتجاهل مدى ما وصل إليه سلاطيننا من مجد وشهرة ، نتيجة انتصاراتهم العسكرية الساحقة على الأوربيين . إن هذه البطولات الرائعة هي التي سجلها لهم التاريخ ليبلغها للأجيال القادمة . وهذا يتضح جليًا لدى كل مؤمن مدى الفائدة والمتعة التي تحصل له حين يطلع على أمجاد وانتصارات أمرائه ويدعو لهم بالثبات والعزة على رعايتهم للمطبعة" (٩٢) .

يتضح من خلال هذه الوثيقة ، أن من جملة الأسباب التي دعت الباب العالي إلى الترخيص بإقامة مطبعة ، هو توظيف فن الكتابة الجديد لتمجيد الدولة العثمانية، ويمكن عدّ الحوليات المطبوعة، إلى حد ما، بمثابة وسيلة إشهار سياسية لتدعيم سلطة الأمراء العثمانيين .

وإلى جانب الحوليات توجد كتب تاريخية أخرى سمح بطباعتها، لأنها تسير على المنهج نفسه، مثل "**تحفة الكبار في أسفار البحار**" لحاجي خليفة الذي طبع في ١١٤١هـ/١٧٢٨م(٩٣) ويتحدث فيه مؤلفه عن الحروب البحرية التي خاضها الأتراك في البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي، وكذلك في الأنهار الأوربية الكبرى مثل الدانوب . ويطنب حاجي خليفة في وصف المعارك البحرية التي انتصرت فيها الأساطيل التركية ليبرز مدى التفوق العسكري للعثمانيين الذين يعدّهم ملوك البحر .

هناك كتاب تاريخي آخر يسرد بطولات الأمراء العثمانيين وانتصاراتهم الباهرة على الألمانيين في ولاية بوسنة ، فيما بين ١١٤٩هـ/١٧٣٦م و

١١٥٢هـ/١٧٣٩م وعنوانه "أحوال غزوات ديار بوسنة" لعمر أفندي . وقد طبع في سنة ١١٥٤هـ/١٧٤١م[٩٤] أي مباشرة بعد انتهاء هذه الحرب وانتهاء مؤلفه من تحريره .

ولنا أن نتساءل: هل اقتصر متفرقة في اختياره على الكتب التاريخية التي تمجد انتصارات السلاطين العثمانيين ، أم أنه اختار كتبًا أخرى؟. إن اختيار متفرقة كان على حوليات التاريخ العثماني التي تغطي مدة التراجع والضعف في الدولة والتي بدأت تقريباً بعد موت سليمان القانوني، وقد انطفأت فيها جذوة الانتصارات التي حققها الأجداد، ولم يتردد مؤرخو البلاط رغم تعرضهم لبعض أمجاد السلاطين في التحدث عن تدهور الأوضاع والثورات والرشاوي والفساد والفوضى التي بدأت تعم الدولة، أي عن مظاهر الانحلال داخل الإمبراطورية[٩٥]. إن كتب التاريخ التي اختارها الناشرون للطباعة لم تكن تمجد السلطة العثمانية فحسب ، بل وكذلك كانت تتعرض لمظاهر الضعف في الدولة. وقد تزامن ظهور هذه الكتب كما رأينا مع ظهور رسائل سياسية تتحدث عن انحطاط الدولة وتدعو للإصلاح [٩٦] . ومن أبرز الأمثلة على ذلك نذكر المؤرخ نعيمة الذي تناول بالتحليل في مقدمة كتابه الذي طبع في ١١٤٧هـ/١٧٣٤م، التنظيم السياسي والمالي للدولة العثمانية، اعتماداً على كتاب حاجي خليفة المتعلق بالإصلاح وكان المؤرخ الحلبي يتناول المسألة بفكر نقدي ثاقب ، محاولاً إيجاد حلول لحالة الانحطاط التي توجد عليها الدولة[٩٧] .

إن هذه الطريقة تتفق ومفهوم متفرقة للمطبعة التي أراد تسخيرها، لبث بعض الأفكار الإصلاحية. فهو يريد طبع الكتب التاريخية ليس فقط لتمجيد السلاطين العثمانيين، بل وكذلك لإصلاح الحالة السياسية المتعفنة التي صارت إليها الإمبراطورية بعد ثورة ١١٤٣ هـ/١٧٣٠م . وهو يبين هدفه من نشر أبرز الأحداث التاريخية التي وقعت في العالم الإسلامي : "كنت أحيانًا أتوقف عند بعض كتب التاريخ وأفكر في النكبات التي حلت بالملوك وما نتج عنها من زوال

ملكهم، ولاحظت أن كل هذه التغييرات والتقلبات والثورات التي حصلت في قصور الأمراء والدول الإسلامية بمشيئة الله تعالى، كان لها أطيب الأثر، بما أنها تسببت في عودة العمل بقوانين الشريعة الإسلامية ودعمت سلطة الملكية وارجعت الحقوق لأصحابها وأقرت العدل بين الناس ونشرت الطمأنينة والأمن في المجتمع وأجرت إصلاحات دينية داخل الممالك من أجل تنقية العقيدة من كل الشوائب" [٩٨] .

إن التاريخ حسب إبراهيم متفرقة من شأنه أن يعلم الأمير الحكمة حتى تسير أمور الدولة بتبصر وينشر العدل وبذلك يتفادى الثورات والهزائم العسكرية وينأى بالملكة عن الهزات والانقلابات. إن ثورة الانكشارية التي أطاحت بأحمد الثالث ورفعت إلى سدة الحكم محمود الأول، كانت علامة ضعف في الدولة العثمانية وتنذر بسقوطها وبالتالي ، فإن الحل يكمن حسب رأي مدير المطبعة في إعادة تنظيم جهاز الدولة وتبني سياسة إصلاحات . إنّ جلّ كتب التاريخ التي طبعت كانت تغطي عهود ضعف الإمبراطورية ويرمي متفرقة ومن خلفه على رأس المطبعة من وراء ذلك، إلى دعوة الباب العالي إلى التفكير في الوسائل الكفيلة للخروج من حالة التدهور وقد لجأ المطبعيون لتحقيق هذا الغرض إلى نشر كتب تاريخ الدول المجاورة مثل فارس، وكذلك إلى عهود مظلمة من التاريخ الإسلامي مثل حروب تيمورلنك لدفع الأمراء الأتراك والمسلمين إلى التأمل في مصير الدول الإسلامية السابقة .

إن طبع الكتاب المتعلق بتاريخ بلاد فارس في ١١٤٢ هـ/١٧٢٩م [٩٩]، وعنوانه "تاريخ سياح" كتبه الأب اليسوعي البولوني تادي كريزنسكي [١٠٠] ، ويتحدث فيه عن حروب الأفغان مع الفرس وسقوط الدولة الصفوية بفارس بعد حكم طويل دام مئتين وثمان وعشرين سنة . ويدلي المؤلف بآرائه حول تدهور الوضع ببلاط فارس ، ويذكر أن السبب في ذلك هو استبداد الملوك الأوائل وتعاطي الرشاوي داخل جهاز الحكم والصراعات الداخلية بين الأمراء والتي أدت

إلى ضعف الدولة وتقسيمها ومن الأسباب أيضًا عدم تطبيق قوانين الشريعة وإباحة شرب الخمر ومنع القيام بمناسك الحج .

اهتم متفرقة بتاريخ الفرس وهم ألد أعداء العثمانيين، ونشر هذا الكتاب عند بداية الصراع بين البلدين في ١١٤٢هـ/١٧٢٩م والذي تسبب في ثورة ١١٤٣ هـ/ ١٧٣٠م، التي أطاحت بالسلطان ووزيره . ويلقي هذا الكتاب الأضواء على التحولات السياسية التي حدثت بفارس، الأمر الذي مكن الباب العالي من التعرف على عدوه اللدود بصورة جيدة. ويرى المشرفون على المطبعة أن الكتاب مفيد نظرًا للتحليل الذي قدمه صاحبه حول أسباب سقوط الدولة الصفوية التي قد تكون عبرة لكل الأمراء في العالم ويرى متفرقة في الكتاب دعامة أخرى لآرائه الإصلاحية .

أما تاريخ تيمورلنك لأحمد بن عربشاه[١٠١]، والذي ترجمه إلى التركية نظمى زاده أفندي وطبع في ١١٤٣هـ/ ١٧٣٠م ، فلم ينشر لتمجيد أعمال تيمورلنك ولكن لتشويه سمعة هذا القائد والتنديد ببطشه ووحشيته . فهو الذي أهان كرامة أمراء العائلة العثمانية ، إذ سجن السلطان بايزيد الأول يلدرم. ويحكي المؤلف بعض الروايات عن تيمورلنك التي تخيلها أعداؤه ، لإهانته واحتقاره. وهذا الكتاب طبع على ما يبدو لحمل الأمراء العثمانيين إلى الحرص على الحفاظ على المكاسب التي ضحّى من أجلها آباؤهم وأجدادهم .

وخلاصة القول : إنه تمّ اختيار أكبر عدد ممكن من كتب التاريخ لطبعها لسببين هما، أولاً: تمجيد أعمال السلاطين العثمانيين وثانيًا: محاولة فهم مظاهر الضعف التي بدأت تدب في الدولة العثمانية والدعوة إلى التفكير في أسباب هذا الانحلال وطريقة معالجته. وفي كلتا الحالتين، فإن المطبعة الإسلامية الأولى، كانت في خدمة السرايا فهي تدعم سلطتها من جهة من خلال هذا "الإشهار" السياسي المستمد من شرعيتها التاريخية وتدعوها إلى الحذر واتخاذ التدابير

العاجلة لضمان استمرار الدولة ، وقد ذهبت المطبعة أكثر من ذلك ، إذ أصدرت كتاباً تدعو فيه إلى إجراء إصلاحات عسكرية .

٣.٢.٣ . إصلاحات عسكرية :

عنوان هذا الكتاب هو "أصول الحكم في نظام الأمم" لصاحبه إبراهيم متفرقة الذي طبعه في ١١٤٤ هـ/ ١٧٣١م ، ويتحدث فيه المؤلف عن ضرورة اتباع الفنون العسكرية الحديثة التي توصل إليها المسيحيون بأوربا الغربية، وقد أتيحت له فرصة التعرف على هذه الفنون من خلال اطلاعه على كتب لاتينية واستشارته لخبراء عسكريين أوربيين[١٠٢]، وهو يريد من خلال هذا الكتاب إبلاغ نتائج اتصالاته وقراءاته إلى الجمهور وعرض آرائه حول الموضوع. إلا أن الكتاب كان موجهاً بالدرجة الأولى، وكما يذكر مؤلفه في المقدمة ، إلى السلطان والوزراء والديوان وكبار المسؤولين في الباب العالي بغرض اقناعهم بجدوى آرائه ومخططاته[١٠٣] .

تكمن أهمية الكتاب في أنه صدر على إثر ثورة الانكشارية حيث وجد المؤلف الفرصة ملائمة لأن يصدع بأفكاره الإصلاحية، فهو يقول "اتجهت عنايتي أثناء هذه الاضطرابات إلى البحث عن أسباب هذه الثورة الفجئية ، وحرصت على التعرف عن جذور هذه الآلام ولم أتردد في إرجاع هذه المصائب إلى سوء تطبيق قوانين الدولة وإلى عدم اكتراث الوزراء وكبار موظفي الدولة التام بشؤون الإمبراطورية وإهمالهم وقلة انضباطهم عند القيام بواجباتهم" [١٠٤].

لم يتردد متفرقة في توجيه نقد لاذع للمسؤولين السابقين في الدولة والذين كان يعمل معهم ويتجه، من خلال تحليله لأسباب الثورة ، إلى القيادة الجديدة في الدولة ليدعوها إلى تفادي أخطاء الماضي وخاصة ليقترح عليها إجراء إصلاحات عسكرية فورية لإرجاع هيبة الدولة ووضع حد لحالة عدم الاستقرار التي مرت بها الدولة ويقول متفرقة : "لقد برز الخلل داخل الجيش في هياكله وتنظيماته، ولم يعد بالإمكان اليوم اتباع هذا النمط، إذ أن الإبقاء على العيوب

العديدة التي يتسم بها الجهاز العسكري، سيؤدي إلى الانهيار الكامل للبلاد. وإذا فوتنا الفرصة فلن ينفع الندم بعد ذلك"[١٠٥] . إن التنظيم العسكري التقليدي للعثمانيين قد تجاوزه الزمن وينبغي حسب قول متفرقة مراجعته وإعادة النظر في هياكله حسب النموذج الأوربي الغربي. ومن هنا انطلق المؤلف يستعرض في كتابه مختلف النظم التي تتبعها الجيوش الأوربية والقوانين التي تنظمها. وقد ألح المؤلف منذ البداية على ضرورة تحلي كل الجنود بالانضباط والتفاني لما في ذلك من فوائد عظمى[١٠٦] .

إن متفرقة كان داعية للإصلاح السياسي ووجد في الكتاب المطبوع، أداة أساسية للتعريف بأفكاره وتبليغها بالخصوص إلى الباب العالي . وقد أذن السلطان الجديد محمود الأول بطبع كتاب **"أصول الحكم في نظام الأمم"** الذي قد يكون دعامة نظرية لإعادة تنظيم فرق الانكشارية التي عرفت اضطراباً كبيراً وغلياناً متزايداً أديّا في النهاية إلى الانتفاضة وعزل السلطان أحمد الثالث. لقد استخدمت المطبعة لتبليغ سياسة الباب العالي، وكانت بمثابة منبر يتحدث منه بعض كبار المسؤولين في الدولة، وأداة دعاية سياسية لتمجيد أعمال الأمراء العثمانيين أو إعادة تنظيم الدولة وإصلاحها حرصاً على استمرار حكم أمراء آل عثمان[١٠٧] .

٤.٢.٣ - كتب الجغرافيا :

أصدرت مطبعة إستانبول كتاباً في الجغرافيا لحاجي خليفة عنوانه : جهان نما (أي : مرآة العالم) ويعدّ تحفة فنية رائعة لمطبعة إستانبول التي أصدرته في ١١٤٥هـ/١٧٣٢م[١٠٨] . ويحتوي هذا الكتاب على وصف لقارة آسيا إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية العثمانية. إلا أن مؤلفه لم يكمله بعد أن بدأ تأليفه منذ ١٠٦٥هـ/١٦٥٤م . وكان حاجي خليفة قد اطلع قبل ذلك على أطلس مينور للكاتب مركاتور وجغرافية إبراهيم أورتيليوس، واستعان بعدد من الكتب الجغرافية الأوربية لكتابة جهان نما[١٠٩] . وتولى متفرقة تنقيحه ومراجعته قبل

طبـعـه بطلب من مـحــمـود الأول الذي أراد التـعـرف بدقـة على ممتلكاته الشاسعة(١١٠) ، وتم طبعه من طرف جغرافيين خبراء في تحديد الأماكن ورسم الخرائط بكل دقة (١١١) .

يهدف الكتاب إلى إعلام رعايا الدولة وأيضًا جيرانها وأعداءها بمدى اتساع رقعة الإمبراطورية، إلا أن متفرقة لا يُرمي فحسب إلى الوصول إلى هذا الهدف بل إن له هدفًا آخر للجغرافيا عرضه في كتابه **"أصول الحكم"**، حيث إنه بدأ بتقديم تعريف للجغرافيا على أنها علم معرفة الأرض والرجال والعادات والأمم ومواقع البلدان وحدود الأماكن(١١٢) . ويضيف متفرقة فيقول إنها ضرورية لجهاز الجيش؛ لأنها تمكن القواد من معرفة بلاد العدو وشبكة الطرقات الأمر الذي يمكن الجيش من التدخل بسرعة واخذ الأماكن الاستراتيجية في الجبهة(١١٣) .إن الجغرافيا كذلك مفيدة حسب رأي العالم المجري للأسفار البرية منها والبحرية، إذ تتفادى القوافل المسالك الوعرة والعقبات والفخاخ . أما السفن فبالاستعانة بالخرائط وكتب الملاحة يمكنها أن تشق أعسر الطرق البحرية (١١٤) . وهذا العلم يمكن من الحصول على معلومات عن الشعوب الإسلامية الأخرى خارج الإمبراطورية العثمانية (١١٥). وتمكن المسلمين بصفة عامة من الوقوف على ضعفهم وتفرقهم فيسعون إلى توحيد صفوفهم والجهاد ضد العدو المسيحي(١١٦) . لقد قدمت الجغرافيا خدمات جليلة للأوربيين الذين استقروا بالعالم الجديد، وتمكنوا أيضًا من التنقل بحرية وسهولة عبر البحار والبراري(١١٧) .

ويفسر متفرقة كذلك العلاقة الموجودة بين عنوان كتاب حاجي خليفة **"مرآة العالم"** والمفهوم الذي يحمله عن الجغرافيا: فيقول "إن الجغرافيا في الحقيقة مرآة مصقولة نستطيع من خلالها أن نرى بوضوح كل الشعوب والأمم المنتشرة على الكرة الأرضية وكذلك أحوالهم ودياناتهم" (١١٨) . ويبين كذلك التكامل بين

التاريخ "**الدليل الوفي للعقل**" والجغرافياالتي تعدّ أساس دراسة التاريخ إذ أنها توفر الوسائل وتذلل الصعوبات للوصول إلى هذه المعرفة .

يؤكد إبراهيم متفرقة ضرورة الاستعانة بخرائط دقيقة يتولى إعدادها جغرافيون عارفون بسكان تلك الأقاليم ولهذا فقد أعد وحده العديد من الخرائط الجيدة لكتاب "**جهان نما**" الذي نمقه وزينه بكثير من الخرائط، وأضاف إليه معلومات كثيرة ، منها تعريف بنظام كوبرنيك في مقدمة الكتاب والنظرية الفلكية الحديثة لادموند بورشو [(١١٩)] .

إن المطبعة بهذا الأسلوب وحسب قول المشرفين عليها، تمكنت من نشر العلوم الحديثة وخاصة تلك التي توصّل إليها المسيحيون بأوربا الغربية وبالتالي فهي تثقف وتعلم المسلمين على أوسع نطاق.

بقي أن نشير إلى كتاب آخر له علاقة بالجغرافيا وعنوانه "**فيوصات مغناطيسي**" حول استعمال البوصلة وقد طبع في ١١٤٤هـ/١٧٣١م[(١٢٠)]، وهو عبارة عن منتخبات من كتب لاتينية جمعها متفرقة ويتحدث فيها عن البوصلة وفائدتها للسفن والبواخر التي تنير سبيلهم في البحر وتمنع البحارة من أن يضلّوا الطريق .

٥.٢.٣ – النحو واللغة :

أصدرت مطبعة إستانبول أربعة كتب نحوية ولغوية وتتمثل في معجمين لغويين، الأول عربي تركي والثاني فارسي – تركي، وكتابين في النحو الأول عربي – تركي والثاني تركي – فرنسي .

إن معجم صحاح الجوهري، بترجمته التركية التي قام بها مصطفى الواني المعروف بوانقولي كان أول كتاب يصدر بإستانبول : في ١١٤١ هـ/١٧٢٨م[(١١٢)] ، ويعاد طبعه في ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م . ويحتوي الكتاب في البداية على رسالة في النحو العربي ثم المعجم العربي – التركي، وفيه تفسير لكل الكلمات العربية بالتركية ثم استشهاد بأبيات شعرية وأقوال وحكم لأبرز

المؤلفين العرب. ويعدّ معجم الجوهري من أبرز المعاجم العربية مماجعل الأتراك يقدمون على ترجمته ثم طبعه مبكرًا [١٢٢]. فكان أن قام وانقولي (توفي في ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩٢م) بترجمته إلى التركية [١٢٣] وحرص المشرفون على مطبعة إستانبول على تدشين هذه المؤسسة بإصدار هذا الكتاب القيم الذي أعيد طبعه بعد ذلك[١٢٤] وقد كان من جملة أهداف المطبعة وضع أدوات العمل الرئيسة لدراسة الأدب واللغة على ذمة المتعلمين والعلماء فكان هذا المعجم الضخم، وكذلك رسالة في النحو عنوانها "إعراب الكافية" لابن الحاجب التي طبعت مع ترجمته التركية لزاني زاده في سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م[١٢٥]. كما صدر معجم لغوي فارسي – تركي **"فرهنك شوري"** ومؤلفه مجهول في سنة ١١٥٥هـ/ ١٧٤٢م. وهذه الكتب كلها جيدة وتساعد العلماء على الكتابة باللغة التركية التي كانت تحتوي على كثير من الألفاظ التي استعارتها من العربية والفارسية. إن اللغة العربية كانت محل تقدير من طرف العلماء الأتراك والباب العالي، نظرًا إلى أنها لغة القرآن الكريم والحديث الشريف، وهي كذلك لغة التعليم الديني في المدارس، ولأن أغلب كتب التراث الإسلامي مدون باللغة العربية وهذا ما يبرر حرص المشرفين على المطبعة على إصدار معجم لغوي على غاية من الأهمية. ويقول متفرقة في هذا الصدد : " إن معرفة اللغة العربية ضرورية بالتأكيد لكل من يريد قراءة الكتب الموجودة لدى أمتنا ويستفيد منها. فهي اللغة التي كتب بها كل ما يتعلق بالعلوم والفنون ولا نستطيع بلوغ هذا الهدف ، إلا بالاستعانة بالمعاجم التي يمكن نسخها بواسطة الطباعة بأعداد وافرة ، هذا بالإضافة إلى امتياز تنفرد به ، وهو أنها تصدر بدون أخطاء"[١٢٦] .

إن كل من يتقن اللغة العربية يستطيع أن يطلع على كل التراث الفكري المكتوب للمسلمين، هذا علاوة على أنها أعارت الكثير من الألفاظ إلى التركية التي هي اللغة الرسمية للإدارة العثمانية. وباستثناء كتب اللغة فإن بقية الكتب

التي طبعت في إستانبول في القرن ١٢هـ/ ١٨م، كانت باللغة التركية . إن المعاجم وكتب النحو العربية منها والفارسية، إنما طبعت لأنها تساعد على حذق ودراسة اللغة التركية التي استعارت في تلك المدة قرابة نصف ألفاظها من هاتين اللغتين [١٢٧] .

بقي أن نشير إلى ظهور كتاب في النحو التركي بالفرنسية والتركية طبع في ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م، ومؤلفه الأب اليسوعي يوحنا هولدرمان الذي ألف هذا الكتاب لفائدة التجار الفرنسيين، كما ذكر ذلك في المقدمة، ليتعلموا اللغة التركية. ولاشك أن العلاقات الطيبة التي تربط الإمبراطورية بالدولة الفرنسية ساعدت على إنجاز هذا العمل، وكان هولدرمان ينوي إصدار كتاب النحو الأرمني. إلا أن موت الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد، حال دون ذلك، وهذا الوزير كما رأينا كان متفتحاً على الغرب ولم يتردد مع إبراهيم متفرقة في وضع المطبعة على ذمة الأوربيين .إن المطبعة جاء ت من الغرب واستخدمت للتعريف بالعلوم والفنون والاكتشافات الغربية مثل كتاب "**جهان نما**" و"**فيوصات مغناطيسي**" و" **أصول الحكم في نظام الأمم** " .

إن محتوى منشورات مطبعة إستانبول كان مخصصاً لموضوعات التاريخ والجغرافيا واللغة والإصلاح العسكري، ولم يكن متعلقاً البتة بمواضيع الفقه والشريعة الإسلامية. وقد حصلت كتب التاريخ على نصيب الأسد من جملة هذه المنشورات، وهذا الاختيار يعكس رغبة الباب العالي في التعريف بانتصارات الأمراء العثمانيين وتمجيد إنجازاتهم لتدعيم سلطة الدولة وإبراز شرعية الأسرة الحاكمة. ولأن كان إبراهيم متفرقة يتفق ولو ظاهرياً مع الباب العالي في تحقيق هذا الهدف فإنه يرمي إلى استغلال هذه الكتب التي تتحدث عن مدة ضعف وتدهور الدولة العثمانية أكثر من أن تشير إلى عظمتها لإقناع الأمراء العثمانيين بضرورة إدخال الإصلاحات اللازمة والعاجلة، وخاصة إعادة تنظيم الجيش والاستفادة من تجربة الغرب في هذا المجال. هذا بالإضافة إلى النهل من

علومهم وفنونهم حتى يبقى المسلمون في موقع قوة وفي مستوى المواجهة الحضارية مع أوربا الغربية .

لقد كانت المطبعة منبراً للخطباء المصلحين العاملين مع الباب العالي وكذلك وسيلة إعلام وإشهار سياسي، وقد أسست هذه الورشة بمبادرة من الباب العالي وكبار المسؤولين السياسيين وكانت تعمل تحت إشراف رجال سياسة لخدمة أغراض سياسية أكثر منها علمية وثقافية . هذا ما يمكن استنتاجه من خلال دراسة محتوى جل الكتب المطبوعة . بقي أن نتساء ل الآن كيف تلقى المسلمون هذه المنشورات وكيف كانت ردود فعلهم ؟.

٣.٣ صدى منشورات إستانبول :

١.٣.٣ - وجهة هذه المنشورات :

لقد كانت نية مؤسسي المطبعة تتمثل في توزيع هذه الكتب في أوساط المسلمين سواء أكانوا من رعايا الدولة العثمانية أم لا. فقد ورد في "رسالة وسيلة الطباعة" أنه ينبغي أن تصل الكتب إلى كل الولايات والأقاليم وكل المدن والقرى داخل العالم الإسلامي، وأنه بفضل وفرة الإنتاج المطبعي، فإن المتعلمين المسلمين سيتمكنون من اقتناء الكتب بأسعار زهيدة وستؤسس مكتبات عمومية في كل المدن لتقريب الكتاب المطبوع إلى عامة الناس، وبذلك يبتعد هؤلاء عن ظلمات الجهل (١٢٨) . إن مدير مطبعة إستانبول كان ينظر إلى مشروعه على أنه عنوان الرقي والتقدم العلمي والثقافي؛ لأن المطبعة ستنمي ذوق القراء وتدفع بأفواج جديدة للمطالعة وتضع حداً لنقص الكتب. ولكن ماذا عن حقيقة الأمر على أرض الواقع؟، وهل وصل أصحاب المطبعة إلى مبتغاهم السامي ؟ وماهي نسبة توزيع الكتب المطبوعة بإستانبول في أوساط المتعلمين؟، وماهو صدى المطبعة عندهم؟.

٢.٣.٣ - توزيع الكتب :

إنه من الضروري التعرف على بعض الأرقام المتعلقة بعدد النسخ التي طبعت

وعن أثمانها. وقد وصلتنا أرقام عن عملية السحب بالنسبة لثلاثة عشر كتاباً فقط(١٢٩). فقد وقع سحب ألف نسخة بالنسبة **"لصحاح الجوهري" وتحفة الكبار في أسفار البحار"**. في حين عرف كتاب "تاريخ سياح" أكبر عملية سحب، إذ طبعت منه الف ومئتا نسخة. وبعد هذه الانطلاقة الجيدة انخفضت نسبة السحب إلى النصف ، حيث طبعت خمس مائة نسخة فقط من كل كتاب من جملة الكتب العشرة الأخرى وهي : **تاريخ هند غربي، وتاريخ تيمورلنك، وتاريخ مصر وكلشان خلفاء ، والنحو التركي، وأصول الحكم، وفيوصات مغناطيسي ، وجهان نما ، وتقويم التواريخ ، وتاريخ نعيمة.** ولا نمتلك معلومات حول أسباب هذا الانخفاض في أرقام السحب خاصة وأن المطبعة لاتزال في بدايتها، وأنها تطمح إلى تلبية حاجيات كل المسلمين من الكتب الأساسية. إن عدد ألف ومئتي نسخة عن كل كتاب يعدّ قريباً من الأعداد المتعامل بها في المطابع الأوربية في المدة نفسها. إلا أن انخفاض نسبة السحب يعدّ مؤشراً لصعوبات اعترضت المطبعة .

أما عن أثمان هذه المنشورات فلم تصلنا معلومات إلا عن الكتب الثمانية الأولى . فمعجم الجوهري في مجلدين ضخمين ثمنه ثلاثون قرشاً. في حين أن سبعة الكتب الأخرى كان سعرها موحداً وهو ثلاثة قروش(١٣٠) . وعلى سبيل المقارنة فقد كان معجم الصحاح يباع مخطوطًا بثلاث مائة قرش(١٣١) ويعني ذلك ان هذا المعجم يباع مطبوعاً بعشر ثمنه مخطوطًا. وهذا لا يدع سبيلاً للمقارنة بين أسعار الكتب المخطوطة منها والمطبوعة (١٣٢) . وكل ذلك يدفع القراء للإقبال على إنتاج المطبعة. إن انخفاض الأسعار بهذا الشكل، كان ثمرة استخدام فنيات الطباعة التي أنتجت عدداً كبيراً من الكتب. إلا أن العمل بهذه الأسعار المنخفضة، لم يدم طويلاً إذ اضطر متفرقة، نتيجة الصعوبات المادية التي لاقاها، إلى الرفع في الثمن. وقد تعرض الرحالة سوسير في سنة ١١٤٥هـ/١٧٣٢م، إلى هذه النقطة حيث اشار إلى : "أن عدد الكتب التي باعها إبراهيم أفندي

ضئيل، وهذا الأمر ليس غريباً إذا علمنا أن الأتراك الذين يجيدون القراءة غير كثيرين، وأن غالبيتهم لا يرغبون في المطالعة ولا يميلون البتة إلى الكتب وهذا ما أجبر إبراهيم على بيع كتبه بأسعار جد باهظة. وقد اشتريت نسخة من كتاب النحو التركي الفرنسي بمبلغ سوكين واحد فندقي أو ديكات واحدة ولم يكن ليساوي عشرين صولا لو أنه طبع بفرنسا أو هولندا" (١٣٣) .

إن السبب في غلاء المنشورات حسب هذه الشهادة، يعود إلى قلة المبيعات وبقاء الكتب متراكمة في مخزن المطبعة ، فكان أول إجراء أخذه مدير المطبعة هو رفع الأسعار لتغطية العجز في ميزانية المؤسسة . إن المطبعة تتطلب رأس مال كبير إذ أن مشروع النشر يستدعي صرف أموال كثيرة لشراء التجهيزات ودفع أجور العمال وفتح نقط بيع في أماكن مختلفة لمزاحمة المخطوط. ولهذا لم يقدر على تسيير المطابع بأوربا إلا البورجوازيون وهم فئة اجتماعية ثرية وصاعدة. ولكن تبين أن مطبعة إستانبول لم تسع إلى توزيع كتبها خارج حدود العاصمة ولم تفكر في جني أرباح طائلة من وراء إنتاجها. بل انها لم تحرص حتى على تغطية النفقات . فالرجلان اللذان أسسا المطبعة وهما إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي لم يكونا من الأثرياء ، بل كانا موظفين ساميين في الدولة العثمانية، توليا إقامة المطبعة بمساعدة الباب العالي. وهذه المساعدة كانت غير قارة ومستمرّة إذ كانت تخضع لأهواء ومشاغل كل سلطان، ولئن وجدا الدعم الكامل من طرف أحمد الثالث ووزيره فإن الأمر تبدل بعد ثورة الانكشارية ، إذ انصرف السلطان إلى حل المشاكل المطروحة على الدولة بحدة، ولم يعر أهمية كبيرة للمطبعة وهذا يمكننا من تفسير الحالة المالية المتردّية لهذه الورشة . ولم يكن كتاب النحو التركي المثال الوحيد الذي تحدثت عنه المصادر، بل لا يمكن عدّه معياراً لضبط النزعة الجديدة نحو رفع أسعار المنشورات التي سلكها متفرقة خاصة وأن هذا الكتاب موجه إلى صنف خاص من القراء وهم التجار الفرنسيون ، وبالتالي فإن المسلمين لا يعنيهم هذا الكتاب ، لذلك لم يقبلوا على

شرائه . وهناك مثال آخر عن كتاب موجه إلى القارئ المسلم ورغم ذلك فإن ثمنه باهظ وهو كتاب الجغرافيا"جهان نما" الذي صدر في ١١٤٥هـ/١٧٣٢م، حيث أشار إلى ذلك سفير فرنسا لدى الباب العالي في رسالته إلى أمين مكتبة ملك فرنسا(١٣٤) وهذا الغلاء في الأسعار يتناقض مع روح القرار الذي أصدره أحمد الثالث لإنشاء المطبعة . وكذلك رسالة وسيلة الطباعة لمتفرقة حيث لم يكن الكتاب المطبوع في إستانبول في متناول القراء ، الأمر الذي لم يشجعهم على اقتنائه . وكان من نتائج هذا الكساد في البيع انخفاض رقم سحب الكتب التي طبعت فيما بعد. ولكن رغم ذلك فقد تراكمت المطبوعات في المخازن ولم تجد طريقها إلى القراء (١٣٥) . فكان أن وجد إبراهيم أفندي القاضي خليفة متفرقة عدداً كبيرًا من الكتب غير المباعة(١٣٦) .

ولنا أن نتساءل عن أسباب هذا الكساد في بيع كتب إستانبول رغم ما تتميز به من طباعة أنيقة وخط جميل ودقة في النص الأصلي واحتوائها على أشكال وخرائط جيدة، وثمن في متناول المتعلم العادي، وكذلك ما هو صدى هذه المنشورات بين المسلمين ؟.

٣.٣.٣ صدى منشورات إستانبول :

أ - بداية مشجعة، موافقة العلماء :

لقد أقر مبدأ الطباعة من طرف السرايا والعلماء بالعاصمة العثمانية ، ولم يعارضه على الأقل كبار العلماء المقربين من الباب العالي . إن تبني هذا الفن من طرف الأوساط الرسمية لم ينجر عنه إقبال آلي على الكتب المطبوعة من طرف المتعلمين. ويبدو أن هناك تناقضًا واضحًا في المواقف بين الطرفين أي بين نخبة من العلماء وعامة الشعب الأمر الذي يدعونا إلى دراسة كل موقف على حدة .هناك مصدر أصلي يبين مدى إقبال ورضى العلماء على استعمال فن الطباعة وهي وثيقة عنوانها "التقاريظ على الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة" وردت في كتاب "صحاح الجوهري" أول مطبوع في إستانبول وهذه الشهادة

تضمنت آراء ستة عشر عالمًا وقاضيًا حول رسالة وسيلة الطباعة التي كتبها إبراهيم متفرقة. وهذه الآراء يمكن اعتمادها كليًا لتحديد مواقف العلماء إزاء هذه المسألة. إلا إنه من الضروري التنبيه إلى أن هذا الموقف له حدوده . أولاً : لأن العلماء الذين أيدوا الرسالة انتخبوا من بين أنصار المطبعة والمقربين إلى السلطة، وثانيًا: لأن هذه المواقف تساند رسالة متفرقة التي ذكرت فيها نظريًا فوائد إقامة مطبعة وكذلك تبدي موافقتها المبدئية على استخدام فن الطباعة بعد اطلاعها على عينة صغيرة من الكتاب المطبوع وليست مجموعة من منشورات المطبعة. لهذا فإن هذه التقاريظ غير كافية لاستنتاج موقف أغلبية العلماء من إقامة مطبعة إستانبول، وحتى أولئك الستة عشر الذين أيّدوا المطبعة كانوا قد كتبوا تقاريظهم في لغة متشابهة ولفوا حول نفس المعاني والتعابير تقريبًا، ليبدوا استحسانهم لفن الطباعة ويجددوا تمسكهم ومبايعتهم للسلطان أحمد الثالث .إن الأسلوب اللغوي العربي الذي استخدموه في مذكراتهم، كان تقليديًا وفيه تنميق كثير وحرص على انتقاء ألفاظ نادرة بقصد إظهار براعتهم في التحرير، وهم الذين يستغلون مثل هذه الفرص للبروز وإظهار جدارتهم للحصول على مناصب عليا في القضاء والإدارة، ويمكن من خلال ثلاث شهادات لهم تلخيص أهم الأفكار التي عبروا عنها في الوثيقة .

الشهادة الأولى: هي للشيخ زاده محمد أفندي : "حسبي الله لا إله سواه وصلى الله على حبيبه ومصطفاه نعمت الصنعة المطبوعة غير مرئية في ديارنا ومسموعة فوائدها مجزومة مقطوعة فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة شكر الله سعي صانعها ووفق فيما بعد بأمثالها كان الزمان بخل بها وخباها في حجلة الإخفاء وكشف عن وجهها حجاب الاستغناء بميامن سلطاننا... الغازي أحمد خان".

الشهادة الثانية: وردت في تقريظ فيض الله أفندي صدر روم سابق فقد ورد فيه : "لما عطفت عنان النظر إلى هذه المقالة اطلعت على ما يحويه من

عجايب الصناعة : فلله در جامعهاحيث اخترع بأفكاره العميقة ما يستحسنه أو لو الأنظار الأنيقة وأبدع بكمال الفراسة ونهاية الكياسة ما يستغني به عن مشاق الكتابة" .

الشهادة الثالثة: جاء ت في تقريظ آخر لصالح أفندي أناضولي سابق" نعم الأثر هذه المجلة من حذاقة الطبع وغرابة الصنعة ولقد أبدع فيه جامعه مجتهداً ببذل وسعه جزاه الله تعالى بما يليق بصنعه" .

إن هذه الشهادات تؤكد اقتناع العلماء بفوائد فن الطباعة وتشجيعهم لاستخدامه من طرف المسلمين وهم يعربون عن إعجابهم بمخترع هذا الفن، وبالخصوص بكاتب رسالة وسيلة الطباعة الذي دعى المسلمين إلى استخدام فن الكتابة الجديد، بعد أن كان مغموراً رغم أنه اكتشف منذ حقبة طويلة من الزمن. إن متفرقة يحتل مكانة مرموقة في نظر العلماء لا تقل عن مكانة مخترع الطباعة. فهو الذي دعا إلى الاستفادة منها وحرص عملياً على إقامة أول مطبعة إسلامية في الدولة العثمانية.

لم يذكر القضاة والعلماء في تقاريظهم، المواقف السابقة نحو هذا الفن وخاصة أسباب رفض السلف في البداية له. إلا أنهم اشاروا أشارة ضمنية إلى أن المواقف تغيرت إزاء ه حين ذكروا أن المطبعة هي اكتشاف جديد دخل هذه الربوع التي لم تعرفه قبل حكم السلطان أحمد الثالث الذي يستحق كل مدح وثناء .

إن كل التقاريظ التي وردت في الوثيقة تعبر عن مساندة أصحابها وعن استبشارهم وثقتهم، بأن فن الطباعة ستكون له فوائد كبيرة في بلاد الإسلام. ولم ترد البتة أية معارضة من طرف هذه النخبة من العلماء المقربة من الباب العالي والتي لم يكن لها من هدف سوى مباركة قرار السلطان وتجديد مبايعتها له ، مما جعل الآراء متطابقة . ولهذا لم يتقدم بنا كثيراً لمعرفة صدى منشورات

إستانبول في أوساط المسلمين وفي غياب مصادر إسلامية أخرى ، فإننا اعتمدنا على شهادات الأوربيين الذين واكبوا نشاط المطبعة في القرن ١٢ هـ/ ١٨م .

ب - مناهضة المطبعة : محدودية التوزيع :

لقد سبق أن رأينا أن عدد الأتراك المتعلمين ضعيف ونسبة الأمية بينهم مرتفعة خاصة في الأرياف والقرى(١٣٧) . وكان الناس الذين يحسنون القراءة والكتابة محل تقدير وتبجيل من لدن العامة ، إلى حد أنهم يعدّونهم من العلماء . وحتى المدارس التي كانت تؤهل الشباب للعمل بالإدارة أو القضاء أو التدريس كانت قليلة. وكل هذه المعطيات تبيّن أن عدد القراء المحتملين ممن ستوجه إليهم منشورات مطبعة إستانبول غير مرتفع، مما يبين أن المطبعة كانت اكتشافًا معزولاً عن واقع الحياة الفكرية داخل الإمبراطورية. فالسلطان أحمد الثالث وخلفاؤه لم يرسموا سياسة ثقافية وعلمية شاملة تكون فيها المطبعة إحدى الركائز الأساسية إلى جانب المدارس والمكتبات وغير ذلك. كل هذا جعل الكتاب المطبوع لا يجد إقبالاً إلا من طرف بعض الناس المتعلمين الذين لم يكونوا بدورهم من القراء المواظبين وهنا يذكر الرحالة سوسير بأن العثمانيين لا يميلون كثيراً للمطالعة، الأمر الذي أكده كذلك الأب اليسوعي هولدرمان حيث قال إن الأتراك لا يتذوقون لذة المطالعة والآداب وان الكتب لاتباع عندهم بكثرة (١٣٨) .

إن عزوف المتعلمين عن القراءة يأخذ بعداً أكبرعندما يتعلق الأمر بالكتاب المطبوع. فالوعاء الجديد للمعرفة لم يتعود عليه المتعلمون ولم يدخل في تقاليدهم وظل التردد والحيرة من المطبعة ومن إنتاجها ينتابهم في كل حين على الرغم من كل الإجراء ات التي اتخذها الباب العالي لتشجيع التعامل مع هذا الاكتشاف الثقافي. وبالمقابل تواصل تعامل المثقفين مع المخطوط دون أن يعيروا أهمية تذكر للكتاب المطبوع الذي بدأ يبرز ويتضاعف إنتاجه. وقد تحدث الرحالة ريفيسكي عن صدى مطبوعات متفرقة لدى المسلمين في أثناء إقامته بإستانبول في

أواسط القرن ١٢هـ/١٨م ، وقال "هناك سبب آخر يفسر فشل المطبعة وهو أن الأتراك لا يهتمون بالكتب المطبوعة ويميلون إلى شراء الكتب المخطوطة، على الرغم من أن أسعارها مرتفعة ، ولأن الطباعة لا تصل إلى مستوى الكتابة التركية أو العربية الجميلة"، (١٣٩) لقد بقي المسلمون على موقفهم المعارض تجاه مطبوعات إستانبول ، كما هو الشأن بالنسبة للمطبوعات العربية الأوربية، فهم يفضلون، إذا ما رغبوا في القراءة، شراء المخطوطات على المطبوعات وهذا بعد اكتشاف غوتنبرغ للمطبعة بثلاثة قرون ، الأمر الذي يفند الرأي القائل إنهم لم يكونوا يشترون الكتب المطبوعة بأوربا بسبب أنها "إفرنجية" وأنه يجب الحذر منها. فهذا الموقف اتخذوه أيضاً تجاه الكتب المطبوعة بإستانبول من طرف مطبعيين مسلمين .

إن عجز مطبعة إستانبول في أول عهدها عن تحقيق كل الأهداف التي أسست من أجلها، يعود أساساً كما رأينا إلى أنها مؤسسة "منعزلة" عن محيطها الثقافي، حيث لم تبرز ركائز علمية وثقافية حديثة لمساندتها وتطوير نشاطها وبالمقابل ظلت المؤسسات التقليدية تقوم بدورها الأصلي في تثقيف وتعليم الناس. من ذلك حوانيت الوراقة حيث واصل الوراقون مهمتهم في نسخ الكتب ولم تقدر المطبعة على مزاحمتهم حتى فيما يتعلق بمواضيع الكتب التي تدخل في مشمولاتها أي الكتب التي لا تتناول مواضيع الشريعة والفقه الإسلامي .

وقد ظهرت في أواخر القرن ١٢هـ/١٨م موسوعة الوراقين بعنوان "تحفة الخطاطين" (١٤٠) التي تتحدث عن أشهر الناسخين في تلك المدة وعن أعمالهم الفنية البديعة وهذا مثال يبرز تواصل تعلق المتعلمين بفن الكتابة العربية بخط اليد، بعد ظهور المطبعة وتشجيعهم للفنانين والوراقين لإبراز مواهبهم وإبداعاتهم في هذا المجال .

إن الجانب المادي للكتابة العربية لايمكن أن يكون سببًا رئيسيًا في عدم انتشار الكتاب المطبوع عند المسلمين ، فإبراهيم متفرقة نجح في حفر حروف عربية جميلة تضاهي الكتابة المخطوطة إلا أن محتوى هذه الكتب قد يفسّر إعراض المتعلمين عن اقتناء هذه المطبوعات. فالمواضيع التي عالجتها تتعلق كما رأينا بالتاريخ والجغرافيا واللغة والنحو والإصلاحات. وهذا المحتوى يستجيب لرغبة رجال السياسة أكثر من رغبة المتعلمين وحاجيات المستفيدين بصفة عامة . وهؤلاء الأخيرون كان جل اهتمامهم منصبًا على كتب الفقه والشريعة، وهذا يعني أنهم لا يجدون ضالتهم إلا في المخطوط .

لقد حاول المشرفون على مطبعة إستانبول تحويل اهتمام القارئ نحو مواضيع جديدة من شأنها تقديم خدمات جليلة للإسلام. إلا أنهم فشلوا في مهمتهم لأن منشوراتهم ذات الطابع العلمي الجيد كانت محدودة ويمكن القول إن الشرط الذي وضعه شيخ الإسلام بعدم طبع كتب الشريعة كان عائقًا كبيرًا لانتشار الطباعة في بلاد الإسلام .

ج - صدى المطبوعات خارج إستانبول :

- في البلاد الإسلامية :

إن مطبوعات إستانبول لم تكن مخصصة لقراء العاصمة العثمانية فحسب، بل وكذلك للقراء داخل الإمبراطورية وحتى حالة جميع أنحاء العالم الإسلامي . بل أكثر من ذلك كان مؤسسو مطبعة إستانبول ينوون، في حالة نجاح مشروعهم الأول، إنشاء مطابع أخرى في الولايات العثمانية لمعاضدة نشاط المطبعة الأولى [١٤١]، إلا أن هذا المشروع الطموح سرعان ما أهمل بعد تعثر ورشة الطباعة بإستانبول ولم تبرز أية مطبعة بعد ذلك في الدولة العثمانية بمبادرة إسلامية إلا في مطلع القرن ١٣هـ / ١٩م . بل أكثر من ذلك اضطرت مطبعة إستانبول إلى تقليص نشاطها، وذلك بالتخفيض في عدد الكتب المطبوعة وحتى في رقم السحب ، حيث إنها توقفت عن العمل تمامًا عدة مرات، مما جعل إشعاعها في عالم الفكر والمعرفة محدودًا. ولم تقدر بالتالي على مزاحمة

المخطوط . ولا تتحدث المصادر عما إذا تم توزيع كتب مطبوعة خارج العاصمة العثمانية، ويبدو أن التوزيع كان أيضًا محدودًا جدًا.

لقد كان من المقرر أن يكون مشروع الطباعة غير مقتصر على مطبعة واحدة، بل على جملة من المطابع. وقد بدأ المشروع بمطبعة أولى في إستانبول لتكون نموذجًا وحافزًا لتأسيس ورشات أخرى في الولايات العثمانية ، وحتى الاحتياطات القانونية فإنها اتخذت باستصدار فتوى لشيخ الإسلام وفرمان السلطان العثماني لإضفاء الشرعية على المشروع. كذلك تمت معالجة الجانب الفني للمشروع والتغلب على مشكلة إعداد الحروف العربية وتدريب العمال. ورغم ذلك فقد تعثر المشروع وتوقف عند مطبعة متفرقة، ولئن كان المشكل المالي عائقًا جديًا، فإن لا مبالاة القارئ المسلم لوعاء الكتابة الجديد وانصرافه عن منتوجات المطبعة يعدّ العائق الموضوعي الرئيسي لفشل المشروع.

في أوربا :

كان صدى مطبعة إستانبول في أوربا أكبر من صداها بالعالم الإسلامي. فقد اهتم بها منذ نشأتها المستشرقون والرحالة الدبلوماسيون الأوربيون من فرنسيين ونمساويين وإنجليز وسويديين وإيطاليين. فالعلماء الفرنسيون بالذات أعطوا أهمية كبيرة للحدث حيث كانوا يأملون نشر المخطوطات اليونانية واللاتينية المحفوظة في مكتبة السرايا، والتي بقيت مجهولة من طرف العلماء الأوربيين (١٤٢). على أن مجموعة المخطوطات اليونانية واللاتينية هذه، كان استعمالها محظورًا على العلماء الأوربيين (١٤٣) وكان هؤلاء يعتقدون أن مطبعة إستانبول ستنشر هذه الكتب بالحرف اليوناني واللاتيني، ولهذا حرصوا على متابعة تطور نشاط هذه المؤسسة الجديدة وربطوا علاقات صداقة مع سعيد شلبي الذي سبق أن زار باريس في ١١٣٣هـ/١٧٢١ - ١٧٢٢م (١٤٤)، وحرصت مكتبتا ملك فرنسا وملك السويد على اقتناء كل الكتب التي طبعت بالحرف العربي بإستانبول لإثراء مجموعاتها من الكتب الشرقية (١٤٥). كما كان

العلمـاء الأوربيين يشتـرون هـذه الكتب أثنـاء رحـلاتهم إلى المشـرق أو بواسطة الدبلومـاسيين. كـمـا تحـصلت بلاطات ملوك أوربا على هذه المنشـورات بعنوان هدية. وكـان إبراهيـم باشا دامـاد يرسـل بهذه الكتب في شكل هـدية إلى وزراء لويس الخامس عشر (١٤٦) ويكلف السفراء العثمانيين تقديم مثل هذه الهدايا إلى الملوك الأوربيين (١٤٧) .

اهتم السـفراء الأوربيـون لدى البـاب العالي كذلك بمنشورات هذه المطبعة، ورفـعـوا تقـارير عنهـا إلى رؤسـائهم ضـمنوها آراء هـم وانطبـاعـاتهم حـول إصداراتها(١٤٨). كـمـا ان العلمـاء كـانوا يتـرجـمـون هذه الكتب إلى لغـات أوربية(١٤٩) .إلا أن بعض الترجمات عرفت طريقها إلى النشر في حين بقيت جلها مـخطوطة. من ذلك كتـاب"**أصـول الحكم في نظام الأمم**" الذي ترجـمه إلى الفرنسيـة المستشرق ريفسكي ونشر في ١١٨٣هـ/١٧٦٩م ويبين المترجم أهمية هذا الكتـاب التي تكمـن في أنهـا توضـح طريـقـة تفكيـر الأتراك وآرائهم حـول الأساليب الحـربية المتبعـة من طرف الأوربيين. وكذلك تكشـف عن عيوب ونقائص التنظيـم العسكري في الجيـش العثمـاني وبصـفـة عـامـة يعـالج الكتـاب مظاهر الانحطاط داخل الدولة العثمانية .

كمـا كانت بعض كتب مطبعـة إستـانبول، مـحل درس لعدد من العلمـاء الذين استفادوا من المعلومات التي وردت بهامن ذلك كتاب "جهان نما" الذي أخذ منه الجغرافي لنقلي دي فرينو معلومـات جغرافية حـول البلدان الآسيوية عند تأليف كتابه في الجغرافيا(١٥٠) .

عبر الأوربيـون عن انطبـاعـاتهم حول مطبعـة إستـانبول وكانوا متفـائلين في البداية، قبل أن يعربوا عن خيبة أملهم بعد أن تبين لهم عجز هذه المنشورات عن تنشـيط الحـيـاة الثـقـافـيـة داخل الإمبـراطورية. وعلى سـبيل المثـال نجـد الأب هولدرمان يعبر عن الآمال المعلقة على هذا المشروع في سنة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م عندما يقول :

"إن الآداب كانت مهملة منذ عدة قرون في هذه الأماكن ، حيث ترعرعت وتطورت كثيراً في الماضي. إن هذه الآداب ستنتعش من جديد وقد عاد الأمل في إحيائها بعد ظهور المطبعة في القسطنطينية . إن المنتوجات الأولى لهذا الفن المفيد للعلماء ، ينبغي أن تتجه نحو هذا النوع من المعرفة الذي يوفر لمختلف الشعوب إمكانية تبليغ آرائهم وتكوين (مجتمع الأنوار) الذي تتفاعل فيه الاكتشافات والمعارف" (١٥١) .

يبسط الأب اليسوعي هذا نظرته نحو المطبعة وما ينتظره منها، فهي ستقيم علاقات ثقافية بين مختلف المجتمعات وتحى المؤلفات الأدبية القديمة وتنشر المعارف الحديثة داخل الإمبراطورية(١٥٢). إن هذه الأهداف تفترض أن تكون المنشورات عديدة وأن يغطي التوزيع كل المناطق . إن مفهوم المطبعة حسب هولدرمان يتطابق مع المفهوم الذي عبر عنه متفرقة في رسالته . إلا أنه عند التطبيق برزت صعوبات جمة، وهذا ما يفسر تعثر مطبعة إستانبول في القيام بمهمته العلمية والحضارية وتخبطها في مشاكل عديدة ، أدت إلى عدم تمكنها من التأثير بصفة كبيرة في عالم الفكر والثقافة ومن نشر المعارف والأفكار الإصلاحية على مدى واسع (١٥٣) . فهي لم تغير أذواق القراء إلا قليلاً في حين بقي أغلب القراء متعلقين بالمخطوط ولم يتجاوز إشعاع الكتاب المطبوع أوساط المجددين المنفتحين على الغرب واكتشافاته . وهكذا بقي ينظر إلى المطبعة حتى نهاية القرن ١٢هـ/١٨م على أنها اكتشاف يثير إعجاب المثقفين وخاصة أوساط الفئة الحاكمة ، التي جعلت منها وسيلة لدعم نفوذ السرايا فكان اختيار الكتب يخضع لرغبة الباب العالي. إلا إن ذلك لم يمنع المطبعيين، وهم من المقربين للسلطة العثمانية، من توجيه المطبعة وجهة إصلاحية من خلال نشر كتب تدعو للإصلاح العسكري والسياسي والثقافي. إلا أن طموحات هؤلاء تبخرت مع موت إبراهيم متفرقة وبقيت المطبعة مرتبطة بأسماء بعض

الأشخاص الذين أعطوها حركية كبيرة مثل الوزير إبراهيم باشا داماد وإبراهيم متفرقة وسعيد شلبي. إلا إنه بعد اختفائهم أهملت المطبعة وتوقفت عن النشاط لمدة طويلة وصلت إلى سبع وعشرين سنة (١١٧٠ - ١١٩٧هـ/١٧٥٦ - ١٧٨٣م).

لم يتمكن الكتاب المطبوع بإستانبول من تبليغ الأفكار والمعارف داخل الإمبراطورية، خاصة وأن العملية تعهدت بها مطبعة واحدة ، وهذه الأخيرة وجدت صعوبات كبيرة لتحقيق التواصل المعرفي بين علوم السلف وعلوم الغرب. ولكن ذلك لا يعني أن دور المطبعة في محيطها الثقافي كان منعدماً، بل إنها أثرت في نطاق معين على مجرى الحياة الأدبية والعلمية وتركت بصماتها التي سيكون لها أعمق الأثر على مدى طويل، على كل المستويات. فمجرد قبول فن الطباعة يعني في حد ذاته ثورة فكرية هائلة هزت العقول في ذلك العصر، لأنه في قبول فن الكتابة الجديد دلالة على رغبة في التعامل مع أدوات ثقافية حديثة بغرض مواكبة التقدم والرقي الحاصل بأوربا. وهو في الوقت نفسه يمثل رغبة في تطوير التعامل مع التراث الثقافي للأمة الإسلامية الذي سيأخذ شكلاً جديداً، هو شكل المطبوع . ان سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م، هي سنة تحول المسلمين إلى عهد جديد في حضارتهم، هو عهد الحداثة المتميز بالانفتاح على الغير وخاصة على الفنون والاكتشافات الغربية .

وبالرغم من فشل متفرقة وخلفائه في وضع الكتاب المطبوع في متناول فئات واسعة من المتعلمين فإنهم نجحوا في المقابل في تحقيق بعض المكاسب منها: تخطي كل العقبات القانونية من أجل إدخال فن الطباعة بالحرف العربي عند المسلمين والشروع في غرس تقاليد جديدة لدى المثقف لاستخدام شكل جديد من أوعية المعلومات، وهو الشكل المطبوع مع التخلي مرحليًا عن المخطوط.

٤ - الصعوبات : الحوار يتواصل :

١.٤- أسباب توقف المطبعة :

١.١.٤ - خمس وأربعون سنة من التوقف :

تعطلت المطبعة الإسلامية الوحيدة في الإمبراطورية العثمانية في القرن ١٢هـ/١٨م لمدة طويلة وصلت إلى حد خمس وأربعين سنة وكانت هذه المدة المديدة موزعة على ثلاث مدد كبيرة، مرة أولى دامت خمس سنوات (١١٤٨هـ / ١٧٣٥م - ١١٥٣هـ/١٧٤٠م)، وثانية استمرت ثلاث عشرة سنة (١١٥٥هـ/١٧٤٢م - ١١٦٨هـ/١٧٥٥م)، وثالثة وهي أطول مدة دامت سبعاً وعشرين سنة (١١٧٠هـ/١٧٥٦م - ١١٩٨هـ/١٧٨٣م) ، ويمكن القول إنه على امتداد الست وخمسين سنة الأولى من حياتها لم تشتغل المطبعة سوى إحدى عشرة سنة . وإنه لمن الضروري البحث عن أسباب هذا الانقطاع الذي بلغ في بعض الأحيان مدداً طويلة جداً والصعوبات التي أعاقت المطبعة على مواصلة مسيرتها بثبات حتى نتمكن من تتبع مختلف مراحل حياة الكتاب المطبوع بحروف عربية في القرن ١٢هـ/ ١٨م لدى المسلمين العثمانيين .

إنه من الواضح أن المطبعة التي دخلت إلى العالم الإسلامي بعد حوار طويل وتردد كبير من لدن المحافظين سوف لن تنجح من الوهلة الأولى ولوحدها في تغيير العقليات والدخول بقوة في إنتاج مطبعي غزير والقضاء على المخطوط، وكذلك بما إنها من عمل رجال سياسة مرتبطين بالباب العالي، فإن المطبعة بقيت معرضة لهزات السياسة وبالتالي فهي في وضعية إدارية وتنظيمية متقلبة[١٥٤] .
ولدراسة هذا الموضوع، اعتمدنا على مصادر إسلامية وأوربية هي أساساً فرمان السلطان عبد الحميد الأول وشهادات الرحالة والدبلوماسيين والمستشرقين الأوربيين.

٢.١.٤ . اختفاء راعي المطبعة :

بعد الانطلاقة السريعة للمطبعة التي كانت تنبئ بتطور كبير في إنتاجها

المطبعي، تراجعت المطبعة شيئًا فشيئًا بسبب اختفاء راعيها الصدر الأعظم إبراهيم باشا، الذي قتل أثناء ثورة الانكشارية في ١١٤٣هـ/١٧٣٠م ، وعزل السلطان أحمد الثالث [١٥٥] ، لقد فشلت سياسة الانفتاح على الغرب التي سلكها هذان الرجلان، وقضت عليها ثورة الجيش الغاضب الذي هاجم العاصمة وحطم كل شيء أمامه حتى حنفيات سعد آباد، إلا أنه لم يتعرض للمطبعة وهو في ذروة غضبه [١٥٦] وهذه المؤسسة لم تتوقف في تلك المدة عن العمل ، إذ نشرت في تلك السنة كتابين جديدين. وفي السنة التالية أصدرت أيضًا كتابًا آخر، مما يؤكد أن العاملين بالمطبعة لم يتأثروا كثيراً بما يجري حولهم إلا أن جذوة حماسهم الأولى بدأت تنطفئ بعد مقتل الصدر الأعظم ، ثم توقفت المطبعة لأول مرة عن العمل عند رحيل مديرها لمدة قصيرة في مهام دبلوماسية . فقد كلف إبراهيم متفرقة من طرف الباب العالي بمأموريات لدى حكام أوربا من سنة ١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧م إلى ١١٥٢هـ/١٧٣٩م [١٥٧] . إن تعطل المطبعة لمدة خمس سنوات كان نتيجة الصعوبات الأولى التي تنذر بتفاقم وضعية المؤسسة فيما بعد ، في الوقت الذي كان فيه إبراهيم متفرقة لا يزال على رأسها.

٣.١.٤ - نقص الموارد المالية :

ذكر سوسير الصعوبات المالية التي اعترضت إبراهيم متفرقة والتي أجبرته على الزيادة في أسعار الكتب، ذلك أنه لم يكن بإمكانه مواصلة الاعتماد على مساعدات الأثرياء أو الباب العالي لتغطية النفقات المتزايدة للمؤسسة وهذا ما تسبب في تأخر صدور بعض الكتب وإلغائها. من ذلك أن متفرقة كان ينوي كما رأينا طبع جزء ثان لكتاب (جهان نما). إلا أنه حرص على الحصول على مساعدات بعض الأغنياء من رعاة العلم والأدب قبل الإقدام على تنفيذ المشروع، نظرًا لما يتطلبه مثل هذا الكتاب من دقة ومهارة لإعداد الخرائط العديدة اللازمة

له [١٥٨]. واضطر أخيراً ، في غياب موارد مالية كافية ، إلى إلغاء المشروع وقام بالشئ نفسه بالنسبة لمشاريع أخرى .

لقد أثر العائق المادي كثيراً في النشاط المادي للمطبعة التي لم تجد الدعم اللازم للقيام بمهمتها. فالأغنياء ورجال الفكر لم يسارعوا إلى تقديم المساعدات ، مما جعلها تعجز عن مواصلة عملها والتوقف في ١١٧٠هـ/١٧٥٦م، وكان سوسير قد تحسب للأمر قبل ربع قرن من وقوعه حين عبر عن تخوفات البعض من تعطل المطبعة بسبب قلة الأرباح التي حصلت عليها وعدم استعداد الأتراك لمساعدتها[١٥٩] . لقد خفت نشاط المطبعة بالفعل بعد موت متفرقة ، فلم تصدر سوى كتاب واحد هو **معجم الصحاح** بترجمة وانقولي قبل أن تتوقف طويلاً.

٤.١.٤ - غضب الناسخين

وقد أثار أحد المؤرخين الفرنسيين المعاصرين لتلك المدة قضية "ثورة الناسخين" التي أجبرت الباب العالي على إغلاق المطبعة . فقد ذكر مينو في ١١٨٥ هـ/١٧٧١م ما يلي : "إن هؤلاء العمال (بالمطبعة) الذين كان من المفروض أن يقدموا فائدة لشعب هو في حاجة إلى النور، قد اضطروا إلى الاختفاء أمام غضب سبعة أو ثمانية آلاف ناسخ لم يعد لهم أي عمل بالقسطنطينية وبالمدن الكبرى الأخرى للخروج من البؤس، رغم أن عملهم بطيء ومليء بالأخطاء ، وغير قادر إلا على تبليغ بعض المعارف التي تتضمن كثيراً من الخلل" [١٦٠] .

إن المؤرخ مينو لا يقدم توضيحات حول طبيعة وزمان وقوع الحادثة، بل إنه يقدم في فقرة أخري من كتابه معلومات خاطئة عن هذه المطبعة حيث يقول مثلاً: "إن كتاب القرآن والسنة قد طبعا في إستانبول [١٦١] . وهذا الأمر كما رأينا لم يقر شيخ الإسلام بجوازه في ذلك الوقت . كما أن المطبعة لم تقدر على مزاحمة الوراقة والوراقين الذين واصلوا عملهم بدون أن يجدوا عناء في ترويج المخطوط، الذي بقي الوعاء الرئيسي كتابيًا، خاصة بالنسبة للقرآن الكريم وكتب

والشريعة والفقه التي تجد إقبالاً واسعًا من طرف جمهور المتعلمين" . إن هذه المعطيات لا تجعلنا نعتمد على شهادة هذا المؤرخ، بل إن هناك من المؤرخين من فند هذه الرواية مثل تودريني، الذي كان مواكبًا لتطور هذه المطبعة حيث كذب بصفة قطعية "الشائعات التي روجها الأوربيين حول ثورة الناسخين الخيالية"(١٦٢). وعلى ضوء هذا يمكن القول إن ما ذكره مينو هو مجرد تخمينات استنتجها بعد اطلاعه على بعض كتب المستشرقين والرحالة الأوربيين، الذين اهتموا في القرن ١١هـ/١٧م بقضية المطبعة وركزوا على الجانب الاجتماعي منها لتفسير تأخر ظهور المطبعة عند المسلمين. ومن بين هؤلاء نجد بيسباك ومارسيغلي وقالان الذين تحدثوا عن الخطر الذي يهدد رزق آلاف الناسخين. فكان أن استنتج في هذا السياق أن إمكانية "ثورة الناسخين" واردة لتفسير إغلاق المطبعة لمدة معينة .

٥.١.٤ – نقص الكفاءات بالمطبعة :

شكلت الصعوبات الفنية عائقًا جديًا في نشاط المطبعة وهي حسب رأي بعض الرحالة الأوربيين السبب الرئيسي لتوقف المطبعة مثل الفارس ريفسكي، الذي لاحظ نقص العاملين الأكفاء بالمطبعة فقال " إن المطبعة توقفت بعد متفرقة ليس كما يدعيه البعض بسبب تذمر أو انتفاضة الناسخين أو لأسباب خيالية أخرى ، ولكن بسبب نقص المطبعيين الماهرين (١٦٣) . إن متفرقة كان بالفعل المحرك الأساسي للمطبعة إلا أن الصعوبات التي عرفتها المطبعة كانت قد ظهرت قبل وفاته بكثير نظراً إلى أن هذه المؤسسة توقفت عن العمل مرتين وهو لا يزال على قيد الحياة . ولكن الصعوبات تفاقمت بالفعل بعد موت إبراهيم متفرقة مما جعل خليفته وتلميذه القاضي إبراهيم يخفق في القيام بمهمته ولا ينشر سوى كتاب واحد طيلة عشر سنوات، وهذا الأخير لم يجد عمالاً ماهرين لمساعدته في طبع الكتب مماجعله يهمل المطبعة وأدواتها.

٦.١.٤ – انعكاسات الأحداث السياسية :

كانت المطبعة مشروعًا سياسيًا إذ تأسست من طرف الباب العالي وبقيت

تحت رقابته بصورة أو بأخرى وفي خدمته. وكان لا بد أن تنعكس الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة بداية من ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، على حياة المطبعة فقد حدثت حروب وثورات عديدة، كما تداول عدد من الوزراء على منصب الصدر الأعظم منهم من كان منفتحاً على الفنون والآداب ومنهم من لم يهتم البتة بالنشاط العلمي والثقافي، مماجعل المطبعة تمر بأزمات دون أن يرعاها هؤلاء. فمثلاً شغل سعيد شلبي، صديق ومساعد إبراهيم متفرقة في سنة ١١٦٩هـ/١٧٥٥م، منصب صدر أعظم، كذلك رجب باشا وزير عثمان الثالث (١١٧٠هـ/١٧٥٦م - ١١٧٧هـ/١٧٦٣م)[١٦٤] الذي كان راعياً للآداب ورجال الفكر، لكنهما لم يسعيا إلى النهوض بالمطبعة. ثم انصرفت أنظار الباب العالي تماماً عن هذه المؤسسة إذ شغلته الحروب مع روسيا وبروسيا وبلاد فارس عن أي نشاط علمي[١٦٥] . وقد أشار السلطان عبد الحميد الأول إلى هذا الموضوع حيث علل في قراره الصادر في ١١٩٨هـ / ١٧٨٤م سبب توقف المطبعة بالحروب التي خاضتها الدولة العثمانية، مما جعلها لا تهتم بالمطبعة فتشتت عمالها[١٦٦] وعند موت إبراهيم أفندي القاضي ، بقيت آلات الطباعة عند أرملته .

إن ظروف تعطل المطبعة لها ضلع نسبياً في هذه الأزمة ، إلا أنه لا ينبغي أن تخفى عن الأنظار الأسباب الجوهرية أو الهيكلية الأساسية التي أعاقت نمو المطابع وحركة نشر الكتب بالبلاد الإسلامية والتي تتمثل أساساً في مقاطعة المتعلمين لها وصعوبة تغيير تقاليد القراء في التعامل مع وعاء جديد للكتابة .

٧.١.٤- تردد القراء :

إن الحوار بين المحافظين والإصلاحيين كان أبعد ما يكون من أن يفضي في القرن ١٢ هـ/١٨م إلى اتفاق حاسم حول قبول فكرة التجديد والإصلاح في أي مجال . وإنطلاقاً من هذا الاعتبار وجد المطبعيون صعوبة في إدخال المطبعة

والكتاب المطبوع في تقاليد المسلمين ، نتيجة تردد القراء في استخدام هذا الوعاء الجديد وعدم إقبالهم على اقتنائه ، إذ بقوا متعلقين بالمخطوط . ويمكن عدّ هذا السبب أهم سبب في فشل المطبعة . أما بقية الأسباب التي ذكرت فتعدّ ثانوية بالقياس إلى السبب الجوهري، وكان بالإمكان تخطيها لو وجدت المطبعة صدى طيبًا لدى القراء المسلمين .

٢.٤- إعادة فتح المطبعة في ١١٩٨هـ/١٧٨٤م :

ظهرت مبادرة جديدة لإعادة فتح المطبعة بعد أن تعطلت لمدة تزيد على ربع قرن، وكانت صادرة عن موظفين سامين بالباب العالي وبتأثير من الصدر الأعظم خليل حميد باشا.

١.٢.٤ - مشروع واصف ورشيد :

قام خليل حميد وزير عبد الحميد الأول من ١١٩٧هـ/١٧٨٢م إلى ١١٩٩هـ/١٧٨٥م، بمجهود كبير لإصلاح مؤسسات الدولة [١٦٧] ، فاستدعى مجموعة من الضباط الفرنسيين لإصلاح فرق المدفعية والبحرية العسكرية ، وأسس مدرسة ضباط البحرية حيث تولى أساتذة فرنسيون تدريس الفنون العسكرية؛ واستغل الوزير مدة السلم التي أعقبت الحروب التي واجه فيها الجيش العثماني الجيش الروسي (١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م-١١٨٨ هـ/ ١٧٧٤م) والجيش النمساوي (١١٨٩هـ /١٧٧٥م) والفارسي (١١٨٨هـ/١٧٧٤م) للقيام بدعم من السلطان بمشاريع اجتماعية وثقافية . فأسس مكتبات ومدارس وجوامع وحنفيات ومطاعم شعبية [١٦٨]، واهتم خصوصًا بالمطبعة بعدما طلب منه محمد رشيد أفندي (١١٦٧هـ/١٧٥٣م - ١٢١٠هـ/١٧٩٧م) وأحمد واصف (توفي في ١٢٢١هـ/١٨٠٧م) إعادة فتح المطبعة، [١٦٩] وكان الأول يعمل رئيسًا للديوان وهو عالم في الجغرافيا والآداب [١٧٠] أما الثاني فهو مؤرخ البلاط [١٧١] وقد بعثا رسالة إلى الصدر الأعظم طالبين فيها الترخيص لهما بإعادة فتح المطبعة ، وكان رد خليل حميد إيجابيًا إذ شجع هذه المبادرة

وحرص على الحصول على خط شريف من السلطان عبد الحميد الأول في هذا الغرض .

٢.٢.٤ - فرمان عبد الحميد الأول :

صدر هذا الفرمان في ١٨ ربيع الأول ١١٩٨هـ/١٧٨٤م، ويبدأ بتقديم لمحة تاريخية عن الأسباب التي دفعت أحمد الثالث إلى إدخال المطبعة، وتتمثل في نقص المخطوطات وارتفاع أسعارها، وتعرض بعد ذلك إلى دور متفرقة في تأسيس المطبعة بإستانبول، وذكر الكتب التي طبعت بها ولاحظ أن هذه المنشورات أصبحت نادرة وباهظة الثمن وأبدى تخوفه من إتلاف آلات الطباعة أو تفرق المطبعيين المتبقين على قيد الحياة. ولإنقاذ المطبعة، على حسب تعبيره وتعميم فوائدها لدى رجال الأدب والعلم ، فقد قرر تجديد المطبعة وكلف بهذه المهمة عالمين من البلاط هما أحمد واصف ومحمد رشيد وطلب منهما الاتصال بأرملة إبراهيم أفندي القاضي ، آخر مدير للمطبعة قبل توقفها، لشراء آلات الطباعة. وذكر بتواصل قرار منع طبع كتب الشريعة الإسلامية ، واهتم الفرمان في النهاية بالإجراء ات العملية لتسيير وإدارة الورشة. من ذلك جانب التمويل والأداء ات وثمن الكتب واختيار المقر وانتداب العمال ومراقبة المطبوعات . ويتبين من خلال هذا الفرمان ، أن الأمر يتعلق بإعادة فتح المطبعة القديمة ، وليس تأسيس مطبعة جديدة بدليل أنه سيتم إحياء آلات وحروف الطباعة القديمة . كذلك يمثل هذا القرار تواصل العمل بقرار أحمد الثالث ، فيما يخص محتوى الكتب المرخص بنشرها واستمرار إشراف الدولة عليها.

٣.٢.٤- نشر ثلاثة كتب :

أصدرت المطبعة كتابين في التاريخ وآخر في النحو، وقد نشر الكتابان الأوّلان في السنة التي أعيد فيها فتح الورشة قبل أن تتوقف في العام التالي. وهذان الكتابان هما عبارة عن حوليات الدولة العثمانية (١٧٢) ويمثلان تواصل الخط الذي رسمه مؤسسو المطبعة عند انطلاقها من الاهتمام بدرجة أولى

بتاريخ سلاطين بني عثمان للأسباب التي سبق ذكرها . وكما حدث في السابق، فإن المطبعة تأثرت بالتطورات السياسية للدولة فكان ان توقفت لمدة سنة بسبب مقتل الوزير خليل حميد باشا راعي المطبعة الذي اتهم بالتآمر على السلطان . أما المسؤولان عن المطبعة أحمد واصف ومحمد راشد فقد تم اعفاؤهما من منصبهما [١٧٣] قبل إعادة الأخير إلى وظيفته بعد سنة، وعندها صدر كتاب جديد في ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م عنوانه "**الكافية لابن الحاجب**" مع ترجمة تركية لزاني زاده وهو كتاب في النحو العربي صدر باللغتين العربية والتركية .

ولم تنجُ المطبعة من العراقيل والصعوبات التي يعزوها الرحالة ميشو لأسباب مالية [١٧٤] ، إلا أن السبب الأساسي الذي بقي يعيق ازدهار هذه الورشة، فهو - كما رأينا - انصراف القراء عن إنتاجها وقلة تحمسهم للتعامل مع الكتاب المطبوع .

إن أهم تحول حدث في تلك المدة في هذا المجال، هو تطور موقف العلماء إزاء فن الطباعة واقتناعهم بجدوى طبع كتب الفقه الإسلامي، إذ سمحوا بذلك باستثناء طبع القرآن الكريم ذاته[١٧٥] وبذلك ظهرت كتب الشريعة والفقه بداية من١٢١٨هـ/١٨٠٣م [١٧٦] .

كذلك شهدت المدة نفسها ظهور مطبعة جديدة تستخدم الحرف العربي في عاصمة الإمبراطورية، إلا أنها كانت مشروعاً أوربياً وبالتحديد فرنسياً .إلا أن له علاقة بالعثمانيين وأنه من المهم التعرف على نشاط هذه المطبعة ومدى تفاعلها مع مطبعة الباب العالي ، وبخاصة تأثيرها في المحيط الثقافي والعلمي الذي نشأت فيه .

٤.٢.٤- مطبعة سفارة فرنسا ١٢٠٠هـ/١٧٨٦م :

حاول سفير فرنسا شراء أحرف وقوالب وطوابع الطباعة العربية الموجودة لدى أرملة إبراهيم أفندي القاضي ، قبل صدور قرار عبد الحميد الأول [١٧٧] وذلك بغرض إنشاء مطبعة تركية في مقر سفارته ، خاصة وأن الفرنسيين

أسهموا بطريقة غير مباشرة في تأسيس مطبعة متفرقة . فورشات الطباعة الباريسية التي زارها السفير يرمسكز في ١١٣٣ هـ /١٧٢١م ، دفعت الأتراك للنسج على منوالها كما اشتغل أحد الفرنسيين بهذه المطبعة لمدة وجيزة وهو هولدرمان. كما اهتم العلماء الفرنسيون بمسيرة هذه الورشة وتتبعوا نشاطها وحرصوا دومًا على اقتناء منشوراتها. وقد فكروا في إقامة مطبعة تركية بإشرافهم لتوفير كتب الهندسة والأساليب العسكرية لتلاميذ مدارس المهندسين بإستانبول. وهذه المدارس يشرف عليها ضباط وأساتذة فرنسيون قدموا إلى المشرق في نطاق التعاون العثماني الفرنسي في المجال العسكري وفي نطاق إسهام فرنسا في إعادة تنظيم الجيش وتدريب الضباط حسب أحدث الطرق العسكرية. ويحتل بعض الفرنسيين مناصب حساسة في الجيش العثماني من ذلك أحمد باشا بونفال(١٧٨) والبارون دي توت (١٧٩) ... الخ .

وفي سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م ، وصل إلى إستانبول السفير الفرنسي الجديد شوازول غوفي على رأس بعثة كبيرة مكونة من خبراء وضباط وأساتذة . وكانت مكلفة بتنفيذ المشاريع الإصلاحية للصدر الأعظم خليل حميد في مجال الجيش. وحرصًا منه على توفير الكتب الضرورية للمدارس العسكرية وخاصة منها الترجمات التركية للكتب الفرنسية، فإن السفير قرر إقامة مطبعة في مقر سفارته فأحضر حروف الطباعة العربية من بال بسويسرا وباريس (١٨٠)، وأصدر مجموعة من الكتب التركية المتعلقة بالفنون العسكرية وبالبحرية والنحو التركي(١٨١) .

وتبرز من خلال هذه المنشورات أهمية العلاقات العثمانية الفرنسية في عدة مجالات والتي تترجم من جهة عن رغبة فرنسا في نقل بعض المعارف الحديثة إلى المشرق. وقد حرص العثمانيون على الاطلاع واستعمال أحدث الاكتشافات العسكرية. إلا أن تأثير المطبعة على المحيط الثقافي والعلمي كان محدودًا داخل

الإمبراطورية، بما أنها اقتصرت على مواضيع معينة موجهة لفئة واحدة من المستفيدين ويمكن اعتبار منشوراتها كتبًا مدرسية لمدارس المهندسين .

إلا أن هذا الإسهام الفرنسي يتطور نتيجة السياسة الإصلاحية التي سلكها فيما بعد سليم الثالث باعتماده على خبراء فرنسيين، وكذلك نتيجة انتشار أفكار الثورة الفرنسية بالمشرق .

٣.٤ – مطبعة إستانبول ، نموذج لمشاريع أخرى :

١.٣.٤ – الحوار يتواصل :

سنحاول التعرف فيما إذا كان لمطبعة إستانبول تأثير مباشر أو غير مباشر على مشاريع أخري ظهرت في القرن ١٣هـ/١٩م . ونبدأ بدراسة أول مطبعة عربية إسلامية تظهر في مصر [١٨٢] في عهد محمد علي باشا، والتي تأسست بحي بولاق بالقاهرة في ١٢٣٥ هـ/١٨٢٠م،[١٨٣].

وعلاقتها بمطبعة إستانبول . ويوجد رأيان مختلفان في هذه النقطة بالذات. الرأي الأول: للمستشرق رينو الذي يرى أن محمد علي باشا أسس مطبعة بولاق رغبة منه في تقليد مطبعة إستانبول [١٨٤] . وهنا يرفض أبو الفتوح رضوان هذا الرأي ، ويعتقد أن محمد علي لم يكن قبل وصوله إلى مصر، مطلعًا على النشاط العلمي والثقافي الموجود بالعاصمة العثمانية، إذ لم يكن سوى رجلٍ أميٍ يتعاطى التجارة بألبانيا، موطنه الأصلي قبل أن يلتحق بالجيش ويصل في النهاية إلى منصب والي مصر . ويمضي أبو الفتوح رضوان في تحليله فيقول : "إن رأي رينو " لا يفسر إنشاء المطبعة إذ لا بد من غرض يدفع الوالي إلى محاكاة مطبعة القسطنطينية . أما التقليد في ذاته فلا يمكن أن يكون سببًا" [١٨٥] ويصل في النهاية إلى أن مطبعة بولاق كانت جزءًا من مشروع إصلاحي كبير [١٨٦] .

وإذا لم يتأكد التأثير المباشر لمطبعة إستانبول على مطبعة بولاق ، فإن التأثير غير المباشر واضح . من ذلك أن المصريين كانوا على علم بوجود مطبعة

بإستانبول بعد قرن من ظهورها. وكان لإبراهيم متفرقة كما رأينا دور أساسي في تمهيد الطريق لكل المبادرات والمشاريع التي حدثت فيما بعد بالبلاد الإسلامية في هذا المجال. إذ أنه وفر الأرضية القانونية الملائمة لانتشار فن الكتابة الجديد، إذ وفق في الحصول على فتوى من شيخ الإسلام وعلى قرار سياسي من السلطان العثماني يسمحان باستخدام هذا الفن، كما ساهم في تغيير عقلية المحافظين الرافضين لأي تغيير في مجال أوعية الكتابة ولأي اكتشاف ثقافي أوربي آخر ونظرًا إلى أن مصر كانت ولاية عثمانية، فما من شك أنها استفادت من هذا العمل التمهيدي الأساسي لإقامة مطابع على أراضيها.

هناك ولاية عثمانية أخرى تأثرت بمؤسسة متفرقة، وهي تونس التي أقامت أول مطبعة إسلامية لها في ١٢٧٤ هـ/١٨٥٩م. وهذا التأثير على عكس ما حدث في مصر، فقد كان مباشرًا إذ اقتدى مؤسسو الورشة بمشروع إستانبول. من ذلك أن أحد ضباط باي تونس ويدعى كاليغاريس كتب رسالة شبيهة برسالة وسيلة الطباعة سماها: "**رسالة في منفعة إقامة مطبعة للكتب العربية في محروسة تونس**" ويعدد فيها مؤلفها مزايا استخدام فن الطباعة على غرار رسالة متفرقة. وكان مؤلف الرسالة على علم بمنشورات إستانبول الأولى وخاصة كتاب الجغرافيا"جهان نما" إذ يقول "وقد كانت المطبعة سابقًا في إستانبول طبعوا فيها كارطة الدنيا بالتركي وعدة كتب وغير ذلك ثم بطلت" (١٨٨) . وإنه على الرغم من العمل الريادي الذي قام به الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد وسعيد شلبي وإبراهيم متفرقة في سبيل نشر فن الطباعة بالعاصمة العثمانية. وبالولايات العثمانية أيضًا فإنه لم يقع القضاء على كل المعوقات وبالخصوص إقناع فئات عريضة من المتعلمين بتعويض المخطوط بالكتاب المطبوع، إلا بعد وقت طويل، لأنه ليس من السهل تغيير العقليات وخاصة لدى أمة لها تقاليد راسخة في مجال الكتاب والكتابة ، وهنا نشير إلى

عامل مهم أسهم بقسط وافر في عملية التحول من المخطوط إلى المطبوع وهو "فن الطباعة الحجرية" .

٢.٣.٤ – المطبعة الحجرية : "جسر بين الكتاب المخطوط والمطبوع" :

اكتشف الألماني سنفلدر فن طباعة النصوص المكتوبة على الحجارة الكلسية (La lithographie) في ١٢٠٩هـ/١٧٩٦م. وسرعان ما انتشر هذا الفن في أوربا ثم في الشرق.. ويتميز الكتاب المطبوع بهذه الطريقة أنه يشبه كثيراً المخطوط وهو لا يمثل بالتالي أي قطيعة مع الماضي ولا يتسبب في أي صدام مع العادات الثقافية، إلا أن فن الطباعة الحجرية مع ذلك أسهم إسهاماً متميزاً في تعويد القراء على قراءة الكتاب المطبوع. ومن هنا كان إقبال المسلمين على الطباعة الحجرية كبيراً، حيث كانت لها مزايا كثيرة ومهمة ولها علاقة وطيدة بخصوصيات الثقافة العربية الإسلامية .

مزية تقنية :

تتميز المطبعة الحجرية بقدرتها على استنساخ النصوص والخرائط والرسوم بمرونة ، الأمر الذي لا تقدر عليه المطبعة بالحروف الناتئة بمثل تلك المهارة والسرعة (١٨٩) .

مزية فنية :

للمطبعة الحجرية قدرة كبْيرة على نسخ الخط العربي البديع بكل أمانة وسهولة نظرًا إلى أنه يكتب على الحجارة بخط اليد (١٩٠) وبذلك تستجيب لأنواق الشغوفين بالخط العربي . فكان هذا أحد الأسباب التي تفسر تواصل طبع القرآن الكريم بهذه الطريقة إلى اليوم (١٩١) .

مزية ثقافية :

إن الطباعة الحجرية لا تتسبب في قطيعة مع عادات المتعلمين القرائية ومع استئناسهم بالكتابة بخط اليد(١٩٢) وفي الآن نفسه تنسخ مئات النسخ من الكتب.

مزية اجتماعية :

تتمثل في قدرة الناسخين على تعاطي هذا الفن الجديد والتحول تدريجياً من مهنة الناسخ إلى مهنة المطبعي وبذلك، فإن الطباعة الحجرية لا تقضي على مورد رزق صنف الناسخين إلا بعد مدة طويلة .

مزية اقتصادية :

إن المطبعة الحجرية لا تتطلب إقامتها أموالاً طائلة مثل ما تتطلبه المطبعة بالأحرف المعدنية المنفصلة. ويعدّ المشكل المالي من أكبر المشاكل التي اعترضت المطابع العربية التي أقيمت بحلب والشوير وإستانبول، وتسبب في توقف بعضها لمدد طويلة. إن المطبعة الحجرية بفضل ما تقدمه من فوائد (١٩٣) تعدّ جسراً بين المخطوط والكتاب المطبوع، ولا تتسبب في قطيعة مع العادات الثقافية، بل إنها تعمل على إعداد المسلمين نفسياً لقبول أحرف الطباعة الناتئة المنفصلة (١٩٤)، إن هذا التحول التدريجي من المخطوط إلى المطبوع الذي يحدث بفضل المطبعة الحجرية يتوافق زمنياً مع احتداد الحوار بين المحافظين والمجددين حول تجديد المجتمع الإسلامي. وهذان التياران استفادا من خدمات فن الطباعة لنشرآرائهما ومشاريعهما، فكان أن ظهرت الصحف والكتب العلمية والإسلامية والمدرسية وغيرها وازدهرت في القرن ١٣هـ/١٩م (١٩٥) .

إن هذه البداية المتواضعة للمطبعة العربية بالمشرق، كان لا مفر منها إذ وجب المرور بمرحلة تحول صعبة لدفع المتعلمين المسلمين إلى استعمال أدوات عمل ثقافية جديدة. وقبل ذلك لإعدادهم للانفتاح على مجتمعات غير إسلامية واستعارة بعض مكتشفاتها وتفهم آرائها. فكان التردد والحيرة وكان الحوار الشاق والطويل الذي تواصل بين المصلحين والمحافظين لأكثر من قرن بعد ظهور مطبعة إستانبول حتى يدخل فن الكتابة الجديد في تقاليد وعادات المجتمع الإسلامي .

٥ - خاتمة الفصل الثاني :

دخلت المطبعة الإمبراطورية العثمانية في فترة الانفتاح على الغرب وعلى تقنياته واكتشافاته ، وتعد المطبعة أكبر المنجزات العلمية والثقافية للسلاطين العثمانيين في القرن ١٢هـ/١٨م. ففي "عهد الخزامى" تمكن الإصلاحيون من تحقيق مآربهم وإقناع المحافظين بجدوى فن الطباعة، ويعدّ المصلح إبراهيم متفرقة ، في هذا الصدد، أبرز مؤسسي المطبعة إذ أسهم في إقناع كل الأطراف القريبة من الباب العالي بأهمية المشروع، قبل أن يصبح مديراً لأول مطبعة إسلامية تستخدم الحرف العربي في الإمبراطورية .

ما توجهات مطبعة إستانبول ؟

اتجهت المطبعة نحو طبع كتب غير متعلقة بالفقه والشريعة، بناء على فتوى شيخ الإسلام وقرار السلطان أحمد الثالث . فاختارت بضع مجالات معرفية للتركيز عليها فكان أن نشرت كتباً في الجغرافيا واللغة وفنون الحرب والتاريخ، وهذا المجال الأخير احتل نصيب الأسد في منشوراتها ثلاثة عشر كتاباً من جملة عشرين . والغرض من هذا الاختيار هو إبراز أمجاد سلاطين بني عثمان وتدعيم شرعيتهم التاريخية. إلا أنه بالإضافة إلى هذا الهدف رمى المشرفون على المطبعة إلى إقحام بعض الأفكار الإصلاحية ودعوا إلى التفكير في أسباب الهزائم وانقراض الدول السابقة، فكانت المطبعة بمثابة منبر لدعاة الإصلاح للتعريف بآرائهم الإصلاحية، والدعوة للانفتاح على الغرب. لذلك يمكن عدّ المطبعة مؤسسة أنشأها ورعاها رجال السياسة لخدمة الباب العالي سياسياً أكثر من خدمة الرعية ثقافياً وعلمياً .

ما إسهام منشورات مطبعة إستانبول في تنشيط الحياة الفكرية والعلمية داخل الإمبراطورية؟

نظرًا لعدم توجه المطبعة نحو طبع كتب تتعلق بالشريعة والفقه، فإنها لم تجد إقبالاً من طرف القراء، بل على العكس من ذلك بقي المخطوط الديني رائجًا بدون منازع في أوساط المتعلمين، وبالإضافة إلى محتوى منشورات المطبعة الذي لم يجلب القراء، فإن تردد المتعلمين وعدم تحمسهم لاقتناء الكتاب المطبوع، كان سببًا هامًا في عدم رواج هذه المنشورات . فالمسلمون بقوا متعلقين بالكتابة بخط اليد، ولم يكن من السهل تغيير عاداتهم القرائية في وقت قصير من طرف مطبعة واحدة مهما بلغ نشاطها. بل إن هذه المطبعة الوحيدة بقيت ظاهرة منعزلة وغريبة عن الإطار الثقافي والعلمي العام للإمبراطورية. إذ لم تصحبها مشاريع أخرى لتحقيق التكامل ولإثراء الحياة الفكرية. من ذلك مثلاً إنشاء مدارس عصرية أو مكتبات أو مطابع أخرى وغيرها من المؤسسات الثقافية والعلمية. ونظرًا لضعف رواج الكتاب المطبوع، فإن المطبعة لم تستطع أن تشع على الحياة الثقافية في المشرق الإسلامي إلا قليلاً. ولم تتمكن من نقل المعارف الحديثة وتبادل الأفكار بل إنها بقيت تتخبط طيلة نصف قرن من إنطلاقتها في مشاكل مادية وإدارية معقدة ، الأمر الذي تسبب في تعطلها وتوقفها لمدة أطول من المدة التي بقيت فيها مفتوحة .

إلا أن هذا التخبط والاضطراب في حياة أول مطبعة إسلامية بالحرف العربي كان لا مفر منه فقد ظهرت في مجتمع متعلق بالمخطوط وبالتراث المكتوب ومنغلق على نفسه ، وإن ظهرت فيه بوادر الانفتاح على مجتمعات وحضارات أخرى . ومع ذلك فقد وفقت المطبعة تدريجيًا في غرس تقاليد جديدة لدى المتعلمين المسلمين تتمثل في استخدام الكتاب المطبوع والتعامل مع إنتاج المطابع. وقد جاء ذلك نتيجة اقتناع وتفهم المستفيدين بأهمية فن الكتابة الجديد في التقدم العلمي والثقافي للمجمتع الإسلامي. كما أنه من أبرز أعمال

مؤسسي مطبعة إستانبول نجاحهم في تمهيد الطريق لمشروعات أخري مماثلة بعد تغلبهم على المعوقات القانونية ، بحصولهم على موافقة علماء الدين الإسلامي على استخدام فن الطباعة مع بعض الشروط ، فظهرت مطابع إسلامية كثيرة بعد قرن من ذلك في عديد الولايات العثمانية . وهذه المطابع أسهمت في ازدهار حركة نشر الكتب والصحف والمجلات وكلها ساعدت على نقل الآراء والعلوم الحديثة وفي إحياء كتب التراث وفي إدخال حركية جديدة في الحياة العلمية والأدبية في القرن ١٣هـ/١٩م حتى عرف ذلك العصر "بعصر النهضة" .

الهوامش

(١) إبراهيم متفرقة، رسالة وسيلة الطباعة، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) Encyclopédie de l'Islam. 1 ére éd, vol 3, pp. 56-58, article Lutfi Pasha.

(٣) Bombaci, Histoire... op cit., p. 333.

(٤) Encycl. I slam 1 ére éd. vlo II, p. 16, article Koci Bey, voir aussi Bombaci, Histoire... op cit., p. 330.

(٥) Bombaci, Histoire... op cit., p. 309; La science... op. cit., pp. 93-107.

(٦) Encycl. Islam, 2é éd, vol, III p. 644 article Husayn Hezafenn, voir également Bombaci, Histoire. p. 309.

(٧) المصدر السابق ص ٢٣٥.

(٨) Encycl. Islam, 2é éd., t 1,P 278. article Ahmed III.

الدوشير هم موظفون سامون من أصل مسيحي تولى الباب العالي تربيتهم منذ صغر سنهم.

(٩) Note du P. Holdeman en 1731 in "Encycl Islam, bib; 1926 p. 8 voir Encycl. Islam 2.é éd. 2 ed. T3 p. 1027 article Ibrahim Pasha Nevshehirli.

(١٠) أمر الوزير مثلاً بصنع باخرة كبيرة وطلب من أحد الضباط الفرنسيين وهو دي روشفور اعداد مشروع تكوين مهندسين في خدمة الباب العالي انظر. Berkes N, The development of secularism in Turkey, Montréal, Mc Gill University, 1964, p. 31.

(١١) Toderini, De la littérature... op. cit., T3 p. 20.

(١٢) مثل ترجمة عقد الجمان لبدر الدين العيني وحبيب السيار انظر:

Adnan, La Science... op. cit., p. 126.

(١٣) المصدر السابق ص ١٤١.

(١٤) مثل كتاب جواهر الفريد في الطب الجديد لعمر سيفاي (توفى في ١١٥٤هـ/١٧٤٢م) الذي ترجم أيضًا كتابًا لبركليز، أما عالم الرياضيات خليل فايض (توفي في ١١٣٣هـ/١٧٢١م) فقد ألف عديدًا من الكتب في الرياضيات والفلك انظر :

Adnan, La science... op. cit, pp 127-128.

(١٥) Bombaci, Histoire... op. cit, p 323.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٣٣٣، ظهر كتاب في تلك الفترة من تأليف السيدة مونتا في زوجة انجلترا باستانبول يتحدّث عن حياة الدعة والبذخ وفيه وصف للحمامات والحدائق والسرايا وغير ذلك. عنوان الكتاب الذي أعيد طبعه حديثًا : Montagu, M, L'Islam au péril des femmes: une anglaise en Turquie au XVIII siécle, Paris, Maspero, 1981 (La Découverte) éd

1757, p. 281.

(١٧) Lettre du Grand Seigneur Ahmed III au Régent in; "Archives du Ministére des Affaires" Etrangéres Paris" (M.D. Turquie) voir, F. 218.

(١٨) يضيف المؤرخ مينو أن الهدف الأساسي هو تقديم طلب الملك لوضع حد لقراصنة فرسان مالطة ضد الوحدات البحرية العثمانية.

Mignot, Abbé Vincent, Histoire de l'Empire Ottoman, Paris, Le clerc, 1771, vol IV, p. 254.

(١٩) "Lettre de De Bonnac, l'Ambassadeur de France à Constantinople" In Efendi, Meh med, le paradis des infidéles: un ambasadeur ottoman en France sous la Régence, Paris, Maspero, (lére éd. 1981, p. 28, 1757).

(٢٠) المصدر السابق، ص ٢٦.

(٢١) Lettre du Grand Seigneur Ahmed op. cit., p. 218.

(٢٢) لقب هذا الضابط بيرمسكز التي تعني بالتزكية ثمان وعشرون نسبة إلى عدد الوحدة العسكرية التي يعمل بها.

(٢٣) "Lettre de De Bonnac au bibliothécaire du Roi, le 30 septembre 1720" Bib. Nat. Fr. nouv. acq. 53 C.D.

(٢٤) دار حوار أثناء زيارته للمكتبة بينه وبين أمين المكتبة بينيون وتناول مواضيع تتعلق بالفنون والعلوم المزدهرة بفرنسا.. Nouvelle description de Constantinople op. cit., p. 240

(٢٥) يرى بعض المستشرقين ان هذا الكتاب له قيمة كبيرة في تأثر تركيا بالغرب انظر: Berkes, The development op. cit., pp. 33-34; Lewis, B, The emergency of modern Turkey, London, New-York, Oxford Universty Press, 1961.

(٢٦) SAINT-SIMON, Louis de ROUVAROY De, Mémoires Complets et authen- tiques... sur le siécle de Louis XIV et la Régence, Paris, A. Sautelet, 1829, Vol 18, p. 382.

(٢٧) تاريخ شلبي (١١٣٣/١٧٢١هـ - ١١٤١/١٧٢٨م) القسطنطينية ١٧٤٠، ورقة ٤٩.

(٢٨) تاريخ جودت.

(٢٩) أهملت المطبعة العربية بباريس بعد موت فيتراي في منتصف القرن ١١هـ/١٧م ولم يقع استعمال حروف سافاري إلا في نهاية القرن ١٢هـ/١٨م.

Guignes, De "Essai... op. cit.," p. XXX.

(٣٠) Rapport de Bonnac en septembre 1722 in: Le paradis... op. Cit., p. 50.

(٣١) أرسل إلى باريس لعقد اتفاقية مشتركة عثمانية فرنسية للتصدي لروسيا وأثناء اقامته هناك مدة ١٦ شهراً التقى بعدد من المفكرين الفرنسيين مثل روسو ومونتسكيو وفولتير انظر:

Berkes, The development... op. cit., 33-36.

(٣٢) وقع نفي والده إلى قبرص بعد ثورة ١١٤٣هـ/١٧٣٠م، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣٣) Lettre du chancelier de l'ambassade Peyssonnal au bibliothécaire du Roi. Constantinople le 24 janvier 1739, (BN. ms. nouv. acq. Fr. 6834 Fol. 91-94.

(٣٤) VEINSTEIN, G, in le Paradis... op. cit., p. 41.

(٣٥) TODERINI, De la littérature... op. cit., T 3 pp. 8-9.

(٣٦) Encycl. Islam 2 éd. T 3 pp. 1021-1022 article Ibrahim Mutafarrika, voir aussi p SAUSSURE Czéarnak, De, lettres de Turquie (1730-1739) Budapest, 1909. p 94.

(٣٧) ان حذقه للغة اللاتينية مكنه كما يقول في كتابه **أصول الحكم** من الاطلاع على الكتب الأوربية التي تتناول موضوع فنون الحرب وتنظيم الجيوش وكذلك كتب التاريخ والجغرافيا.

(٣٨) "Note du P. Holderman sur les débuts de l'imprimerie à Constantinople" 1730 in Rev. bib 36, 1926 p 8; voir aussi Mulafarrika, Traité de tactique ou Méthode artificielle pour l'ordonnance des troupes trad. de Reviczki, Vienne, 1769 p. XXXIX.

قد يكون متفرقة عالمًا باللغة الايطالية حسب ترجمة أحد الديبلوماسيين الفرنسيين

Voir Rev, bib, 1895 p. 228 voir aussi Todemi, De la littérature... op. cit., T 3 p. 18.

(٣٩) Encycl. Islam 2 éd. T 3 p. 1022.

(٤٠) ملك المجر (١٠٨٧هـ/١٦٧٦م – ١١٤٨هـ/١٧٣٥م) وقع أسيرًا لدى النمساويين لكنه فرّ إلى فرنسا ثم إلى إستانبول طالبًا المساعدة من الباب العالي لاسترجاع ملكه الا أنه توفي في منفاه برودوستو.

(٤١) Encycl. Islam 2 éd. T 3 p. 102.

(٤٢) REVICZKI, Traité... op. cit., p. XXXVI.

(٤٣) "Biographie de Mutafarrika par le Grand en 1742" in Rev. Bib.1895 p. 229.

(٤٤) قام إبراهيم متفرقة بتأليف "رسالة وسيلة الطباعة" بمفرده كما يبين ذلك في المقدمة أما مشروع اقامة مطبعة فقد أعده مع سعيد شلبي.

(٤٥) "Deiretdahmed III in Rev. Bib. 1895 p. 191.

(٤٦) Gercek, S.N; Turk matbaaciligi, Istanbul Devletbasimevi., 1939, p. 4.

(٤٧) سنتعرف على مقتطفات من هذه التقاريض في فقرة لاحقة.

(٤٨) هناك مصادر غربية تذكر مرة متفرقة وأخرى سعيد شلبي فمثلاً ورد في دفاتر أكاديمية الآداب الفرنسية في ١١٣٩هـ/١٧٢٧م ما يلي : أقام السلطان الأكبر مطبعة هنا باللغة العربية والتركية وكلف سعيد آغا بإدارتها كما ذكر فيلنوف سفير فرنسا باستانبول في رسالته بتاريخ ٣٠ سبتمبر ١٧٢٩، ان إبراهيم متفرقة هو مدير المطبعة ويبدو أن الفرنسيين باستثناء السفير يعرفون سعيد شلبي أكثر من متفرقة بما أنه زارهم في صحبة والده في ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، مما جعلهم يقتصرون

على ذكر اسمه دون شريكه (توجد الوثائق الفرنسية المذكورة في : (Rev. Bib, n 5, 1895 pp. 186-187.

(٤٩) "Note du P. Holdermann" in Rev bib, 1926 p. 8. هناك مصدر آخر يؤكد تفرد متفرقة بهذا السلطان عبدالحميد الأول سنة ١١٩٨هـ/١٧٨٤م الذي يقضي بإعادة فتح المطبعة والذي ذكر فيه أن متفرقة كلف بمهمة الطباعة.

(٥٠) يقول المستشرق وايل: كان إبراهيم متفرقة ولا شك أبرز الرجلين فهو في الآن نفسه جغرافي وفيزيائي ومترجم ومطبعي وقد بقي حتى وفاته المدير الوحيد للمطبعة" انظر :
Well, G, "Die erste Drucke" trad. fr. in IBLA n 69, 1955, p. 10.

(٥١) "ذكر سليسيوس في تاريخ المكتبة الملكية بستوكهولم أنه تم جلب عمال ماهرين من ألمانيا إلا أنهم فروا عند قيام الثورة وبقي إبراهيم مع أبنائه الخمسة يعملون وحدهم في المطبعة" انظر : Toderini, De la littérature... op cit., p. 21.

(٥٢) ذكر سوسير أن الحفارين والمطبعيين قدموا من فيينا إلا أنهم انسحبو بسبب معارضة الأفنديين Saussure, Lettres. op. cit., p. 94.

(٥٣) يقول مينو اصطحب محمد افندي (السفير) معه من فرنسا، وهو من هواة الأدب، بعض المطبعيين الذين قاموا بطبع القرآن في القسطنطينية وكتاباً للسنة وآخر للنحو التركي. ولكن هؤلاء العمال الذين كانوا سيفيدون شعبًا في حاجة إلى العلم والنور. قد اضطروا إلى الفرار تحت ضغط سبعة أو ثمانية آلاف ناسخ :
MIGNOT, Histoire... op/ cit., T IV, p. 254.

(٥٤) سنعود إلى هذا الموضوع عند دراسة أسباب توقف المطبعة.

(٥٥) "Note de Holderman" in Rev. Bib, 1626, p. 8.

(٥٦) Cité in: TODERINI, De la littérature... op. cit., T 3, p. 230.

(٥٧) ساهم هذا اليسوعي بصفة عرضية في طبع كتاب واحد ولا يمكن اعتباره بالتالي ضمن فريق متفرقة.

(٥٨) Michaud, Poujoulat, Correspondance d'Orient, Paris, Ducollet, 1833-1835 T 3 p. 56-57.

(٥٩) انظر خط همايون أحمد الثالث في Rev. Bib, 1895., p. 192.

(٦٠) Adnan, La science... op. cit., p. 126.

(٦١) Toderini, De la littérature... op. cit., T 3, p. 25.

(٦٢) طبع كتاب تاريخ سياح فعلاً في ١١٤٢هـ/١٧٢٩م.

(٦٣) Saussure, Lettres... op. cit., p. 95.

(٦٤) يمتلك متفرقة ضيعة كبيرة ويتقاضى ٩٩ قرشًا كل يوم، انظر:
Ohsson, M, Tableau... op. cit.,p 301.

(٦٥) قرار عبدالحميد الأول في RODERINI, De la littérature... op. cit., p: 228.

(٦٦) MICHAUD, Correspondance... op. cit., T 3, p. 56. تحولت المطبعة إلى مقر جديد تنفيذاً لقرار عبدالحميد الأول.

(٦٧) زار الرحالة تودريني المطبعة بعد شهرين من صدور قرار السلطان عبدالحميد أي في ٤ مايو ١٧٨٤م Toderini, De la littérature... op. cit., T 3 pp. 232-233.

(٦٨) Michaud, Correspondance... op. cit., T 3 pp. 56-57.

(٦٩) Mininski, Lexicon arabico persico-turcicum, Vienne, 1780 cité in Toderini, De la littérature... op. cit., T 3, p. 13.

(٧٠) " Note de legrand en 1731" in Rev. bib, 1895, p 229; Safadi" Arabic... op. cit., p. 225.

(٧١) De la littérature... op. cit., T 3 p. 14.

(٧٢) Cité in Omont, Missions... op. cit., T 1, pp. 444- 445.

(٧٣) مقدمة كتاب النحو التركي لهولدرمان، القسطنطينية، ١٧٣٠ ورقة ٣.

(٧٤) يتضمن الكتاب نصاً فرنسياً مع جمل بالتركية وقد حرص إبراهيم متفرقة على الحصول على الأحرف اللاتينية من باريس لكن دون جدوى الأمر الذي دفعه إلى حفر الحروف بمطبعته انظر :
"Lettre de Maurepas à Villeneuve du 28 juin 1730" in OMONT, Missions op.cit., T 1, p. 386.

(٧٥) "Note du P. Holderman sur les débuts de l'imprimerie à Constantinople".

(٧٦) "Lettre du p. Holderman. Galata 5 aout 1730" in: 36, 1926, p. 6.

(٧٧) فرمان السلطان عبدالحميد الأول في : TODERINI, De la littérature... op. cit., T 3, p. 224.

(٧٨) المصدر السابق ص ٢٣٦.

(٧٩) تم استيراد آلات الطباعة في ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م من باريس حسب شهادة الرحالة ميشو مما يدفعنا إلى القول بأن الأتراك لم يوفقوا إلى ذلك الوقت في صنع الآلات بأنفسهم
Michaud, Correspondance... op. cit., T 3, p. 56.

(٨٠) "Note de Holderman" in: Rev. bib, 1926 p. 10.

(٨١) Toderini, De la littérature... op. cit., T 3 p. 215.

(٨٢) Michaud, Correspondance... op. cit., T 3 pp. 56-57.

(٨٣) كان المفتي ديماز زاده مثلاً يرغب في طبّع كتاب في الجغرافيا يكون بمثابة الجزء الثاني لجهان نما لحاجي خليفة إلا أن متفرقة الذي يشاطره الرأي لم يتمكن من تلبية هذا الطلب لأسباب مالية انظر :
Toderini, De la littérature. op. cit., T 3, pp. 212-213.

(٨٤) سمح الصدر الأعظم إبراهيم باشا لسعيد شلبي وإبراهيم متفرقة باختيار المخطوطات من مكتبة السرايا على أن يطبعا الكتب النادرة
Gazette de France du 18 janvier 1727, in, Rev bib, 1895, p. 186.

(٨٥) مثلما فعل اليسوعي هولدرمان الذي اقترح طبع كتاب النحو التركي وقد تمت الاستجابة لطلبه.
(٨٦) تاريخ نعيمة (من ١٠٠١هـ/١٦٩٢م إلى ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م) القسطنطينية، ١١٤٧/١٧٣٤م٢ مج.
(٨٧) تاريخ راشد (من ١٠٧١/١٦٦٠م إلى ١١٣٤هـ/١٧٢١م) القسطنطينية، ١١٥٣/١٧٤٠م ٢ مج.
(٨٨) تاريخ شلبي زاده (من ١١٣٤هـ/١٧٢١م إلى ١١٤١هـ/١٧٢٨م) القسطنطينية، ١١٥٣هـ/١٧٤٠م.
(٨٩) تاريخ سامي وشاكر وصبحي (من ١١٤١هـ/١٧٢٨م إلى ١١٥٩هـ/١٧٤٣م القسطنطينية، ١١٩٩/ ١٧٨٤م.
(٩٠) تاريخ عزي (من ١١٥٩هـ/١٧٤٣م إلى ١١٦٦هـ/١٧٥١م) القسطنطينية، ١١٩٩هـ/١٧٨٤م.
(٩١) Toderini, De la littérature... op. cit., T 3 p. 213-91.
(٩٢) رسالة وسيلة الطباعة. ص ١٩٨ – ١٩٩.
(٩٣) تمت ترجمة الكتاب إلى الإنجليزية من طرف Michel, J, The history of the maritime wars of the Turks, (CH.I.IV), London, Murray, 1831.
(٩٤) Toderini, De la littérature op. cit., T 3, pp. 78-89.
(٩٥) تمت ترجمة الكتاب إلى الانجليزية وإلى الفرنسية
Fraser, C, history of the war in Bosnia London, 1839. Cardonne " Histoire de la guerre de Bosnie, (B.N; mss. or. suppl. turc. n 930).
(٩٦) المصدر السابق، ص ٣٣٥.
(٩٧) لم يصل مؤرخو البلاط الذين جاؤوا فيما بعد إلى مرتبة نعيمة نفسها إذ اقتصروا على سرد الوقائع وعرض الوثائق الرسمية.
(٩٨) متفرقة أصول الحكم، ترجمة ريفسكي .Reviczki, Traité... op. cit., pp. XXXIII-XXXIV
(٩٩) Toderini, De la littérature... op. cit., T 3, pp 36-43; voir également Gercek, Turk op. cit., 64.
توجد ترجمة فرنسية مخطوطة لهذا الكتاب بالمكتبة الوطنية بباريس :
Choquett, J. V, " Histoire des révolutions de Perse" (B. N. mss. or. suppll. turc. 877.)
(١٠٠) قضى هذا المبشر اليسوعي خمس سنوات ببلاد فارس بأصبهان قبل تأليف كتابه باللاتينية.
(١٠١) طبع هذا الكتاب لأول مرة بالعربية في مدينة ليدا بهولندا بإشراف المستشرق غوليوس سنة ١٠٤٥هـ/١٦٣٦م.
(١٠٢) أصول الحكم ترجمة ريفسكي ص .Reviczki, Traité... op. cit., p. XL
(١٠٣) المصدر السابق، ص XLII.
(١٠٤) المصدر السابق، ص XXXII.
(١٠٥) المصدر السابق، ص ٥٨.
(١٠٦) يقول متفرقة في "أصول الحكم" ص ٥٨ : " إن نقص النظام وانعدام الانضباط في جيوش الملوك والأمراء في الماضي كان سببًا في ثورات ضخمة ومصاريف باهضة بل ان ذلك تسبب في

كثير من الأحيان في إفراغ خزينة الدولة ".

(١٠٧) أصدرت مطبعة إستانبول أيضًا كتابًا آخر في التاريخ عنوانه "تاريخ هند غربي" (أي تاريخ أمريكا)، طبع باللغة التركية في ١١٤٢هـ/١٧٢٩م ويهدي مؤلفه الكتاب إلى مراد الثالث في ٩٩٠هـ/١٥٨٣م، وقد يكون هذا المؤلف محمد بن عامر الحسن المسعودي انظر :
Adnan, La science... op. cit., p. 74.

(١٠٨) يحتوى هذا الكتاب على أربعين خريطة.

(١٠٩) Adnan, la science... op. cit., p 110.

(١١٠) Gercek, Turk... op. cit., p 76.

(١١١) Toderini, De la Iittérature... op. cit., p.126.

(١١٢) متفرقة، **أصول ترجمة ريفسكي**، ص ٩٣.

(١١٣) المصدر السابق، ص ٩٣.

(١١٤) المصدر السابق، ص ١٠٢ – ١٠٣.

(١١٥) المصدر السابق ص ٩٩.

(١١٦) المصدر السابق ص ١٠٧.

(١١٧) المصدر السابق ص ١٠٧، إن متفرقة يسعى إلى اقناع الأتراك بضرورة الاهتمام بعلم الجغرافيا للاستفادة منه نظرًا لجهلهم لأبسط المعلومات الجغرافية من ذلك هذه القصة الطريفة التي أوردها البارون دي توت والتي لا تخلو من مبالغة : 'دعا الأميرال التركي سفير البندقية لزيارته على ظهر الباخرة وأثناء الحديث سال الأميرال ضيفه إن كانت جمهورية البندقية مجاورة لروسيا فأجابه الديبلوماسي : نعم ولا توجد بينهما سوى الإمبراطورية العثمانية : De Tott, le Bar- Amster-on, Mémoires sur les Turcs et Tartares, dam, 1785, 3e partie p. 10.

(١١٨) متفرقة " أصول الحكم " المصدر نفسه، ص ١٠٠ – ١٠١.

(١١٩) Adnan, La science... op. cit., pp. 133-134.

(١٢٠) Toderini, De la littérature... op cit., T 3, pp. 112-118.

(١٢١) المصدر السابق، ص ٢٣.

(١٢٢) اعتمد المستشرق الهولندي يعقوب غوليوس أيضًا على هذا المعجم لإعداد معجمه العربي اللاتيني الذي طبع في ليدا في ١٠٦٣هـ/١٦٥٣م.

(١٢٣) حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** إستانبول، وكالة المعارف، ١٩٤٣ مجلد ٢ ص ١٧٠١، مقال صحاح اللغة.

(١٢٤) Gercek, Turk... op. cit., p. 93.

(١٢٥) Toderini, De la littérature... op. cit., T 3 p. 240, Sichnurrer, Bibliotheca... op. cit., n 124.

(١٢٦) متفرقة، رسالة وسيلة الطباعة، ص ١٩٧.
(١٢٧) وردت في بعض مطبوعات إستانبول استشهادات بآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة
(١٢٨) رسالة وسيلة الطباعة ص ١٨٩.

(١٢٩) GERCEK, Turk... op. cit., p. 84 - 85.
(١٣٠) "Note du P. Holderman, 1731" in Rev. bib, n 36 1926, p. 6 et 9.
(١٣١) "Nouvelles de Constantinople du 15 mars 1729" in Rev. bib, 1895.
(١٣٢) ذكر السلطان عبدالحميد الأول أنه يمكن شراء كتب مطبوعة بعشرين أو ثلاثين قرشاً في حين ان الكتب نفسها تباع مخطوطة بثلاثمائة قرش : قرار السلطان في ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م ترجمة تودريني، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.
(١٣٣) Saussure, Lettres... op. cit., p. 95.
(١٣٤) إني لم أستغرب من غلاء سعر كتاب الخرائط التركية (مرآة العالم) الذي أرسلته إليك والذي صرفك عن إثراء مكتبتك بالكتب الشرقية رسالة من فيلاناف سفير فرنسا بإستانبول إلى دي غومون أمين مكتبة ملك فرنسا بتاريخ ٢٨ يوليو ١٧٣٥م انظر :
Rev. bib., n 36, 1926, p. 7.
(١٣٥) اقترح الأب اليسوعي هولدرمان في ١٧٣٠ على وراقين فرنسيين شراء كتب المطبعة وليس فقط كتابه على أن يحدد السعر بحسب الكمية المطلوبة إلا أن اقتراحه لم يجد صدى لديهم.
(١٣٦) ذكر سوسير أن كتباً كثيرة بقيت مكدسة بعد وفاة متفرقة ولم يدر، وخلفاؤه ما يفعلون بها الأمر الذي ثناهم عن عزيمتهم وصرفهم عن شؤون المطبعة
SAUSSURE, Lettres... op, cit.,
(١٣٧) Saussure, Lettres... op. cit., pp. 95-96.
(١٣٨) Rev. bib., n 36, 1926, p. 7.
(١٣٩) Reviczki, Traité... op. cit., p. XXIII.
(١٤٠) مؤلف الموسوعة هو مستقيم زاده في ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م.
Huart, Les calligraphes... op. cit., p.7 ; Browne, Nouveau... op. cit., T2, p 268; Michaud, Correspondance... op. cit., T 3 p. 102-104.
(١٤١) " كان سعيد شلبي يرى في صورة نجاح المؤسسة الأولى اقامة مطابع أخرى في المدن الرئيسية بالامبراطورية" :
LA Gazette de France, 18 janvier 1727, in Rev. bib, 1895, p. 186.
(١٤٢) Rev. bib,1895, p. 186.
(١٤٣) Omont, Missions... op. cit., T 1, pp. 235-254.
(١٤٤) المصدر السابق، ص ٣٩٤ - ٤٠١.

(١٤٥) المصدر السابق، ٧٤٩ – ٧٥٦.

(١٤٦) Rev. bib, 1895, p. 187.

(١٤٧) Hammer, Histoire... op. cit., T 3 p. 441.

(١٤٨) Omont, Missons... op. cit., T1, p. 472.

(١٤٩) بالنسبة للغة الفرنسية قام بمهمة الترجمة : "شبان اللغات" الذين تعلموا اللغات الشرقية بالمشرق.

(١٥٠) يذكر تودريني أسماء علماء أوربيين استخدموا كتاب حاجي خليفة وأوصوا كذلك باستعماله Toderini, De la littérature... op. cit., T3 pp. 121-122.

(١٥١) تقديم كتاب النحو التركي.

(١٥٢) يتفق سوسير معه في أن المطبعة ستحارب الجهل والأمية لدى الأتراك.

(١٥٣) انظر رسالة سفير فرنسا باستانبول إلى أمين مكتبة ملك فرنسا بتاريخ ٢٨ يوليو ١٧٣٥ Omont, Missions... op. cit., T2, p. 696.

(١٥٤) "علمنا ان المطبعة تسير بصعوبة ويخطى بطيئة وذلك بسبب مؤسسيها وفقدان الثقة في سعيد شلبي رسالة من فورمون مبعوث ملك فرنسا إلى مكتبة السريا إلى الوزير موريا بتاريخ ٢٦ مارس ١٧٢٩. Omont, Missions... op. cit., T1, p. 543

(١٥٥) لاحظ سوسير هذا التراجع في نشاط المطبعة منذ ١١٤٥هـ/١٧٣٢م ويعزو سبب ذلك إلى موت الوزير إبراهيم باشا.. Saussure, Lettres... op. cit., p. 95

(١٥٦) Cercek, Turk... op. cit, p. 74.

(١٥٧) Encycl. islamn 2e éd. article Ibrahim mutafarrika T3, p. 1002.

(١٥٨) Toderine De la littérature... op. cit., T3, p. 213.

(١٥٩) Saussure, Lettres op. cit., p. 95.

(١٦٠) Mignot, Abbé de Scellieres, Histoire de l'Empire ottoman, Paris, le Clerc, 1771, p. 264. T IV?

(١٦١) المصدر السابق، ص ٢٥٤.

(١٦٢) De la littérature... op. cit., T3, p 214.

(١٦٣) Revicski, Traité... op. Cit., p. XXIII ، ويتفق الأرمني موراجا دوسون مع ريفسكي حول سبب توقف المطبعة ذكر أن السلطان محمود الأول ووزيره حاولا الإبقاء على المطبعة الا انهما فشلا في العثور على رجل صاحب كفاءة لتسييرها على غرار إبراهيم متفرقة D'Hosson, Tableau... op. cit., T 1, p. 301.

(١٦٤) رجب باشا رجل آداب له مؤلفات في الشعر والتاريخ كان معجباً بالتقدم العلمي بأوربا بنى مكتبة كبيرة.

Encycl. Islam le éd. suppl. pp. 194-195; Lewis, The emergence... op. cit., p. 48; Browbe, Voyage... op. cit., T II, p. 267.

(١٦٥) انتهى صراع الدولة العثمانية مع روسيا بإمضاء اتفاقية كوشيك كينارج في ١١٨٨هـ/١٧٧٤م الذي يقضي باستقلال القرم كما أن الصراع مع الفرس انتهى بفقدان البصرة وقتيًا.

(١٦٦) فرمان عبدالحميد الأول توجد الترجمة الفرنسية له في كتاب ... Toderini, De la littérature op.cit, T3, p. 225. يذكر المستشرق الفرنسي بيانكي نفس الأسباب تقريبًا أي موت مدير المطبعة والحروب. Bianchi, Notice... op. cit., p. 35.

(١٦٧) Berkes, The development... op. cit., p. 57.

(١٦٨) Encycl. Islam 2é éd. T 1, p 65 article ABD al-Hamid 1ér.

(١٦٩) لم نتمكن من العثور على هذه الرسالة التي تعرض إليه السلطان عبدالحميد الأول في قراره.

(١٧٠) Encyel. islam, 1 éd. T IV; p. 1187.

(١٧١) طبع كتاب تاريخ واصف في إستانبول سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م.

(١٧٢) عنوان هذين الكتابين هما : تاريخ سامي وشاكر وصبحي (من ١١٤١هـ/١٧٢٨م إلى ١١٥٩هـ/١٧٤٣م) القسطنطينية ١١٩٨هـ/١٧٨٤م. تاريخ عزي (من ١١٥٧هـ/١٧٤٤م - إلى ١١٦٦م - ١٧٥١م) القسطنطينية، ١١٩٨هـ/١٧٨٤م.

(١٧٣) Toderini, De la littérature, ... op. cit., T3, p. 241.

(١٧٤) Michaud, Correspondance... op. cit., p. T3, p. 58.

(١٧٥) المصدر السابق، ص ٥٩.

(١٧٦) من بين هذه الكتب نذكر :

- شروط برغري.. القسطنطينية ١٢١٨هـ/١٨٠٣م.
- شروط الصلاة، القسطنطينية، ١٢١٩هـ/١٨٠٤م.
- جواهر محمدية، القسطنطينية، ١٢٢٠هـ/١٨٠٤م.
- فرائد الفوائد، القسطنطينية، ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م.

(١٧٧) Gerceek, Turk... op. cit., p. 95.

(١٧٨) Encycl. Islam 2é éd.; T1, p. 301 article Ahmad Pasha Bonneval.

(١٧٩) Berkes, The development... op. cit., p. 58.

(١٨٠) Lettre du Comte De Choiseul à Anisson directeur de l'imprimerie royale de Paris datée de Constantiniple le 25 hanvier 1786 in Rev. bib. 1895, p. 233-234.

(١٨١) فويان، فن لغمي، القسطنطينية ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م.

- لافيت، فن محاصرة القسطنطينية ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م.
- تريقات، رسالة في قوانين الملاحة، القسطنطينية ١٢٠٢هـ/١٧٨٧م.

_ Vigueur, Eléments de la langue Turque, Constantinople, 1207/1787, voir BIANCHI, Notice... op. cit., p. 36, mont, Documents... op. cit., CERCEK, TURK... OP. CIT., PP. 84-85.

(١٨٢) أنشأ نابليون بونابرت مطبعتين بمصر أثناء حملته عليها في ١٢١٣هـ/١٧٩٨م إلا أن حروف

وتجهيزات هاتين المطبعتين ثم نقلها إلى فرنسا عند جلاء فرنسا عن مصر في ١٢١٦هـ/١٨٠١م ولم تصلح هذه المؤسسات الفرنسية كنموذج لمطبعة بولاق رضوان، تاريخ... ص ١٧-٢٤.

(١٨٣) قدم رضوان هذا التاريخ الذي بقي محل جدل والذي استقاه من نقيشه وضعت في مدخل مبنى مطبعة بولاق. رضوان،. ص ٤٦.

(١٨٤) Reinaud, "De la Gazette arabe et Turque imprimée en Egypte" in Journal Asiatique, série 2, T VIII, 1831, p. 238.

(١٨٥) رضوان، تاريخ، ص ٢٩ - ٣٠.

(١٨٦) المصدر السابق، ص ٣٤.

(١٨٧) Demeerseman, "Une page nouvelle de l'histoire de l'imprimerie en Tunisie "in IBLA, n 75, 1956, pp. 276-280, 306-309.

(١٨٨) المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(١٨٩) Demeersman, "Une parente pauvre de l'imprimerie arabe et tunisienne: La lithographie in IBLA..., n 64, 1953, p. 351.

(١٩٠) المصدر السابق، ص ٣٥٢.

(١٩١) مطبعة الأوفسيت هي امتداد المطبعة الحجرية.

(١٩٢) Demeersman, "Une parente... oop. cit.," p. 361.

(١٩٣) انظر أكثر تفاصيل في : "la lithographie" in: journal asiatique, 1834, T XIV, p. 266.

(١٩٤) لا ينبغي أن ننسى ان المطبعة الحجرية لها عيوب عدة، كأن تنسخ الكتب مليئة بالأخطاء بما أن الناسخ يصعب عليه فنيًا اصلاح كل الأخطاء وكذلك قدرتها على استنساخ الكتب بالعدد نفسه الذي توفره المطبعة بالحروف الناتئة.

(١٩٥) ظهرت أول مطبعة بمصر في ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م وفي فلسطين في ١٢٦١هـ/١٨٤٦م وتونس في ١٢٧٤هـ/١٨٥٩م وفي المغرب في ١٢٨٧هـ/١٨٧٣م واليمن في ١٢٩١هـ/١٨٧٧م والحجاز في ١٢٩٦هـ/١٨٨٢م وظهرت ٢٧٠٠ مجلة ودورية من ١٢١٦هـ/١٨٠٠م إلى ١٣٤٩هـ/١٩٢٩ حسب قول فيليب طرازي، تاريخ الصحاف العربية، بغداد، جـ٤، ص ٤٩٤. المثنى ١٩٦٧. وقد لقي فن الطباعة صدى واسعًا في القرن ١٣هـ/١٩م وتحدث الأدباء والشعراء والمفكرين عن مزاياه ونقتصر هنا على تقديم هذا البيت الشعري للشيخ أحمد الأزهري حول الموضوع: لله مطبعة بحسن طباعها... أحيت عظام الكتب وهي رميم.

انظر أدبيات المطبعة في كتاب: طرازي، فيليب، تاريخ الصحافة، جـ ١، ص ٥ - ٧ وعن فوائد المطبعة الحجرية انظر قصيدة الشاعر التونسي في مجلة إيبلا: IBLA, n 64, 1953, p. 378.

خاتمة عامة

يعدّ إدخال المطبعة العربية إلى المشرق علامة انفتاح للإمبراطورية العثمانية على العالم الغربي وبداية تنفيذ مشروع إصلاحي كبير.إلا أن الكتاب المطبوع لم ينجح في نقل الآراء الجديدة ولا في نشر العلوم على نطاق واسع على غرار ما حدث في أوربا. ذلك أن المسلمين والمسيحيين كان لكل منهم مفهوم خاص لفن الطباعة مثلما كانت لهم نظرة خاصة للمخطوط. فوعاء الكتابة التقليدي كان محل نقد لاذع من طرف الطوائف المسيحية، فهو الذي نقل الأخطاء وحرّف النصوص المسيحية المقدسة وروج الأضاليل. ويرى المسلمون من جهتهم أن المخطوط قد أضر كثيراً بالآداب والعلوم فهو لم ينقل المؤلفات الكبرى للعلماء المسلمين ، ولم يحافظ عليها مما جعلها تختفي أو تتلف نتيجة للحروب والكوارث الطبيعية . كما أن المخطوط يزخر بالأخطاء النحوية نتيجة إهمال الناسخين وحرصهم على جمع المال الوفير بأقل جهد ممكن .

وإذا ما اقتنع المسيحيون بجدوى الطباعة منذ القرن ١٠هـ/ ١٦م ، ورحبوا بالكتاب العربي المطبوع في أوربا، بل وأسهموا في عملية النشر العربي هناك وحاولوا إدخال المطبعة إلى المشرق منذ ذلك العهد، فذلك لأن اكتشاف المطبعة جاء هم من حضارة غير غريبة وهي محل ثقة بالنسبة إليهم ، لأن إخوانهم في الدين المسيحي في أوربا قد استخدموا فن الطباعة واقتنعوا بفوائده، وكذلك لأنهم اكتشفوا أن الكتاب المطبوع هو أنجع وسيلة لتنشيط الحياة الدينية. وإعادة الاعتبار لطوائفهم داخل الإمبراطورية العثمانية .

أما بالنسبة للمسلمين فالمطبعة لم تكن مجرد أسلوب فني جديد لنسخ الكتب بكثرة ، بل هي أكثر من ذلك بكثير. فهي وسيلة لتغيير نمط حضاري كامل وإدخال روح جديدة للثقافة والعلوم. وفي هذا الإطار دار حوار بين المجددين

والمحافظين حول موضوع الكتاب المطبوع والمخطوط، والمطبعي والناسخ ، حول حروف الطباعة المعدنية والخط العربي الجميل حول المخطوط باعتباره شاهداً على نمط حضاري قديم والكتاب المطبوع بعدِّه ممثلاً لنمط حضاري حديث مستنبط من الغرب . وهكذا فإن الحوار دار حول قضية جوهرية تتمثل في سبل إصلاح وتحديث المجتمع الإسلامي لمواكبة التقدم العلمي والنهوض بالأمة والتصدي للتحديات الغربية. ولم تكن الأطراف المتجادلة على قدم المساواة عدديًا. إلا أن المجددين، رغم قلة عددهم، وجدوا الفرصة سانحة لتنفيذ بعض آرائهم الإصلاحية عندما وجدوا مناخًا ملائمًا اتسم بتفتح الباب العالي على الغرب ، في عصر عرف "بعصر الخزامى" وقاموا بإدخال أول مطبعة إسلامية بالحرف العربي إلى إستانبول. وهذا العمل يمثل منعرجًا حاسمًا في التاريخ الإسلامي الحديث إذ انه يعني إقرار مبدأ إدخال التقنيات والاكتشافات الأوربية في البلاد الإسلامية والتفتح على الغرب ، بعد انغلاق تام وحروب دامية عبر العصور المختلفة بين بلاد الاسلام وبلاد المسيحية ، وبإقامة مطبعة أصبح من اليسير على الإصلاحيين بث آرائهم الإصلاحية ونشر الفنون والعلوم الحديثة .

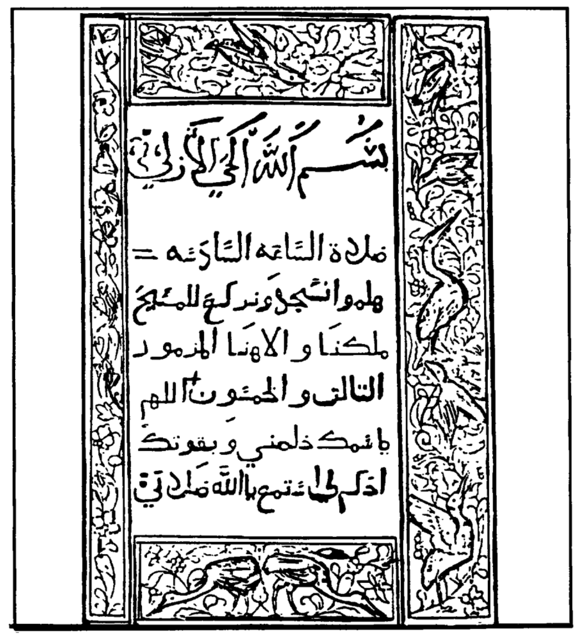
إن الشرق والغرب يختلفان في نمط حضارتيهما، فكانت نتائج المطبعة أيضاً مختلفة. إن نشر الكتب المسيحية ساهم عند الأرثوذكس الملكيين وكذلك عند المارونيين ، في بلورة هوية طوائفهم وتدعيم الروابط الروحية داخل كل طائفة. ففن الطباعة كان وسيلة متميزة لمقاومة الأضاليل والأخطاء الدينية التي نشرها المخطوط في أوساط المسيحيين ببلاد الشام .إلا أن كل مطبعة مسيحية اتخذت موقفًا مختلفًا عن مثيلاتها في الصراع الطائفي . فمطبعة الشوير كانت حليفة كنيسة روما وقد قامت بنشر كتب للتعريف بالمذهب الكاثوليكي. وللتصدي لهذا التسرب الكاثوليكي، قامت مطبعة بيروت بردّ الفعل فلم يكن بالتالي هناك أي تبادل للأفكار بين هذه الطوائف ولم يحدث أي تواصل معرفي بينهما، إذ لم تنشر المطابع المسيحية أي كتاب علمي. لأن مفهوم المطبعة عندهم كان يعني تسخير الكتاب المطبوع للتعريف بالمذهب و "بالطريق الصحيح نحو الإيمان" .

وتبقى بلاد الشام مدينة للطائفة الملكية ، لأنها أول من أسس مطبعة عربية هناك ، وتغلبت على كل العقبات وغرست تقاليد جديدة في التعامل مع وعاء الكتابة الجديد. إلا أن هذا العمل لم يكن ليخلو من نقائص. فاشعاع المطابع المسيحية كان جد محدود، إذ لم يقبل المسيحيون على استخدام هذه الكتب إلا نادرا، نظراً لانتشار الأمية بينهم ، لأن محتوى المنشورات لم يكن ليسمح بانتشارها على نطاق واسع داخل البلاد الإسلامية . ثم ان هذه المطابع واجهت مشاكل عديدة ولم تصمد أمامها إلا مطبعة الشوير .

وتختلف مطبعة إستانبول في توجهاتها عن المطابع المسيحية ببلاد الشام. فقد اهتمت فقط بطبع كتب لا تتعلق بالفقه والشريعة الإسلامية، وفقًا لفتوى شيخ الإسلام وقرار السلطان العثماني. وكان اختيارها منصبًا نحو نشر كتب التاريخ لأغراض سياسية، فهي وسيلة لدعم الشرعية التاريخية للسلاطين العثمانيين ، وفي الآمن نفسه منبراً للاصلاحيين ، إلا أن إشعاع مطبعة إستانبول كان على غرار مطابع بلاد الشام محدوداً . لأن الطباعة كانت ظاهرة غريبة ومنعزلة في محيطها الثقافي . فلم تجد مؤسسات علمية و ثقافية حديثة لمساندتها، هذا بالإضافة إلى مزاحمة المخطوط لها الذي حافظ على امتياز نقل كتاب القرآن وكتب الشريعة والفقه. وفي احتفاظ المخطوط بهذه المكانة، امتداد لنمط الحضارة التقليدي.

ان الحوار بين المجددين والمحافظين حول تجديد الحضارة الإسلامية ، لم يكن لينتهي مع إدخال المطبعة ، بل تواصل على امتداد القرون الموالية ، ولم تقع استعارة كثير من المكتشفات الأوربية في القرن ١٢هـ/١٨م ، بسبب تردد العلماء والمحافظين بصفة عامة في قبول أي تغيير، اما فن الكتابة الجديد فإنه لم يدخل في تقاليد المسلمين إلا بعد قرن من إقامة أول مطبعة بإستانبول، وعندها أصبحت المطبعة بمثابة المحرك الرئيسي لحركة النهضة التي ظهرت في القرن ١٣هـ/١٩م . ويمكن القول إن يقظة المجتمع الإسلامي الحديث قد بدأت منذ بداية القرن ١٢هـ/١٨م مع انطلاق الحوار حول تحديث هذا المجتمع ، ومع

التفتح على أوربا واستعارة مكتشفاتها والتي من أبرزها أداة الطباعة التي أسهمت فيما بعد، في نشر العلم ونقل الأفكار الإصلاحية. وزاد في تدعيم هذا المسار ظهور حركة دينية إصلاحية في ذلك القرن في شبه الجزيرة العربية بقيادة محمد بن عبد الوهاب ، هذا وان بحوثًا أخرى ، على ضوء وثائق ومعلومات جديدة حول المطبعة العربية بالمشرق الإسلامي في القرن ١٢هـ/١٨م، قد تؤكد هذه النتائج .


بسم الله الحي الازلي

صلاة الساعة الثالثة =
هلموا نسجد ونركع للمسيح
ملكنا والاهنا المزمور
الثالث والخمسون اللهم
باسمك خلصني وبقوتك
احكم لي استمع يا الله صلاتي

الصفحة الأولى من كتاب القانون الثاني في الطب طبع بمدينة روما لدى الميدتشي سنة ١٥٩٣م

قائمة ببليوغرافية بالكتب المطبوعة بإستانبول
وبلاد الشام في القرن ١٢هـ / ١٨م

أولاً - الكتب المطبوعة باستانبول (١١٤١هـ/١٧٢٨م -١٢٠٢هـ/١٧٨٧م) :

١ - الجوهري (أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي) ، **صحاح جوهري** مع ترجمة تركية لمحمد بن مصطفى الواني ، - القسطنطينية : دار الطباعة المعمورة ، ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ ، جزآن، ٣٣ سم ، الجزء ١ ، ٢٤ ص ، ٦٦٦ ص - الجزء ٢، ٧٥٦ ص .

يتضمن الكتاب نص خط همايون للسلطان أحمد الثالث ونص فتوى شيخ الإسلام ترخص باستعمال المطبعة ونص الرسالة المسماة بوسيلة الطباعة لإبراهيم متفرقة وتقاريظ العلماء على هذه الرسالة .

أعيد طبع الكتاب (عربي - تركي) المطبعة نفسها سنة ١١٧٠ هـ / ١٧٥٦م .

٢ - حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي) ، **تحفة الكبار في أسفار البحار** ، القسطنطينية ، دار الطباعة المعمورة ، ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩م .

٣ - كريزنسكي (تادي) الأب ، **تاريخ سياح** ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة، ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩م .

٤ - المسعودي (أحمد بن عامر الحسن) ، **تاريخ هند غربي**، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٢هـ / ١٧٢٩ م، ١٨٢ ص ، خرائط ورسوم وجداول .

٥ - ابن عربشاه (أحمد)، **تاريخ تيمور جرجان** ، ترجمة تركية لنظمي زاده، - القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م .

٦ - سهيلي (أفندي) ، **تاريخ مصر القديم والجديد** ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٢ هـ / ١٧٢٩ م ، ١٠٢ ص ، ١٣٠ ص ،٢٣ سم .

٧ - **كلشان خلفاء** ، ترجمة تركيه لنظمي زاده ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م .

HOLDERMAN (Jean Baptiste) P., Grammaire turque ou méthode courte – ٨
et facile pour apprendre la langue turque, Constantinople, 1143 / 1730
, 194p , 21 cm.

نص فرنسي - تركي

٩ - متفرقكان (ابراهيم) **أصول الحكم في نظام الأمم** ، القسطنطينية ، ابراهيم متفرقكان دركاه عالي المأذون بعمل الطبع بدار الطباعة ، ١١٤٤ هـ/ ١٧٣١م ، ٩٦ ص ، ٢١ سم.

١٠ - متفرقكان (إبراهيم) ، **فيوضات مغناطيسي** ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٤ هـ / ١٧٣١م .

١١ - حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي) ، **جهان نما**، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م ، خرائط ملونة

١٢ - حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي) ، **تقويم تواريخ** ، القسطنطينية، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٦هـ/١٧٣٣م .

١٣ - نعيمة (أحمد) ، **تاريخ نعيمة (حوليات عثمانية من ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م إلى ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م)** ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤م ، جزآن .

١٤ - راشد (أفندي) **تاريخ راشد (حوليات عثمانية من ١٠٧٠ هـ / ١٦٦٠م إلى ١١٣٤ هـ/ ١٧٢١م)** ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٥٣هـ / ١٧٤٠ م ، جزآن .

١٥ - شلبي (زاده) ، **تاريخ شلبي (حوليات عثمانية من ١١٣٤هـ / ١٧٢١م إلى ١١٤١ هـ/ ١٧٢٨م)**، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٥٣ هـ / ١٧٤٠ م .

١٦ - عمر (أفندي) ، **أحوال غزوات ديار بوسنة** ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م .

١٧ - **فرهنك شوري (معجم بالفارسية والتركية)** ، القسطنطينية ، إبراهيم متفرقة بدار الطباعة ، ١١٥٥ هـ / ١٧٤٢ م .

١٨ - **تاريخ سامي وشاكر وصبحي (حوليات عثمانية من ١١٤١ هـ/ ١٧٢٨م إلى ١١٥٩هـ / ١٧٤٣م)** ، القسطنطينية ، دار الطباعة ، ١١٩٩ هـ / ١٧٨٤م.

١٩ - **تاريخ عزي (حوليات عثمانية من ١١٥٩ هـ / ١٧٤٣م إلى ١١٦٦هـ / ١٧٥١م)** ، القسطنطينية، دار الطباعة ١١٩٩ هـ / ١٧٨٤ م .

٢٠ - ابن الحاجب ، **إعراب الكافية** / ترجمة زاني زاده ، القسطنطينية ، دار الطباعة ، ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م .

ثانياً - الكتب المطبوعة بحلب : (١١١٨هـ/ ١٧٠٦م -١١٢٣هـ /١٧١١م) :

١ - **كتاب الزبور الشريف** ، حلب ، ١١١٨ هـ / ١٧٠٦م - VIII، ٢٧٦ص . أعيد طبع الكتاب في ١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م .

٢ - **كتاب الإنجيل الشريف الطاهر والمصباح المنير الزاهر** ، تقديم أثناسيوس البطريرك الأنطاكي، - حلب : **أثناسيوس البطريرك الأنطاكي** ، ١١١٨هـ / ١٧٠٦م ، ٥٩٠ ص ، ٣٠ سم ، رسوم . أعيد طبع الكتاب بحلب في ١١٢٠ / ١٧٠٨ على نفقة يواني مازابه.

٣ - القديس يوحنا فم الذهب ، **كتاب الدر المنتخب من مقالات القديس يوحنا فم الذهب** ، تقديم أثناسيوس البطريرك الأنطاكي ، حلب ، ١١١٩ هـ/ ١٧٠٧ م، ٥١١ ص .

٤ - كتاب النبوءات الشريف ، حلب: طبع باهتمام الأب كيريو كير كيرالوس البطريرك الأنطاكي، ١١٢٠ هـ/ ١٧٠٨ م، ٢٧٦ ص .

٥ - **كتاب الرسائل** ، حلب ، (١١٢٠ / ١٧٠٨) .

٦ - **كتاب الباركليتكي أي المعزي** ، حلب : طبع بسعي الأب كير أثناسيوس البطريرك الأنطاكي ، ١١٢٣ هـ / ١٧١١ ، جزآن، جزء ١ ، ٣١٤ ص ، جزء ٢ ، ٣١٥ ص .

٧ - **رسالة وجيزة توضح كيفية التوبة والاعتراف وفيما يلزم المعترف والمعرف** (أو) سلك الدر النظيم في سر التوبة والاعتراف القويم ، حلب ، ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م، ١٧٠ ص .

٨ - أثناسيوس ، بطريرك أورشليم ، **كتاب المواعظ الشريف** ، حلب ، ١١٢٣ / ١٧١١، ١٨ ص - ٣٢١ ص ، ٣٠ سم .

نص عربي ، يوناني (اليونانية في المقدمة فقط) ، طبع الكتاب على نفقة الأب كير خريستطوس البطريرك الأورشليمي .

ثالثاً - الكتب المطبوعة بالشوير (١١٤٧هـ/١٧٣٤ م -١٢٠٢هـ/ ١٧٨٧م) :

١ - نير امبرك (يوحنا اوسابيوس) ، **ميزان الزمان وقسطاس أبدية الإنسان** ، ترجمة من الإيطالية إلى العربية بطرس فرماج ، دير القديس يوحنا الصابغ الملقب بدير الشوير في جبل الدروز من معاملة صيدا ، ١١٤٧ هـ/ ١٧٣٤ م، ٣٦٢ ص ، ٢٣ سم .

٢ - **كتاب الزبور الإلهي لداود النبي** ، **دير القديس** ماري يوحنا الصابغ الملقب بالشوير الكاين في جبل كسروان ، ١١٤٨ / ١٧٣٥ ، ٣٢٧ ص ، ١٧ سم .

- أعيد طبع كتاب الزبور بمطبعة الشوير خمس مرات ، ١٧٣٩ - ١٧٥٣ ، ١٧٦٤ ، ١٧٧٠ ، ١٧٨٠ .

٣ - **كتاب وجيز يشتمل على تأملات روحية لأيام الأسبوع** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ ، ١٥٩ ص .

٤ - **أوترمان** ، **كتاب مرشد المسيحي** ، ترجمة بطرس فروماج وعبد الله الزاخر ،

الشوير : دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٥١ هـ / ١٧٣٨ ، ٣٥٧ص .

٥ - كمبيس (توماس) ، **الاقتداء بالمسيح** ، ترجمة سلستين سانت ليدوين ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٥٢ هـ / ١٧٣٩ م .

٦ - ديدكس (ستالة) ، **كتاب احتقار أباطيل العالم** ، ترجمة رفائيل فنتيول وألونصو ميشال كورجاد ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٥٢ هـ/ ١٧٣٩م ، جزآن ، جزء ١ ، ٥٧٩ ص، جزء ٢ ، ٥٨٢ ص .

٧ - سينيري (الأنبابولس اليسوعي) ، **كتاب مرشد الخاطي في سر التوبة والاعتراف** ، ترجمة من الإيطالية إلى العربية ، بطرس فرماج ، الشوير دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٥٩هـ / ١٧٤٧م، ١٠ص - ٢٨٥ ص ، ١٧ سم .

٨ - أرنودي (بطرس) ، **كتاب تفسير سبعة مزمورات التوبة** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م ، ٣١١ ص .

٩ - **مختصر التعليم المسيحي** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٦٩هـ / ١٧٥٦م، ٤٢ ص .

١٠ - **كتاب الرسائل المشتمل على أعمال الرسل القديسين** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية ، ١١٧١ هـ / ١٧٥٨م ، ٨ ص ، ٤٠٤ ص، ٢٤ سم .

١١ - سينيري (بولس) ، **كتاب مرشد الكاهن** ، ترجمة بطرس فرماج ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٧٣ / ١٧٦٠ ، ٣٠٤ ص .

١٢ - **كتاب الأورولوجيون أي السواعي** ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٧٧هـ/ ١٧٦٣ م - ١٢ ص ، ٧٥٣ ص ، ١٧ سم .

١٣ - الزاخر (عبد الله) ، **كتاب البرهان الصريح في حقيقة سري دين المسيح** ، الشوير ، دير يوحنا الصابغ ، ١١٧٨ هـ/ ١٧٦٤ م ، ١٢٩ ص، ١٨ سم .

١٤ - **كتاب الاكطويخوس** ، الشوير ، دير يوحنا الصابغ ، ١١٨٠ هـ/ ١٧٦٧ م ، ٤٧٨ص .

١٥ - **كتاب إيضاح التعليم المسيحي** ، ترجمة بطرس فروماج ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٨١ هـ / ١٧٦٨ م ، ٢٩٩ ص .

١٦ - **كتاب تأملات جهنم المريعة وحماقة الخطاة الفظيعة** ، ترجمة يوسف بن جرجيس الحلبي ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٨٢ هـ / ١٧٦٩ م ، ١٦٣ ص .

١٧ - رينالدي (ف) ، **كتاب قوت النفس المشتمل على تأملات شهرية** ، ترجمه من الإيطالية ميخائيل مزراق ، الشوير ، دير القديس يوحنا الصابغ ، ١١٨٦ / ١٧٧٢ ، ٣٤٥ ص .

١٨ - **كتاب النبوات الكنائسي** ، الشوير : دير القديس ماري يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية ، ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م ، ٢٢٦ ص ، ٣١ سم .

١٩ - **كتاب الانجيل الشريف** ، الشوير من جبل كسروان ، دير مار يوحنا الصابغ بعمل الرهبان القانونيين الباسيليين من طائفة الروم الملكية ، ١١٨٩ هـ / ١٧٧٦ م، ٣١٥ ص ، رسوم ، ٣٢ سم .

رابعًا - الكتب المطبوعة ببيروت (١١٦٤هـ/١٧٥١م - ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م) :

١ - **كتاب الزبور الشريف** ، بيروت ، دير القديس جيورجوس ، ١١٦٤ هـ/ ١٧٥١ - XXX- ٣٦٧ ص .

- أعيد طبع كتاب الزبور في ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م .

٢ - **كتاب الأورولوجيون** ، بيروت : دير القديس جيورجوس ، ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م .

* * *

قائمة ببليوغرافية موضوعية

رتبت المصادر والمراجع والدراسات موضوعيًا أي وفق المحاور الرئيسة لهذا البحث .

١ - توجيهات ببليوغرافية :

١.١- ببليوغرافيات وفهارس :

- عبد الهادي (محمد فتحي) ، **الدليل الببليوغرافي للإنتاج الفكري العربي في مجال المعلومات (١٩٧٦ - ١٩٨٠)** ، تونس : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة التوثيق والمعلومات ، ١٩٨٣ ، ٢٣١ص .

- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، **الدليل الببليوغرافي للإنتاج الفكري في مجال المعلومات** ، تونس، المنظمة ، ١٩٨٧ .

* * *

٢.١ - معاجم وموسوعات وتراجم :

- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله المعروف بكاتب شلبي)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ، إستانبول : وكالة معارف ، ١٩٤١ - ١٩٤٣ ، جزآن.

- مشروع معجم الطباعة ، **اللسان العربي** (مكتب تنسيق التعريب بالرباط) ، مجلد ١٧ ، جزء ٣، ١٩٧٩ ، ص ١٥٥ - ١٨٨ .

* * *

٢ . المصادر :

١.٢ - الأرشيف :

* * *

٢.٢ - مصادر منشورة :

إلى جانب الكتب المطبوعة في حلب وإستانبول والشوير في القرن ١٢ هـ / ١٨م (انظر القائمة البيليوغرافية في الملحق) والتي تمثل مصدرًا أساسيًا في هذا البحث اطلعنا على المصادر الآتية:

١.٢.٢ - نصوص ووثائق : 2.2.1-Textes et documents

- " ترجمة حياة الفيلسوف الشماس عبد الله الزاخر " كتبها أحد تلاميذه، **المسرة**، ١٩٤٨، ص ٣٨٦ - ٣٩٦ .

- توتل (فرديناند) ، **وثائق تاريخية عن حلب : أخبار الموارنة وما إليهم من سنة ١٦٠٦ إلى ١٦٤٧** ، بيروت ، ١٩٥٨ ، جزآن.

* * *

٢. ٢. ٢ - كتب الرحالة الأوربيين.

* * *

٣ - كتب ومقالات: 3 - Monographie et articles :

١.٣ - الدراسات والمطابع العربية بأوربا في العصر الحديث :

- أبو صوان (كميل نجيب) . - " بيت الكلمة " ، في : **الكتاب ولبنان** ، باريس : اليونسكو، ١٩٨٢، ص ١١٧ - ١٢٠.

- عقيقي (نجيب) ، **المستشرقون : تاريخ الاستشراق** ، القاهرة ، ١٩٤٧ ، ٤أجزاء.

- بنتو (أولغا) ، الدراسات العربية وفن الطباعة العربية في إيطاليا. **المشرق** ، Le-vante ، ع ١-٢ ، ١٩٦٤ ، ص ٢ - ١٩ .

- سمايلوفتش (أحمد) ، **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٨٠.

- نيوفو (أنجيلا) ، **ظهور النسخة العربية للقرآن الكريم (البندقية ب و أ باغانيني بين ١٥٣٧ و١٥٣٨)** تعريب منجي الردادي ، تقديم عبد الجليل التميمي ، **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد ٥٣ - ٥٤ ، يوليو ١٩٨٩ ، ص ١٧٩ - ٢٠٤ .

* * *

٢.٣ - مشاكل الطباعة :

١.٢.٣ - التاريخ العام للمطبعة :

* * *

٢.٢.٣ - تاريخ الخط والكتاب العربي

3. 2. 2. Histoire de l'ecriture et du livre arabes

- الحلوجي (عبد الستار) ، **المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري** ، الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٧٨ .

- حمادة (ماهر) ، **المكتبات في الإسلام ، نشأتها وتطورها ومصائرها**، بيروت ، الرسالة ، ١٩٨١ .

- حمودة (محمود عباس) ، **تاريخ الكتاب الإسلامي** ، القاهرة ، مكتبة غريب ، ١٩٨٠.

- زيات (حبيب) ، الوراقة والورّاقين في الإسلام ، **المشرق** ، يوليو ١٩٤٧ .

- عفيفي (فوزي سالم) ، **نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية ودورها الثقافي والاجتماعي** ، الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ .

- القلقشندي (أبو العباس) ، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٩١٠-١٩٢٠ ، أعيد طبعه سنة ١٩٦٣ ، ١٤ مجلد وكشاف (نشر سنة ١٩٧٢).

- " المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، **اللجنة الفنية لدراسة الحروف العربية** ، القاهرة ٢٧ نوفمبر - ١٢ ديسمبر ١٩٧١ .

- الباشا (حسن) ، **التصوير الإسلامي في العصور الوسطى** ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ ، ٥١١ ص .

* * *

٣.٣ - الإطار العام : الإمبراطورية العثمانية في القرنين ١١ - ١٢هـ .

* * *

- جامعة دمشق ، **المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام** ، دمشق الجامعة ، ١٩٧٨ ، جزآن .

- فريد بك (محمد) ، **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٧٧م.

* * *

٤.٣ - المسيحيون العرب في بلاد الشام : وضعهم السياسي والديني والاجتماعي :

3.4 - Les Chrétiens arabes en Syrie

- حاج (أثناسيوس) ، **الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد** ، يونيو : مطبعة الكريم الحديثة ، ١٩٧٣ .

- حتى (فيليب)، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة كامل يازجي وجبور، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٢، جزآن .

- رعـد (م) ، **مقام الأمير فخر الدين المعني في الغرب** ، بيـروت : عين الرمانة ، ١٩٨٠ .

- دبس (يوسف) ، **تاريخ سورية** ، بيروت ، ١٨٩٠ - ١٩٠٣ ، جزآن.

- شيخو (لويس) ، " **الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية** " ، **المشرق** ، ع ١٧ ، ١٩١٤،ص ٣٢١ - ٣٣١ ، ٣٤٥-٣٥٧ ، ٧٥٤ - ٧٦٣ ، ع ١٨ . ١٩٢٠ . ص ٣٠٠ - ٣٠٩ ، ٦٧٥ - ٦٨٦ ، ٩٦٩ - ٩٧٦، ع ١٩ ، ١٩٢١ ، ص ٧٥٨ - ٧٧٠ ع ٢٠ - ١٩٢٠ . تم تجميع هذه المقالات ونشرها في كتاب يحمل العنوان نفسه بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت في ١٩٢٣ .

- ضـو (بطرس) ، **تاريخ الموارنة الديني والحضاري** ، بيـروت ، ١٩٧٠ ، ٤ أجزاء .

***

٥،٣ - الطبعات والكتب العربية المسيحية :

:3.5 - Les imprimeries et les livres arabes chrétiens:

- ادلبي (نيـوفطوس) - " البطريرك أثناسـيـوس الثـالث " ، **نشرية الكنيسة الأرثوذكسية بحلب**، ١٩٨٠ ، ص ١٠٧ - ١٣٢ .

- البستاني (فؤاد افرام) ، " **الشماس عبد الله الزاخر** " **المسرة**، ١٩٤٨، ص ٣٩٧ - ٤٠٥.

- الرجي (ميخائيل) ، " **سفر المزامير بالسريانية** " ، **المشرق** ١٩٣٤ ، ص ٣٤٥ - ٣٥٠ .

- نصر الله (الأب جوزيف) ، " **تلاميذ زاخر** " ، **المسرة** ، ١٩٤٨ ، ص٤٣٠ - ٤٣٦ .

- نصر الله (الأب جوزيف)، " عبد الله زاخر وآثاره الأدبية " ، **المسرة** ، ١٩٤٨، ص٤٠٦ - ٤٢٣ .

- نصر الله (الأب جوزيف) ، " **مطابع الملكيين** " ، **المسرة** ، ١٩٤٨ ، ص ٤٣٧ - ٤٦٢ .

- شيخو (لويس) . " **تاريخ الطباعة في المشرق** " ، **المشرق** ، عدد ٣ ، ١٩٠٠ ص٧٨ - ٨٥ ، ١٧٤ - ١٨٠ ، ٢٥١ - ٢٥٧ ، ٣٥٥ - ٣٦٢ ، عدد ٤ ، ١٩٠١ ، ص٨٦ - ٩٠ ، ٢٢٤ - ٢٢٩ ، ٣١٩ - ٣٢٥ ، ٣٦١ - ٣٨١ ، ٤٧١ - ٤٧٤ ، ٥٢٠ - ٥٢٤ ، ٨٧٢ - ٨٧٧ ، عدد ٥ ، ١٩٠٢ ص٦٩ ، ٤٢٣ .

* * *

٦.٣ - إستانبول : وضعية الآداب والعلوم والتربية والكتب :

* * *

صابات (خليل) ، **تاريخ الطباعة في الشرق العربي** ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٨ .

* * *

٧.٣ - المطبعة والصحافة العربية في القرن ١٣ هـ :

3.7 - La presse et l'imprimerie arabes au XIX siècle:

- رضوان (أبو الفتوح) ، **تاريخ مطبعة بولاق** ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩٥٣.

- زيدان (جورجي) ، **تاريخ آداب اللغة العربية** ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٤ ، ٤ أجزاء.

- شيخو (لويس) ، **الأدب العربي في القرن ١٩** ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٠٨ - ١٩١٠ ، جزآن .

- عبدو (إبراهيم) ، **تاريخ الوقائع المصرية ١٨٢٨ - ١٩٤٢** ، القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٩٤٢ .

- عبدو (إبراهيم) ، **تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية** ، القاهرة : مكتبة الأدب ، ١٩٤٩ .

- طرازي (فيليب) ، **تاريخ الصحافة العربية** ، بغداد ، المثنى ، ١٩٦٧ ، ٤ أجزاء .

- المهيدي (محمد الصالح) ، **تاريخ الطباعة والنشر بتونس** ، تونس: معهد علي باش حانبه ، ١٩٦٥.



مطابع التقنية للأوفست ـ الرياض
هاتف ٤٨١١٩٨٨ ـ فاكس ٤٨١١٧٣٢ ـ ٠١

الكتاب :

يتناول هذا الكتاب بالدرس المشاكل التي طرحت عند ظهور المطبعة العربية في المشرق وتأثير هذا الحدث على الحياة الثقافية داخل الإمبراطورية العثمانية في القرن ١٢ هـ / ١٨ م .

ففن الطباعة بالأحرف العربية لم يبرز في المشرق إلا بعد مرور قرنين ونصف على اكتشافه في أوربا .

وقد حافظ المخطوط العربي في هذه الأثناء على مكانته المتميزة لدى المتعلمين بعدّه الوعاء الرئيسي لنقل المعلومات والمعارف .

إلى أن ظهرت أول مطبعة عربية سنة ١١١٨ هـ / ١٧٠٦م بمدينة حلب عند مسيحيي الطائفة الأرثوذكسية الملكية. ثم أسست مطبعة ثانية لدى المسلمين بإسطانبول سنة ١١٤٠ هـ / ١٧٢١م ، وتبعتها بعد ذلك مرشتان للطباعة لدى المسيحيين بجبل لبنان أي بالشوير سنة ١١٤٧هـ/ ١٧٣٤ م ، وبيروت سنة ١١٦٥ هـ / ١٧٥١م .

المؤلف :

- الدكتور وحيد قدورة من مواليد ١٩٥٥م صفاقس (تونس).
- حصل على الأستاذية في التاريخ من الجامعة التونسية.
- واصل دراسته بالجامعة الفرنسية ونال درجة الدكتوراه في علم المكتبات والمعلومات.
- يعمل الآن محاضراً بالمعهد الأعلى التوثيق بتونس.
- ترأس الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات.
- كُلّف برئاسة تحرير المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات.
- نشرت له عدة مقالات علمية في مجلات تونسية وعربية.

9960-00-008 - 7
ردمك ٧ـ٨..